"منهاج النبوة"

تبيان سور القرآن

" مِنْهاج النُبّوة "

تبيان سور القرآن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿.. وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ **تِبۡيَٰنٗا** لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ النحل: ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرّ الميامين، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدّين، أما بعد:

هذا المبحث " **تبيان سوَر القرآن** ": هو دراسة تطبيقية لما تم بيانه في الجزء السابق "**تأصيل وقواعد عامة**" من أصول وضوابط، حيث نقوم بتطبيقها على سوَر القرآن الحكيم والنظر فيها **لفهم** كيف كان رسول الله ﷺ يتلقاها كمنهاج للسير، من أجل تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني.. وهذا هو **"الفهم المنهاجي"** لسور القرآن الكريم.

ففي "تبيان سوَر القرآن" البيان العَمليّ المفصّل، لكيفية تلقي رسول الله محمّد ﷺ الرسالة، وسيره بها سيراً عملياً على بصيرة - بلاغاً وبياناً ومعالجةً للواقع - حتى تحققت الغاية منها.. فالقرآن الحكيم، بآياته وسوَره، ومصطلحاته ومفاهيمه.. هو قِوام تلك الطريقة العملية للسير بالرسالة، سواء من حيث الخطاب أو من حيث الأعمال.. أي هو قِوام "منهاج النبوّة" خطاباً وأعمالاً:

﴿..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ [النحل: 89]

أي، وآتيناك القرآن مفرقاً على مكث (نزّلنا)، من أجل **البيان الواضح** الذي لا لبس فيه (**تبياناً**) لكل شيء متعلّق بتحقيق الغاية التي من أجلها نزّلناه؛ وهي إكمال العبودية (الدين) لله تبارك وتعالى..

وعند تلقي القرآن الكريم وفهمه كمنهاج للسير، عند ذلك فقط، يعود القرآن ليتبوّأ مكانته التي جعلها الله تعالى له، شرعاً وقدراً، وهي قيادة وتوجيه الجماعة المسلمة (قبل التمكين) ثم الأمّة المسلمة (بعد التمكين) في السير من أجل إكمال الدين لله؛ تطبيقاً وحملاً.. كرسالة من الله للناس كافة.. هدى ونوراً وفرقاناً.. كما كان حال الجيل الأول من هذه الأمّة مع القرآن الكريم.

هذا، ويسير البحث على النحو التالي:

تمهيد:

وفيه نُذَكّر - بشكل مُجمل - ببعض القضايا والأفكار المتعلّقة بـ **"الفهم المنهاجيّ"** لسور القرآن الكريم.. وذلك في أربعة مباحث:

الأول: ذِكر أبرز خصائص **"الفهم المنهاجيّ"** لسور القرآن الكريم، والتي يتميّز بها عن غيره من أساليب وطرق التفسير والبيان؛ مثل التفسير التحليلي أو التفسير الموضوعي أو التاريخي..
ثم تَذكير بأهم **القواعد العامة** التي لا بد من اعتبارها عند النظر في سوَر القرآن الكريم لفهمها **فهماً منهاجيّاً**.

الثاني: في هذا "التبيان" سنتناول سوَر القرآن حسب "ترتيب النزول" الوارد للسوَر، وليس حسب "ترتيب المصحف"، وذلك لاعتبارات فنيّة إجرائية (أسلوب) سنذكرها.

الثالث: إن "الفهم المنهاجي" لسور القرآن الكريم يتطلّب معرفة دور كل سورة وموقعها في السير من أجل تحقيق الغاية من الرسالة.. الأمر الذي يقتضي - بداية - فهم **"الطبيعة السُننيّة"** لسير رسول الله محمّد ﷺ ، بالرسالة الخاتمة من أجل تحقيق الغاية منها، من خلال بيان "الترتيب السُننيّ العام" لأحداثه ومواقفه.. وسنذكّر بمراحل السير بالرسالة وأطواره.

الرابع: التذكير بالخطوات العملية التي يقتضيها "الفهم المنهاجيّ" للسورة.

" تبيان سوَر القرآن ".

وبعد التمهيد السابق، سنشرع في تناول سوَر القرآن الكريم، سورة سورة، لفهمها فهماً **منهاجياً**.. وذلك من خلال تطبيق ما بيّناه؛ من القواعد والضوابط العامة.. والخطوات العملية الثلاث.. تطبيقه على كل سورة نتناولها.

والحمد لله رب العالمين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت السميع العليم..
اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا، وزدنا علماً..
اللهم نسألك الهدى والسداد والرشاد..

تمهيد

المبحث الأول : خصائص "الفهم المنهاجيّ" لسوَر القرآن الكريم

أولاً: نظرة عامة للفهم المنهاجيّ

هذا **"التبيان لسوَر القرآن"** إنما هو **محاولة** لإيضاح وبيان حقيقة "**الفهم المنهاجيّ**" لسوَر القرآن الكريم، الذي بدوره يُجلّي لنا "منهاج النبوّة"؛ أي "الطريقة الشرعية" التي اتّبعها رسول الله في سيره بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني.. والتي على أساسها يكون بيان "الطريقة الشرعية" الواجب اتباعها على كل مَنْ رام تَجَشّم حَمْل أعباء الرسالة، اتّباعاً لرسولنا الكريم.. وأراد أن يكون من ورثته ﷺ :

﴿..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ [النحل: 89] [1]

{تِبْيَانًا} مفعول لأجله، وبشكل صيغة مبالغة من البيان.. أي وآتيناك القرآن مرتلاً {وَنَزَّلْنَا}، من أجل البيان الواضح الذي لا لبس فيه لكل شيء؛ أي لكل شيء متعلّق بتحقيق الغاية من إنزاله - إكمال العبودية لله تبارك وتعالى - فما أنزل الله القرآن إلا لتذكير الناس بحقيقة أنه وحده الإله الحق، ولبيان كيف يُعبَد الله وحده.. وما أرسل الله الرسول إلا لتحقيق ذلك في الواقع:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ.. (٢٥) ﴾ [الحديد]

فالمقصود بـ "تبيان" السوَرة من القرآن، هو دراسة السّورة والنظر إليها من زاوية "منهاجية" لاستكشاف واستخراج دلالتها بوصفها سورة، على "منهاج النبوة" للسير بالرسالة بمراحله وأطواره، من البداية حتى تحقيق الغاية.. وذلك من خلال بيان السورة **للمعالجات** الشرعية والسننية - خطاباً وأعمالاً - لأحداث ومواقف واجهها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه.. أثناء **السير** بالرسالة **بقصد** تحقيق الغاية منها.. وهذا هو "الفهم المنهاجيّ" لسوَر القرآن الكريم..

فهو رؤية السّورة كـ "وحدة منهاجية" واحدة، مترابطة متماسكة، وتشكّل جزءاً من "منهاج النبوة" الكامل، وخطوة من سير رسول الله بالرسالة لتحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني، وفي مجموع السّوَر ثَمّ "المنهاج" كاملاً.

1- أي: (بياناً لكل شيء يُحتاج إليه في أمر الدين). أنظر زاد المسير لابن الجوزي و تفسير ابن عاشور. ((فالعموم المستفاد من الآية عموم نسبي متعلق بالسياق الذي ورد فيه، فالقرآن الكريم فيه تبيان لكل شيء يحتاج إلى تبيان لما فيه من المصلحة الدينية والدنيوية للعباد. وهذا مثل العموم في قوله تعالى: {وأوتيت من كل شيء} عن ملكة سبأ، أي من كل شيء يؤتاه الملوك. وكذلك العموم في قوله تعالى: {تُدمّر كلّ شيء بأمر ربها} أي كل شيء يستحق التدمير، وهكذا.. فعموم الآية من العموم المراد به الخصوص)). (ملتقى أهل التفسير)، بتصرف.

ومعلوم أن النظر في السّورة من القرآن كوحدة واحدة.. إنما هو بحث في واقع الدليل الشرعيّ وسياقه وطبيعته التي جعله الله تعالى عليها لبيان مراده.. فهو بحث شرعيّ، ويتحقق بالتفكّر العميق في السّورة وآياتها وألفاظها بحسب القواعد والأصول اللغوية والشرعية المعتبرة..

فعند النظر في أي سورة من القرآن الكريم، ينبغي أن يكون "المقصد الأصل" الذي نبحث عنه دائماً هو الآتي:

ما هو دور هذه السّورة في تحقيق الغاية من القرآن الكريم في الواقع الإنساني الآن؟..

أين موقعها في "المنهاج" الذي يجب أن نلتزمه نحن المسلمون - اتباعاً لرسول الله - للسير بالقرآن كرسالة خاتمة من الله تعالى، من أجل تحقيق العبودية الكاملة الشاملة لله تعالى - بوصفنا أمة مسلمة لله - تطبيقاً على أنفسنا، وحملاً للناس هدى ورحمة؟.. حتى نعود - كما كنّا - خير أمة أخرجت للناس.. أمّة تخْلُف رسول الله ﷺ في تحمُّل أعباء رسالة الله الخاتمة تطبيقاً وحملاً للناس كافة..

ومن هنا، فإن "الفهم المنهاجيّ" لسوَر القرآن الكريم له منهج في النظر، **يتميّز** عن المناهج والأساليب الأخرى من البيان والتفسير.. وفي نفس الوقت، هو ليس بديلاً عنها ولا يتعارض معها.. بل هو - في طبيعته - يتكامل معها ويكمّلها، لأن الهدف منه هو الفهم الشموليّ للرسالة، والنظر إليها ككل متكامل بقصد تحقيق الغاية منها، فهو - في الحقيقة ومن هذه الزاوية - يصلح لأن يكون أصلاً عاماً جامعاً لتلك الأنواع.. ويوظّفها توظيفاً أكثر فاعلية.. لأنه ينظر إلى "محتوى السورة"؛ أي الأفكار والمعاني المتَضَمَّنة في آياتها، من خلال "مقصد السورة" (سياق السورة) كـ "وحدة منهاجيّة" واحدة.. فهو فهمٌ لِمَا ورد في السّورة - موضوعاً وأسلوباً - في إطار "المقصد الأصل" الذي من أجله جاء ليشكّل سورة معينة [1].

---

1 - إن من سنن الله تعالى الظاهرة في الموجودات كلها، ومن تقديره تعالى للأمور: أن الأصل في وجود الشيء هو لتحقيق غاية أو لمُهمّة سيؤديها، وأن تلك الغاية المرادة هي التي تحكم تصميمه وتركيبه من حيث شكله ومضمونه أو مكوناته، حتى يُمكن لذلك الشيء أن يؤدي تلك المَهمّة وتتحقق الغاية من وجوده، وإلا أصبح وجوده عَبَثاً. ويدل على ذلك قوله تعالى: (قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50}) طه. (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1}الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2}وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}) الأعلى. (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ **نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ** سَمِيعاً بَصِيراً {2}) الإنسان. ومن هنا، فإذا أردنا فَهم محتوى (مكوّنات) شيء ما، يعني لماذا هذه المكونات دون غيرها ؟ فلا بد أن يكون ذلك الفهم في إطار **الغاية** أو **الوظيفة** التي جُعِل (وُجد) ذلك الشيء من أجل تحقيقها، **فهي** الأمر **الجامع** لكل تلك المكونات المختلفة معاً. فأن الأصل في وجود الشيء لحكمة وليُؤدي وظيفة، وأنه لا بد أن يكون تركيبه وتصميه مناسباً لأداء تلك الوظيفة ؛ هذه حقيقة، وهي من مقتضيات وجود العلم والحكمة ومن مقتضيات كمالهما. وهذا واضح وبديهيّ وعام في كل الموجودات في الكون والحياة، والأمور والأشياء والأدوات والوسائل والأساليب، المادية منها والفكرية.. بلا استثناء. (مثل أن تُصنع المركبات بأشكال وأحجام وتصاميم متنوعة ومن مواد مختلفة.. وما ذاك إلا لتنوّع المهام والغايات.. لتغطي احتياجات الإنسان المتنوعة والمتعددة، سواء ما كان منها في البَر أم البحر أم الجو.. فالحاجة أُم الاختراع). والحقيقة السننيّة السابقة - بكونها من مقتضيات وجود العلم والحكمة ومن مقتضيات كمالهما - تنطبق أيضاً على القرآن الكريم، آياته وسوره، وهو مما يشمله وصف القرآن بأنه "حكيم" (يس{1} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{2}).. فما أنزل =>

ومن هنا، فإن "الفهم المنهاجيّ" للسورة سيكون خير عون لنا على أن نَفْهم السورة من القرآن فَهْماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه، إنْ جعلناه هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة، وفهم آياتها [1].

ثانياً: مقارنة "الفهم المنهاجي" مع طُرُق التفسير الأخرى

من خلال المقارنة المباشرة لـ "الفهم المنهاجيّ" لسوَر القرآن الكريم، مع الطرق والأساليب الأخرى في البيان والتفسير، مثل: التفسير التجزيئي أو التفسير الموضوعي أو البحث في "علم المناسبة" والترابط بين الآيات والسوَر.. أو التفسير حسب ترتيب النزول التاريخيّ.. تتضح خصائص أخرى تتميز بها طريقة "الفهم المنهاجيّ" للسورة.. ونُجملها في ما يلي:

1- التفسير التجزيئي (التحليلي) للسورة:

حيث يَعمد المفسّر في هذا الأسلوب إلى التجزيء والتحليل في التعامل مع السورة، فيتناولها آية آية أو عدة آيات.. فيذكر سبب نزولها، ويبيّن غريبها، ويُعرب مُشكَلها.. إلخ.. وهذا الأسلوب هو الغالب على التفاسير..

وأما "الفهم المنهاجيّ" للسورة من القرآن الكريم، فهو ليس تفسيراً لها بالأسلوب التجزيئي.. بل يمكن اعتباره خطوة تالية لذلك التفسير، مبنيّة عليه.. ذلك أن المقصود من "الفهم المنهاجيّ" للسورة، هو فهم "محتوى السورة" - من حيث الموضوع والأسلوب - فهماً مترابطاً شاملاً، في إطار "مقصد السورة". ذلك أن **الهُدى** الذي هو في رسالة الله، كما هو متحقق في الآية الواحدة، هو كذلك متحقق في مجموع آيات السورة بوصفها كُلاً، أي تُشكّل سورة واحدة. فالسورة ككل فيها دلالة على مراد الله، كما هي الآية الواحدة منها، وكما هي الكلمة الواحدة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.. (٩)﴾ [الإسراء: 9]

فالهداية متحققة في القرآن **كلّه**، الآيات والسوَر، فالقرآن هو آيات مرتلة (منسقة) في سوَر؛ كل مجموعة آيات معينة، تشكّل سورة واحدة. والسورة يُنظر إليها كـ "وحدة منهاجيّة" واحدة تشكّل جزءاً من "المنهاج"، لها دورها في "المنهاج" الكامل.. هذا هو "الفهم المنهاجيّ" للسورة.. ومن هنا، فالتفسير التحليلي أو التجزيئي للسورة يُعتبر من متتطلّباته كخطوة أوليّة.

الله عزّ وجلّ هذا القرآن الحكيم المجيد الكريم.. إلا لتحقيق الغاية منه، وما جعله الله بكل ما فيه من خصائص؛ سواء من حيث المحتوى أو من حيث الأسلوب؛ يعني سواء من حيث الأفكار والأحكام والحقائق الشرعيّة والسننيّة.. أو من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير.. فكلّ ذلك، إنما كان لتحقيق الغاية من القرآن: أن يتمثّل في أمّـة مسلمة تَحْمله للناس كافة.

1 - لذلك نأمل مِن كل مَن يطّلع على هذه الدراسة أنْ لا يبخل بالتوجيه أو التسديد أو البيان.. حتى يكتمل هذا العمل ويستوي على سوقه ويؤتي ثماره الطيبة - بإذن الله.

2- التفسير الموضوعي للسورة

حيث يُنظر إلى السورة على أنها وحدة واحدة، من زاوية أن موضوعاتها وأفكارها ترجع إلى موضوع واحد أو فكرة رئيسة أو فكرة محورية واحدة، وأن السورة متميّزة بأسلوب أدائها لموضوعها وطريقة عرضها له [1]..

نقول: إنه من الواضح أن سوَر القرآن الكريم **تختلف** في ما بينها في **درجة التركيز** على أيٍ من مواضيع **العبادة** (الإيمان، والعمل الصالح، والدعوة)، وفي **التنويع** في ذكرها ووسائل عرضها.. وفي **بيان** المصير (البشارة والنذارة)، وبشكل متنوّع عجيب فريد.. وقد يظهر في بعض السوَر أنها ذات موضوع واحد - مثل بعض قصار السوَر التي تـتناول اليوم الآخر - لكن، أن يكون للسورة "وحدة موضوعية"، ليس هو المقصود - أصالة - من "التسوير"، أي من جعل آيات محددة في سورة معينة.. بل لا يصلح أن يكون هو "**مقصد** السورة" أو "**سياق** السورة"، وذلك:

- ✓ لأن "وحدة الموضوع" بحث في "**محتوى** السورة" من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب، وهو أمر آخر يختلف عن "**مقصد** السورة"، أي **الغرض** الذي من أجله جاء هذا **الموضوع** المعيّن معروضاً بهذا **الشكل** المعيّن في هذه السورة. فلا بد - عند تدبّر السورة - من التمييز بين "**محتوى** السورة" من حيث الموضوع ووسائل العرض وأساليب الأداء.. وبين المقصد الذي جُعِل من أجله هذا المحتوى (**مقصد** السورة).
- ✓ ولأن قضايا الدّين؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً وبيان المصير، لم تُعرض في سوَر القرآن الكريم **مبوبةً** حسب **الموضوع** مثل أسلوب البشر في التأليف والتنسيق، ككتب الفقه أو العقائد مثلاً.. وهذا ظاهر في جميع السوَر.. لذلك، نجد أن ما يَرِد في السورة المعينة من الموضوع المعين، لا يشكّل إلا **بعضاً** من كلٍ موزّع على سوَر أخرى، فما جاء فيها ليس **كل** ما هو متعلق بذلك الموضوع، لا من حيث **المحتوى** ولا من حيث **الشكل**، أي أسلوب العرض والمعالجة، "حتى إنك إذا أردت أن **تُلمّ بموضوع** واحد لا بد لك من تتبعه في طول القرآن وعرضه" [2]..

ومن هنا، أن يكون للسورة **"وحدة موضوعية"**.. ليس هو العامل المؤثّر في **تنويع** المواضيع والمعالجات أو أسلوب عرضها بيـن سوَر القرآن الكريم. بمعنى، أن الأساس في أن يأتي في السورة من القرآن هذا **الجزء** المعيّن من هذا **الموضوع** المعيّن، وأن يتم تناوله من هذه **الزاوية**.. بينما في سورة أخرى يأتي نفس الموضوع العام - يوم القيامة مثلاً - لكن بصورة مختلفة من حيث تفاصيله وأجزائه، ومن حيث الشكل وزاوية التناول.. نقول: الأساس في ذلك كله والغرض منه أصالة، ليس أن تكون السورة ذات "وحدة موضوعية".. إنما هو اختيار ما

---

1 - أنظر (منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) - د زياد خليل الدغامين. و(منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية) - د سامر عبدالرحمن رشواني. و(نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) - محمد الغزالي.

2 - (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) لـ محمد الغزالي.

يلزم - من حيث الموضوع وأسلوب البيان والأداء - **لمعالجة** حالة أو موقف (مناط السورة) مما واجهه حَمَلة الرسالة أثناء سيرهم في واقعهم ومجتمعهم لتحقيق الغاية منها.. وهذا هو "**مقصد** السورة" ألا وهو معالجة "مناطها"، وهو الذي ينبغي أن يكون الأساس في النظر، والإطار الجامع لفهم كل ما جاء في "**محتوى** السورة" من مواضيع وأفكار وأساليب عرض وبيان. مما يجعل لكل سورة "طابعها الخاص" بها في ما تتناوله من مواضيع العبادة (الدين) وبيان المصير. فالأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة، هي كونها وحدة منهاجية واحدة، تشكّل جزءً من "المنهاج" لتحقيق الغاية من الرسالة؛ إكمال الدّين لله.. وفي مجموع السوَر ثَمّ "المنهاج" كاملاً.

وعلى هذا، لا يَرِد في "**محتوى** السورة"، لا موضوعاً ولا أسلوباً، إلا ما يلزم لمعالجة "**مناط** السورة" أي ما يحقق مقصدها.. وبهذا ومن خلاله، تكون السورة متميزة عن غيرها من السوَر، وبالأسلوب القرآني الفريد. وبه أيضاً تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة، وبدون تكلّف.

فالفهم لما ورد في "**محتوى** السورة" من **مواضيع الدين** المتنوعة.. ومن كيفية عرضها بالأسلوب القرآني الفريد - ومنه "الوحدة موضوعية" إذا وُجدت في السورة -.. فالفهم لها يكون على أساس أنها **معالجات** لما ورد ذكره فيها مما حدث مع المؤمنين حَمَلة الرسالة، من مواقف وأحوال (مناط السورة) أثناء حركتهم وسيرهم - أفراداً وجماعة وأمّة - لإكمال الدين لله جلّ وعلا.

فتكون السورة "**وحدة منهاجيّة**" واحدة، تشكّل **جزءاً** من منهاج تلقي القرآن والسير به لتحقيق الغاية منه، وبمجموع السوَر يكتمل "المنهاج".. وهذا هو "**الفهم المنهاجيّ**" لسوَر القرآن الكريم.

✓ إن إكمال الدين لله عزّ وجلّ هو ما أُنْـزل القرآن (الدّين) لأجله، وهو ما جُعل "المنهاج" طريقاً للوصول إليه. وكان "التسوير" من الأدلة على ذلك "المنهاج" وبيانه وبيان معالجاته. وبحسب "المنهاج" كان سير رسول الله ﷺ **بتلقي القرآن مرتلاً** على مكث، **للعلم والعمل** به، حتى أصبح **حقيقة** في واقع الناس **والحاكم** على شؤون حياتهم..

فلم يُنـزّل الله عزّ وجلّ القرآن (الدّين) ويبعث به الرسول، على صورة مواضيع لإعطاء المعلومات عن القضايا المختلفة للمعرفة والثقافة العامة، أو للاستمتاع بجمال الأسلوب وموسيقاه، والانبهار بعذوبة طريقة العرض وقوتها.. فهذه الأمور وما شاكلها ليست أهدافاً أو غايات للبحث والفهم - ولا يصح جعلها هدفاً أو غاية - إنما هي وسائل وأدوات لتحقيق الغاية من إنزال القرآن؛ أي ما نُـزّل القرآن من أجله.. وما نزّله الله جلّ وعلا، إلا **ليكون هو وحده** - عزّ وجلّ - المعبود المُطاع أمره في واقع الناس وفي جميع مجالات حياتهم، وحتى قيام الساعة.. أي، أنه لا إله إلا الله.. ولا يتحقق ذلك عملياً في الواقع إلا بإيجاد **أمة** تكون كلمة الله هي العليا فيها، ودينه هو الظاهر:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ **لِيُظْهِرَهُ** عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة: 33]

فآيات الرسالة جاءت **مرتلة** (منسقة ومنظمة) في سوَر، **وكل** سورة **تعرض** ما جاء فيها من **"مواضيع الدّين"**، في الإيمان والعمل الصالح والدعوة وبيان المصير، **عرضاً خاصاً مؤثراً**، بالأسلوب القرآني الفريد - وقد تكون الوحدة الموضوعية جزءاً منه - **كمعالجات للواقع الإنساني** (المناط)، **هدماً** لكيان الباطل **وبناءً** لكيان الحق.. في أطوار ومراحل.. كـ "منهاج" للسير من أجل تحقيق "الغاية من الرسالة"؛ إكمال الدّين لله.

فما يُنَـزّل من القرآن يجب أن يُطبّـق مباشرة على **الواقع الإنساني** لمعالجته وتغييره، فكراً وسلوكاً، فرداً وأمة ومجتمعاً.. ليصير كما أمر الله تعالى ورضيه أن يكون.. فالله تبارك وتعالى هو وحده **الإله الحق** الذي له الخلق والأمر؛ **فأمره الشرعيّ** لا بد من أن يَنْـفُـذ في الواقع كما هو نافـذ **أمره القدريّ**.. وهذا هو معنى لا إله إلا الله.

وفي الجملة، فإن الدّين لم يُعرض في القرآن الكريم **مبوّباً** حسب **الموضوع،** أي لم يُبحث بحثاً **موضوعيّاً** بشكل أكاديميّ أو نظريّ كأسلوب البشر في التأليف والتنسيق (مثل كتب الفقه وكتب العقائد) لا في السورة الواحدة ولا في القرآن كله، بل جاءت آياته **مُرتّلة** (منسقة ومنظمة) حسب "التسوير"، فجاءت أفكار **ومواضيع** العبادة موزّعة على السوَر.. وتناولت كل سورة - وبالأسلوب القرآني الفريد - ما جاء فيها من مواضيع العبادة (الدّين).. <u>وكان ذلك **باختلافٍ** بين السوَر في **التركيز** على أيٍ من تلك المواضيع أو بعضٍ منها، وفي **التنويع** في ذكرها وفي وسائل عرضها.. بقصد **تحقيق "**مقصد السورة" ألا وهو **معالجة** حالة أو موقف</u> (مناط) معين مما حصل فعلاً وواجهه حَمَلة الرسالة أثناء **السير** قُدماً **لتحقيق الغاية** من الرسالة.. الأمر الذي يجعل لكل سورة ذلك <u>الطابع الخاص بها</u>، في ما تتناوله من مواضيع العبادة أو الدّين، ويجعل منها كذلك، وحدة واحدة تشكّل جزءً من "المنهاج". وفي مجموع السوَر ثم المنهاج كاملاً.. وهذا هو "الفهم المنهاجيّ" للسورة.

وعليه، فالأصل في النظر إلى السورة من القرآن هو اعتبارها "وحدة منهاجيّة"، وليس أنها ذات "وحدة موضوعية"، وإن ظهر أن <u>**محتوى** بعض السوَر</u> - موضوعاً وأسلوباً - <u>يشكّل وحدة موضوعية</u>.. فذلك إنما كان من أجل تحقيق **"مقصد** السورة" الأصل، ألا وهو بيان المعالجات للحالة أو الموقف - الوارد في السورة - مما حصل مع حَمَلة الرسالة أثناء السير بالرسالة (مناط السورة). فتكون "الوحدة الموضوعية" حينئذ، ليست هي **"مقصد** السورة"، أي ليس هي المقصودة من جعل هذه الآيات المعينة في سورة معينة، إنما هي من وسائل وأدوات معالجة "مناط السورة".. أي وسيلة لتحقيق **"مقصد** السورة" الأصل.. والذي - في النهاية - يؤدي إلى تحقيق مقصد الرسالة نفسها: أمّة تعبد الله عبودية كاملة شاملة؛ أي: إكمال الدين لله.

3- "علم المناسبة" أو مناسبات الآيات والسوَر

قد تُشاهَد في بعض سوَر القرآن الكريم "الوحدة الموضوعية"، بمستوى أو بآخر.. إلا أنه في كثير من السوَر - وخاصة الطوال منها - هناك تنوّع ظاهر في المواضيع وأساليب الأداء والبيان.. فيصعب القول عندها، بوحدة الموضوع.. بدون تكلّف.. وهذا أمر واضح في كثير من السور.

وسابقاً قال بعض العلماء بـ "المناسبة" بين آيات السورة الواحدة، ذلك أن المعنى أو الموضوع ليس هو الرابطة أو العلاقة (المُناسَبة) الوحيدة أو الرئيسة بين آيات السورة الواحدة، بل هنالك "النَّظم" أو "السياق" أو "النسق" الذي يجعل من السورة وحدة واحدة لتحقيق مقصدها أو غرضها، مهما تعددت قضاياها ومواضيعها.. وهذا الجانب له تعلّق وثيق بعلم البلاغة أو البيان.. أي بطرق وأساليب أداء المعاني بشكل جميل ومؤثّر في النفس [1].

نقول: وكما بيّنا في ما سبق من البحث.. وفي الجزء الأول.. إن المقصد الأصل الذي من أجله جُعِل (سِيق) "**محتوى** السورة" - موضوعاً وأسلوباً - هو معالجة "**مناط** السورة". الأمر الذي يجعل من السورة "وحدة منهاجيّة" واحدة، وتشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل لتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني. وعليه، **فالأصل** في العلاقة أو "المناسبة" بين الآيات في السورة الواحدة، هو "المناسبة المنهاجيّة". بمعنى أن الرابط الأصل، والأمر الجامع بين أفراد وعناصر "محتوى السورة" - موضوعاً وأسلوباً - هو كونها تشكّل "وحدة منهاجيّة" واحدة.. وهذه هي "المناسبة" الجامعة لـ "محتوى السورة" على صعيد واحد، وبانسجام ودون تكلّف.. إنها "المناسبة المنهاجيّة". وهذا لا يلغي المناسبة الموضوعية أو الأسلوبية بين الآيات المتجاورة في السورة، أو بين جميع آيات السورة الواحدة.. يعني "نظم السورة".. بل يتكامل معها ويكمّلها، حيث أن "الفهم المنهاجيّ" يعطيهما القصد والغاية؛ ذلك أن كل آيات السورة وما بينها من مناسبة أو ترابط في الموضوع أو الأسلوب، إنما جاء من أجل تحقيق "**مقصد** السورة" الذي هو خطوة أو جزء من تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني. وبهذا ومن خلاله تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة، وبدون تكلّف.. وبه أيضاً تكون متميزة عن غيرها من السوَر بالأسلوب القرآني الفريد.

وعليه، فالأصل في النظر إلى السورة هو اعتبارها "وحدة منهاجيّة".. وإن ظَهَر أن **محتوى** بعض السوَر كلاماً واحداً يتعلّق أوله بآخره.. وعلى نظام واحد ونسق جامع.. فذلك إنما

---

1 - وهو ما يُعرف بـ "علم المناسبة"، كما عند البقاعي، أو بـ "نظام القرآن" كما عند الفراهي، أو بـ "علم مقاصد السور".. مع اختلاف في المفهوم أو تقاطع أو تطابُق، بين هذه المصطلحات.. وقد قال بهذا علماء آخرون كأبي بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن عربي، وأبي اسحاق الشاطبي في الموافقات، حيث يقول ما حاصله: (إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلّق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجُمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وأنه لا غنى لمتفهّم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية). أنظر كتاب (النبأ العظيم) د محمد عبدالله دراز. وانظر كذلك بحث (مناسبات الآيات والسور) د أحمد حسن فرحات. وأيضاً بحث (علم مقاصد السور) و بحث (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة. وكتاب (منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية) - د سامر عبدالرحمن رشواني. وكتاب (إمعان النظر في نظام الآي والسور) د محمد عناية الله أسد سبحاني. وانظر (نسقية السورة القرآنية - دراسة في تفسير "في ظلال القرآن" لسيد قطب) د أحمد بزوي الضاوي - ملتقى أهل التفسير.. ومما ورد في هذه الدراسة قوله: (السورة القرآنية الكريمة تشكّل وحدة متكاملة، وهي ما أسميناه بـ "الوحدة النسقية"، تمييزاً لها عن "الوحدةالموضوعية" أو "الوحدة العضوية" التي لا تنطبق على القرآن الكريم، لأنها تجعله مشابهاً لكلام البشر).

كان من أجل تحقيق "**مقصد** السورة"، ألا وهو بيان المعالجات لـ "مناط السورة" لتنزيلها على الواقع أثناء السير لمعالجته بشكل **فعّال ومؤثِّر**.

لهذا، فـ "وحدة النظم" أو "الوحدة النسقية" تلك، إنما هي جزء من "**محتوى** السورة" - موضوعاً أو أسلوباً - فهي جزء من **معالجة "مناط** السورة" وأدواتها، فهي **وسيلة** لتحقيق **"مقصد** السورة" وبالأسلوب القرآني.. وينبغي أن لا يُنظر إليها إلا هكذا، أي بوصفها **وسيلة** لجعل السورة "وحدة منهاجيّة"، من أجل تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني؛ أداء العبودية الكاملة والشاملة لله تعالى: إكمال الدين لله.. والمحافظة عليه كاملاً.

ومن هنا، يمكننا القول: إن "الفهم المنهاجيّ" للسورة، كما بيّنا بعض معالمه في ما سبق من البحث.. وكما سيظهر جلياً واضحاً في هذا "التبيان"، بعون الله.. يصلح لأن يكون أصلاً، وإطاراً عاماً، وأرضية خصبة لفهم ما يُعرف بـ "علم المناسبة" و "علم مقاصد السوَر".. ويصلح لتحديد معالمه وبيان أبعاده الحقيقية [1].

هذا في ما يتعلق بـ "المناسبة" بين آيات السورة الواحدة..

أما في ما يخص "المناسبة" أو الترابط بين السوَر المتتابعة. فنقول: إن "الترتيب المنهاجيّ" للسوَر، هو الأمر الجامع والأصل العام لـ "المناسبة" أو الترابط بين السوَر؛ أي بوصفها "وحدات منهاجيّة" متتالية، القصد منها تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع.. وفي مجموعها ثم "المنهاج" كاملاً.. فـ "المناسبة المنهاجيّة" هي الأصل في معرفة وفهم "المناسبة" أو العلاقة أو الترابط بين السوَر المتتالية **منهاجياً**، أي حسب المنهاج.

وعليه، فإن "المناسبة المنهاجيّة" الناتجة عن "الترتيب المنهاجيّ" (السُننيّ) للسوَر جميعها هي الأصل في فهم ومعرفة "المناسبة"، سواء بين آيات السورة الواحدة أو بين السوَر المتتالية.

أما بالنسبة لترتيب السوَر في المصحف، فالأصل في "المناسبة" بين السوَر وتتابعها هو في إطار بيان أن القرآن الكريم من عند الله، وأنه محفوظ بحفظ الله وسيبقى محفوظاً حتى قيام الساعة.. وهذا الأمر لا يزال يحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾[النساء][2]

---

1 - ومن خلال "الفهم المنهاجيّ" أيضاً.. يمكن أن نجد حلولاً جذرية لكثير من القضايا المُشكِلة في بعض أقسام "علوم القرآن"، وتقديم أجوبة شافية على كثير من التساؤلات العالقة والمشكلة فيها.. مثل علم الناسخ والمنسوخ.. وأسباب النزول.. وترتيب النزول.

2 - هذا التدبّر يأتي في سياق بيان أن القرآن لا يمكن إلا أن يكون من عند الله.. وإلا كان فيه اختلاف وتعارض وتناقض كثير. فهو تدبّر عاقبته اثبات أن القرآن من عند الله جلّ وعلا. ومجاله واسع، من تدبّر الآية أو مجموعة الآيات، إلى تدبر السورة وترتيب آياتها (التسوير)، إلى التدبّر في ترتيب السور في المصحف.

هذا، مع التأكيد على أن "المناسبة" بين الآيات أو السوَر، سواء من حيث الموضوع، أم من حيث أسلوب العرض.. وسواء في تتابع النزول التاريخي للسوَر والآيات، أم في ترتيب المصحف.. فجميع ذلك لا يتعارض مع "المناسبة المنهاجيّة". وفي نفس الوقت، نؤكّد على أنها - أي "المناسبة المنهاجيّة" - تصلح لأن تكون أصلاً جامعاً، وإطاراً عاماً، وأرضية خصبة لفهم ما يُعرف بـ "علم المناسبة".. وتصلح لأن تكون أداة رئيسة ومهمة في بلورة "علم المناسبة" وتوضيح معالمه، وتنـقـيته مما علق به من التكلّف، أحياناً كثيرة، ومن عدم الوضوح، أحياناً أخرى، ومن عدم الشمولية.

4- تفسير القرآن حسب "الترتيب التاريخي" لنزول سوَر القرآن

حيث عَمَد بعض المفسرين - قديماً وحديثاً - إلى تفسير سور القرآن حسب الترتيب التاريخي لنزولها ، وإلى جعْله مؤثراً في تفسير السورة وتوجيه معاني آياتها. مثل (بيان المعاني) لـ الملا حويش، و (التفسير الحديث) لـ دروزة.. وغيرهم. وهو يُعتبر من التفسير التحليلي أو التجزيئي للسوَر، إلا أنه يختلف عنه في أن المفسّر عندما تناول السوَر لم يأخذها بحسب "ترتيب المصحف" بل أخَذَها بناء على "ترتيب النزول"، وليس ذلك فحسب، بل جَعَله مؤثراً في تفسير السورة وتوجيه معاني آياتها، لما لذلك من ميزات - حسب رأيهم - أهمها: (معايشة الوحي أولاً بأول، حتى يتذوق تالي القرآن منهج التربية، فينتقل إلى العمل ويستفيد من طريقة الوحي في الإصلاح. وهو ما يُشعر بلذة التدبّـر للوحي، والعيش في ظلال السيرة، مما يعني ربط المسلم بمسيرة الوحي مع مصدريه الكتاب والسنة مدة ثلاث وعشرين سنة) [1].

نقول: إن عَمَلنا هنا في هذا "التبيان" - كما هو واضح - قائم على النظر إلى سوَر القرآن الكريم بقصد بيان منهاج سير رسول الله لتحقيق "الغاية من القرآن" في الواقع الإنساني، فالنظر إلى السوَر يكون من زاوية سُننيّة منهاجيّة. فتُفهم سور القرآن على أساس سُننيّ إنسانيّ؛ فهو فَـهْم عابر للزمان والمكان والأشخاص، فهو عامّ، ويصلح للإنسان في كل زمان ومكان، ومنسجم تماماً مع كون القرآن هو الرسالة الخاتمة للناس كافة.. الأمر الذي يعني أن "الترتيب المنهاجيّ" للسوَر هو الترتيب الذي يصلح أن يكون له تأثير في النظر إلى معاني الآيات والسوَر.. ويكون ضابطاً مهماً من ضوابط الفهم وتوجيه المعاني عند فهم "المنهاج".

أما "**الترتيب** التاريخيّ" لتنزيل الآيات والسوَر فلا يجوز جَعْله مؤثراً في توجيه معانيها عند فهم "المنهاج".. وذلك لما بيّناه سابقاً - في بحث "من الاستضعاف إلى التمكين" - من أن ذلك "**الترتيب** التاريخيّ" خاص بالنزول الأول للقرآن في واقعه الإنساني بزمانه ومكانه وأشخاصه. فهو غير مُلزِم في فهم "المنهاج"، أي فهم طريقة حمل القرآن والسير به لتحقيق الغاية منه.. بدليل أن أغلبه قد فُـقِد ولم يصلنا، وأن "ترتيب نزول" جميع سوَر القرآن، الأول فالأول لم يصح فيه شيء.. فلو كان فيه دلالة على الدين والعبادة لَمَا فُقِد منه شيء.. فدين الله تعالى محفوظ لا يمكن أن يُفقَد منه شيء.

---

1 - للتفصيل أنظر بحث (تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول - منبعه وفوائده) د محمد مجلّي ربابعة. والمنشور في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية.

ومن هنا، فتفسير وبيان القرآن - الذي هو رسالة الله الخاتمة للناس في كل زمان ومكان - على أساس **التتابع التاريخيّ للنزول** لا يحقق تلك الغاية التي يرجونها، ولا يَحل الإشكال القائم أو يُقدّم جواباً شافياً له.. بل يزيد الأمر تعقيداً، لأن **تتابع** "النزول الأول" متعلّق بواقع إنساني معيّن في زمانه ومكانه وأشخاصه، فلا يصح تعميمه على كل زمان وعصر..

بل لا بد من اعتماد ترتيب يقوم على أساس سُنني إنسانيّ؛ ترتيب عامّ، يصلح للإنسان في كل زمان ومكان، ومنسجم تماماً مع كون القرآن هو الرسالة الخاتمة للناس كافة.. وهذا ما يحققه "الترتيب المنهاجيّ" في النظر إلى السوَر، لأنه قائم على "السُنن"، وعلى "الترتيب السُننيّ" لمراحل وأطوار سير رسول الله بالرسالة.. فهو عابر للزمان والمكان والأشخاص.. ويصلح للتطبيق في كل واقع إنساني في كل زمان ومكان.

فهنالك بون شاسع بين الأمرين وبين النظرتين - التاريخيّة و السُننيّة - لا بد من اعتباره ولا يمكن إغفاله [1].

وعليه، فلا يصح الاعتماد على "**الترتيب** التاريخي" للنزول وجعله أصلاً مؤثراً في الفهم عند النظر إلى السوَر، بقصد العلم **بطريقة** الوحي في الإصلاح، والتدرّج في التربية والتشريع.. إلخ.. بل لا بد من اعتماد "الترتيب المنهاجيّ" وجعله أصلاً في ذلك.

لهذا، عند النظر إلى أي سورة بقصد فهم "المنهاج"، خطاباً وأعمالاً، يلزم - بداية - التفريق بين ما هو متعلق بزمان ومكان التنزيل الأول (التاريخيّ).. وبين ما هو من الطريقة الشرعية الثابتة والمنهاج البيّن المَبني على السُنن، الذي يصلح لكل زمان ومكان (المنهاجيّ).. ولذلك لا بد من بيان وتحديد الضوابط اللازمة في ذلك..

ونذكّر هنا، بأن أهم مقاصد هذه الدراسة لـ "منهاج النبوّة" بجزئيها، هو محاولة تحرير هذه المسألة، وبيان الضوابط اللازمة للفصل بين ما هو "تاريخيّ" وبين ما هو "منهاجيّ".. أي بيان **الضوابط** التي على **أساسها** يُنظر إلى أعمال سير رسول الله ﷺ بالرسالة، لنستطيع الفصل في أقواله وأفعاله ومواقفه.. بين ما هو خاص بزمن النزول الأول بظروفه وأشخاصه.. وبين ما هو منها واجب الاتباع والملزم لنا شرعاً، أي من الطريقة الشرعية (المنهاج) الصالحة لكل زمان ومكان (العبادة).

ومن بعد ذلك، يكون العمل على وضع كل ما هو من "المنهاج" في إطار منظومة متكاملة، على أساسٍ من الفهم الكليّ والتصوّر الشموليّ [2]..

وهو الذي يصلح أن يُنزّل على أي واقع إنساني لإي زمان ومكان لمعالجته به بقصد تحقيق الغاية من الرسالة؛ أمة يتحقق فيها "إخلاص الدين لله".

5- النتيجة

1 - للتفصيل في هذه المسألة انظر (الجزء الأول) - الفصل الثالث.

2 - وهذه الطريقة الشمولية في الفهم والبحث تشبه ما اعتمده الفقهاء في ما اصطُلح عليه بـ "المسألة الشرعية"، وذلك بجمع الأدلة الشرعية المتعلقة بموضوع معين في سياق واحد وتحت باب واحد، وينظر فيها جميعا ضمن مسألة واحدة، كمسألة الصلاة أو الصيام أو الجهاد.. كما هو معروف في كتب الفقه.

هذا، **وتلخيصاً** لكل ما سبق ذكره بخصوص تمايز طريقة "الفهم المنهاجيّ" للسورة، عن الطرق والأساليب الأخرى في البيان والتفسير، وتكاملها معها.. نقول:
إن هذا البحث؛ "تبيان سوَر القرآن" إنما هو محاولة لـ "الفهم المنهاجيّ" لسوَر القرآن الكريم بقصد بيان "منهاج النبوّة" في تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني.. لذلك، فهو ليس من باب التفسير التحليلي أو التجزيئي، أو التفسير الموضوعي، أو التفسير حسب ترتيب النزول التاريخي، ولا بحثاً في "علم المناسبة" والترابط بين الآيات.. وفي الوقت نفسه، هو ليس بديلاً عنها ولا يتعارض معها.. بل هو يتكامل معها ويكمّلها، ويوظفها توظيفاً أكثر فاعلية، لأنه يحقق النظرة الشمولية للرسالة في سياق تحقيق الغاية منها.. لذلك، فهو في الحقيقة يصلح أن يكون أصلاً عاماً جامعاً لها. فإذا أردنا أن نفهم السورة من القرآن فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه، فإن "الفهم المنهاجيّ" للسورة سيكون خير عون لنا على تحقيق ذلك، إذا جعلناه هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة.. وعلى حد تعبير الإمام الشاطبي في الموافقات: (لفهم السورة على وجهها الصحيح لا بد من دراستها كلّها إجمالاً، وردّ أولها إلى آخرها وآخرها إلى أولها، فإنّها وإن اشتملت على قضايا متعددة، لكنّها نازلة لهدف واحد، وتندرج تحت مقصد واحد).. ونحن نوافقه - رحمه الله - على توصيفه هذا، إلا أننا نقول: إن المقصد الواحد الذي تندرج تحته السورة، هو أن تلك القضايا المتعددة في السورة، إنما جاءت كمعالجات لـ "**مناط** السورة".. فـ "**مقصد** السورة" هو أن يكون "**محتوى** السورة" بقضاياه المتعددة.. معالجات لمناطها، الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة، وتشكّل جزءاً من منهاج السير لتحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة.. وفي مجموع السور ثمّ المنهاج كاملاً.
بمعنى أنه عند " تدبّر " [1] أي سورة من القرآن الكريم أو النظر فيها، ينبغي أن يكون **المقصد** الأصل الذي نبحث عنه دائماً هو فهم **دَوْر** هذه السورة في تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني.. وذلك من خلال فهم الحال التي كان عليها رسول الله والمؤمنون معه حين تلقوا تلك السّورة، وفي أي طور وأية مرحلة.. وكيف كانت لهم نوراً وبصيرةً حتى تحققت الغاية من الرسالة، فأصبحوا أمّـة مسلمة أكملت دينها لله ؟.. وكيف كانت تُعالِج ما واجهوا من مكر وكيد، ومن عقبات ماديّة، وشبهات وشهوات..؟ وكيف كانت تُخفِّف من آلامهم.. وتعطيهم الأمل والثقة وتُمدّهم باليقين والصبر والثبات ؟.. فهكذا هي آيات الله:

1 - التدبّـر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكّر، إلا أن التفكر تَصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تَصرّفه بالنظر في العواقب. والتدبير: النظر في العواقب بنظر الخير. أو: إجراء الأمور على علم العواقب. أنظر التعريفات (الجرجاني)، المفردات (الراغب)، المقاييس (ابن فارس).
نقول: فالتدبّر خطوة لاحقة للتفكر والنظر والتأمّل، " فالإنسان لا يمكن أن يتدبّر ما لا يفهم معناه "، فبعد الفهم للقول يُـنظر في مقصده النهائي، في ما يهدف إليه، في عاقبته، في ما يؤول إليه.. أي في تداعياته وعواقبه، بقصد الإنتفاع:{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)} محمد، أي أقفال تمنعها من الهداية والإنتفاع. "فصحّة التدبّر مرهونة بسلامة القلب". أنظر (مفهوم التدبّـر في ضوء القرآن والسنة والآثار) - د محمّد الربيعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يونس [1]

وبالتالي، كيف نتلقّى نحن الآن آيات القرآن وسوره كمعالجات لواقعنا، ولتكون شفاء لما في صدورنا، ولتغيير ما بأنفسنا حتى نتمكّن من تغيير واقعنا ؟.. بمعنى؛ ما هو دور كل سورة من سور القرآن الكريم في تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني الآن؟ ، أين موقعها في "المنهاج" الذي يجب أن نلتزمه نحن المسلون - أسوة في رسول الله - للسير بالقرآن كرسالة خاتمة من الله تعالى من أجل تحقيق العبودية الكاملة الشاملة لله تعالى (إخلاص الدين لله)، كأمّة مسلمة لله، **تطبيقاً** على أنفسنا، **وحملاً** إلى الناس هدى ورحمة ؟.. حتى نعود لنستحق أن نوصَف بـ "خير أمّة أخرجت للناس".. أمّة تخْلُف رسول الله ﷺ ، وتستمر من بعده وتتَحمُّل أعباء رسالة الله الخاتمة.

هذا هو **"الفهم المنهاجيّ"** لسوَر القرآن الكريم.. وهذه هي ثماره اليانعة وآثاره المباركة.. وهذا ما ينبغي أن لا نهتم إلا به عند النظر في أي سورة من القرآن الكريم.. وليس البحث عن وحدة الموضوع أو نظام السّورة.. أو الاستمتاع بجمال الأسلوب.. ولا أي غرض آخر مهما كان نوعه، إلا في حالة واحدة ووحيدة.. وهي أن يتم تَناوُل ذلك "الغرض الفرعي" أو "المقصد الثانوي" من جهة كونه وسيلة تؤدّي بشكل **مباشر** إلى تحقيق "المقصد الأصل" والمقصد الأوّل للسّورة، ألا وهو تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني: أن نكون أمّة مسلمة واحدة، تعبد الله وحده، وفي جميع مجالات حياتها.. فيكون الدّين كلّه لله.. وتكون كلمة الله هي العليا، ونحافظ عليها كذلك [2].

---

1 - يقول الشيخ السعدي في تفسيره: (يقول تعالى - مُرَغِّباً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} أي: تعظكم، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المُقْتضية لعقابه، وتحذّركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها.{وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ}وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادةعن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة. وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير والرهبة من الشر، ونَمَتا على تكرّر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يُرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه. وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبيّنها أحسن بيان، مما يزيل الشّبَه القادحة في الحق ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين. وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده.{وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} فالهدى هو العلم بالحق والعمل به. والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به. فالهدى أجلّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين. وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور).

2 -{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)} **النساء**
{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)} **محمد** =>

وفي المحصلة، فإن أهم ما يُميّز **" الفهم المنهاجيّ"** لسور القرآن الكريم عن غيره من مناهج البيان والتفسير، أمران رئيسان:

الأمر الأول: أن "**مقصد** السّورة" هو الإطار الأصل لفهم "**محتوى** السّورة".. وهو - في رأينا - يُعتبر الضابط الأهم في توجيه معاني آيات السّورة، ثم في فهم السّورة كلّها فهماً أقرب إلى مراد الله.. لأنه فهمٌ لِمَا ورد في السّورة - موضوعاً وأسلوباً - في إطار **المقصد** الأصل الذي من أجله جاء ليشكّل سورة معينة..

فهذا التأطير لـ "**محتوى** السّورة" **ينفي** عن معاني آيات السّورة الاحتمالات والظنون غير المرادة، **ويقطع** الطريق على المقاصد المغرضة التي لم يُردْها الشارع الحكيم ولم يرُمْها. **ويمنع** من الوقوع في **التكلّف** في توجيه معاني الآيات وبيانها، أو **التكلّف** في بحثِ تفصيلٍ أو استطرادٍ لأي فكرة أو موضوع أو أسلوب بيان.. لا يؤدي بحثه إلى تحقيق "**مقصد** السّورة" الأصل في الواقع العملي بشكل مباشر، أي لا يؤدي إلى تحقيق العبودية الكاملة الشاملة لله تبارك وتعالى.

الأمر الثاني: بواسطة **" الفهم المنهاجيّ"** لسور القرآن الكريم، تتجلّى لنا الطريقة التي تلقّى بها الجيل الأول من الأمّة، القرآن الكريم وتعلّموه بها وفهموه، وبها أصبحوا أمة تُحقق الغاية من الرسالة في نفسها، ألا وهي: **"التلقّي المنهاجيّ"** للآيات، وذلك، أنهم عندما ساروا **بالرسالة** حسب "المنهاج"، بلاغاً وبياناً واستقامة، **بقصد** تحقيق الغاية منها في واقعهم.. كانت

{ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68)} **المؤمنون**.

{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)} **ص**.

هذه الآيات الأربع في كتاب الله تنص على "التدبّر" لآيات الله.. حاثّة عليه. وهي تُحدد مجال "التدبّر" المطلوب بأن له دائرتان رئيستان:

الأولى: تدبّر في سياق بيان أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون من عند الله.. وإلا كان فيه اختلاف وتعارض وتناقض كثير. والتدبّر هنا مجاله واسع، من تدبّر الآية أو مجموعة الآيات، إلى تدبّر السورة وترتيب آياتها (التسوير)، إلى التدبّر في ترتيب السور في المصحف.

الثانية: تدبّر يؤدي إلى التذكّر والاهتداء، أي تدبّر في سياق تحصيل الإيمان الذي يُنتج العمل الصالح.. فهو تدبّر يؤدي إلى تحقيق العبودية الكاملة الخالصة لله وحده في حياة الناس ومعاشهم، ليس الأفراد فقط بل والأمة والمجتمع أيضاً، بقرينة أن فعل التدبّر جاء بصيغة الجمع في جميع الآيات.. أنظر تفسير ابن عطية.

فالدائرة الأولى من التدبّر **مقصدها** (عاقبتها) اثبات أن القرآن من الله جلّ وعلا. والدائرة الثانية **مقصدها** (عاقبتها) تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني. فالثانية عاقبة للأولى. هذا، والحركة ضمن الدائرتين ليست مطلقة، بل يحكمهما سُلّم الأولويات من منظور قُرب أو بعد الأمة المسلمة عن تحقيق الغاية من القرآن في واقع حياتها.. أي حسب "منهاج النبوة" في السير لتحقيق الغاية من القرآن. فلا يجوز للمسلم الإنشغال والتلهي بالمهم عن الأهم، حسب منهاج السير (أنظر تبيان سورة عبس)، فالأهم هو أن يكون الدين (العبودية والخضوع) لله وأن تكون كلمة الله هي العليا، والطريق لتحقيق ذلك هي: أن تكون الأمة الخاتمة متلبّسة بوظيفتها الأصل: حمل الرسالة ؛ تطبيقاً على نفسها، ودعوةً للناس لإخراجهم من ظلمات الشرك والمعاصي إلى نور إخلاص الدين لله.. فتعود الأمة لترتقي وتتبوّأ مكانتها السامقة التي أرادها الله تبارك وتعالى لها؛ أن تكون خير أمة أخرجت للناس.. وفي موقع الشهادة على الناس. فهذه أُولى الأولويات التي لا يجوز أن ينشغل عنها المسلم ولو للحظة واحدة، وبعدها.. لكل حادث حيث، ولكل مقام مقال. والحمد لله رب العالمين.

الآيات تتـنزّل **مرتّلةً** لمعالجة الحدث أو الموقف (المناط) الحاصل فعلاً في حينه وفي طوره ومرحلته. فكان هذا التنزيل **المرتّل** للآيات على **"المناط"** حين حدوثه، هو **"البيان"** لتلك الآيات، فهو **"بيان عمليّ"**.. فكانت بذلك الآيات هدىً ورحمة للمؤمنين، وحجةً على الكافرين.. فلم يكن هنالك حاجة لـ "التفسير" بمعنى الشرح والبيان بالكلام - بالشكل الذي عُرف في القرون اللاحقة حتى يومنا هذا - إلا في حدود ضيقة جداً وبما يلزم لتحقيق معالجة "المناط" الحاصل فعلاً في حينه، على الوجه الأكمل. وهذا ما يُعلّل - بشكل رئيس - **ندرة** "الروايات التفسيرية" المرفوعة إلى رسول الله ﷺ ، وكذلك **قِلة** الروايات الثابتة المنسوبة للصحابة الكرام **رضي الله عنهم**.. فلم يكن في زمانهم "تفسيرٌ للقرآن" بالكيف والكم الذي عُرف لاحقاً في القرون التالية [1] ، ذلك أن **"البيان العَمليّ"** لِما كان يتنزّل من آيات الله أثناء السير حسب "المنهاج"، لمعالجة الواقع، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة.. أي **" التلقي المنهاجيّ"** للآيات.. كان هو الطريقة الوحيدة التي تَلقّى بها الجيل الأول من الأمة المسلمة القرآن الكريم، وتعلّموه بها وفهموه. وبها كان تعليم "الحكمة"، وهي السنّة الفعلية والقولية مع الأساليب والوسائل اللازمة.. بمعنى أنهم تعلّموا كيفية معالجة الواقع بالكتاب، أي كيفية تنزيل المعالجات الشرعيّة والسُننيّة **اللازمة** على الواقع (المناط) **المعيّن**، وهذا هو تعليم الحكمة.. وذلك في إطار عملية "التعليم والتزكية" الشاملة، التي هي من مهمات الرسول الأساس:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة]

تلك هي الأجواء الحقيقية والطبيعية **لتلقّي** آيات القرآن الكريم **وفهمها**، أي عيش **آيات** القرآن وتذوّق معانيها أثناء **القيام** به وحمله - حسب المنهاج - كرسالة من الله رحمة للعالمين، من أجل تحقيق الغاية من الرسالة؛ إيجاد أمة يتحقق فيها "إكمال الدين" لله، وجعل "الدّين خالصاً لله" في المجتمع.

لذلك، كان القرآن الكريم في حِسّ جيل القدوة من الأمة ووجدانهم، أنه **رسالة الله** إليهم، فيها حُكْمه وأَمره، وأنه يجب إنفاذه - مباشرة بعد تلقيه - في الواقع المعاش إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة إلى الله، وعلى مستوى الفرد والأمة حتى "إكمال الدين" لله، والمحافظة عليه كذلك:

---

1 - قد يُقال: إن معرفة اللغة عامل مهم جداً في هذا السياق، فَهُم أهل اللغة، والقرآن نزل بلسانهم. نقول: نعم، إن معرفة اللغة لها أهميتها لكنّها ليست العامل الحاسم، ذلك أن الدافع الأساس للهدى هو إرداة الهدى والبحث عن الحق: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{37}) ق، (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ **آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ **الْفَاسِقُونَ** {99}) البقرة، (..وَمَا **يَجْحَدُ** بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ **خَتَّارٍ كَفُورٍ**{32}) لقمان، فعدم معرفة اللغة لا يشكّل عائقاً كبيراً يمنع من الإهتداء. وبدليل انتشار الإسلام الآن - رغم ضعف المسلمين وهوانهم - في بلاد غير الناطقين بالعربية مثل أوروبا وأميركا، فمجرّد ترجمة بسيطة وحَرْفيّة لمعاني الآيات تحصل الهداية لمن كان يريد الهداية ويبحث عن الحق. وفي المقابل فإن كثيراً من العرب أصحاب اللغة سمعوا القرآن وأدركوا معانيه ولكنهم لم يؤمنوا، لأنهم لا يريدون الحق. فالقرآن مُيسّر الفهم لمن أراد التذكّر والموعظة: (هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {138}) آل عمران.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران]

هذا، وما ذكرناه عن "البيان العَمليّ" للآيات، يتطابق مع مفهوم "التلاوة" للقرآن، والذي يعني؛ قراءة آيات الله بقصد تنزيلها كمعالجات على الأحداث والوقائع المعاشة حين حدوثها، كما في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴾ [البقرة]

يقول الإمام الطبري: ((فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد - وهو التوراة - فقرأوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته. أي: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله)). فالتلاوة هي قراءة، ولكن بقصد الإتباع. والإتباع يقتضي أن يسبقه البيان، حتى يكون عن بصيرة وعلم. والبيان يكون بتنزيله على واقع الناس - فكراً وسلوكاً، فرداً ومجتمعاً - كمعالجات له.

فحقيقة معنى "تلاوة القرآن" هي: قراءة آياته بقصد تنزيلها على الواقع كمعالجات من الله تعالى (البيان)، وجعلها حقيقة واقعة (الإتبّاع). فتكون بذلك **هدىً** للمؤمنين، **وحجةً** على الكافرين.

لهذا نجد أن الآيات القرآنية التي ترد فيها ذكر "**تلاوة** آيات الله"، تَأتي في سياق إقامة **الحجة الرسالية** على الذين استمعوا لها، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) ﴾ [المؤمنون]

﴿إِنَّمَا **أُمِرْتُ** أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ **وَأُمِرْتُ** أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ **أَتْلُوَ** الْقُرْآنَ فَمَنِ **اهْتَدَى** فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ **ضَلَّ** فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) ﴾ [النمل]

فـ "التلاوة" تَـرِدُ في سياق البيان للحق وإقامة الحجة على الكافرين، وأنه لا عذر لهم يوم القيامة وقد سمعوا وشهدوا آيات الله " **تُتلى**" عليهم، ولم يقل "تُـقرأ"، لأن **القراءة** ترِد في سياقات أخرى: في عموم القراءة لآيات الله؛ في الصلاة وفي غيرها، وفي سياق وجوب إلتزام القارئ للقرآن بقراءته بالكيفية التي سمعه بها وتلقاه فيها دون زيادة أو نقصان. أي نقل القرآن كما سمعه [1].

هذا، و"التلاوة" بهذا المفهوم الذي بيّناه تُشغل حيزاً كبيراً من عملية "التعليم والتزكية" التي هي من مهام الرسول الأساس:

1 - أنظر "الجزء الثالث" (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - التلاوة والقراءة.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي **بَعَثَ** فِي الْأُمِّيِّينَ **رَسُولًا** مِنْهُمْ **يَتْلُو** عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ **وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ** الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة]

حيث أن "البيان العَمليّ" بتنزيل آيات الكتاب على مناطها حين حدوثه، يتضمّن تعليم **الكتاب** وتعليم **الحكمة**، وهي: السنة الفعلية والقولية مع الأساليب والوسائل اللازمة.. بمعنى تعليم كيفية **معالجة** الواقع **بالكتاب**، والتعامل مع الواقع بما **يناسبه** شرعاً وقدراً، وهذا هو تعليم الحكمة [1].

وعليه، نقول: أنه إذا أردنا أن نفهم القرآن الكريم فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه، ينبغي أن يكون **"الفهم المنهاجيّ"** هو **الأصل** في النظر إلى السور والآيات.. فما أَنزل الله عزّ وجلّ هذا القرآن المجيد إلا لتحقيق الغاية منه، وما جعل الله تعالى هذا القرآن الحكيم هكذا في كامل خصائصه وتكوينه وتركيبه - نصّـاً وتسويراً - إلا لتحقيق الغاية منه.. فكل ما في القرآن الكريم سواء من حيث المحتوى أم من حيث الأسلوب؛ أي من حيث الأفكار والأحكام والحقائق الشرعيّة والسُننيّة، أم من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير.. فكلّ ذلك، إنما كان لتحقيق الغاية من القرآن الكريم - بوصفه الرسالة الخاتمة من الله - وذلك بأن يتمثّل في أمّـة مسلمة تُكمل دينها لله؛ فتُطبّـقه على نفسها وتَحْمله للناس كافة، لإخراجهم من الظلمات إلى النور.. نور العبودية الشاملة الكاملة لله الإله الحق، عزّ وجلّ [2]..

فليس هنالك تلاوة للقرآن وبحثاً فيه أو تَـدبّراً لآياته.. هكذا بشكل عام مفتوح.. لمجرد العلم أو الاستمتاع أو لإشباع الفضول لمعرفة ما هو جديد.. بل لا بد أن يكون ذلك بقصد أن يؤدي إلى زيادةٍ في الإيمان وزيادةٍ في العمل الصالح، من أجل تحقيق معانيه وأحكامه في واقع الأمّـة لجعل كلمة الله هي العليا والمحافظة عليها كذلك، أي زيادة في الترقّي في درجات رضوان الله

---

1 - وننبه هنا، إلى أننا مدركون لحقيقة أن العلوم المتعلّقة بالقرآن لها "تطوّر طبيعي"، يتَـواكَب ويتَـماشَى مع تطوّر أحوال وحاجات الأمة العَمليّة، من حيث الإجتهاد واستنباط الأحكام لِما كان يستجد من أحوال وأحداث ونوازل ناتجة عن حمل الأمة لرسالة الله بالجهاد في سبيل الله، وأهمها التوسّع الجغرافي والسكاني.. إنما الذي نقصده هنا هو ما شاب هذا "التطور الطبيعي" من شوائب غريبة عن منهجه الشرعي الذي أرساه رسول الله ﷺ عند الجيل الأول من الأمة، و مع مرور الزمن أصبحت تلك الشوائب - أو آثارها - جزءاً أصيلاً من ذلك المنهج، ومع تقدّم الزمن دخلت شوائب أخرى وأخرى.. حتى كادت معالم المنهج الحق الذي كان عليه رسول الله وأصحابه أن تختفي، لولا حِفْظ الله تعالى لهذا الدين. ومن أهم تلك الشوائب:

- "الأهواء" حيث بسببها تحوّل الخلاف السياسي والفكري (ما يجوز الخلاف فيه) إلى خلاف عَقديّ (ما لا يجوز الخلاف فيه) مما أدّى إلى تقسيم الأمة إلى طوائف وأحزاب وكل حزب بما لديهم فرحون..
- التأثّر بـ "مناهج تفكير" غريبة عن الوحي، مثل المنطق الأرسطي والفلسفة..

وغيرها من الشوائب الدخيلة.. والتي زادت الطين بِلة، فترسّخ تقسيم الأمة وازداد.

وليس هنا مجال التوسّع.. إنما المقصود أن نذكّر بالمنهج الأصل ونشير إلى معالمه الكبرى، التي تكاد أن تندرس وتُنسخ.. لولا حِـفْـظ الله عزّ وجلّ لِوَحْيه ودينه، والحمد لله ربّ العالمين.

2 - ونؤكد هنا مرة أخرى على دعوة كل مَن يطّلع على هذه الدراسة أنْ لا يبخل بالتوجيه أو التسديد أو البيان.. حتى يكتمل هذا العمل ويستوي على سوقه ويؤتي ثماره الطيبة - بإذن الله تبارك وتعالى.

تبارك وتعالى، والابتعاد عن غضبه وعذابه.. فليس هنالك تلقّياً لآيات الله إلا لأجل التنفيذ في الواقع، ولما يرتبط بالتنفيذ بشكل مباشر:
﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾ [الطارق]
وقد صح عند مسلم، قول النبيّ ﷺ : {والقرآن حجة لك أو عليك}، هكذا ولا خيار ثالث.. فليس هنالك منطقة محايدة..
فالقرآن حُجّة لك - يا مسلم يا عبد الله - عندما يزيد في إيمانك وعملك الصالح.. وتستمر في الزيادة حتى إكمال العبودية لله (إخلاص الدّين لله) بأن تكون فرداً في أمّـة مسلمة **تُكْمل** دينها (عبوديتها) لله عزّ وجلّ.. تطبيقاً على نفسها وحملاً للناس..
ويكون القرآن حُجّة عليك عند تخلّفك عن السير لتحقيق الغاية من الرسالة؛ إكمال الدّين لله وإخلاص الدّين لله.. **فينقص** دينك (عبوديتك) بحسب ذلك [1]..
على هذا المستوى العالي من الجـديّة كان تلقّي الجيل الأوّل؛ جيل القدوة من الأمّـة المسلمة، لكلام الله وآياته.. كما علّمهم وزكّاهم رسول الله.. فلم يكن القرآن في حِسّهم ووجدانهم، إلا أنه رسالة الله إليهم، فيها حُكْمه وأَمْره ونَهيه، وأنه يجب إنفاذه - دون تأخير أو تأجيل - في الواقع المعاش، عبادة لله جلّ وعلا؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة إلى الله، وعلى مستوى الفرد والأمّـة حتى "إكمال الأمّـة عبوديتها لله"، والمحافظة عليه كذلك.. فاستحقوا بذلك أن يكونوا خير أمّـة أخرجت للناس، وأن يكونوا شهداء على الناس..
فأقلّ من هذا المستوى الراقي من الجـديّة في التلقّي لا يليق بكلام ربّنا، ربّ السموات والأرض، وقد أنزله إلينا لهدايتنا وإخراجنا من الظلمات إلى النور.. وبحسب ذلك يتـقرر مصيرنا في الدنيا: فإما عزّة وتمكين في الأرض **أو** ذلّ وخسران.. وأيضاً مصيرنا في الآخرة: فإما خلود في جنّة ورضوان من الله جل وعلا **أو** في نار وعذاب.. والعياذ بالله.. وقد صح عند مسلم قول النبي ﷺ: { إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين }..
فهذا هو كتاب ربّنا ورسالته إلينا.. وعلى مقدار إدراكنا ووعينا لخطورة مصيرنا - في الدنيا والآخرة - يكون مقدار شعورنا بالمسؤولية والجـديّة في تدبّره، والعمل بما جاء به..
قال الحسن البصري مبيّناً معنى تدبّر القرآن:

---

1 - فـ "نقصان الدّين" هنا، هو نقصانٌ في التطبيق والاتّباع، وليس في نَصّ الوحي، فهو محفوظ. ويؤيّد ذلك ما رواه ابن كثير في تفسيره: ((لمّا نزلت {اليوم أكملت لكم دينكم} وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك»؟ قال أبكاني أنّا كنّا في **زيادة** من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يَكمل شيء إلا **نقص**، فقال: «صدقت»، ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: « إن الإسلام بدأ **غريبا** وسيعود **غريبا** فطوبى للغرباء»)).[مختصر تفسير ابن كثير- الصابوني]. كما في قول الصدّيق - رضي الله عنه - في بيان موقفه من مانعي الزكاة: (.. إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أوَ ينقص وأنا حي؟). **[قال في الرياض النضرة في مناقب العشرة،، 247: خرجه النسائي بهذا اللفظ ومعناه في الصحيحين. وانظر أيضاً (البداية والنهاية) 6 / 304. (مجلة البيان - عدد 238)]**. وفي نفس السياق يرِدُ حديث رسول الله حول "نقصان الدين" عند النساء: (.. وأما نقصانُ الدين، فإن إحداكُنَّ تُفْطِرُ رمضانَ، وتقيمُ أيَّاماً لا تصلِّي) **[صحيح مسلم وغيره]**. فالواجب الأصل على المسلم أن يكون دينه خالصاً لله، فتكون عبوديته لله كاملةً ؛ فلا يحكتم إلا لشريعة الله تعالى ودينه في جميع شؤون حياته كلها بلا استثناء.

(.. أما والله ما هو **بحفظ** حروفه **وإضاعة** حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كلّه فما أسقطت منه حرفاً. وقد والله أسقطه كلّه؛ ما يُرى له القرآن في خُلق ولا عمل..).
وقيل له: إن فلاناً له تدبّـر في كتاب الله. فقال: (انظروا في عمله).

المبحث الثاني: لماذا اخترنا ترتيب النزول ؟

في هذا "التبيان" سنتناول سوَر القرآن حسب "ترتيب النزول" الوارد للسوَر[1]، لا بحسب "ترتيب المصحف"، وذلك لسببين:

الأول : أن كِلا الترتيبين لسوَر القرآن الكريم؛ "ترتيب النزول" و "ترتيب المصحف"، ليس لهما دلالة شرعية على "المنهاج".. فلا بأس - إذن - بأيّهما تناولنا السوَر.. وقد بيّنا ذلك مفصلاً في "الجزء الأول".. وسنلخّص أهم النقاط في ما يلي، للتذكير:

إن " التسوير" - أي جعل آيات محددة في سورة معينة وبترتيل (ترتيب) مقصود فيها - هو من الأدلة على "المنهاج"، وليس ترتيب نزول الآيات والسوَر.. ولا ترتيب السوَر في المصحف. ذلك أن "التسوير" هو ترتيل توقيفيّ أو شرعيّ، ومتعبَّد به؛ تلاوة ودلالة.. فقد كان بتكليف من الله تعالى لرسوله الكريم، بعد تلقيه الآيات مفرّقة، حيث كانت الآيات التي تُـنـزَّل تُرَتَّب في موضعها في سوَرتها، كما أمر الله تعالى، كما هو المُصحف بين أيدينا الآن.

أما "ترتيب **السوَر** في المصحف"، وإن كان توقيفيّـاً - وهو الراجح - فمجال دلالته هو الحِفاظ على آيّ وسوَر القرآن الكريم من الضياع.. بدلالة الروايات الواردة في ذلك، فالدافع لفعل كبار الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - لجَمْع سوَر القرآن في مصحف واحد والغاية منه، هو الحفاظ على القرآن الكريم من الضياع، وليس أمراً آخر.. لذلك لا يُستدل بترتيب السوَر في المصحف، على طريقة تلقي الرسالة والسير بها لتحقيق الغاية منها (المنهاج)، فهو واقع (مناط) آخر يختلف عن واقع حفظ آي القرآن من الضياع. فلا يُستدل على المناط المعيّن إلّا بالأدلة ذات العلاقة به.. وترتيب السوَر في المصحف متعلق بحفظ القرآن من الضياع، ولا علاقة له بـبيان "المنهاج" وكيفية السير من أجل تحقيق الغاية من القرآن، فلا يُستدل به عليه.

أما "ترتيب النزول" التفصيلي للآيات والسوَر، الأول فالأول.. فهو غير مُتعَبَّد به لا تلاوة ولا دلالة: لأنه لم يحصل بناءً على تكليف شرعي، بل بناءً على طبيعة الواقع الإنساني

---

1 - لمعرفة مدى صحة الروايات التي ورد فيها الترتيب لجميع سور القرآن حسب تاريخ نزولها، أنظر بحث (تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول - منبعه وفوائده) د محمد مجلي ربابعة. والمنشور في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية. حيث قال ما نصه: (خلاصة القول: **أولا**: إن الروايات والآثار التي ذَكرت ترتيب نزول **سور** القرآن الأول فالأول، لا مجال لقبولها سنداً ولا متْنا، وترتيب المستشرق "نولدكة" الذي اعتمده المفسرون على حسب النزول ليس له فيه سلف ولا خلف. **ثانيا**: إنّه لا يصح الاعتماد على هذه الروايات والآثار في تغيير ترتيب كتاب الله، ولا في تفسيره، ولا في ترجيح تقدّم سورة على أخرى، ولا مكي على مدني..).

(المجتمع) آنذاك، الذي كان يتحرك فيه رسول الله والذين آمنوا معه، وعلى نوع ودرجة ردّ فعل ذلك المجتمع وموقفهم من الحق وأهله.. في أثناء تبليغهم الحق بلاغاً مبينا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان: 33]
ولأن ذلك الترتيب غير محفوظ بل فُقد أغلبه.. ويستحيل إعادة ترتيب الآيات والسوَر كما نُـزّلت بالتفصيل.. وعلى حد قول عكرمة رحمه الله: "لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤّلفوه كذلك ما استطاعوا" [1].. ومن هنا، فلا يمكن أن نُكلّف به.. بل إن فقدانه، أو فقدان أغلبه، دليل قطعي على أن ما فُقِد منه ليس فيه دلالة على تكليف شرعي (عبادة)، وإلا لم يُفـقَد منه شيء.. فدين الله عزّ وجلّ الذي تعبّدنا به، محفوظ - قطعاً - من الزيادة أو النقصان حتى قيام الساعة.
وعليه، فلا بأس بأي الترتيبين تناولنا السوَر في هذا "التبيان".. فَـهُما سيّان من هذه الزاوية.. والمقصود هو تناول **جميع** سوَر القرآن الكريم، ومحاولة فَـهْمها فَـهْماً منهاجيّاً، أي كـمنهاج للسير بغض النظر عن أي سورة نبدأ بها.

السبب الثاني: ورغم أن كلا الترتيـبين سيّان، من هذه الزاوية، إلا أننا رغبنا في اعتماد "ترتيب النزول"، وذلك حتى يتّضح الفرق ويَنْجَلي، بين طبيعة "ترتيب النزول التاريخي" للسوَر.. وبين طبيعة "الترتيب المنهاجيّ" للسوَر، والذي نحن بصدد بيانه وبيان أهميته في فهم مراد الله من كلامه.. وكما يُقال: "إن الأشياء تُـعْرف بأضدّادها، وتَـتضح الأمور بما يُقابلها".

و"الترتيب المنهاجيّ" للسوَر - كما بيّنا في ما سبق - إنما هو نتيجة لربط السوَر بخط سير رسول الله بالرسالة في تتابع أطواره ومراحله، بحسب **سُنَن** الله تعالى في حمل الرسالات في القرى والمجتمعات.. وهو يقوم على النظر إلى السورة من القرآن الكريم من حيث كونها "وحدة منهاجيّة" وتشكّل جزءاً من "المنهاج"، وفي مجموع السوَر ثَـمّ المنهاج كاملاً. فالسورة الواحدة من القرآن فيها " تبيان" لجزء من الطريقة الشرعية (المنهاج) في حمل الرسالة لتحقيق الغاية منها، ومرتبطة بطور من أطوارها، وفي مجموع السوَر تتـبيّن الطريقة كاملة، من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية. فربط السورة بخط السير هو ربط منهاجيّ، يقوم على بيان دَور السورة الواحدة في منهاج السير بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص لأنه بحسب التتابع السُنَنيّ للأحداث والمواقف، كما هو مُبيّـن في القرآن الكريم [2].

---

1 - أنظر (مناهل العرفان في علوم القرآن) - الزرقاني (1/ 229).

2 - ونؤكّد هنا - منعاً لأي لبس - أن "الترتيب المنهاجيّ" للسور إنما هو ترتيب من أجل فهم منهاج سير رسول الله بالرسالة، بتتابع خطواته وتوالي أطواره الخمسة في مرحلتيه الإثنتين، حتى تحقَّقت الغاية من الرسالة. فهو ترتيب من أجل الفهم فقط، وليس بديلاً عن ترتيب المصحف ولا موازياً له.. ونحن لم نقصد ذلك ولا ألمحنا إليه. وهنا، وقد يرد التساؤل الآتي: ما دام أن "الترتيب المنهاجيّ" للسور له هذه الدرجة من الأهمية في تحقيق الغاية من الرسالة، فما الحكمة من أن الله تعالى لم يحفظ سورالقرآن مرتّـبة بحسبه، بل حَـفِظَـها حسب ترتيب المصحف الحالي؟. نقول: إن تحقيق الغاية من الرسالة تكليف شرعي من الله تعالى، ونقوم به نحن المسلمون عبادة لله، ونتحمّل المسؤولية عنه أمام الله تعالى، وكذلك فَهْم طريقة السير الشرعية لتحقيق تلك الغاية (المنهاج)، هو أيضاً عبادة وتكليف من الله تعالى، نتحمّل نحن المسؤولية عنه أمام الله تعالى، فَهْماً وتطبيقاً.. فلا بد من بذل أقصى الجهد في فهم واستخراج

وأما الترتيب **التفصيلي** لنزول الآيات والسوَر على قلب رسول الله: فهو نتيجة لسير رسول الله - والذين آمنوا معه - بالرسالة حسب "المنهاج" في الواقع الإنساني **حينذاك**؛ بزمانه ومكانه وأشخاصه.. فكان بحسب تتابع وقوع الأحداث ومواقف الناس من الرسالة والرسول ومن اتبعه من المؤمنين، في ذلك الزمان والمكان.. أي حسب التتابع التاريخي لحصول الأحداث، والذي يمكن أن يتغير مع أقوام آخرين وفي أزمنة وأمكنة مختلفة.

فـ "ترتيب نزول السوَر" ومعه "أسباب النزول"، هو ربطٌ تاريخيّ للسورة أو الآيات بزمن النزول الأول. وعلى هذا فله بُعدَين:

- بُعد تاريخيّ؛ من جهة أنه مرتبط بأحداث تاريخيّة وقعت في زمان ومكان محدَّدين، ومع أشخاص معينين.
- بُعد "منهاجيّ" سُننيّ؛ يتجاوز الزمان والمكان والأشخاص، من جهة أن وقوع تلك الأحداث كان نتيجةَ سير رسول الله بالرسالة حسب "المنهاج"؛ أي حسب الطريقة الشرعيّة الثابتة، وأن وقوع الأحداث وتتابع وقوعها، كان محكوماً لسُنن الله - التي لا تتغيّر ولا تتبدّل - في حمل الرسالات [(1)]..

وبالمحصّلة، فبما أن كِلا الترتيبين لسوَر القرآن الكريم - المصحف و النزول - ليس لهما دلالة شرعية على "المنهاج"، فلا بأس إذن، بأيّهما تناولنا السُّوَر بقصد "الفهم المنهاجيّ" لها.. لكن، وحتى يتّضح الفرق ويَنْجَلي، بين طبيعة **"الترتيب التاريخيّ"** لنزول سوَر القرآن **وتلقيها**، وبين طبيعة **"الترتيب المنهاجيّ"** لتلقي سوَر القرآن.. وُجدت لدينا الرغبة في اعتماد "ترتيب النزول" دون "ترتيب المصحف"، لتناول سوَر القرآن الكريم في هذا "التبيان".

المبحث الثالث: مراحل وأطوار السير بالرسالة

إن "**الفهم المنهاجيّ**" للسورة، يقتضي معرفة موقعها في أي طور من **أطوار سير رسول الله بالرسالة**، ومعرفة "**المناط**" الذي جاءت لمعالجته في ذلك الطّوْر المعين.. مما يعني، أنه لا بد بدايةً فهم **"الطبيعة السُننية"** لسير رسول الله بالرسالة لإكمال الدين لله تعالى في **الواقع الإنساني**، بمعرفة السُنن التي تحكم ذلك السير، ومعرفة مراحله وأطواره وخطواته، ومعرفة خصائص كلٍ منها.. ذلك أن الرسالة والشريعة ما جاءت إلا لمعالجة الواقع الإنساني وتغييره

"المنهاج" (العبادة) من القرآن. أما **ترتيب** السوَر في المصحف فهو متعلّق بحفظ الرسالة - محتواها ومنهاجها - من الضياع. وحِفْظها أمر تكفّل الله تعالى وحده به ولم يَكِله لأحد من خلقه، لذلك كان ترتيب السوَر في المصحف توقيفياً من الله تعالى لتحقيق هذا الأمر، ولم يتركه لاجتهاد البشر. فحِفْظ نَص الرسالة وحِفْظ معانيها ودلالاتها (الدين و المنهاج) من الضياع، هو الأَولى والأهم، والله تعالى هو وحده المتكفّل به، فكان ترتيب السور في المصحف، الدالّ عليه، توقيفياً من الله جلّ وعلا. وهو كذلك الترتيب الأصل لآيات القرآن وسوره في وجوداته كلها: في اللوح المحفوظ، وفي السماء الدنيا، وبين أيدي الناس: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ {42}} فصلت.

1 - ومعرفة هذا البعد وفهمه وتحديده، هو هدفنا ومقصودنا من هذه الدراسة بأجزائها الثلاثة. أنظر (الجزء الأول) - الفصل الثالث: بيان كيفية التأسي في رسول الله في تلقي الرسالة.

وصياغته حسب مراد الله تعالى حتى يكون الدين كله لله وحده. وهذا لا بدّ له من فهمِ طبيعة ذلك الواقع الإنساني وفهمِ سُننه الإلهية التي تحكمه، وفهمِ طبيعة السير بالرسالة فيه.. فَهْماً يُمَكِّن حَمَلَة الرسالة من تحقيق تلك الصياغة للواقع حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيه [1].

ورسولنا محمّد ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فَسَيْره بالرسالة في واقعه الإنساني محكوم ومضبوط بالسُنن وبالخصائص **العامة** نفسها التي ضبطت سير سائر رسل الله من قبله، عليهم السلام إلا أن الله تبارك وتعالى قد خصّ **الرسالة** الخاتمة، **والرسول** الخاتم، **والأمة** المسلمة الخاتمة ببعض السُنن، سواء الشرعيّة منها أم القدريّة.. فلا بد من فهم ذلك **القدْر المشترك** والعلم به من الخصائص والسُنن الضابطة للسير بالرسالة، وهو موضوع الاقتداء بالرسل السابقين من حيث صبرهم وثباتهم على الحق ويقينهم على الله.. <u>ومن أجل ذلك بيّـن الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من سُننه في حمل الرسالات، وفي تغيير الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة</u>؛ الإجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها، مفصّلة باستفاضة وشمول وعلى طول الطريق لإكمال الدين لله جلّ وعلا.. وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكر بعض تلك السُنن أو الإشارة إليها [2].

---

1 - ومن هنا، كانت تلك العلاقة المتبادلة والمتلازمة بين فهْم طبيعة **الواقع الإنساني** (المناط) الذي تعمل فيه الرسالة، وبين فهم **مراد** الله تعالى من كلامه فهماً صحيحاً، يعني فهم **المعالجات** لذلك المناط.. سواء عند فهم "المنهاج"؛ من حيث المعالجات الشرعية وكيفية السير، أم عند تنزيل ذلك الفهم على الواقع المعيّن، وما يلزمه من "**تحقيق المناط**" ؛ وهو إجراء يسبق تنزيل الحكم الشرعي على المناط =>(الواقع) المعيّن. ومفاده ؛ النظر فيه بقصد التحقق من أنه هو الواقع الذي جِيء بالحكم الشرعي - الذي عُرف دليله - له وينطبق عليه، أي يتعلّق به. "ومن هنا جاء القول بأن من أراد أن يفهم مراد الله تعالى من كلامه فهْماً صحيحاً، وأن يكون قادراً على تنزيله على الواقع المعين.. لا بد له من السير على منهج رئيس في الفهم لا يمكن إغفاله وهو "السياق" أو "المقام" أو "الحال" الذي نزل النص لمعالجته ؛ لأن العلم بخلفيات النصوص وبالأسباب وبالأحوال التي وردت فيها، وسننها الإلهية الضابطة لها.. يورث العلم بالمناط الذي جاء الوحي لمعالجته، وبكيفية معالجته.. مما ينفي الاحتمالات والظنون غير المرادة، ويقطع الطريق على المقاصد المُغرِضة التي لم يُردها الشارع الحكيم ولم يَرُمْها، ويكشف عن الخطأ أثناء التطبيق فتسْهُل العودة إلى المسار الصحيح". وقد فصلنا القول في (الجزء الأول).

2 - إن العلم بالسنن الإلهية بهذا الشمول، يُعتبر من <u>الهدى والحكمة</u> التي أنزلها الله تعالى في كتابه، وقد راعاها وبيّـنها رسول الله في سيره وتطبيقه لأمر الله في الواقع الإنساني: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ <u>وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ</u> وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ {151}) البقرة. (ذَلِكَ مِمَّا <u>أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ</u>.. {39}) الإسراء. وهذا العلم ضروريّ وأساسيّ للأمة الخاتمة في سيرها في العبودية لله تعالى وحمل رسالته هداية ورحمة، للإنسانية في أنحاء الأرض حتى قيام الساعة، وخاصة، في "تحقيق المناط" وإنزال المعالجات الشرعية على الواقع الإنساني، لتحقيق الغاية من الرسالة فيه. فالعلم بأمر الله تعالى الكوني - ممثلاً بما جعل عليه كل مخلوق من طبائع وخاصيات وبالسنن التي تحكمها - لا يقل أهمية عن العلم بأمره الشرعي، ذلك أن الله عزّ وجلّ ما أنزل أمره الشرعي (الشريعة والدين) إلا لأجل أن يكون حاكماً ومُسيراً للواقع الإنساني الذي يحكمه ويضبطه أمره الكونيّ (القدريّ). فأمر الله الشرعي التكليفي - في حقيقته - فيه الهداية للسير حسب أمره الكونيّ القدريّ، فيحيا الإنسان فرداً ومجتمعاً، حياته الدنيا منسجماً مع قوانين الكون والحياة ونواميس الخلق والفطرة فلا يتصادم معها، فيحياها في سعادة وهناء. ويحيا حياته الأخرى - وقد حقق العبودية لله - في رضى الله تبارك وتعالى، في جنة ونعيم دائم. وفي المقابل إذا خرج الإنسان عن أمر الله الشرعي، ضل وتصادم مع نواميس

هذا، ولفهم **"الطبيعة السُننية"** للسير بالرسالة في **الواقع الإنساني**، ينبغي - بداية - **بيان** الترتيب والتتابع السُننيّ العام لحصول أحداث ووقائع سير رسل الله تعالى - عليهم السلام - بالرسالات، والذي كان حسب سُنن الله في تحقيق الغاية من رسالات الله تعالى في المجتمعات الإنسانية المختلفة.. وقد بيّن الله تعالى ذلك كلّه في القرآن الكريم.. وأغلبه ورد في سياق القصص وضرب الأمثال. وفي "سورة إبراهيم" في الآيات (9 - 17) جاء ترتيب مواقف وأحداث السير برسالات الله جامعاً شاملاً.. كما ذكرنا في (الجزء الأول).

ثُم **مطابقة** ذلك الترتيب السُننيّ العام لأحداث سير الرسل الكرام بالرسالات، مع ما ورد في القرآن الكريم من بيان لسير الرّسول الخاتم محمّد ﷺ بالرسالة الخاتمة في واقعه. فما حصل مع الرسول الخاتم - مما ورد ذكره في القرآن - يُفهم في ضوء تلك السُنن والخصائص العامة، من حيث طبيعة السير والتتابع العام للأحداث والعقبات في الطريق.. هذا، مع الانتباه إلى ما خصّ الله تعالى به الرسالة الخاتمة، والرّسول الخاتم، والأمّة الخاتمة، من سُنن ومن معالجات شرعيّة في هذا السياق.

وبعد ذلك، وعلى ضوئه، نقوم **بدراسة** وفهم ما هو **ثابت** من السنّة النبوية، وخاصّة سيرته ﷺ ، وما جاء فيها من تفاصيل، ومقارنته ومطابقته مع ما توصّلنا إليه في ما سبق، بقصد الوصول لأكثر تفصيل ممكن للأحداث وحسب الترتيب السُننيّ العام لوقوعها.

فالنظر في ما **ثبت** من السنّة والسيرة لفهم "المنهاج"، **يجب** أن يكون من خلال بيان القرآن للمنهاج وفي ضوئه، ذلك أن القرآن الكريم هو **الأصل** في حركة الرّسول ﷺ وسيره لتحقيق الغاية منه.. كما بيّناه في "الجزء الأول" من البحث.

وعند الالتزام بالخطوات العملية الثلاث السابقة، يمكننا رؤية أحداث ووقائع سير الرسول محمّد ﷺ بالرسالة **مرتبةً سُننيّاً**، من البداية حتى تحقيق الغاية، وفي أوسع صورة وأشمل مدى - بقدر ما ثبت من الروايات..

بمعنى، أننا سنرى أحداث السيرة النبويّة وقد صُبّت في قالبها أو إطارها **الأصل**، إطارها **الحاكم** لها، ألا وهو **الإطار السُننيّ** وكما بيّنه القرآن الكريم.. فيكون النظر إلى أحداث سير الرسول بالرسالة حتى تحقيق الغاية منها - كما وردت في روايات السيرة الثابتة - من خلال السنن الإلهية الضابطة لها، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص.. كما هي طريقة القرآن في تناول القصص والأحداث التاريخية [1]..

الخلق والفطرة في نفسه وفي الكون من حوله - والتي لا يعلم منها إلا القليل القليل - وعنده تكون معيشته شاقة نكدة، وفي الآخرة يكون مقيماً في غضب الله وعذاب أليم. ومصداق ذلك قوله تعالى: (.. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي **هُدًى** فَمَنِ **اتَّبَعَ هُدَايَ** فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ **أَعْرَضَ** عَن **ذِكْرِي** فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124}قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ **آيَاتُنَا** فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126}) طه.

1 - وذلك بعرض الحدث مقروناً بسننه الإلهيه المؤثرة فيه وجوداً وعدماً، سبباً وشرطاً، غاية وحكمة.. لتحقيق العبرة. وهذا يختلف عن "النظرة التاريخية" للقصص أو رؤيتها ضمن "الإطار التاريخي". فالأحداث التاريخية في حقيقتها أنها: السنن الإلهية مطبّقة على واقع إنساني معين في زمانه ومكانه

ونذكر هنا، بأن **الجانب السُنَنيّ** (القدريّ) لـ "المنهاج"، **فلا** يدخل في دائرة التأسّي في الرسول، لأنه ليس تكليفاً شرعيّاً.. بل هو من أمر الله القدريّ.. فموضوعه بيان **طبائع وخصائص** السير بالرسالة في المجتمع و**السنن الضابطة** لها - من البداية حتى النهاية وتحقق الغاية - فهو يضيء لحَمَلة الرسالة الطريق من خلال فهم **التسلسل العام** للأحداث.. ويُمكّنهم من **استشراف** المستقبل وتوقّع الأحداث قبل حصولها..

ومما يدخل في **الجانب السُنَنيّ** "للمنهاج"؛ **الترتيب المفصّل** (التاريخيّ) لحصول الوقائع وتسلسل الأحداث والمواقف وتتابع الأعمال.. الذي حصل مع رسول الله ﷺ أثناء حمْله الرسالة لتحقيق الغاية منها. فقد كان هو **"الترتيب المفصّل"** لتنزيل المعالجات والقيام بالأعمال، **المناسب لذلك** الواقع الإنساني بزمانه ومكانه وأشخاصه وتتابع أحداثه، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة فيه.

فالذي يُحدّد **"الترتيب المفصّل"** لتسلسل الأحداث والمواقف وتتابع الأعمال في المجتمع الإنساني - في أي زمان ومكان - وقد بلغهم الحق بلاغاً مبيناً، هو **مشيئة** الله **تبارك وتعالى**، متمثلة بـ **خصائص** السير بالرسالات في المجتمعات الإنسانية و**سنن** الله الضابطة لها - أمر الله القدريّ - وحسب ما **يختاره** المجتمع من تلك الخصائص وسننها، عند اتخاذهم المواقف من رسالة الله وحَمَلتها .. فبها جميعاً - **الخصائص والسنن، واختيارات المجتمع** - تكون النتيجة الفعلية لواقع الناس، ومصيرهم في الدنيا والآخرة..

(.. إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. {11}) الرعد

ومن هنا، فالتتابع (الموالاة) أو **"الترتيب المفصّل"** لأعمال السير بالرسالة الذي حصل مع رسول الله ﷺ لا يدخل في دائرة التأسّي في رسول الله ﷺ ، فليس فيه دلالة على العبادة.. لأنه ترتيب **سُنَنيّ** وليس ترتيباً **شَرعياً**، فقد كان متوقفاً على **طبيعة** الواقع الإنساني (المجتمع) آنذاك، وعلى رد فعلهم ومواقفهم من الحق وأهله (الضابط السننيّ).. وقد بلّغهم الحق بلاغاً مبيناً (الضابط الشرعيّ).

والترتيب المفصّل لما حصل مع رسول الله ﷺ ، أثناء حمله للرسالة، ليس شرطاً أن يحصل مع حَمَلَة الرسالة الآن .. كما أن ما حصل مع رسل الله السابقين **بترتيبه المفصّل**، لم يحصل مع الرسول الخاتم .. فكل واقع إنساني - في زمانه ومكانه - له **ترتيب مفصّل** للأحداث عند السير فيه بالرسالة حسب "المنهاج"، لتحقيق الغاية منها .. ومن هنا، فليس هنالك **ترتيب مفصّل** لأعمال السير بالرسالة، لا **شرعيّ** ملزم، ولا **سننيّ** واجب الحدوث.. إنما هي الخصائص والسمات العامة لكل مرحلة ولكل طور، وسننها الضابطة لها، وهي الأمر العام المشترك بين رسل الله جميعاً، كما بين الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، في سورة إبراهيم وغيرها من السور.

وأشخاصه. ويُتّبع فيها - عادة - الأسلوب السردي في ذكر الأحداث والوقائع التي حصلت، ويُراعى التتابع التاريخي التفصيلي في ذكر حدوثها، مع الاهتمام بالظروف التي حصلت فيها، من حيث الزمان والمكان والأشخاص، كما هي طريقة المؤرخين في سردهم التاريخ والسِّيَر وقصص الأنبياء. هذا والنظرة السننية للسيرة النبوية، علاوة على كونها هي طريقة القرآن في النظر إلى القصص لأخذ العبرة منها، فإنها تُنهي الخلاف في الترتيب التاريخي لسير الأحداث، والذي هو في الأصل غير ملزم لنا في فهم "المنهاج". وقد ذكرنا تفصيل هذه النقطة في "الجزء الأول".

ويمكننا القول بدايةَ: إن سير رسول الله ﷺ بالرسالة كان ضمن **مرحلتين** رئيستين، وكل مرحلة لها **أطوارها** التي تتابعت فيها الأحداث وتوالت المواقف، وتنوَّع الخطاب:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة "**ما قبل التمكين**" للمؤمنين في الأرض، ومن أبرز خصائصها؛ قلة عدد المؤمنين أهل الحق واستضعافهم. ويكون المؤمنون حَمَلة الرسالة مكلّفين بالرسالة بوصفهم أفراداً أو جماعة تعيش في مجتمع جاهليّ؛ مجتمع ليست كلمة الله هي العليا فيه.

هذا، وأوّل ما بادأ به **رسلُ** الله **أقوامَهم** هو بلاغ الحق الذي جاءهم من الله **تعالى،** أي دعوتهم إلى عبادة الله وحده والكفر بما دونه، على أساس أن الله هو وحده الإله الحق:
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:59،65،73،85/هود:50،61/المؤمنون 23،32].
مع تحميل المخاطَبين **المسؤولية** عمّا بلغهم، ببيان مصير من آمن بالله واتبع رسوله.. ومصير من كفر وتولّى.. وهو محتوى "خطاب النذارة".. كما قال تعالى في سوَرة إبراهيم:
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ.. (٩)﴾ [إبراهيم: 9] [1]

أي: " ألم يصلكم - أيها الكفار- خبر إهلاك الأمم المكذبة من قبلكم: قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، والأمم الذين جاؤوا من بعدهم؟ أتتهم رسلهم بالدلائل الواضحة على أن الله جلّ وعلا وحده المستحق للعبادة والطاعة لأمره"..
ففي الآيات السابقة لهذه - من سوَرة إبراهيم - بيّن الله **تعالى** للناس، ومنهم مشركي مكة، أصالة.. أنه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبين - سبحانه - أن له ما في السموات وما في الأرض، وهدد الكافرين وأنذرهم بالعذاب الشديد..
وحتى يأخذ أولئك الكافرون العبرة بمن سبقهم، حكى الله **تعالى** ما قاله موسى لقومه من جزاء الشاكر لأنعم الله وجزاء الكافر بها.. وأن ضرر كفرهم ونفع شكرهم يعود عليهم وحدهم..
وبعد ذلك، خاطب الله **تعالى** مشركي مكة - وكلّ مَنْ هو على شاكلتهم - فقال:
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ..﴾
"والمقصود هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين الذين كذبوا رسل الله، بناء على أن ما حصل معهم كان حسب سنن الله الدائمة.. التي لا تتغيّر ولا تتبدّل".

---

1 - وسنعتمد مجموعة الآيات (9 - 17) من سورة إبراهيم ، **أصلاً** في بيان طبيعة هذه المرحلة وخصائصها العامة.

فهذه هي بداية دعوة جميع رسل الله **عليهم السلام** لأقوامهم، وقد جاؤوا **بالبيّنات** من ربّهم، كما بيّن الله **تعالى** ذلك في سوَر أخرى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء: 25]

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) ﴾ [النحل: 2-5]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [نوح: 1-4] [1]

﴿* وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾ [الأعراف: 65]

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٧٣)﴾ [الأعراف: 73]

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود: 84] .. إلخ

وعلى نفس خط رسل الله السابقين، بعث الله رسولَه الخاتم محمّداً ﷺ بشيراً ونذيراً:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.. (٢٨) ﴾ [سبأ: 28]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾ [الأنبياء: 107-109]

وقد سار رسول الله الخاتم ﷺ في **البلاغ المبين** لآيات الرسالة؛ تلاوةً وبياناً واستقامة، أولاً بأول.. وكانت أول آيات القرآن نزولاً على قلبه: الآيات الأولى من سوَرة العلق، ثم

---

1 - هذه الآيات الكريمة، من سورتي النحل ونوح ومثيلاتها، دليل على بيان معنى وصف الرسول بالنذير، فبعد أن يُكلّف الله تعالى رسوله بإنذار قومه، يبيّن ويفسّر (أن التفسيرية) معنى كونه نذير: (..أَنْ أَنذِرُواْ **أَنَّهُ** لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ **فَاتَّقُونِ**{2} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{3}..) النحل،،، (أَنِ **اعْبُدُوا** اللَّه **وَاتَّقُوهُ** وَ**أَطِيعُونِ**{3} **يَغْفِرْ لَكُم** مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ **أَجَلَ** اللَّه إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{4}) نوح.. انظر سائر الآيات في هذا السياق.. فمحتوى "خطاب النذارة" كما هو في القرآن الكريم وكما كُلّف به الرسول الخاتم (قم فأنذر): الطلب إلى الناس أن اعبدوا الله وحده، مع بيان مصير من أجاب ومصير من أبى.. وعلى أساس أنه لا إله إلا الله، وذلك ببيان آثار إلهية الله في الآفاق والأنفس والأمم (القرى).. كما في الآيات السابقة وغيرها. انظر كتاب (من الاستضعاف إلى التمكين) - الفصل الثالث - (منهج الخطاب)/ الركن الثالث).

سوَرة الفاتحة، ثم الآيات الأولى من سوَرة المدثر [1].. وهذا يعني:

من حيث الموضوع: محتوى "خطاب النذارة"؛ (قُمْ فَأَنْذِر). وهو: الدعوة إلى عبادة الله وحده على أساس "فكرة الرسالة" (لا إله إلا الله، فاعبدوه)، مع تحميل المُخاطَبين - كل واحد منهم - المسؤولية عمّا سمعوه من الحق، ببيان مصير من آمن ومصير من كفر (المسؤولية الفردية).

ومن حيث "منهج الخطاب": أن يكون على شكل **"بلاغ مبين"**: بلاغاً بيّناً واضحاً، مُزيلاً للجهالة موجِداً للعلم، فرقاناً بين الحق والباطل، ليكون هداية لمن أراد الهداية، مُقيماً لـ "الحجة الرسالية" على من أبَى واستكبر.. أي الحجة التي ليس بعدها عذر:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾ [النساء: 164-165] [2].

ويتحقق ذلك كله، **بتلاوة** آيات الله **تعالى** ذات العلاقة على الناس.. **وببيانها** - حسب **المقام** - كمعالجات للواقع.. كما قال تعالى على لسان رسولنا الكريم مخاطباً قومه:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) ﴾ [النمل: 91-92]

أي، " وأُمرت أن أتلو القرآن عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان، فمن اهتدى به فإنما يهتدي لأجل نفسه فإن ثواب اهتدائه له، ومن ضل عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى، فأقول له: إنما أنا من المُخوّفين عذاب الله **تعالى** (المنذرين)، فليس عليّ إلا التبليغ".. فالإنذار هو: الإعلام (البلاغ) مع التخويف..

والتلاوة هنا ليس مطلق القراءة، بل هي قراءة مخصوصة بقصدالاتباع، لأن "يتلو" تعني "يتّبع"، بمعنى قراءة الآيات لتنزيلها كمعالجات للواقع أي باتباع الناس لها [3]..

---

1 - أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. والراجح أن سورة الفاتحة من أوائل ما نُزّل من القرآن، لقرائن كثيرة منها: حديث الرسول بأنها السبع المثاني الواردة في سورة الحجر وهي مكيّة وأن => الصلاة كانت أول ما كُلّف به المسلمون من العبادة بعد الإيمان بالله ورسوله، ولا صلاة بغير الفاتحة.. أنظر تبيان سور: (العلق، والمدثر، والفاتحة). في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن).

2 - انظر كتاب (من الاستضعاف إلى التمكين) - الفصل الثالث / (منهج الخطاب).

3 - ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة ١٢١]. يقول الطبري في تفسيره: (فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد - وهو التوراة - فقرءوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك (يتلونه حق تلاوته) . بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله. أما قوله : ﴿ حق تلاوته ﴾، فمبالغة في صفة اتباعهم الكتاب ولزومهم العمل به، كما يقال:"إن فلانا لعالم حق عالم"، وكما يقال:"إن فلانا لفاضل كل فاضل"). تفسير الطبري - باختصار.

ويؤيد ذلك قوله تعالى وهو يخاطب الكافرين يوم القيامة في معرض إقامة الحجة عليهم: إنه لا عذر لهم وقد كانت آياته " **تُتلى**" عليهم، ولم يقل "تُقرأ":

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] [1]

وإلى هنا تكون الدعوة إلى عبادة الله **تعالى** وحده في إطار الإنذار وإقامة الحجة، على أساس فكرة الرسالة، مجرّد البيان، دون التعرض لـ "طاغوت" المخاطبين بشكل مباشر، أي دون "كشف الطاغوت" [2]..

هذا هو الموقف الشرعي (الضابط الشرعي) للرسول والجماعة المؤمنة في **بداية** بلاغ الرسالة.. وبعد ذلك، فإن أقوام رسل الله، حتى خاتمهم.. كانت مواقفهم من الحق - بقيادة الملأ - متصاعدة في التكذيب، وفي أطوار أساسية ومحطات بارزة.. حيث **اختاروا** الإصرار على رفض الحق وقد بلغهم بلاغاً مُبيناً.. ولكل طَوْر تفاصيله، خطاباً وأعمالاً. وهي كالتالي:

الطّوْر الأول :

نظرة مجملة لهذا الطّوْر.. ونستمر مع آيات سوَرة إبراهيم:

1 - أنظر الآيات التي وردت فيها كلمة (تُتلى)، تجدها جاءت في سياق البلاغ والدعوة وبيان مواقف المخاطبين مما سمعوا من الآيات وإقامة الحجة الرساليّة، يعني كمعالجات للواقع الإنساني. أما القراءة فتأتي في سياق عموم القراءة لآيات الله؛ في الصلاة وفي غيرها: (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) المزمل، وفي سياق وجوب التزام القارئ للقرآن بالكيفية التي سمعه بها وتلقاه فيها دون زيادة أو نقصان: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} القيامة. أي نقل القرآن كما سمعه.

2 - الطاغوت هو: ((كل ذي طغيان على الله الإله الحق، عُبد وأُطيع أمره مع الله أو من دون الله عزّ وجلّ، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا أو وثنا أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء)). (تفسير الطبري). هذا، والأصل في دعوة الناس إلى عبادة الله ليس التعرّض لطاغوت المجتمع وكشفه ابتداءً، بل هو الدعوة إلى عبادة الله وحده مع بيان مصير مَن آمن ومصير مَن كفر (خطاب النذارة).. وتقوم تلك الدعوة على أساس تذكير الناس بالله جلّ وعلا **وتلميسهم** آثار إلهيته في الآفاق من حولهم وفي أنفسهم حتى **يشهدوا** أن الله هو وحده الإله الحق الذي يستحق الطاعة والعبادة.. مع تحميلهم المسؤولية عمّا بلغهم من الحق ببيان مصير من آمن بأنه في رضوان الله وجناته ومصير من أعرض بأنه في غضب الله وعذابه. وبعد البيان الواضح الكافي فإن أصرّ الناس على طاغوتهم، طاعة واتباعاً ودفاعاً عنه.. ففي هذه الحال يصبح كشف باطل طاغوتهم مطلب شرعيّ وبيان فساد طاعته ضرورة، لأنه صار عقبة في طريق تحقيق الناس عبوديتهم لله الإله الحق **عزّ وجلّ**.. فيدخل رسلُ الله - ومعهم المؤمنون - في صراع فكري سياسي مع المجتمع وملئه على أساس: أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير. حتى يحكم الله تعالى بين الفريقين.. وهذا ما كان مع الرسول الخاتم ورسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً **أَنِ** اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ **الطَّاغُوتَ** فَمِنْهُم مَّنْ **هَدَى** اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ **الضَّلالَةُ** فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ **عَاقِبَةُ** الْمُكَذِّبِينَ {36}) النحل.

﴿..فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

أي، وبعد أن جاءتم رسلهم بالبينات - كما ذكرنا في النقطة السابقة - عَضّ أقوام رسل الله أيديهم غيظًا واستنكافًا عن قَبول الإيمان [1]، وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به، وإنا لفي شكٍّ موجب للريبة، مما تدعوننا إليه من عبادة الله وحده وترك ما سواه.
وبعد هذا الموقف الرافض – من أقوام الرسل - لِما بلغهم من الحق، قام رسل الله بما يجب عليهم من الرد على أقوامهم بالجواب الشرعي (المعالجات):
"فقالت لهم رسلهم منكرين عليهم: أفي إلهية الله وعبادته وحده.. ريب !!؟، وهو خالق السموات والأرض، ومنشئهما من العدم على غير مثال سابق !!، وهو يدعوكم إلى عبادته وحده ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك، ويدفع عنكم عذاب الاستئصال، فيؤخر بقاءكم في الدنيا إلى أجل قدَّره، وهو نهاية آجالكم، فلا يعذبكم في الدنيا !!"

موقف مجتمع مكة ومَلَئه (الضابط السننيّ):

كذلك، مثل سَلَفهم، اختارت قريش وملؤها **رفض** الحق الذي بَلَغهم [2]، فكان موقفهم في **البداية**، إظهار التعجب منه والتشكيك بصحته وأنه مثير للريبة، أي؛ أنه موضعٌ للاتهام وظن السوء.. والتهوين من شأنه وشأن أهله، وإظهار عدم الاهتمام واللامبالاة..
وكان ذلك من بداية البعثة حتى السنة الثالثة.

الموقف الشرعي لرسول الله والذين آمنوا معه (الضابط الشرعي):

وكان موقف رسول الله الخاتم والذين آمنوا معه: الاستقامة على ما أمر الله عزّ وجلّ به - في ما أوحاه لنبيّه - والاستمرار في بلاغ وبيان ما يُنزّل من الرسالة هدايةً للناس. فبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من الدعوة إلى عبادة الله وحده على أساس "فكرة الرسالة" البيّنة الواضحة، وفي إطار "خطاب النذارة".. كانوا يقومون بسائر ما جاء في هذا الطّوْر من "أعمال صالحة" وتكاليف شرعيّة، وأبرزها الصلاة.. وكذلك تَدارُس وحِفظ ما كان يتنزّل من آيات القرآن وتدبُّرها والتفكُّر فيها كمعالجات لواقعهم، أي لتنزيلها كمعالجات للواقع (التعليم والتزكية).. وهي - في الأساس - معالجات فكرية، تقوم على **مشاهدة** آثار إلهيّة الله، الإله الحق في الآفاق والأنفس والتفكّر فيها.. حتى **يشهدوا** أن الله وحده هو الإله الحق للكون والإنسان

1 - "للعلماء في تفسير هذه الجملة (ردّوا أيديهم في أفواههم) آراء كثيرة، كلها تدور حول الإنكار والتكذيب والسخرية بالرسل".
2 - في مثل قوله تعالى: (كَذَلِكَ **مَا** أَتَى الَّذِينَ مِن **قَبْلِهِم** مِّن رَّسُولٍ **إِلَّا** قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{52} **أَتَوَاصَوْا بِهِ** بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{53}) الذاريات.

ولجميع الخلق، المستحق وحده للعبادة والطاعة لأمره.. مع بيان الجزاء والمصير لمن آمن واتبع، ولمن كفر وأعرض [1].

هذا، والراجح في الصفات العامة للخطاب ولأعمال السير التي التزمها المؤمنون بقيادة الرسول الكريم في الطّوْر الأول هي:

- ✓ "فحوى الخطاب" في هذا الطّوْر، يدور حول "خطاب النذارة".. أي فكرة أن الله جلّ وعلا وحده الربّ الحق الذي يجب أن يُعبد، والإله الأحد الذي تجب الطاعة لأمره، يعني أنه لا إله إلا الله فاعبدوه، مع إنذار المكذّبين بعذاب الله، وتبشير المؤمنين برضوان الله.. و دُون التعرّض لـ "طاغوت" المجتمع بشكل مباشر، أي دُون " كشف الطاغوت".. وذلك من خلال تلاوة ما كان يتنزّل من آيات الله على الناس وبيانها كمعالجات فكرية وأدلة وبيّنات على الحق.
- ✓ العلانيّة والجهر في خطاب المجتمع - عامة الناس والملأ - بـ "خطاب النذارة"، والذي كان يُباشره - بشكل أساس، رسول الله ﷺ.
- ✓ السّريّة في التجمّع واللقاء، لمَن آمن، للتعليم والتزكية. حيث كان المؤمنون يَلْتقون مستَخْفين في شعاب مكة المكرّمة، لتعلّم ما كان يُنزّل من آيات القرآن ومدارستها والتفكّر بها، وحفظها والصلاة بها [2].. وعيش اليوم الآخر كأنما يرونه رأي العين.. حيث قال النبي ﷺ: { من سرّه أن **ينظر** إلى يوم القيامة **كأنه رأي عين** فليقرأ: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ)} [3].

1- كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ{190} الَّذِينَ **يَذْكُرُونَ** اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ **وَيَتَفَكَّرُونَ** فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا **عَذَابَ النَّارِ**{191} رَبَّنَا إِنَّكَ مَن **تُدْخِلِ النَّارَ** فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{192} رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ{193} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ **تُخْزِنَا** يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ{194}) آل عمران.

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)) يونس... وما شابهها من الآيات.

2 - انظر (صحيح السيرة النبوية)- إبراهيم العلي. (الرحيق المختوم)- للمباركفوري. و(الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) - د محمّد خير هيكل. و(أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه) - د علي بن نفيع العُلياني، وقد فصّل القول في هدي رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، في الإسرار والجهر بالدعوة إلى الله.

3 - رواه الترمذي عن ابن عمر، (التاج الجامع للأصول) - ج 4 ص 252. نقول: وهذا دليل على أن القرآن الكريم يرتقي في أسلوبه لدرجة أن يصيغ بالكلمات صوراً للأحداث وهي تجري وتتحرك، بحيث أن

✓ الإنذار يكون بالمصير والجزاء في اليوم الآخر فقط، وليس في الدنيا. أي، بالتخويف من غضب الله وعذابه الأليم المقيم في النار.. والتبشير والترغيب في رضاه وثوابه في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. كل ذلك في اليوم الآخر، دون ذكر الجزاء والمصير في الحياة الدنيا، والذي ورد ذكره متأخراً في هذه المرحلة.

الطّوْر الثاني :

نظرة مجملة لهذا الطّوْر.. ونكْمل مع الآيات من سوَرة إبراهيم:

﴿..قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

أي وبعد بيان رسل الله للحق - في الطور الأول - لم ترعوي أقوامهم بل أصرّوا على الباطل وصعّدوا موقفهم، فقالوا لرسلهم: ما نراكم إلا بشرًا صفاتكم كصفاتنا، لا فضل لكم علينا يؤهلكم أن تكونوا رسلاً. تريدون أن تمنعونا من عبادة ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام والأوثان، فأتونا بحجة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون.
ولما سمع الرسل ما قالوه، **أجابوهم** (المعالجات): حقًا ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم، ولكن الله يتفضل بإنعامه على مَن يشاء من عباده فيصطفيهم لرسالته، وما طلبتم من البرهان المبين (آية مادية أو معجزة)، فلا يمكن لنا، ولا نستطيع أن نأتيكم به إلا بإذن الله وتوفيقه. وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون في كل أمورهم، وكيف لا نعتمد على الله، وهو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه؟ **ولنصبرنَّ** على **إيذائكم** لنا بألسنتكم وأيديكم، وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم وهزيمة أعدائهم.

موقف مجتمع مكة ومَلئه (الضابط السننيّ):

وكذلك ما كان من قريش، فقد أصرّت وملؤها على عدم إجابة **دعوة** الله **تبارك وتعالى** لعبادته، بطاعة أمره واتباع رسوله، في إطار "خطاب النذارة".. رغم البيان الواضح والحجة الساطعة والنذارة بعذاب الله، والبشارة برضوانه وجنته.. فأخذوا في تصعيد موقفهم.. فبدأوا في إثارة الشبهات، والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق.. وإظهار الإيذاء النفسي للمؤمنين؛

المتلقّي وهو يسمع الكلام، كأنه يُشاهد بعينيه الأحداث حيّة تتحرك أمامه. وهذا دليل على لزوم جعل النص القرآني هو الأصل في خطاب الناس وفي التعليم والتزكية، مشفوعاً بالبيان اللازم فالتأثير على الحقيقة إنما هو لكلمات الله؛ أي للنص القرآني. ومن العوامل المهمة لتأثير آيات القرآن هو تذوقها، أي تذوق جمال النص والتعود على أسلوب القرآن في عرض وبيان الحقائق.. الأمر الذي يجب مراعاته عند بيان الآيات، لردم الفجوة الحاصلة بين المتلقين الآن وبين الفهم المباشر لآيات الله، بسبب بعد الناس في هذا الزمان عن اللغة العربية.

ومنه التكذيب والاستهزاء وإطلاق الأوصاف الكاذبة على مَنْ كان يعبد الله ويدعو إليه؛ أصحاب لا إله إلا الله محمّد رسول الله:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾ [الكهف: 56]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنعام: 25-26]

ثم ما لبث أن تحوّل الأمر بين الطرفين إلى صراع ذي طابع فكريّ سياسيّ، أساسه ما نُزّل من القرآن الكريم، سواء في فكرته وموضوعه أو في "منهج خطابه"، كما يبيّنه قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ [الفرقان]،،،

أي جاهدهم بالقرآن [1]..

فكان "جهاداً بالقرآن" ذا طابع فكريّ سياسيّ، **الأصل** فيه؛ كلمات الله عزّ وجلّ. وموضوعه تعيين الربّ الحق والإله الذي تجب **الطاعة** لأمره في قريش؛ الله أم طاغوتهم؟، ولِمَن يكون **الاتباع**، للرسول محمّد ﷺ، أم للملأ منهم؟، مع بيان المصير.. كما هي قولة رسل الله الكرام: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء 108، 110،126،131،144،150،163،179. آل عمران50 ،الزخرف63).

وكما هي سنة الله **جلّ وعلا**:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ.. (٦٤)﴾ [النساء: 64]

وبثبات رسول الله والمؤمنين معه على الحق، وقولهم: "ربُّنا الله".. وإصرار الملأ من قريش على رفض الحق:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) ﴾ [الجاثية: 6-9]

---

1 - بشهادة سياق الآيات، وبما أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة والوسع في مدافعة العدو، وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم، وبيان حقائقه لهم لإبطال شبهاتهم وأراجيفهم، وإتمام حججه عليهم، أي "الحجة الرسالية" التي ليس بعدها عذر عند الله. ﴿جِهادًا كَبِيرًا﴾ أيْ: لا يُخالِطُهُ فُتُورٌ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ [لقمان: 6-7]

أخذ الملأ الذين كفروا من قريش في تصعيد موقفهم من الحق وأهله، والزيادة في **الإيذاء** النفسي والبدني للمؤمنين، بأشكال ودرجات مختلفة.. من تضييق عليهم وتعذيب وقتل.. حتى وصل الأمر بهم إلى سابقة لم يعهدوها؛ إلى المقاطعة التامة والحصار الشامل للمؤمنين ومَن ناصرهم، في شِعب بني هاشم..

وقد حصلت أحداث هذا الطّوْر في الفترة ما بين السنة الرابعة وحتى العاشرة للبعثة..

الموقف الشرعي لرسول الله **والذين آمنوا معه (الضابط الشرعي):**

وأما رسول الله الخاتم، وفي خضم تلك الأحداث المتلاحقة والمتصاعدة في الشدة، كان لا بد من تقديم المعالجات الشرعية بشكل دائم، سواء في سياق " الخطاب" أم "الأعمال"؛ من فضح مواقف أهل الباطل من قريش وملئها، وكشف شبهاتهم.. وتثبيت المؤمنين ومعالجة الأثر السلبي لمواقف قريش وملئها عليهم، إن كان على الصعيد الفكري والنفسي أو على صعيد الأعمال واتخاذ الإجراءات المناسبة..

فكان البدء بـ "الصراع الفكريّ" أو "الجهاد بالقرآن" من خلال "كشف الطاغوت".. أي كشف الباطل الذي عليه طاغوتهم - بأشكاله المختلفة - وإزالة اللبس الذي عندهم بينه وبين الإله الحق، فما يعبدونه ليس إلهاً ولا يستحق الطاعة والعبادة والاتباع.. وكل ذلك بالحجة الدامغة، وبجرأة وصراحة، دون الخشية في الله لومة لائم.. وكل ذلك بالوحي، بلاغاً مبيناً:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ.. (٤٥)﴾ [الأنبياء: 45]

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ.. (١٩)﴾ [الأنعام: 19]

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ [ق: 45]

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾ [إبراهيم: 52]

أي، هذا القرآن بلاغ للناس ونذارة لهم..

فهذا "الجهاد" لقريش ومَلَئِها.. بطابعه الفكريّ السياسيّ.. كان السلاح الرئيس فيه والسلاح الفعّال، هو ما كان **يُنزّل** من آيات القرآن الكريم - أولاً بأول - فكرةً وموضوعاً، كلماتٍ وطريقة خطاب:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس: 15]

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾ [الحج: 72]

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ [القلم: 51-52]

وكان لا بد أيضاً - في أثناء ذلك الجهاد الفكريّ السياسيّ بالقرآن - من الأمر بالصبر والمصابرة على الأذى المعنوي والمادي من قريش وملئها.. **والتواصي** بالصبر.. كما ورد في العشرات من الآيات..

وكان اتخاذ إجراء "الموت والحياة" بالنسبة للاستقامة والثبات على سبيل الله ودعوته، والاستعداد لتقديم التضحيات المالية والبدنية.. مع القيام بالأعمال اللازمة، واتخاذ الإجراءات المناسبة لتخفيف الأذى عن المؤمنين وتثبيتهم على الحق.. كما تشير الروايات التالية:

- ✓ اشتكت قريش رسولَ الله ﷺ إلى أبي طالب، فناداه وقال له: (إنّ بني عمّك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: (أترون هذه الشمس) قالوا: نعم، قال: {فما أنا بأقدر أن أَدَعَ ذلك منكم على أن تشعلوا منه بشعلة}. وفي رواية: {والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار}) [1].
- ✓ وقال رسول الله ﷺ: (.. فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) **يعني الموت** [2].

هذا، وقد كان الأمر بـ **" كف اليد"** عن القتال وعن الأعمال المادية، أمراً ثابتاً في حق رسول الله والجماعة المؤمنة معه طوال هذه المرحلة بأطوارها الثلاثة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾ [النساء: 77]

كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس:

---

1 - إسناده صحيح، رواه الحاكم والطبراني وأبو يعلي ، (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

2 - صحيح، أخرجه البخاري. وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية. (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. نقول: وإن كانت هذه الرواية في المدينة المنورة، إلا أنها تصف الموقف الدائم والثابت لرسول الله ﷺ في بلاغه الرسالة، منذ بداية بعثته حتى اختار الرفيقَ الأعلى، كما تشهد بذلك سيرته العطرة ﷺ. فجزاه الله تعالى عنّا خيـرَ ما يجزي نبياً عن أمته.

(أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له، أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله ! إنا كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة ! فقال: {إني أمرت بالعف، فلا تقاتلوا}. فلما حوّلنا الله إلى المدينة، أُمرنا بالقتال فكفّوا، فأنزل الله عزّوجلّ: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ }) [1].

حتى أنّ تُهمة المؤمنين **الوحيدة** كانت أنهم يقولون: (ربُّنا الله).. كما قال أبو بكر الصدّيق لقريش مدافعاً عن رسول الله: (أتقتلون رجلا أن يقول: ربّي الله، وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم) [2]..

وكما في قوله تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾ [البروج: 8-9]

وتلك هي النتيجة الطبيعية للالتزام الدقيق والصارم من قِبَل رسول الله - والذين آمنوا معه - بالطرح الفكري موضوعاً ومَنهجاً.. يعني بما كُلّف به رسول الله من الاقتصار على مخاطبة الناس بـ "فكرة الرسالة" في إطار "خطاب النذارة".. وكشف الشبهات والتلبيس على الحق.. كما جاء في السور المكيّة في بضع عشرة آية، من قصرٍ لمهمة الرسول ﷺ على كونه نذيراً و بشيراً.. في مثل قوله تعالى:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)﴾ [الحج: 49]

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) ﴾ [فاطر: 23]

من أبرز سمات "الطّوْر الثاني" وأحداثه ومواقفه، إضافة لما سبق وتفصيلاً:

1- تعهّدت كل قبيلة بتعذيب من استجاب لدعوة الله من أفرادها - الذين كُشف أمرهم أو أظهروا إسلامهم - وفِتْنتهم عن دينهم، وخاصة الضعفاء والفقراء الذين ليس لهم مَنْ يحميهم..

ولم يستطع الرسول الكريم أن يُقدّم لهم الحماية.. بل كان يحثهم على **الصبر** مقابل الوعد **بالجنة**، في مثل قوله: (صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة) [3]..

وكما في الرواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

---

1 - صححه الألباني - صحيح النسائي - الصفحة أو الرقم 3086. أنظر (صحيح أسباب النزول) - إبراهيم العلي.

2 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم:4815 أنظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي.

3 - حسن صحيح، الألباني - فقه السيرة - الصفحة أو الرقم 103. نقول: هنا تبرز أهمية وضرورة "عيش اليوم الآخر" في عملية تزكية المؤمنين، وكأنهم يرونه رأي العين.. قبل القيام بخطاب الناس ودعوتهم لعبادة الله وحده. من باب إعدادهم لتحمُّل تبعات الدعوة: (ولربك فاصبر) المدثر.

(أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمّار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأعطوه الوِلْدان وأخذوا يطوفون به شِعاب مكة وهو يقول: أَحَدٌ أَحَد) [1]..

واستمر الأمر على ذلك، ما شاء الله له أن يستمر..

2- ثم أَمر رسولُ الله ﷺ المسلمين - من استطاع منهم - بالهجرة إلى الحبشة حمايةً لهم من الفتنة.. وأمّر عليهم جعفر بن أبي طالب، وأمّا مَنْ بقي في مكة فأخذ يلتقي بهم سراً في دار الأرقم. وذلك في السنة السادسة للبعثة.. وقد بيّن الله **تعالى** للمؤمنين، أنهم إنْ كانوا في ضيق من إظهار الإيمان وعبادة الله وحده، فأرض الله واسعة فليهاجروا إلى حيث يعبدون الله وحده، ويتمكنون من إقامة دينهم، وأجرهم على الله **تبارك وتعالى**:

﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت: 56]

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [الزمر: 10]

وفي هذه الأثناء أسلم حمزة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب - **رضي الله عنهما** - فعمّ شعور بالأمان وقوة في العزيمة بين المسلمين، كما في الرواية عن عبد الله بن مسعود **رضي الله عنه**: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [2]..

3- أدركت قريشٌ أن الإجراءات السابقة من "الكيد"، أي فتنة المسلمين وإيذائهم وتعذيبهم.. قد فشلت في وقف انتشار الدعوة إلى عبادة الله.. وخاصة بعد إسلام شخصيات بارزة في المجتمع بمثل وزن حمزة وعمر **رضي الله عنهما**.. فأخذت قريش تُصعّد في **كيدها** ضد الذين استجابوا لدعوة الله تعالى وآمنوا به واتبعوا رسوله، فلجأ الملأ الذين كفروا منها إلى أسلوب تعبئة الناس وحشدهم ضد المؤمنين، بل ومَن يحميهم ويآزرهم أيضاً، حتى اجتمعت قريش كلُّها على معاداتهم، وقرروا أن يُغالوا في استخدام القوة على الجماعة المؤمنة، والاستقواء عليهم واستضعافهم، وتوحيد الجهود ورصّ الصفوف في ذلك، حتى وصل الأمر بهم إلى سابقة خطيرة، وهي أن "قريشاً **تحالفت** مع بني كنانة على محاصرة النبي ﷺ ومَن اتبعه من المؤمنين، بل ومَن أيّده وناصره من أقاربه، في شِعب بني هاشم، ومقاطعتهم جميعاً فلا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله.. وكتبت قريش بينهم كتاباً.. ودخل رسول الله وأهل بيته الشِّعب"..

---

1 - مسند أحمد - الصفحة أو الرقم 5/319 - أحمد شاكر : إسناده صحيح. أنظر(صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

2 - صحيح البخاري - 3684. أنظر(صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

وكانت البداية في السنة السابعة للبعثة، واستمرت ثلاث سنوات.. وهو ما يشير إليه تعبير "جمع الكيد" في القرآن الكريم كما في سوَرة طه (64)، أوكلمة "الجمع" في سورة القمر (44-45).. وأيضاً لفظتا "الجُند" و "الأحزاب" كما في سوَرة ص [1] وغيرها من السوَر **المكية**..

وقد وصف النبي ﷺ هذه المقاطعة بقوله: (تَقاسَموا على الكفر) [2]، أي تحالفوا.. و هُمْ "**المقتسمون**" الذين جاء ذكرهم في سوَرة الحجر:

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾ [الحجر: 89-91]

أي، أنذر قريشاً إنذاراً بيّناً واضحاً أنه سيصيبهم العذاب مرة أخرى، يعني يوم بدر.. كما أصابهم سابقاً، يعني القَحط والجَدب حتى باتوا يرون مثل الدّخَان.. حينما تقاسموا، أي تحالفوا على الكفر، وكذّبوا بالقرآن فقذفوه بالباطل، وقيلهم إنه شعر وسحر وما أشبه ذلك، يُصرِّفونه بحسب أهوائهم، ليصَدّوا الناس عن الهدى [3].

4- بذلك **التصعيد** لموقف المكذّبين بالحق في العداء لأهل الحق، أي بالحصار والمقاطعة، دخلت قريشٌ وملؤها في سُنّة جديدة من سنن الله **تعالى** في السير بالرسالات في القرى (المجتمعات)، وهي: سنة "الأخذ بالبأساء والضراء" أو "العذاب الأدنى" وهو نوع من العذاب المادي غير مدمّر، يصيب به الله عزّوجلّ القرى بعد جحودها بالحق بعد عِلْمهم به، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً، **تأديباً** لهم لعلّهم يضّرعون إلى الله عزّوجلّ ويتوبون.. فإن رجعوا إلى الله، رفع الله **تعالى** عنهم هذا العذاب..

وإن عادوا إلى الكفر بعد ذلك، يرفعه الله **تعالى** عنهم أيضاً.. ولكنّهم يُوقعون أنفسهم في سنّة جديدة، هي سنّة "الإمهال" أو "الاستدراج"، حيث **يفتح** عليهم أبواب كل شيء من الدنيا **ليتمتّعوا** فيها زمناً قليلاً، وفي نفس الوقت، **ينذرهم** بعذاب أليم شديد سيصيبهم أثناء ذلك – وهو الذي ورد ذكره في آية سورة الحِجر - وهو عذاب استئصال ودمار في الدنيا، يأخذهم بغتة من حيث لم يحتسبوا، وهو "العذاب الأكبر" في الدنيا. فإن تداركوا أنفسهم بالتوبة إلى

---

1 - أنظر سبب نزول الآيات (1- 7) في (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. وحدث ذلك في مرض وفاة أبي طالب أثناء الحصار في الشِّعب. من السور التي وردت فيها كلمة "الأحزاب" في نفس السياق: غافر (5، 30)، هود (17).

2 - عن أبي هريرة: (قال النبيُّ ﷺ، من الغدِ يومَ النحرِ، وهو بمنى: نحنُ نازلونَ غدًا بخَيْفِ بني كِنَانَةَ، حيثُ **تقاسموا** على الكفرِ. يعني ذلكَ المُحَصَّبِ، وذلك أنَّ قريشًا وكِنَانَةَ، تحالفتْ على بني هاشمٍ وبني عبدِ المطلبِ، أو بني المطلبِ: أن لا يُناكحوهم ولا يُبايعوهم، حتى يُسَلِّمُواْ إليهمُ النبيَّ ﷺ).البخاري 1590 ومسلم 1314. أنظر(صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. ((وفي هذا الحديثِ أشارَ النَّبيُّ ﷺ لِلمكانِ الَّذي تَقاسَموا، أي تَعاهدوا فيهِ على إيذاءِ النَّبيِّ ﷺ وعلى الكُفرِ، فقالَ لهم في يومِ النَّحرِ في الحجِّ: نحن نازلون غدا بِخِيفِ بني كِنانةَ، والِخيفُ الوادي، وهذا المكانُ هو الْمُحَصَّبُ، وهو بَيْنَ مكَّةَ ومِنًى)). أنظر موقع الدرر السنية.

3 - أنظر تفاسير (الطبري، أبو حيان، أبو السعود). وقد أجاد أبو السعود في تحقيق معنى "المقتسمين". الشرح والبيان في النقطة التالية.

الله واتّباع رسوله وإخلاص الدين لله.. رفعه الله عنهم ولم يُصبْهم. أما إذا أصرّوا على اتباع الملأ منهم في جحودهم بالحق وصدّهم عن سبيل الله.. أنزله الله بهم فدمّرهم، وعندها لن ينفعهم إيمانهم إنْ آمنوا.. وهذه سُنةٌ لله عزّ وجلّ دائمة جارية، يصيب بها كل الأقوام والأمم المكذّبة لرسلهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف: 94-96]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام: 42-45]

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ [السجدة: 21-22] [1]

ومن الأمثلة الأكثر تكراراً في القرآن الكريم لمَنْ انطبقت عليه سنّة "العذاب الأدنى" - وقد ضربها الله **تعالى** عبرة لمن يعتبر - ما حصل مع فرعون ومَلَئه وجنده، وقد اتبعوه على كفره

1- إن المكذبين برسالات الله لهم مستويين (درجتين) من العذاب في الدنيا، كما بيّنته آيات سورتي الأعراف والأنعام السابقة؛ الأول: الأخذ بـ "البأساء والضراء"، والحكمة منه "التأديب" ودفْع الناس الذين كفروا بالآيات البيّنات إلى الهدى (لَعَلَّهُمْ يضرّعون) الأنعام، الأعراف، وهو الفرصة الأخيرة لهم.=> المستوى الثاني: "الأخذ بغتة" - وهو الذي أنذرهم به في آية سورة الحِجر - ويقع بهم إذا لم يرجعوا إلى الله تعالى ونسوا ما ذُكّروا به، رغم ما أخذهم الله بـه من "البأساء والضراء".. حينذاك يفتح الله عليهم الدنيا استدراجا وإملاءً فيفرحوا بها ويزدادوا كفراً، وأثناء ذلك يأخذهم الله بغتة، أخذاً أليماً شديداً بعذاب استئصال ودمار: (فقُطع دابر القوم..) الأنعام. كما في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} هود/102. فإذا نظرنا في ضوء ذلك، إلى آيتي سورة السجدة (21- 22). نرى أن هذه المفاضلة في الْعَذَابِ بين (الْأَدْنَى) و (الْأَكْبَر) هي مفاضلة بين درجتي عذاب الله للكافرين في الحياة الدنيا. بقرينة قوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي بعد "العذاب الأدنى"، فهو ليس عذاباً مدمّراً أو عذاب استئصال، لأنه يمكن بعده الرجوع والتوبة، فهو الأخذ (بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون) الأنعام، الأعراف. أما "العذاب الأكبر" فهو الدرجة الثانية من عذاب الدنيا، أي الاستئصال والهلاك والموت:(إنّا من المجرمين منتقمون) السجدة،،، فليس بعده إلا الآخرة وعذابها. كما في قوله تعالى: (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقُطع دابر القوم..) الأنعام. هذا، وقد وردت لـ "العذاب الأكبر" في الدنيا تسميات أو أوصاف أخرى في السياقات القرآنية المختلفة، مثل "العذاب الأليم"، "عذاب الخزي"، "عذاب شديد"، "يوم الفتح"، وأنه يمثّل انتقام الله جلّ جلاله من المجرمين.. الخ. هذا، وقد يرد في آيات أُخرى تعبير "العذاب الأكبر" وصفاً لعذاب الله للكافرين في الآخرة. وحسب السياق والقرائن يُرجّح المعنى المقصود. وفي ما يلي من البحث مزيد من البيان والتوضيح.

بالحق الذي جاء به موسى عليه السلام، حيث أنزل الله **تعالى** بهم "العذاب الأدنى" لعلّهم يذّكّرون ويرجعون، وهي الآيات المفصَّلات؛ السنين والدّم والجَراد والقُمّل.. الخ، فكلما أصابتهم واحدة، وعدوا بالرجوع إلى الله والتوبة، فيكشفها الله **تعالى** عنهم، إلا أنهم كانوا ينكثون، فيصيبهم الله بالأخرى.. ثم هم ينكثون.. وهكذا، حتى أصبح الكفر موقفاً نهائياً لهم، فانتقم رب العالمين منهم فدمّرهم بـ "العذاب الأكبر"، وجعلهم عبرة لغيرهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)﴾ [الأعراف] [1]

وقد جاء ذكر هذه الآيات (العذاب الأدنى) لفرعون وقومه في سوَر أخرى عدة، منها: يونس [75 -92]، النمل [9 -14]، الإسراء [101- 104]، الزخرف [46- 56].. فلم يؤمنوا - بسبب تكبّرهم وطغيانهم – حتى رأوا "العذاب الأكبر" في الدنيا، ألا وهو إغراقهم في اليم، وحينئذٍ لم ينفعهم إيمانهم، ولن ينفعهم:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ

---

1 - نَـوَد هنا أن نلفت الإنتباه، إلى أن الله تعالى لم يُفصّل لنا كثيراً عن "العذاب الأدنى" لأقوام الأنبياء والرسل، برغم أن "العذاب الأدنى" من سنن الله الثابتة في جميع دعوات رسل الله بدلالة عموم هذه الآية: (**وَمَا** أَرْسَلْنَا **فِي قَرْيَةٍ** مِّن **نَّبِيٍّ إِلاَّ** أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ{94}) **الأعراف**،، وحتى أقوام الرسل الذين وردت قصصهم في سورة **الأعراف** لم يرد عنهم تفصيل، إلا في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهي الآيات البيّنات التسع. هذا ورغم عدم التفصيل، إلا أن النص القرآني قد ذكر لنا قرائن بيّنة **تدل** على وقوع "العذاب الأدنى" بالمكذّبين، منها:

- **التطيّر**، أي تشاؤم القوم من رسولهم بعد وقوع العذاب الأدنى عليهم: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{130} فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ **يَطَّيَّرُواْ** بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا **طَائِرُهُمْ** عِندَ الله وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{131}) الأعراف،، فحيث ما ذَكَر الله تعالى لنا في القرآن أن القوم تطيروا من رسولهم، فهذا يعني أنهم أصابهم "العذاب الأدنى" حسب سنة الله تعالى في القوم أو القرية عندما تكذّب رسول الله إليهم، فهو من خصائص هذا الطور (الثاني) في حمل الرسالات:

{قَالُوا إِنَّا **تَطَيَّرْنَا** بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } يس18

{قَالُوا **اطَّيَّرْنَا** بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ }النمل47.

- ومنها كذلك، قوله تعالى: (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ)، ورد في السور المكيّة إشارةً إلى "العذاب الأدنى"، كما في سور: الأعراف131، الروم36، الشورى48. والله تعالى أعلم.

قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

أما لو أنّهم تداركوا أنفسهم وتابوا وآمنوا قبل أن ينزل بهم "العذاب الأكبر"، لرفعه الله **تعالى** عنهم ولم يصبهم، ولنفعهم إيمانهم حينئذٍ، كما حصل مع قوم يونس عليه السلام:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

فليس لله - عزّ وجلّ - حاجة في تعذيب خلقه، بل هو الغني الحميد ذو الرحمة، الشاكر العليم، جلّ ثناؤه:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء: 146-147]

أما بالنسبة لقريشٍ وملئها، فقد كان "العذاب الأدنى" أو "الأخذ بالبأساء والضراء" هو إصابتهم بالقحط والجفاف، حيث دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسنيّ يوسف، أي أيام قحط وجدب، وقد أصابهم الله بذلك حتى باتوا يرون مثل الدّخَان في السماء، وهو "الدُّخَان" المذكور في سوَرة الدّخَان. كما في الرواية الصحيحة عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - التي رواها الشيخان؛ البخاري ومسلم في عدة روايات متشابهة.. وهذه رواية لمسلم:

(جاء إلى عبدِ الله { ابنَ مسعودٍ} رجلٌ فقال: تركتُ في المسجدِ رجلًا يُفسِّرُ القرآنَ برأْيه. يُفسِّرُ هذه الآية: {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان10] قال: يأتي الناسَ يومَ القيامة دُخَان فيأخذ بأنفاسِهم. حتى يأخذَهم منه كهيئةِ الزُّكامِ. فقال عبدُ الله: مَن علِم علمًا فلْيَقُلْ به، ومن لم يعلمْ فلْيقُلْ: الله أعلمُ. فإنَّ مِن فقه الرجلِ أن يقول، لما لا عِلْمَ له به: الله أعلمُ. <u>إنما كان هذا؛ أن قريشا لما استعصت على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنيّ يوسف فأصابهم قحط وجَهد</u>، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدّخَان من الجَهد. وحتى أكلوا العظام. فأتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! استغفر الله لمُضر فإنهم قد هلكوا. فقال: (لمضر؟! إنك لجرئ) قال فدعا الله لهم. فأنزل الله عزّ وجلّ: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} { الدّخَان15}، قال فمُطروا. <u>فلما أصابتهم الرفاهية</u>، قال، <u>عادوا إلى ما كانوا عليه</u>. قال فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ

(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ [الدخان]. قال: يعني يوم بدر). [1]

وجاء في رواية للبخاري:

(بينما رجلٌ يحدّثُ في كنْدَةَ فقالَ: يجيءُ دُخَان يومَ القيامة، فيأخذُ بأسماعِ المنافِقِينَ وأبصارِهِم، يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُكامِ، ففَزِعنَا، فأتيتُ ابنَ مسعودٍ، وكان متَّكِئًا، فغضبَ، فجلسَ فقالَ: من علمَ فلْيقلْ، ومن لم يعلمْ فليقلْ: الله أعلمُ، فإنَّ من العلمِ أنْ تقولَ لِمَا لا تعلمُ لا أعلمُ، فإنَّ الله قالَ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)﴾ [ص]. وإنَّ قريشًا أبطَؤُوا عن الإسلامِ، فدَعا عليهم النبيُّ ﷺ فقالَ: (اللهم أعنّي عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ). فأخذتْهُم سنةٌ حتى هلَكوا فيهَا، وأكَلوا المَيْتَةَ والعِظَامَ، ويَرى الرجلُ ما بين السماءِ والأرضِ كهيئةِ الدّخَان، فجاءَهُ أبو سفيانَ فقالَ: يا محمّد، جئتَ تأمُرُنَا بِصِلةِ الرحمِ، وإن قومَكَ قدْ هَلَكُوا فادعُ الله. فقرأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) - إلى قولهِ - إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) ﴾ [الدّخَان]. أفَيُكشفُ عنهمْ عذابُ الآخرةِ إذا جاءَ ثمَّ عادوا إلى كفرهِم؟! فذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ يومَ بدرٍ، و (لِزَامًا) يومَ بدرٍ، (آلم غُلِبَتْ الرُّومُ - إلى - سَيَغْلِبُونَ). والرومُ قدْ مضَى) [2].

وفي عدة سوَر أخرى - بالإضافة إلى سوَرة الدّخَان - تناول القرآن الكريم حادثة الدّخَان أو "العذاب الأدنى" لقريش، وعالج موقفهم في هذه الفترة، إما تفصيلاً أو إجمالاً أو إشارة، أو بضرب الأمثال لهم بالأمم السابقة وقد دخلوا مثلهم في سنّة الأخذ بالعذاب الأدنى.. في مثل سوَر: النحل [53 -55]، والروم [33 -36/41 -42/51-53]، وهود [7-12]، والحجر [89-91]، والزمر [8/ 49-61].. الأعراف والأنعام والسجدة.. يونس والمؤمنون والطّوْر [3].. وغيرها:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ

---

1 - أخرجه مسلم برقم: 2798. والبخاري برقم: 4822،4821،4809،1007. (صحيح أسباب النزول)، (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

2 - البخاري - الصفحة أو الرقم 4774. نقول: قريش لم تتحمّل العذاب، فطلبت من رسول الله أن يستغفر الله لهم قبل أن يُتمّوا السنين السبع، والأمر لم يتجاوز سنوات الحصار الثلاث، كما يُفهم من آيات سورة الحجر (89-91) أنظر نقطة 4 . وما صح من روايات السيرة. أنظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي - المبحث الثاني وما بعده من الفصل السادس).

هذا، وكما أوقع الله تعالى في غزوة بدر "البطشة الكبرى" بقريش، فقد أوقع الله تعالى بأعدائه وأعداء أوليائه من يهود ومنافقين "بطشة كبرى" خاصة بهم، كما في الغزوات التالية لبدر.. فبعد كل ضربة لقريش كانت تأتي ضربة ليهود، وكانت غزوة خيبر آخرها بعد غزوة الأحزاب.

3 - أنظر تفسير الآيات المذكورة في تفسير (الجلالين، ابن كثير، الطبري).

أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾ [المؤمنون: 73-77]

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) ﴾ [الروم:41-42]

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾ [الطور: 45-47]،،، وهو الهلاك بعذاب الدنيا [1].

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس: 21]

أي، "وإذا أذقنا كفار مكة مطراً وخصباً من بعد بؤس وجدب مسّهم، بطروا، فاحتالوا لدفع آيات الله.. فليعلموا أن الله أسرع مجازاةً، وإن الحفظة من الملائكة يكتبون ما يمكرون" [2].. فإن لم يتداركوا أنفسهم؛ بأن يؤمنوا قبل نزول عذاب الاستئصال، لم ينفعهم إيمانهم إن آمنوا، ولن ينفعهم كما هي سنّة الله **تعالى** الدائمة الجارية في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الطاغية والعاتية على أمر ربها.. مثل فرعون وعاد وثمود.. فلم ينفعهم إيمانهم بعد أن رأوا العذاب:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر: 82-85]

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة: 28-29]

فهذه السُنّة الربّانيّة أو الآية الربّانيّة (الدّخَان)، أصابت قريشاً - وقد تمادوا في غيهم وظُلمهم - خلال فترة حصارهم رسول الله والمؤمنين ومن ناصرهم في شعب بني هاشم.. ثم رفعها الله **تعالى** عنهم بعد أن وعدوا بالتوبة وبعد استغفار رسول الله لهم - كما في الروايات

---

1 - عند المقارنة بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فلا شك أن عذاب الآخرة هو الأكبر وعذاب الدنيا مهما كان أليماً شديداً فهو الأدنى، كيفاً وكماً: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ {45} بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ {46}) القمر.. إضافة إلى ذلك، فإن العذاب ليس على درجة واحدة، فعذاب الدنيا منه ما هو أدنى ومنه ما هو أكبر، وكذلك عذاب الآخرة.. نعوذ بالله من جميع عذابه. لاحظ هنا عندما وصف الله تعالى عذاب الدنيا بـ (دون ذلك) لم يقل (لعلهم يرجعون) لأن المقصود بهذا العذاب (دون ذلك) هو عذاب الهلاك والدمار والموت، الذي ليس بعده إلا الآخرة وعذابها الأكبر.

2 - أنظر تفسير(الجلالين).وأيضاً (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز-الواحدي)، (الكشّاف- الزمخشري).

عن ابن مسعود السابقة - وذلك ربما، قُبيل فك الحصار في السنة العاشرة من البعثة أو تزامن معه، حيث رفضت مجموعة من قريش هذه المقاطعة الظالمة ونقضوا الوثيقة، وانفكّ الحصار.. إلا أن قريشاً وملأها بعد ذلك نكثوا وعدهم بالتوبة، ورجعوا إلى سابق عهدهم في معاداة الحق وأهله؛ رسولِ الله والذين آمنوا معه، بل وبصورة أشد وأعتى وبشكل مختلف، كما في الآيات السابقة من سوَر: الطّوْر والمؤمنون ويونس والدّخَان.. وخاصة بعد ذهاب نَصيريّ رسول الله ﷺ القويَّيْن، في نفس العام: زوجه خديجة رضي الله عنها، وعمّه أبي طالب، حيث مات أبو طالب بعد فك الحصار بفترة وجيزة، وتوفيت خديجة رضي الله عنها، بعده بزمن قليل.. وعندها بدأت قريش وملؤها في التجارؤ على إيذاء رسول الله بما لم يستطيعوه من قبل، فمنعوه أن يبلّغ رسالة الله عزّ وجلّ، حتى أنّهم صدّوه عن المسجد الحرام.. ومن ثَمّ، فقد استحقّت قريش وملؤها انتقام الله منهم في الدنيا قبل الآخرة، بـ "العذاب الأكبر".. فنزلت الآيات تنذرهم به، كما في الآيات التالية:

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ [الدخان: 15-16]

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾ [الحجر: 89-90]

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ [الشعراء: 214-216] [1]

وبهذا، بدأ الطّوْر الثالث؛ والأخير من المرحلة الأولى؛ مرحلة الاستضعاف.. وهو أشدّ طور وأثقله على رسول الله والمؤمنين معه.

الطّوْر الثالث :

نظرة مجملة لهذا الطّوْر.. وبها ننهي جولتنا مع آيات سوَرة إبراهيم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾ [إبراهيم: 13-17]

أي، "وقال الكفار لرسلهم: ليكونن أحد أمرين؛ إما أن نخرجكم من أرضنا، وإما أن تعودوا في ديننا، فأوحى الله إلى الرسل قائلاً: لنهلكنّ الجاحدين الذين كفروا بي وبرُسُلي، ولنسكننكم -

---

1 - لم ترد رواية ثابتة **تربط** بين نزول آيات سورة الشعراء وبين بداية الجهر بالدعوة وإنهاء السريّة. البيان في ما يلي من البحث عند الكلام بالتفصيل عن أحداث "الطور الثالث".

ومن تبعكم - الأرض من بعد إهلاكهم. وذلك الإسكان للمؤمنين أمر **مؤكد لمن** استحضر عظمتي ومراقبتي له، وخاف إنذاري له بالعذاب [1].
ولجأ الرسل إلى ربهم وسألوه النصر على أعدائهم والحكم بينهم [2] - لمّا يئسوا من إيمانهم - فاستجاب الله لهم ونصرهم، وهَلَك كل متكبر عن طاعة الله لا يقبل الحق ولا يُذْعن له، شديد العناد. وقد استقبل الهزيمة في الدنيا، ومن ورائه في الآخرة عذاب جهنم، ويُسْقى فيها من ماء كريه، وهو كالصديد يسيل من أجسام أهل النار"..

فالخط العام لهذا الطّوْر هو: **التهيئة** لـ "الفتح" والحُكْم بين الفريقين، لنصر المؤمنين وخزي الكافرين.

موقف مجتمع مكة ومَلئه (الضابط السننيّ):

فبرغم أن الملأ الذين كفروا من قريش - ومَنْ تبعهم على ضلالهم - قد دخلوا سنة الله بأخذ القرى بـ "البأساء والضراء" (العذاب الأدنى).. ورأوا من آيات الله **تعالى** ما رأوا.. إلا أنهم أخلفوا وعدهم بالتوبة - مثل أسلافهم - وعادوا إلى سابق عهدهم في رفض الحق وإيذاء أهله، بل بأشدّ وأعتى، حتى منعوا رسول الله أن يبلّغ كلام ربه **عزّ وجلّ**، وصدّوه عن المسجد الحرام، وتجرّؤوا على إيذائه بما لم يستطيعوه من قبل..! وبالتالي، فقد دخلوا في سُنّة جديدة من سنن الله **تعالى** في السير بالرسالات، ألا وهي سنّة "**الفتح**"، حيث يحكم الله **عزّ وجلّ** ويَفْصِل بين **الفريقين المتخاصمَين** في ربهما، بنصر أوليائه وأحبائه وبخزي أعدائه، بإنزال "العذاب الأكبر" في الدنيا عليهم. ولا رادّ لأمر الله **جلّ وعلا**.. إلا أن الله - برحمته، وكرامةً لرسوله - أمهل قريشاً وجعل لهم أمانَين من ذلك العذاب، برغم استحقاقهم له: فإما أن يستغفروا الله **تبارك وتعالى** ويعودوا إليه، أو أن يُبقوا رسول الله بينهم فلا يُخرجوه. كما في قوله تعالى:

---

1 - أنظر (تبيان سورة الأعراف) الآيات (138-158).. ولاحظ كيف أن وعد الله تعالى لقوم موسى عليه السلام بالتمكين واسكانهم مكان الذين ظلموا قد تأخّر كثيراً بسبب إخلالهم بشرط الله تعالى المذكور في الآية - طاعة الله وتعظيم أمره جلّ وعلا - متمثلاً بما عملوه من معاصي كبيرة بعد أن أنجاهم الله تعالى من فرعون وأهلكه في البحر.

2 - ((أي استنصرت **الرسلُ** ربَّها على قومهم (قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة)، وقال ابن أسلم: استفتحت **الأمم** على أنفسها، كما قالوا: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم}[الأنفال32]، ويُحْتَمل أن يكون مُرادا، وهذا مُرادا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر. وقال الله تعالى للمشركين: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }[الأنفال19])). أنظر مختصر تفسير ابن كثير - الصابوني.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [1] وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الأنفال]

فهُم إما أن يتوبوا إلى الله ويتّبعوا رسول الله.. أو أن يبقوا على كفرهم، ولكن يتركوا رسول الله يُكمل بلاغ الرسالة، عندها ينجوا من العذاب.. أما إذا أصروا على الكفر جاحدين معاندين، وأخرجوا رسول الله من بينهم، عند ذلك يُنزل الله "العذاب الأكبر" بهم قريباً، كما هي سنته عزّ وجل:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء]

فهذه سنة لله عامة: **"** النُّصرة والغلبة تأتي على إثر الهجرة (الإخراج) عن قريب. حيث أن النُّصح والدّعوة والصّبر، ثم البراءة والهجرة، ثم النّصر حتى يظهر الحق على الباطل.. ليس بأمر يَختصّ بمحمّد ﷺ، بل هذه سنّة الله برسله، وطريق عدله بخلقه**"**:

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾ [يوسف: 110]

"فعَلِمْنا أن النبيّ – أي نبيّ - إذا هاجر اقترب للناس حسابهم، فيَنتصر دينُ الله وينكسر الكفر. وهذه هي سنة الله.. فإنك ترى مما جاء في قصص الأنبياء؛ أن الإهلاك يأتي بعد الهجرة، ذلك أن الرسول أمان للأمّة ما دام فيهم، حتى إذا استيئس منهم وأُذن الله له بالهجرة فحينئذ يعلن الرسول بالبراءة ويهاجرهم [2].. عندها يكون قد اقترب الفتح والعذاب، فإن استدركوا على أنفسهم فاستغفروا وتابوا، رفع الله عنهم العذاب، كما حصل لقوم يونس. وإن لم يتوبوا ويستغفروا وقع بهم العذاب، كما ذكر الله **تعالى** ذلك في سوَرة الأنفال" في الآيتين السابقتين (33-34) [3].

هذا، وقد **اختص** الله عزّوجلّ هذه الأمّة الخاتمة بسُنّة مهمة في ما يتعلق بطبيعة ونوع عذاب الكافرين المُكذّبين بالرسالة الخاتمة، ألا وهي: أن عذاب الله **تعالى** لهم ليس كالكافرين من الأمم السابقة، عذّبهم بجنوده من السماء والأرض:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت: 40]

---

1 - كما في سورة الحج: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ، نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{25}).

2 - انظر مثلاً قصص الأنبياء في سورة الأعراف آية 79، 93.

3 - أنظر تفسير سورة الكافرون، في كتاب (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) - عبد الحميد الفراهي.

بل **الأصل** في عذاب الكافرين المُكذّبين بالرسالة الخاتمة، أن يكون قتلاً وأسراً، بأيدي المؤمنين، فهم الآن من جنود الله في الأرض، وأُمنائه فيها:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾ [التوبة: 14-15]

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة: 52]

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)﴾ [محمد]

لذلك، تأجّل نزول العذاب بقريش إلى ما بعد خروج رسول الله والمؤمنين من مكة والهجرة إلى المدينة، وبعد أن أصبحوا أمّة من دون الناس، وأصبح لهم دار وأنصار.. وذلك في يوم بدر؛ يوم " الفرقان"..

وعليه، فقد شاء الله عزّ وجلّ البدء في التهيئةَ - قدراً وشرعاً - لأمر خروج المؤمنين وهجرتهم، فالنصر حتى يحصل في الواقع الإنساني حسب سنن الله **تعالى** وتقديره، لا بد له من شروط وحيثيات ومقومات، ومن تهيئة وإعداد:

﴿..إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف: 100]

وهذا كله له سنن تضبطه، وأحكام شرعية لا بد من القيام بها.. فـ "سنّة الفتح"، سنة عامة تندرج تحتها تفاصيل. وهذا الطّوْر - الثالث - من السير، هو الظرف الذي حدثت فيه تلك السنن والمقدمات، القدريّة والشرعيّة، للتهيئة من أجل نصر المؤمنين، وإنزال العذاب على الكافرين الجاحدين.. ومن تلك السنن والمقدمات:

1- أمَرَ الله **تعالى** رسوله في البحث عن بديل لقريش بعَرْض نفسه على قبائل العرب. فبدأ رسول الله البحث في خارج مكة، لَعلّه يجد أحداً يوفّر له **الحماية** بدلاً من أبي طالب ويحمله إلى قومه، حتى يستطيع أن يستمر في تبليغ كلام الله **تعالى** ورسالته [1]، أو أن يجد

---

1 - إعطاء الحماية أو الجوار كان أمراً معروفاً مألوفاً عند العرب، وهو إما بدافع العَصبيّة والحَميّة، مثل ما كان يفعل أبو طالب مع رسول الله. أو من أجل الشرف والسمعة، كما أجار المُطعمُ بن عدي رسولَ الله بعد عودته من الطائف عندما لم يستطع دخول مكة. وكما دخل بعض الصحابة الكرام في جوار بعض سادة قريش.. وكان من مألوف العرب أيضاً أن العشيرة تبعٌ لسيدها، فإذا أسلم سيد العشيرة أسلمت العشيرة كلها أو معظمها، كما حصل مع سادة الأنصار إذ أسلم الناس بإسلامهم. وهو ما كان حريصاً عليه رسول الله في مكة، حيث اهتم بدعوة سادة قريش لعل قريشاً تُسلم، وعندما دخل عليه الأعمى أثناء ذلك وأشغله بالسؤال، عبس في وجهه، فأنزل الله تعالى قوله: (عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2}..). ومن الحكمة الاستفادة من واقع المجتمع وطبيعة العلاقات وتوظيفها لتحقيق الغاية من الرسالة في ذلك

من **يؤمن به وينصره**، وقد كفرت به عشيرته الأقربون، ومنعوه أن يبلغ كلام ربه، وصدّوه عن المسجد الحرام.. إلى أن جاء وفد الأنصار فآمنوا بالله واتبعوا رسوله، فكانت بيعةً على الإيمان، وليس ذلك فحسب.. بل اختاروا، رضي الله عنهم **وأرضاهم**، أن يؤوه وينصروه.. فسارَعَوا إلى البيعة الثانية، على إيواء رسول الله والمؤمنين ونصرهم.. فكانت بداية نصر الله **تبارك وتعالى** لرسوله، أن يسّر له من **يؤمن به** ويحمله إليه ويؤويه:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [الأنفال: 62]

2- أن قريشاً وملأها - وقد نسوا ما ذُكّروا به من الحق - دخلوا في سنّة "الإمهال" و"الإنظار" أو "الاستدراج" و "الإملاء".. من سنن الله في الجاحدين، وهي أن يفتح الله **تعالى** عليهم أبواب كل شيء من الدنيا ويمدهم بها، حتى إذا اغترّوا بما آتاهم الله وأخذوا "يتمتّعون" به، أتاهم "العذاب الأكبر" بغتةً في وقته المقدّر، فدمّرهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام:44-45]

أي، "فلما أصروا على ترك آيات الله **تعالى** معرضين عنها، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق استدراجاً منا لهم - وقد رفعنا عنهم ما أصابهم من سنين ودُخَان - حتى إذا بطروا، وأُعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعمة أخذناهم بالعذاب فجأة، فإذا هم آيسون منقطعون من كل خير..":

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف: 94-95]

3- أَمَا وقد بقي أهلُ الحق **ثابتين** عليه، وبقيت قريش وملؤها **مُصرّين** على الكفر بالحق ورفضه، فلم يكن أمامهم إلا خيار التصعيد لمواقفهم، حتى أصبح "الجحود" موقفاً ثابتاً ونهائياً لهم من رسالة الله **تعالى** ورسوله، وهو الكفر والتكذيب برغم يقينهم أنه الحق.. وقد دخلوا في سنة الله **تعالى** في الأمم المستكبرة على الحق:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [النمل: 14]

وقد استحقوا العذاب، وهو آتيهم.. ولكن، في موعده الذي جعله الله عزّ وجلّ له:

الواقع، وبالضوابط الشرعية. انظر بحث: (هدي النبوة في الانتقال من الاستضعاف إلى التمكين)، على الرابط:
https://drive.google.com/drive/folders/1ISfm4f09xgkXoVK60HmoMkaItU0PFwWW?usp=sharing

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)﴾ [الكهف]

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)﴾ [طه: 128-129]

.. إلخ

وقد أكّد الله تعالى ذلك الوصف لموقف قريش - بأنهم لن يؤمنوا، وأنهم استحقوا العذاب العظيم نتيجة لموقفهم ذاك من رسالة الله سبحانه وتعالى .. في سورة يس:

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس]

وأيضاً، في أوائل سورة البقرة في سياق بيان أصناف الناس: متقين، كافرين، منافقين، أهل كتاب، في المدينة المنورة بعد الهجرة وبداية تكوّن الأمة المسلمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: 6-7] [1]

وقد وردت الإشارة إلى هذا الوصف لمواقف الأمم السابقة من رسل الله - تعريضاً بقريش - في كثير من السوَر، من أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (العذاب الأكبر).. وقد أبصروا الآيات البينات، وعاينوا "الأخذ بالبأساء والضرّاء" أو "العذاب الأدنى".. ورغم ذلك كله لم يؤمنوا..

هذا، وفي إطار تصعيد موقفهم، أخذ الملأ من قريش في التفكير والتخطيط (المكر) إلى توجيه ضربة قاصمة للرسالة وإنهائها.. وذلك بالقضاء على صاحبها وحامل لوائها؛ رسول الله ﷺ:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

1 - استشكل بعض أهل التفسير هذه الآية : مَن المقصود بـ "الذين كفروا". ويزول الإشكال إذا نظرنا إلى الآيات في السياق السُنني للسير بالرسالة - كما ذكرنا - من حيث تصاعد مواقف "الذين كفروا" ؛ ويمثّلهم هنا قريش وقد استحقت "العذاب الأكبر"، لإصرارهم على الكفر.

خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال: 30] [1]

ولسان حال قريش ومقالها هو: " إما أن **تخرجوا** من قريتنا (مجتمعنا) أو **تعودوا** في ملتنا ودِيننا، **وتتبعوا** سادتنا وقيادتنا":

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء]

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ [محمد]

وهذه هي النهاية الطبيعية ، حسب سنن الله سبحانه وتعالى ، للعلاقة بين الفريقين المتخاصمَين في ربهما، في **حال ثبات** أهل الحق على الحق، **وإصرار** الفريق الآخر - الملأ وأئمة الكفر في القرية - على معاندة الحق واتباع الباطل:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ.. (٤٠)﴾ [الحج]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾ [إبراهيم: 13-14]

هذا، وقد وقعت أحداث هذا الطّوْر - الثالث - متسارعة في فترة زمنيّة قصيرة نسبياً: سنتين وبضعة أشهر، وهي ما بين بداية السنة الحادية عشر للبعثة وحتى الهجرة إلى المدينة المنورة، في بداية الثالثة عشر.

الموقف الشرعي لرسول الله والذين آمنوا معه (الضابط الشرعي):

الموقف الشرعي في الطور الثالث، مثّلته أبرز التكاليف الشرعيّة، وهي:

- ✓ **التأكيد** على **الصبر** على أذى قريش وفتنتهم، والصبر على أمر الله الشرعي والإستقامة عليه حتى يحكم الله بأمره؛ قدراً أو شرعاً:

---

1 - كما هي مواقف الأمم السابقة من أنبيائها في هذا الطور من السير بالرسالات: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا الله فَإِذَا هُمْ **فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**{45} قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{46} قَالُوا **اطَّيَّرْنَا بِكَ** وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ [العذاب الأدنى]{47} وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ{48} قَالُوا **تَقَاسَمُوا** بالله **لَنُبَيِّتَنَّهُ** وَأَهْلَهُ [أي نقتله وأهله ليلاً] ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{49} **وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً** وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{50} فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ **عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ** أَنَّا **دَمَّرْنَاهُمْ** وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ{51} فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{52} **وَأَنجَيْنَا** الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{53}) النمل.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود: 112-113]

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس: 108-109]

- ✓ **التأكيد** على **كفّ اليد،** أي عدم الرد بأي عمل مادي - مطلقاً - على إيذاء قريش:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾ [النساء: 77]

وقد أصبح الحال بين الفريقين الخصمين في غاية التوتّر، وقد يتحوّل في أية لحظة إلى اقتتال داخلي (حرب أهلية)، كما في الرواية الثابتة التي ورد فيها وصف عتبة بن ربيعة للحال بين الفريقين عندما أرسله الملأ من قريش ليتفاوض مع رسول الله ﷺ للوصول إلى حل وسط. حيث قال: (.. أما والله ما رأينا سخلة أشأم على قومها منك، فرّقتَ جماعتنا، وشتّتتَ أمرنا، وعِبْت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أنّ في قريش ساحراً، وأنّ في قريش كاهناً، ما يُنتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى..) [1] .

- ✓ **وفي إطار** الأمر السابق، جاء الأمر **بضبط النفْس،** ودفع **الإساءة بالإحسان** إليهم، والاستعاذة بالله من **نَزْغ** [2] شياطين الإنس والجن:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ [الأعراف: 199-202]

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾ [المؤمنون: 95-98]

---

1 - صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي.

2 - (النَّزْغُ: دخولٌ في أمرٍ لإفساده. قال تعالى: {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}[يوسف / 100]). المفردات - الأصفهاني. وانظر تبيان سور(الإخلاص، الفلق، الناس).

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت]

- ✓ **البحث عن بديل** لقريش خارج مكة:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا.. (٩٢) ﴾ [الأنعام: 92]

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾ [الشورى: 7]

لعل الله سبحانه وتعالى ييسّر لرسوله أن يجد مَنْ يحميه - وقد مات عمه أبو طالب - حتى يتمكّن من الاستمرار في بلاغ رسالة الله للناس .. أو أن يجد مَنْ يؤمن به وينصره، وقد أصرّ الملأ من قريش على التكذيب به ومنْعه من بلاغ رسالة الله للناس.

من أبرز سمات "الطّوْر الثالث" وأحداثه ومواقفه، إضافةً لما سبق وتفصيلاً :

1 - أمر الله سبحانه وتعالى رسولَه الكريم أن يُنذر قريشاً إنذاراً أخيراً **خاصاً بهم**، يُنذرهم بعذاب قريب مدمّر لهم في الدنيا، أي "العذاب الأكبر"، قبل عذاب يوم القيامة. وذلك حسب **سنة** الله سبحانه وتعالى في الأقوام السابقين الذين استكبروا، كما بيّنا آنفاً.. وجاء ذلك الإنذار في آيات سوَرة الشعراء: "فإمّا التوبة إلى الله الرحيم أو إنزال العذاب الأليم بهم، من الله العزيز".. (يُرجى قراءة السوَرة كاملة):

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ [الشعراء] [1].

كما في صحيح مسلم عن قبيصة بن المخارق و زهير بن عمير:

(لمّا نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، قال: انطلق نبيُّ الله ﷺ إلى رضمة من جبل. فعَلا أعلاها حجراً ثم نادى: (يا بني عبد مناف إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه) [2].

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما:

(لمّا نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي)، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا

---

1 - أنظر الروايات الثابتة حول هذه الآيات في (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. و (الصحيح المسند) للوادعي.

2 - صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 207. أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تَغِير عليكم، أكنتم مصدقيّ). قالوا: نعم ما جَرّبنا عليك إلا صدقاً، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) .. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾ المسد) [1] ..

فهذه "**نذارة خاصة**" لقريش - العشيرة الأقربين - بالعذاب الشديد، أي "الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى" أو "العذاب الأكبر" في الدنيا، كما هي **سنة** الله **سبحانه وتعالى** في الأمم الجاحدة ..

1 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4770. أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. وقول رسول الله: **(فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)** له أصل في كتاب الله، في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{46}) سبأ. يقول القرطبي في تفسيره: ((قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ} تَمَّمَ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا محمّد: {إِنَّما أَعِظُكُمْ} أَيْ أُذَكِّرُكُمْ وَأُحَذِّرُكُمْ سُوءَ عَاقِبَةِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ)). وأنظر تفسير ابن كثير. هذا، والقول بأن تلك الآيات من سورة الشعراء نزلت في سِنِي الدعوة الأولى بالأمر بالجهر بالدعوة بعد أن كانت بالسر، لا يصح، وذلك:

- لم ترد رواية ثابتة - حسب علمنا - تربط بين نزول هذه الآيات وبين بداية الجهر بالدعوة وإنهاء السريّة، إلا كلام ابن اسحق في المغازي، وقوله ذاك لم يثبت له سند متصل. والروايات الثابتة - كالتي أوردناها - ليس فيها إشارة إلى زمن نزول الآيات.
- إن العذاب الذي أنذرهم به في الدنيا، قريب جداً على وشك الوقوع، كما هو ظاهر الروايات: (..فخشي أن يسبقوه.. تريد أن تغير عليكم.. بين يدي عذاب شديد..)، وهذا لا يكون في بداية بلاغ الرسالة ولم تُعادِ بعدُ قريشٌ رسولَ الله، يعني في بداية الجهر بالدعوة وإظهارها لقريش، إنما يكون ذلك بعد البلاغ والبيان الكافي وظهور موقف الكفر والجحود.. وقد كان هذا قُبيل الهجرة للمدينة (الطور الثالث).
- يُفهم من الروايات السابقة أن قريشاً كانت على عِلْم مسبق بما قاله رسول الله بخصوص لا إله إلا الله واليوم الآخر، وهذا لا ينسجم مع وصف السريّة.. لاحظ جواب أبي لهب: (ألهذا جمعتنا).. فهُم لم يستوضحوا حول هذا العذاب الذي أنذرهم به فجأة، كأن يسألوا لماذا العذاب؟!.. على أساس أن الدعوة كانت سراً.
- إن قول قريش لرسول الله: (نَعَم، ما جربنا عليك إلا صدقاً)، يتوافق مع قوله تعالى في سورة الأنعام: (فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ {33})، والتي نزلت في أواخر المرحلة المكيّة، فالرسول لا يزال عندهم الصادق الأمين، ولكنّهم يكذّبون ويجحدون بما جاء به من الحق. وقد بقي في نظرهم، الصادق الأمين حتى وقت هجرته إلى المدينة، كما في الرواية التالية: (فلما أراد رسول الله الهجرة كان عنده ودائع لهم، فأمر علياً أن يردها إلى أهلها). حسّنه الألباني في (إرواء الغليل).
- القول بنزول هذه الآيات في بداية الجهر بالدعوة لا يتوافق مع السياق العام لسورة الشعراء، فالسورة كلها تتحدّث عن الإنذار النهائي بعذاب الله في الدنيا لأقوام الرسل وقد جعلوا الكفر بالحق موقفاً نهائياً لهم. أنظر السورة في المصحف.
- إن كثيراً من أهل التفسير قد استشكل هذه الآية - على اعتبار أنها نزلت في أول الدعوة - من باب لماذا النص على إنذار عشيرته الأقربين مع العلم أنه نذير للعالمين:{قُمْ فَأَنذِرْ(2)}المدثّر؟ فحاولوا إيجاد مبررات مختلفة لذلك. وفي الحقيقة ما وُجد ذلك الإشكال إلا بسبب عدم وضع الآية في سياقها السننيّ الصحيح الذي بيّناه آنفاً. انظر تبيان (سورة الشعراء).

وقد ورد ذكر هذه "النذارة الخاصة" في سوَر أخرى، مثل الدّخَان [10- 16]، والحجر [89-91]، ويونس [96-103]، والمؤمنون [73-77].. الخ.. كما ذكرنا سابقاً.

هذا، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن يوم بدر هو اليوم الموعود، يوم الفرقان، يوم يحق الله الحق ويقطع دابر الكافرين، تحقيقاً لسنّته تبارك وسبحانه وتعالى في الكافرين المستكبرين:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾ [الأنفال: 7-8]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [1] (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾ [الأنفال: 50-54]

2 - التهيئةَ للهجرة.. ليُنْجي الله جلّ وعلا أولياءه المؤمنين من مكر وكيد الكافرين، وليُنْزل عذابه بأعدائه وأعدائهم.. وكانت البداية أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه بالبحث عن بديل لقريش، بعرض نفسه على قبائل العرب، كما تشير آية سوَرة الأنعام وآية سوَرة الشورى إلى توجيه رسول الله إلى حمل الدعوة خارج مكة، بعد أن رفضَتْها قريش [2]:
﴿.. وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٩٢) ﴾ [الأنعام: 92]

فبدأ الرسول الكريم في البحث خارج مكة، لَعلّه يجد أحداً يوفّر له الحماية بدلاً مِن أبي طالب ويحمله إلى قومه، حتى يستطيع أن يستمر في تبليغ كلام الله سبحانه وتعالى ورسالته، أو أن يجد مَنْ يؤمن به وينصره وقد كفرت به عشيرته الأقربون.. ومنعوه أن يبلّغ كلام ربه، وصدّوه عن المسجد الحرام..
وأول ما ذهب رسول الله، إلى القرية الأخرى؛ (من القريتين) إلى الطائف يعرض نفسه عليهم أن يقدّموا الحماية له أو أن يؤمنوا به وينصروه، إلا أنهم رفضوه وقابلوه بأسوأ ما يُقابل به نبيّ كريم. فكان موقفهم ذاك أشدّ ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه في الدعوة إلى الله والسير بالرسالة، كما في الرواية الثابتة عن عائشة رضي الله عنها، حيث قالت:

1- يقول الطبرى في تفسيره: (وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم وفعلنا ذلك بهم ، بأنهم غيّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعاثه رسوله منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم وتكذيبهم له وحربهم إياه؛ فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم)

2 - هناك روايات ثابتة حول اتصال رسول الله بالقبائل، تنص على أن رسول الله تلى عليهم آيات من سورة الأنعام. أنظر (صحيح السيرة النبوية)- إبراهيم العلي. مما يعني أن السورة قد نزلت قبل ذلك، والراجح أنها نزلت جملة واحدة.

(يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: { لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال. فلم يجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي. فلم أستفق إلا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك. وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملَك الجبال وسلّم علي. ثم قال: يا محمّد ! إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملَك الجبال. وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك. فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين} [1].. فقال له رسول الله ﷺ: {بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا}) [2]..

ثم وجّه جُهده ﷺ إلى أن يعرض نفسه في المواسم على مختَلف قبائل عرب الجزيرة، لعله يجد مَنْ يَحمله إليه أو مَنْ يؤمن به وينصره [3].. كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس أن رسول الله عرض نفسه في الموسم على جماعة من سادة قبيلة شيبان بن ثعلبة، فقال لهم: ({ أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمّدا عبده ورسوله، وإلى أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشا قد ظاهرت على أمر الله، وكذّبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد}) [4].. لكنّهم اعتذروا ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ..

وكما في الرواية عن جابر رضي الله عنه:

(كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول:{هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي عزّوجلّ}. فأتاه رجل من همذان فقال: {ممن أنت؟}. فقال الرجل: من همذان. فقال: {هل عند قومك من منعة؟} قال نعم. ثم إن الرجل خشي أن

---

1 - فقريش استحقت الاستئصال "العذاب الأكبر"، ولكن، الله تعالى أعطاهم أماناً من العذاب مشروطاً بشرطين: إما أن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا إليه، أو أن يُبقوا رسول الله بينهم ولا يخرجوه من مكة. وإن أخلوا بالشرطين أتاهم العذاب لا محالة، إلا أنه سيكون بأيدي المؤمنين من الأمة المسلمة الخاتمة كما هي سنة الله تعالى في هذه الأمة.

2 - صحيح مسلم - رقم:1795 أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

3 - هذه أول مرة يخاطب فيها رسول الله قبائل العرب بأن يؤوه وينصروه، لكنها ليست الأولى في دعوتهم إلى الله وإنذارهم وبلاغهم رسالة الله، كما ثبت في كثير من الروايات، كما في رواية طارق بن عبدالله المحاربي قوله: (رأيتُ رسولَ الله ﷺ مرَّ في سوقِ ذي المَجازِ وعليهِ حلَّةٌ حمراءُ وَهوَ يقولُ: (يا أيُّها النَّاسُ قولوا لا إلَهَ إلَّا الله تُفلِحوا)، ورجلٌ يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ قَد أدمَى كَعبَيهِ وعُرقوبَيهِ وَهوَ يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ لا تُطيعوهُ فإنَّهُ كذَّابٌ. فقُلتُ: مَن هذا، قالوا: غُلامُ بَني عبدِ المطَّلبِ. فقُلتُ: مَن هذا الَّذي يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ. قالوا: هذا عبدُ العُزَّى أبو لهبٍ). صححه الوادعي في (الصحيح المسند) - الصفحة أو الرقم 516 . أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

4 - قاله الحافظ في الفتح:220/7 وعزاه للحاكم وغيره بإسناد حسن. أنظر أيضاً (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. فمهمّة رسول الله الأساس هي أن يستمر في بلاغ الرسالة التي بعثه الله بها.. لاحظ الرواية التالية.

يَخْفِره قومُه [أي ينقضوا عهده وميثاقه]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أخبرهم، ثم آتيك من قابل. قال: {نعم}. فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب) [(1)].

وجاء وفد الأنصار فآمنوا واتّبعوا رسول الله، وليس ذلك فحسب، بل آووه ونصروه، رضي الله عنهم وأرضاهم.. فالله تبارك وسبحانه وتعالى قد ادّخر تلك الكرامة للأنصار رضي الله عنهم، فهم أحق بها حسب سننه عزّ وجلّ.. في مثل قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الأنعام: 53]

وكان ذلك من فضل الله تبارك وتعالى على رسوله أيضاً، حيث لم يعطه **الحماية** فقط، بل منّ عليه وعلى المؤمنين معه بأكثر من ذلك وأعظم؛ **بالإيواء** ثم **بالتمكين والنصر**.. كما في قوله جلّ وعلا:

﴿..فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [الأنعام: 89]

أي، إن يكفر أهل مكة بآيات القرآن أو برسالة الله سبحانه وتعالى، فقد أرصدنا لها قوما ليسوا بها بكافرين؛ هم المهاجرون والأنصار [(2)]..

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾ [الأنفال: 62-64]

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال: 26]

فبداية نصر الله تبارك وتعالى لرسوله، أن يُيسّر له من **يؤمن به** ويحمله إليه ويؤويه.. وهي الكرامة التي ادّخرها الله جلّ ثناؤه للأنصار رضي الله عنهم.

3 - هذا، و بإصرار قريش على الكفر، و دُنوّ نزول العذاب بهم، وشعور رسول الله بعِظَم المسؤولية.. صار رسول الله يتألم من أجلهم شفقة عليهم ورحمة بهم، لعِلْمه بقرب نزول عذاب الله بهم، فجعل الله تبارك وتعالى، يواسي رسوله ﷺ ويخفف عنه حمله الثقيل ذاك.. في مثل قوله تعالى:

---

1 - أخرجه أحمد 322/3، 339.وغيره، أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. أنظر موقع الدرر السنية. وهذه الرواية دليل على أن رسول الله كان يبحث عن رجل يحمله إلى قومه، أيّ رجل. فلما جاءه رجل، سأله عن المنعة في قومه.. هكذا، ولم يشترط عليه أن يؤمن بالله هو أو قومه، بل الشرط أن يحمل الرجلُ رسولَ الله إلى قومه، وأن يوفّر الحماية له - أي كما كان أبو طالب - ليستمر في بلاغ رسالة ربه عزّ وجل، الأمر الذي منعته قريش منه. فمهمته كرسول هي أن يستمر في بلاغ الرسالة التي بعثه الله بها، أولاً بأول، والاستقامة على أمر الله.. إلى أن يحكم الله تعالى بينه وبين قومه: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{108} وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{109}) يونس.

2 - أنظر تفسير الجلالين، التفسير الميسّر.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]
﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء: 3]
﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر: 8]

وقمة هذه الحسرة من أجلهم كانت في أشدّ موقف وجده رسول الله ﷺ منهم، ألا وهو موقف أهل الطائف، ما جعل رسول الله - بعده - مهموماً مغموماً لا يشعر بنفسه حتى استفاق على نفسه ﷺ في قرن الثعالب، حيث ظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى منزلٌ عذابه بهم.. لا محالة.. فما أن جاءه ملَك الجبال وأخبره أن الله سبحانه وتعالى يُخيـّره بما يريد أن يفعل بهم، حتى طلب من الله أن يؤجّل نزول العذاب وعلى رجاء منه - سبحانه - " أن يُخرِج من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً". فأعطاه الله ما أراد وأمهلهم ولم يعذّبهم، وبذلك أقر الله عين نبيّه وأزاح عن كاهله همّه الكبير، ووضع عن ظهره حمله الثقيل، وهو "الوزر" المذكور في سوَرة الشرح: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح:2-3] [1]

4 - وَصَف القرآنُ المؤمنين بـ(الذين استُضعِفوا) أو (المستضعفين) كما في سوَرة الأعراف والقصص والأنفال وغيرها.. وهي نفس الفترة التي أشار إليها القرآن بـ "الكرب العظيم" في سوَرتي الأنبياء والصافات.. وهي التي اشتد فيها أذى قريش على رسول الله وتجرّأوا عليه بما لم يستطيعوه من قبل، بعد وفاة عمه وزوجه خديجة، حتى صدّوه عن المسجد الحرام ومنعوه أن يبلّغ كلام ربه عزّ وجلّ.. فكانت أصعب فترة وأشدها عسرة على رسول الله ﷺ.. حيث كثرة الأعداء وقلة النصير.. كما جاء في سوَر؛ العلق، المسد، والفرقان:
﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)﴾ [الفرقان] [2].
وكما في دعاء رسول الله ربّه، تبارك وتعالى، بعد عودته من الطائف:

(اللهم إليكَ أشكو ضعفَ قوتِي وقلةَ حيلتِي وهوانِي على الناسِ، يا أرحمَ الرحمينَ إلى منْ تكلُنِي إلى عدوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أو إلى قريبٍ ملكتَهُ أمرِي، إنْ لمْ تكنْ ساخطًا عليَّ فلا أُبالِي غيرَ أنَ عافيتَكَ أوسعُ لِي، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ والأرضُ وأشرقتْ لهُ الظلماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ، أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبَكَ، أو تُنْزِلَ عليَّ سخطَكَ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ) [3].

---

1 - أنظر (سورة الشرح) في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن).

2 - لاحظ الروايات الثابتة في أسباب النزول المتعلقة بالسور والآيات السابقة، في (صحيح أسباب النزول) - إبراهيم العلي.

3 - أنظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي. نقول: عند تعسُّر السير وصعوبة الطريق، لا بد لحَمَلة "دعوة الله" من المراجعة الشاملة والتقويم الدقيق لما مضى من خطوات السير، مع التجرّد الكامل والإخلاص التام لله عزّ وجلّ، حتى لا يكون ذلك التعسّر والشدة والأذى عقوبة لهم من الله تعالى، بسبب مخالفتهم لأحكام "المنهاج"، سواء من حيث الأعمال أم الخطاب. ولا بد أيضاً من إخلاص الدعاء لله

5 - في ظل هذه الظروف الصعبة والعسرة على رسول الله والجماعة المؤمنة معه، كان التنبيه والتحذير من الوقوع في شَرَك "الحلول الوسط" التي كان يقترحها الملأ، ويُقَلّبون القول لرسول الله ليقبل بها:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء: 73-75]

أي "وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمّد، لتأتي بغيره وتخالف تعاليمه. ولو فعلت ما أرادوا، لاتخذوك صاحباً وصديقاً. ولولا أن ثبّتاك على الحق بعصمتنا إياك، كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا، ولو ركَنْتَ إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة - فالذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب - ثم لا تَجِد من ينصرك منّا أو يدفع عنك عذابنا".

والغرضُ من الآية بيانُ فضل الله على رسوله في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى الله عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء. والآية نصٌ على أن رسول الله لم يركن للذين كفروا: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم]

أي: " فاثبت على ما أنت عليه - أيها الرسول - من مخالفة المكذبين ولا تطعهم. تمنَّوا وأحبوا لو تُلَاينُهم، وتصانعهم على بعض ما هم عليه، فيلينون لك".

ومن هنا، كان التركيز في خطاب الله للمؤمنين على **اتّباع** الوحي، **والصبر** على طاعة الله، **والصبر** عن معصيته، **والصبر** على أذى المشركين.. حتى يقضي الله بأمره - قدراً أو شرعاً - وهو عزّ وجلّ خير الحاكمين، كما في قوله تعالى:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) ﴾ **[هود]**

وهي التي شيّبت الرسول ﷺ حيث قال: **(شيبتني هود وأخواتها)** [1]**.**

هذا، وتثبيتاً لرسول الله، ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالأنبياء والرسل السابقين، عليهم وعلى نبيّنا الصلاة والسلام:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ .. (٩٠) ﴾ [الأنعام]

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) ﴾ [ص: 17]

والتذلل له جلّ وعلا في الهداية للصواب وتيسير الأمور. فهذه هي سنة رسولنا محمد، وهو المعصوم المؤيّد من الله تبارك وتعالى.. فكيف بنا نحن؟!.

1 - حسّنه ابن حجر العسقلاني - تخريج مشكاة المصابيح - الصفحة أو الرقم 5/74 ، كما قال في المقدمة.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)﴾ [القلم]

" أي، فَاصْبِرْ أيها الرسول الكريم لحكم ربك - القدريّ والشرعيّ - ولا يوجَد منك ما وُجِد من صاحب الحوت - يونس عليه السلام - من الضجر والغضب على قومه الذين لم يؤمنوا ففارقَهم دون أن يَأذن له ربُّه بمفارقتهم.. حتى لا يكن حالك كحاله وقت ندائه لربِّه عزّوجلّ، وهو مملوء غيظا وكرباً (مكظوم) لِما حدث له مع قومه، ولِما أصابه من بلاء وهو في بطن الحوت".

وهذا يذكّرنا بموقف نبي الله يعقوب عليه السلام وهُوَ كَظِيمٌ، أي ممتلئ القلب حُزناً على ابنيه المفقودين وهو لا يعلم عنهما شيئاً.. ورغم ذلك، فهو على ثقة تامّة بتحقق وعد الله سبحانه وتعالى - رؤيا يوسف بأن يكون سيداً وحاكماً - فقال لأبنائه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف:86-87]

" أي لا أظهر همِّي وحزني إلا لله وحده، فهو كاشف الضرِّ والبلاء، وأعلم من وعد الله ومن صدق وقوعه، ما لا تعلمونه.. فدققوا في البحث عن يوسف وأخيه، <u>ولا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله</u>، <u>إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته</u>، الكافرون به".

6 - وفي ما يتعلق باستخدام القوة والقتال في الدعوة إلى الله، كان الأمر الشرعي الثابت طوال هذه المرحلة <u>هو "كف اليد"</u>، أي المنع.. كما ذكرنا.. مع التأكيد عليه في هذا الطّوْر، كما في رواية كعب بن مالك - رضي الله عنه - لأحداث بيعة العقبة الثانية؛ بيعة النُّصرة والحرب، حيث كان ممن شهدها وبايع رسول الله ﷺ.. فبعد أن انكشف أمرهم في الليل بعد عقد البيعة سراً، قال كعب: ((.. ثم قال رسول الله ﷺ: <u>{ ارفضوا إلى رحالكم}</u>. قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق؛ <u>إن شئت لنميلنّ على أهل "مِنى" غداً بأسيافنا</u>. قال: فقال رسول الله ﷺ: <u>{ لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم}</u> قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا..)) [1].

فالأصل في هذه المرحلة - الأولى - كلها هو العفو وكف اليد والصبر على أذى قريش، حتى يحكم الله بأمره، إما شرعاً أو قدراً.. أي، إما تكليفاً بحكم شرعي جديد كالقتال مثلاً.. أو تيسيراً وفرجاً.. وقد حصل الإثنان معاً؛ بإيمان الأنصار والهجرة إلى المدينة، وبالإذن في القتال بعد الهجرة.. والحمد لله.

هذا، وعطفاً على الأمر بالعفو وكف اليد في هذا الطّوْر، أمر الله جلّ وعلا رسوله والجماعة المؤمنة معه بالالتزام بما يلي:

---

1 - قال الهيثمي في المجمع: 42/6-45 رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرّح بالسماع. أنظر باقي متن الرواية وتفصيل تخريج سندها في (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي.

الارتقاب: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾ [الدخان]

والصبر الجميل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ [المعارج]

والصفح الجميل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾ [الحجر]

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [الزخرف]

والإعراض والانتظار: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة]

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود]

الصبر والهجر الجميل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)..﴾ [المزمل]

وفي سياق الصفح والانتظار والصبر الجميل هذا، وحثّ المؤمنين على التجمّل به والاستقامة عليه.. يأتي تقرير حقيقة أن "الله لطيف لما يشاء"، بمعنى أن الله **سبحانه وتعالى** يُنفِذ مشيئته بلطف وبرفق ورَويّة وحِكمة، فوَعْده متحقق قطعاً.. لكن في وقته الذي قدّره الله **سبحانه وتعالى** له.. كما ورد في سوَرة يوسف التي نزلت أثناء الحصار والمقاطعة في الشِعب وقُبيل أخذ قريش بالسنين والقحط (الدُخَان) [1]. حيث قال تعالى على لسان يوسف **عليه السلام**، مستعرضاً الأحداث التي وقعت بين أن رأى رؤياه تلك وبين "تأويلها"، أي تحقّقها في الواقع، وقد مرّت أعوام عديدة:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف: 100]

---

1 - حيث دعا رسول الله على قريش بقوله: (اللهم **أعني** عليهم بسبع كسبع يوسف) البخاري. مما يعني أن نزول سورة يوسف وعِلْم رسول الله بقصة يوسف، كان قبل دعائه عليهم. أنظر (الطور الثاني) رواية عبد الله بن مسعود عن الدخان.

7- وفي الأجواء السابقة من الإعراض والانتظار.. أصبح عند المؤمنين فراغ طويل في النهار بسبب عدم الاحتكاك المباشر مع المشركين.. ونزلت آيات سوَرة المزمّل [1] مؤكدة هذا الواقع، بأمر رسول الله والمؤمنين معه بهجران قريش وإمهالهم حتى ينزل بهم العذاب، والهجر غير الإعراض، الهجر فيه ترك وابتعاد.. قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل: 10-11]

وجاء أيضاً الأمر بقيام الليل، أقلّه الثلث وأكثره الثلثين.. وبالتبتّل والانقطاع إلى الله جلّ وعلا.. وأن يجعل النهار للاستراحة والنوم وقضاء الحوائج، ففيه متسع من الوقت بعد الأمر بهجر المشركين وعدم الاحتكاك المباشر بهم: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) ﴾ [المزمل: 7]

ونزلت آية التخفيف؛ آية [20] من سوَرة المزمّل، بعد اثني عشر شهراً أو أكثر كما صحت الروايات، كما عن عائشة رضي الله عنها: (.. فقالت [أي عائشة]: لست تقرأ يا أيها المزمّل؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله عزّ وجلّ **افترض** قيام الليل في أول هذه السوَرة فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً. وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء. حتى أنزل الله في آخر هذه السوَرة، التخفيف. فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة..) [2] ..

ونزول أول سورة المزمل - في تقديرنا - كان قبل الهجرة إلى المدينة وقُبيل حادثة الإسراء، ونزلت آية التخفيف بعد عام؛ قُبيل الهجرة، استعداداً لها.. وآيات سوَرة الإسراء التالية تُصوّر هذا الحال في الطّوْر الثالث، حيث بعد حادثة الإسراء فرَض الله الصلوات الخمس وأصبح قيام الليل تطوعاً.. وفي هذه الأثناء كان سعي رسول الله للخروج من مكة من خلال الاتصال بقبائل العرب في موسم سنة الهجرة والسنة التي قبلها.. للبحث عمّن ينصره ويؤويه:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسراء] [3]

---

1 - إن القول بأن هذه الآيات من أوائل ما نُزّل من القرآن، لم تصح فيه رواية. أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. و(الصحيح المسند) مقبل الوادعي. بل إن الروايات الواردة وسياق السورة وقرائن أخرى عديدة تدل على صحة ما أثبتناه بأنها نزلت متأخرة. أنظر تبيان (سورة المزّمّل).

2 - جزء من رواية مسلم في صحيحه - رقم 746 .

3 - عن عبدالله بن عباس: كانَ النبيُّ ﷺ بمكَّةَ، ثمَّ أُمِرَ بالهجرةِ، فنزلَت علَيهِ: (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا). **(سنن الترمذي ٣١٣٩ حسن صحيح)** وفي تفسير ابن كثير: ((نزلت في كفار مكة لما همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ الله بِهَذِهِ

وكما تشير آيات سوَرة الشعراء:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ [الشعراء]

وآيات سوَرة الشرح:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ الشرح

وبناء على القرائن السابقة وغيرها، فإن "القول الثقيل" الذي فرض الله **سبحانه وتعالى** قيام ما يقرب من نصف الليل أو يزيد، ولمدة عام أو أكثر، لتهيئة المؤمنين لتلقيه، هو "آيات الله" التي فيها الأحكام المتعلقة بالأمّة والسلطان - يعني استعداداً للهجرة والتمكين - ومنها آيات التكليف بالقتال والإنفاق في سبيل الله.. وذلك إشارة إلى ثِقل تلك الأحكام على النفوس..
وهو نفس الأمر الذي كَلّف الله به موسى وهارون، عليهما السلام، وأتباعَهما عندما كانت الدعوة إلى الله في نفس هذا الطّوْر وهذا الحال، أي قُبيل نصر المؤمنين وإنزال العذاب على الملأ الذين كفروا، كما في آيات سوَرة يونس:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس: 83-87] [1]

الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا. وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ الله وإياه ببدرٍ على مِيعَادٍ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا}الآية، أَيْ هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب... وقال الحسن البصأي: إِنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا ائْتَمَرُوا بِرَسُولِ الله ﷺ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ الله **عزّ وجلّ**: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}الآية... وهذا القول هو أشهر الأقوال، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ: {وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} قال قتادة: إن نبي الله ﷺ، علم أن لا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ الله، وَلِحُدُودِ الله، وَلِفَرَائِضِ الله، وَلِإِقَامَةِ دِينِ الله... وهو اختيار ابن جرير، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد25]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الله لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ». أَيْ لَيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ مَا لَا يَمْتَنِعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ)). أنظر (مختصر تفسير ابن كثير) - الصابوني.

1 - ((وعقب هذا التميّز، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى، وإيمان من آمن بموسى، أوحى الله إليه وإلى هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم، وَهِيَ غَيْرُ دِيَارِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَسْكُنُونَهَا، وذلك

ثم دعا موسى على فرعون بالهلاك، فاستجاب الله عزّ وجلّ له، فنجّى المؤمنين الذين اتبعوا موسى من بني إسرائيل، وأغرق فرعون وجنوده في اليم [1]..

8 - وفي المقابل، بالنسبة للملأ من قريش وللذين اتبعوهم على كفرهم، فَهُم في حقيقة أمرهم، واقعون تحت سنّة الله سبحانه وتعالى في: "الاستدراج" أو "الإملاء" أو "الإمهال"، و "الإمداد" و "التمتّع":

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)﴾ [الأعراف: 182-184]

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ [القلم: 44-45]

" أي، فإني سأقربهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم، بأن أسوق لهم النّعم وافتح عليهم الدنيا، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أنه استدراج، بل يزعمون أنّ ذلك إيثار لهم وتفضيل عن المؤمنين، مع أنه سبب هلاكهم":

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون: 54-56]

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل: 10-11]

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) ﴾ [مريم:75]

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [النحل: 53-55]

.. إلخ

فالصفة العامة لحال قريش في هذا الطّوْر، هي البطر والعُجب بما فتح الله عليهم من الدنيا.. والتمتّع بما أمدهم به من أموال وبنين.. بعد القحط والجدب (السنين والدّخَان).. وهم على الحقيقة، في حالة "استدراج" و "إمهال" و "إملاء".. حتى يحين اليوم الموعود لإنزال "العذاب

لفرزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار، وكلَّفهم تطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، والاستبشار بنصر الله)) أنظر (في ظلال القرآن) سيد قطب، (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

1 - نقول: في مثل هذا الموقف العصيب دعا أُولو العزم من رُسُل الله - موسى ونوح.. عليهم السلام - على الذين كفروا من قومهم بالعذاب، إلا رسولنا محمّد ﷺ دعا لهم بالهداية، أو أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده.. فهو الرحمة المهداة، وما أرسله ربّنا - جلّ جلاله - إلا رحمة للعالمين. والحمد لله رب العالمين.. اللهم اجْزِه عنا خير ما تجزي نبياً عن أمته، وآتـه الوسيلة والفضيلة، والمقام المحمود الذي وعدته.. اللهم آمين.

الأكبر" أو "البطشة الكبرى" بهم بأيدي المؤمنين، يعني في غزوة بدر.. وهُم يظنون أنهم على خير وأن الله سبحانه وتعالى يكرمهم بما فتح عليهم من النعم لرضاه عنهم !! [(1)].
وآيات سوَرة يونس [82 -109] تُصوّر هذه الفترة بشكل دقيق، من خلال إيراد القصص والأحداث التي حصلت مع رسل الله السابقين في فترات مشابهة لهذه الفترة.. وكذلك آيات سوَرة النمل [7- 14]، [45 - 58]، [67 -75]. وانظر أيضاً آيات سوَرة الحج [38–51]، وسوَرة الزمر [8-20]، [49-61]..

9 - وفي مقابل ما فتح الله به الدنيا على الكافرين وتمتّعهم بها، استدراجاً لهم وإملاءً حتى تأتيهم "البطشة الكبرى".. أبدى بعض المسلمين استياءهم، في البداية، حيث لم يدركوا حِكْمة الله سبحانه وتعالى. وذلك من باب القول: إننا على الحق، ونعيش في هذا الضيق والعسر في ديننا ودُنيانا !!.. بينما الكافرون أعداء الله سبحانه وتعالى وأعداء رسوله، يتمتّعون ويتنعّمون بزينة الحياة الدنيا وهم في زيادة !!. فنزل الكثير من الآيات تُعالج هذه الحالة في هذا الطّوْر، فبيّنت للمؤمنين حكمة الله سبحانه وتعالى في هذا الأمر. وتأمرهم بالصبر، وتذكّرهم بما أنعم الله عليهم من الهدى، وأن العبرة بعواقب الأمور والفوز في الآخرة، وأن الدنيا لا قيمة لها عند الله تبارك وسبحانه وتعالى.. فليست هي الغاية، ولا ينبغي أن تكون "غاية الهمّ ومبلغ العلم".. كما في قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) ﴾ [الزخرف: 33-37]

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)﴾ [النحل: 45-47]

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾ [غافر: 4-6]

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

1 - من السور التي عالجت هذه الحالة، سورة الفجر: ((... فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ{17} وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{18} وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً{19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}...)) الفجر. أنظر تبيان (سورة الفجر).

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) ﴾ [طه: 128-132]

أي، ولولا أن الله قد قضى بأن يمهل أعداءك من قومك لأجل مسمى عنده، لَلازمهم [1] الهلاك (البطشة الكبرى) عاجلاً، لأنهم استحقوه.. فاصبر على ما يقولونه في شأنك من سوء أو طلبهم للآيات المادية.. وسر في طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم واستهزائهم.. ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يشرح صدره، ويجلو همه: أن أكثِر من الاتجاه إلى ربك إيها الرسول الكريم؛ من تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة. وأن لا تُطلْ نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أصنافاً (أَزْواجاً) مِنْهُمْ، وهم الملأ، فما رزقك الله إياه في هذه الدنيا من طيبات، وما ادخره لك في الآخرة من حسنات، خير وأبقى ممّا متّع به هؤلاء الكافرين من متاع سيتبعه العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ﴾ [الحجر: 85-90]

- .. الخ

وكما حصل مع أتباع أنبياء الله السابقين، وقد ساقهم الله للمؤمنين عامة، مثلاً وعبرة:

﴿* إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) .. (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

---

1 - أنظر رواية ابن مسعود السابقة، والتي تنص على أن "الزاماً" قد مضت وهي عذاب الله لقريش في غزوة بدر. كما في قوله تعالى:{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً} [الفرقان77]. أي، قل للكفار: لا يكترث بكم ربي فسوف يعذّبكم ويهلككم بسبب تكذيبكم بالحق، إلا أن تؤمنوا. أي، قل لهم حاثاً لهم على الإيمان: آمنوا بالله قبل أن يُهلككم. كما في قوله تعالى:{فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[يونس98].

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ [القصص]

10 - ونتيجة لاغترار قريش ومَلَئها بما فتح الله عليهم من غنى وقوة، وظنّهم أنهم على خير وأن الله سبحانه وتعالى يكرمهم بما فتح عليهم من النعم لرضاه عنهم !!.. أخذوا يستعجلون - استهزاءً وتكذيباً - العذاب الذي أُنذروا به في الدنيا، يعني الفتح في يوم بدر، كما في سوَر الرعد [6]، النحل [1]، النمل [72]، يونس [11، 50-51]، هود [8-11]، الأنعام [57- 58]، الحج [47 -48]، الأنبياء [37].. وغيرها:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة: 28-30]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩)﴾ [الشعراء]

فأتاهم الفتح الذي طلبوه، والعذاب الذي استعجلوه:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾ [الأنفال: 19]

وما كان لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.. فلم تغنِ عنهم آلهتهم المدعاة شيئاً:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣)﴾ [هود: 99-104]

11 - وكان طلب الملأ من قريش لـ "الآيات المادية" (المعجزات) [1].. كما في سوَر الإسراء، وهود، والفرقان، وغيرها.. حيث **بدأ** الملأ الذين استكبروا بطلب "الآيات المادية"،

---

1 - لم ترد لفظة "المعجزة" في القرآن الكريم كوصف له، ولا حتى معناها أو مفهومها كمصطلح الذي وُضع لاحقاً، بل استَخدم القرآن كلمة "آية" و "آيات" أو "سلطان" أو "بيّنة " و "بيّنات" لما فيها من معنى الحجة والبرهان والدلالة على الحق لمن أراد الهداية، فتكون الحجة له. وأما من جادل بالباطل وأنكر الحق المبين فستكون الحجة عليه. وهذه المعاني والدلالات لا يمكن أن تعطيها لفظة "المعجزة". فمعناها لغة:عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ.. والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مؤخّره، وصار في التّعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضدّ القدرة. أنظر (مفردات الراغب). فالمقصود

بعد أن فتح الله عليهم أبواب كل شيء من الخيرات، وقد نكثوا وعدهم بالإيمان بعد أن رفع الله عنهم البأساء والضراء (العذاب الأدنى) .. **انظر الآيات (123- 135) من سورة طه في الفقرة 9..**
وبيّن الله تلك السنّة في سوَرة الزخرف:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزخرف]

وهو من "المكر في آيات الله" الذي يمارسه الملأ:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ **آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ** فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ **رَحْمَةً** مِنْ بَعْدِ **ضَرَّاءَ** مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس: 19-21]

أي، " أرادوا آية من الآيات المادية (المعجزات) التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يَعْتَدّون بما نُزّل على رسول الله من "الآيات القرآنية" العظام المتكاثرة التي لم يَنْزل على أحد من الأنبياء مثلها،

من إنزال القرآن ليس إثبات عجْز الناس عن الإتيان بمثله، بل أن يكون حجة ودليل إلى الحق (الهداية)، فمَن أخذ به اهتدى، فكانت الحجة له ومعه. ومَن تركه ضل، فأصبحت الحجة عليه. " فالإعجاز ليس هو المقصود من كلام الله بل هو من لوازمه لكونه من عند الله، ألا ترى أنه في كل ما خلق الله - دق أو عظُم - معجزة، وليس الأمر في خلقها بقصد الإعجاز بل لحكمة الله في خلقه". **هذا**، والآية أو آيات الله، إما قرآنية: {تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}[البقرة252]. أو مادية وهي ما تُسمّى بالمعجزات: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً } [الإسراء59]. أو كونية: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }[فصلت53]. وجميعها تشترك في كونها علامة ودليل (آية) على الحق المبين الذي أصله وأُسّه حقيقة "لا إله إلا الله" الحقيقة اليقينية الكبرى. كما في حديث رسول الله: (ما من الأنبياءِ من نبيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من **الآياتِ** ما مثلُهُ آمنَ عليه البشرُ. وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحَى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابِعًا يومَ القيامة).[رواه الشيخان عن أبي هريرة، مسلم:رقم 152]. فكلمة المعجزة ليست لفظة قرآنية،ولم يستخدمها القرآن كوصف له لأنها لا تُعبّر عن المراد منه، أي كونه هدى ونور فهو "إما حجة لك أو عليك"، كما قال ﷺ [صحيح مسلم 233]. ومن هنا يمكننا القول، كقاعدة عامة: إنه ما دام يوجد **لفظة قرآنية** للتعبير عن معنى أو مفهوم معيّن، فالأصل أن لا نحيد عنها. لأن توظيف القرآن لتلك اللفظة أو الكلمة، وجَعْلها جزءاً من النسيج القرآني المتكامل، يوجِد لها مخزوناً فكرياً وشعورياً، ورصيداً من الطاقة الروحية، الأمر الذي يجعل لتلك الكلمة دوراً مقدّراً ومؤثِّراً في تحقيق الغاية من الرسالة.

وكفى بالقرآن وحده **آية** باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات.. وجعلوا نزولها ك لا نزول، وكأنه لم يَنْزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أُنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ..
{إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ} أى هو المختص بعلم الغيب المستأثر به، لا علم لي ولا لأحد به..
يعنى أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مُغيّب لا يعلمه إلا هو {فَانْتَظِرُوا} نزول ما اقترحتموه {إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} لِمَا يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات".
{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ}، أي إذا فتحنا عليهم الدنيا بعد ضراء مستهم؛ وهو "العذاب الأدنى".. تحايلوا في صرف دلالة الآيات إلى غير وجهتها الظاهرة..
حيث بيّن الله سبحانه وتعالى أن إِقْدَامهُمْ عَلَى طَلَبِ الْآيَاتِ الزَّائِدَةِ وَالِاقْتِرَاحَاتِ الْفَاسِدَةِ، إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ وَالْخَيْرَاتِ الْمُتَوَالِيَةِ بعد القحط والبؤس.. فهم إذا أخصبوا بطروا فاحتالوا لدفع آيات الله، ليصرفوها عن دلالتها على الحق، ليضلوا الناس عن سبيل الله.. " فسَمَّى تَكْذِيبَهُمْ بِآيَاتِ الله مَكْرًا، لِأَنَّ الْمَكْرَ عِبَارَةٌ عَنْ صَرْفِ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ الظَّاهِرِ بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ، وَهَؤُلَاءِ يَحْتَالُونَ لِدَفْعِ آيَاتِ الله الدالّة على أن الله حق، وأن اليوم الآخر حق، وأن القرآن حق.. بِكُلِّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ إِلْقَاءِ شُبْهَةٍ أَوْ تَخْلِيطٍ فِي مُنَاظَرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْفَاسِدَةِ.. وَإِنَّمَا غَرَضُهُمُ الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ وَالْمُبَالَغَةُ فِي صَوْنِ مَنَاصِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ"..
"فقل لهم: إنّ الله سبحانه وتعالى دبّر عقابكم وهو مُوقِعه بكم قبل أن تُدبّروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام..
{ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } إعلام بأنّ ما تظنونه خافيا مطوياً، لا يخفى على الله وهو منتقم منكم" [1].

هذا، ومن سنّة الله سبحانه وتعالى في "الآيات المادية" أنه إذا أنزلها الله سبحانه وتعالى وكذّب بها القوم الذين طلبوها، أنزل الله عزّوجلّ بهم "العذاب الأكبر" مباشرة ودون إمهال، ليدمّرهم ويستأصل شأفتهم. ذلك أنهم برؤيتهم للآيات البيّنات الدالّة على صدق رسول الله، رأي العين، قد أُقيمت عليهم "الحجة الرسالية" **كاملةً**، فلا عُذر لهم بتكذيبهم بعد ذلك، وقد عاينوا من قبل "العذاب الأدنى".

لهذا كان من سنّة الله سبحانه وتعالى في هذه الأمّة الخاتمة، أن لا يُنزل "آية مادية" اقترحها المشركون، بل أن يُمهلهم حتى حين.. كما في الرواية الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (سأل أهلُ مكة النبيَّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يُنحّي الجبال عنهم فَيَزْدَرعوا. فقيل له: إن شئت أن **تستأني** بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا كما أَهْلكتُ مَنْ قبلهم. قال: (لا بل أستأني بهم) فأنزل الله عزّوجلّ هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ

1 - أنظر (الكشّاف) - الزمخشري. و(الوجيز) - الواحدي. و (التفسير الكبير) - الرازي، وقد فصّل القول في بيان هذه السنّة، يرجى العودة إليه.

بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ [الإسراء]) [1].

وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم: 84]

(الْمُرَادَ هُنَا اسْتِعْجَالُ الِاسْتِئْصَالِ وَالْإِهْلَاكِ، وَهُوَ مُقَدَّرٌ كَوْنُهُ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ، أَيِ انْتَظِرْ يَوْمَهُمُ الْمَوْعُودَ، وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ. وَلِذَلِكَ عُقِّبَ بِقَوْلِهِ: {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}، أَيْ نُنْظِرُهُمْ وَنُؤَجِّلُهُمْ، وَلَسْنَا بِنَاسِينَ لَهُمْ كَمَا يَظُنُّونَ. وَقَدِ اسْتُعْمِلَ الْعَدُّ مَجَازًا فِي قِصَرِ الْمُدَّةِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ يُعَدُّ وَيُحْسَبُ. وَفِي هَذَا إِنْذَارٌ باقتراب استئصالهم) [2].

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

.. إلخ.

12 – هذا، وقد **أيّد** الله تبارك وتعالى رسوله وخليله محمّداً ﷺ في الظروف العصيبة والعسيرة.. وأصل ذلك **التأييد**، كان بتنزيل الآيات القرآنية **مرتلة**:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان]

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) ﴾ [الشرح]

وقد أيّد الله جلّ وعلا رسوله بالملائكة.. وبجنوده من السماء والأرض.. وبالآيات المادية (المعجزات) كذلك، ولكن ليس على سبيل التحدّي للمشركين - كما قلنا - بل تثبيتاً لفؤاد رسوله ومن معه من المؤمنين واستشعاراً لمعيّة الله عزّ وجلّ لهم.

---

1 - أحمد شاكر/ مسند أحمد - 4/96. أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. نقول: لذلك لم يُحْدِث الله تعالى أي آية مادية على يد رسول الله الخاتم استجابة لطلب المشركين حتى القرآن الكريم، وإن كان فيه تحدٍ لهم إلا أنه كان من باب الدليل على أنه من الله تعالى وأنه آية على صدق الرسول، وليس استجابة لطلب المشركين.. مثل عصا موسى، وإحياء الموتى على يد عيسى، عليهما السلام. وأمّا ما ثبت حصوله من آيات مادية مع رسول الله كالإسراء، ونبع الماء من بين أصابعه، والبركة في الطعام.. كان من باب التكريم لرسول الله وتأييده وتثبيت المؤمنين. وفي هذا السياق يمكن أن يبرز إشكال في فهم آية "انشقاق القمر" على يد رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، بسبب أن بعض الروايات تُشير إلى أنها كانت استجابة لطلب المشركين. وهناك بعض الروايات - عن ابن مسعود - ليس فيها إشارة إلى ذلك. أنظر تبيان (سورة القمر).

2 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

ومن أبرز تجلّيات ذلك **التأييد** من الله تبارك وتعالى لنبيّه وخليله محمّد ﷺ:

- ✓ كفايته المستهزئين؛ حيث أهلكهم واحداً بعد الآخر، وبناء عليه أمره الله بالصدع في ما يأمره الله به، في رسالته، وأن لا يبالي بالمشركين بمعنى تركهم وإهمالهم :
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ [الحجر: 94-96]
- ✓ نزول ملَك الجبال لنصرته، وتخييره بإنزال العذاب على قومه وقد كذّبوه.. وذلك بعد عودته من الطائف.
- ✓ حادثة الإسراء؛ وقد كانت من آيات الله الكبرى.. فازداد المؤمنون تصديقاً، والكافرون تكذيباً..
- ✓ إيمان النفر من الجن، بعد أن بلغتهم دعوة الله **تعالى** وقد رفضتها كلتا القريتين؛ مكة والطائف: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢).. ﴾ [الجن: 1-2]
- ✓ إيمان الأنصار؛ فبعد وفاة أبي طالب، كان رسول الله ﷺ يبحث عن بديل لأبي طالب **ليحميه**، وإن كان كافراً مثله (كما في حالة الرجل من همذان)، ليستطيع أن يستمر في تبليغ رسالة الله **تعالى**، إلا أن الله تبارك وتعالى بمنّه وكرمه، هيّأ له أكثر من ذلك، فقد هيّأ له وساق إليه من **يؤمن** به ويتّبعه **وينصره**، وهي الكرامة التي ادّخرها الله **تعالى** للأنصار **رضي الله عنهم**، حيث آمنوا بالرسول واتبعوه، ثم آووْه ونصروه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾ [الأنفال]،،، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ [الأنفال]

13 - أصبح الناس فُسطاطَيْن متمايزين، وفريقين متخاصمين **في ربهما**.. الذين آمنوا، والذين كفروا.. أنظر سوَرة الشعراء الآيات [200-208] تتكلم عن هذه الفترة. وفي سوَرة الحج - وقد نزلت قُبيل الهجرة أو أثنائها - ذِكرٌ للخصمين الذَيْن تخاصما في ربهما [19]، وسوَرة النمل [45]، وسوَرة هود[24]، وسوَرة الأنعام [81].. وفي سوَرة يس [47] حيث يقول تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ **كَفَرُوا** لِلَّذِينَ **آمَنُوا** أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)﴾ [يس: 47]

وفي سوَرة مريم:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ **كَفَرُوا** لِلَّذِينَ **آمَنُوا** أَيُّ **الْفَرِيقَيْنِ** خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)﴾ [مريم]

وفي سورة هود:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) * مَثَلُ **الْفَرِيقَيْنِ** كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [هود: 21-24]

وفي سورة الحج:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾ [الحج: 71-72]

وأن يصبح الناس فُسطاطَيْن متمايزين، نتيجة طبيعية لأمر الله تعالى لرسوله بالصدع بالحق أي الجهر به وإظهاره الأمر الذي يؤدي إلى تصدّع صف أهل الباطل وتفرّقهم :

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ [الحجر: 94-96]

"أي: امضِ بما تُؤْمَر؛ أي: بأمرِ اللهِ، وبتبليغَ الرِّسالة إلى جميعِ الخَلْقِ.. ولا تبالي بالمشركين؛ بمعنى تَرْكهم وإهمالهم..

وَجُمْلَةُ {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بالصدع والمِضيّ.. "فمتى شُقَّ الحائل تهيَّأ المضيُّ"..

واسْتُعْمِلَ "الصَّدْعُ" فِي لَازِمِ الِانْشِقَاقِ وهو التفريق.. وأداة الصدع والتفريق هو الحق الذي أمر الله تعالى به في رسالته وبيّنه رسوله الكريم ﷺ..

وفي هذا السياق يأتي موقف الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يخفي إيمانه، حيث صدع بالحق مدافعاً عن موسى عليه السلام (سورة غافر)..

وكذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة صادعاً بالحق مدافعاً عن رسل الله الثلاثة بعد أن كذّبهم أهل القرية (سورة يس)..

وأيضاً موقف أبي بكر الصدّيق - رضي الله عنه ، كما في صحيح البخاري - عندما جاء مدافعاً عن رسول الله ﷺ من إيذاء قريش.. قائلاً لهم قولة ذلك الرجل المؤمن: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ..(٢٨)} غافر، فتركوا رسول الله وضربوا أبا بكر وآذوه إيذاء شديداً.. وهو أو رسول الله ﷺ لم يردّا على أذى المشركين بالقوة.. بل التزما بما أمر الله جلّ وعلا به من الإعراض عنهم والصبر على أذاهم..

هذا، وقد جعَل الله **تعالى** الفريق المؤمن (الذين استجابوا لدعوة الله) **حُجَّة** على الفريق الكافر (المجتمع ومَلَئِه)، فلا عذر لقريش ومَلَئِها أمام الله **تعالى،** فإن لم يؤمنوا ويتبعوا الرسول ويلحقوا بمَن سبقهم من المؤمنين، نزل بهم العذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة:

﴿..فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾ [الشورى]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي **تُتْلَى** عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ **فَرِيقٌ** مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) ﴾ [المؤمنون]

14 - في كثير من الآيات شبّه الله **تعالى** قريشاً بأعتى الأمم السابقة وأشدها حرباً على الله تعالى وتكبُّراً على أمره عزّ وجلّ؛ فرعون وعاد وثمود.. وذلك من حيث استكبارهم وعلوِّهم، ومن ثم استحقاقهم العذاب مثلهم، وقد ساروا جميعاً على سنّة واحدة.. كما في سوَر: يونس والشعراء والقمر والمزمّل والبروج والفجر.. وغيرها، وذلك قبل نزول العذاب بهم (البطشة الكبرى يوم بدر).. وكذلك، في سوَرتي الأنفال وآل عمران، بعد نزول العذاب بهم.

ومن جهة أخرى، فقد وردت في بعض السور المتعلّقة بهذا الطّوْر، أسماء وأوصاف وُسِمت بها قيادة المجتمع (الملأ) الكافرة التي تتولّى كِبَر الصدّ عن سبيل الله وتُعادي حَمَلة رسالات الله، في كل زمان ومكان. منها: كُبَراء، مُترَفون، جاحدون، الذين استكبروا، أئمة الكفر، مجرمون، طاغون، مفسدون، مُسرِفون..:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [الذاريات: 52-53]

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١)﴾ [القمر: 41-51]

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ [الأنعام: 123]

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء: 16]

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) ﴾ [الزخرف: 5]

.. الخ

و أطلق رسول الله ﷺ على أبي جهل وصف "فرعون هذه الأمّة"، كما في بعض روايات السيرة.. وقد شبّه "أشقى القوم" الذي عقر ناقة صالح، بواحد من قادة قريش هو: أبو زَمعة الأسود، وكان أحد المستهزئين ومات على كفره في مكة [1].

15 - الابتلاء، من سنن الله **تعالى** العامة على طول طريق التمكين لدين الله **جلّ وعلا** والنصر لأوليائه - في هذا الطّوْر وفي غيره - ليمحّص الله **تعالى** قلوب الذين آمنوا، حتى يميز الخبيث عن الطيّب؛ لأن نصر الله **تعالى** لا ينزل إلا على المستحقين له [2].

فمن أجل بيان المستحقين من غيرهم، أو من أجل تهيئة المؤمنين - جماعة وأمة - وإعدادهم ليكونوا من المستحقين.. كان لا بد من الابتلاء والاختبار والفتنة [3]، في المراحل والأطوار المختلفة من السير بالرسالة، وخاصّة عند الترقي إلى طور جديد، أو الانتقال إلى مرحلة جديدة (نقلة نوعية):

---

1 - (خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «{إذ انبعث أشقاها} انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زَمعة ») (أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما). قَوْلُهُ عَزِيزٌ أَيْ قَلِيلُ الْمِثْلِ. وعَارِمٌ أَيْ صَعْبٌ عَلَى مَنْ يَرُومُهُ كَثِيرُ الشَّرِّ. ومَنِيعٌ أَيْ قَوِيٌّ ذُو مَنَعَةٍ أَيْ رَهْطٍ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الضَّيْمِ. وأبو زمعة هو الْأَسْوَدُ وكان أَحَدُ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ بِمَكَّةَ، وَقُتِلَ ابْنُهُ زَمْعَةُ يَوْمَ بدر كَافِرًا أَيْضاً. أنظر فتح الباري لابن حجر.

2 - للتوسّع في هذه النقطة انظر (عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين) - أحمد حمدان الشهري.

3 - الأصل في الكلمات القرآنية عدم الترادف، وهذه الكلمات ليست مترادفة في استعمال القرآن الكريم لها بل هنالك فروق دقيقة بينها:

الاختبار: من الخُبر، بمعنى الاطّلاع النافذ، وأخذه.

الابتلاء: من البلو، بمعنى إيجاد التحوّل والتقلّب، والأخذ به.

الامتحان: من المحن، وهو دأبٌ وجدٌ في العمل حتى يتحصّل الخُبر والنتيجة.

الفتن: إيجاد اختلال واضطراب.

فلا يصح استعمال واحد منها في مورد الآخر، إلا بالتجوز. وقد اختلط كل واحد من هذه المعاني في مقام الاستعمال والتفسير في كلماتهم.. أما إذا لوحظت الحيثيات والقيود فلا اشكال.

فيقال: اختبرت الذهب، وابتليته، وامتحنته، وافتتنه.

فاختبر: بلحاظ مجرّد تحصّل الخُبر فيه.

ابتلى: بتحصّل التحوّل والتقلّب فيه.

امتحن: بالنظر إلى دأب وجَدّ حتى يتحصّل الخبر.

افتتن: بالنظر إلى حصول اختلال واضطراب فيه.

أنظر (التحقيق في كلمات القرآن). حسن المصطفوي.

✓ كما ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين، في قصة طالوت وجالوت في سوَرة البقرة.. حيث مرّ المؤمنون بعدة اختبارات، حتى لم يبق منهم إلا الخُلّص الذين استحقوا نصر الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ... فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ.. (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ... فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ.. (٢٥١)﴾ [البقرة: 246-251]

✓ كما حصل للمؤمنين في غزوة أحد؛ ما قبلها وأثنائها وما بعدها.. حيث كان المجتمع في المدينة أخلاطاً من الناس [1]، في بداية نشأة الأمّة المسلمة، فبالإضافة إلى المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، كان هناك المنافقين، واليهود، ومن بقي على الشرك من أهل المدينة. ومن جهة أخرى لم يكن المؤمنون على سَويّة واحدة من الإيمان والتقوى، بل كان منهم مَن يريد الدنيا ومنهم مِن يريد الآخرة:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾ [آل عمران: 152] [2]

ثم بيّن الله **تعالى** أنه ليس من سنته في عباده المؤمنين أن يذرهم على مثل الحال التي كانوا عليها حين غزوة أحد من اختلاطٍ وعدم تميُّز، بل إن سنته أن يميز المؤمن من المنافق، ويفصل بينهما:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ **حَتَّى يَمِيزَ** الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) ﴾ [آل عمران: 179]

---

1 - أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي: فصل: (عبد الله بن أبيّ وإيذاؤه للنبي ﷺ).

2 - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ، يريد الدنيا حتى نزل: { منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}. أنظر (موسوعة الصحيح المسبور) - د حكمت بشير ياسين.

ووسيلة تحقيق ذلك الفصل والتمايُز ليس بالإخبار عنهم وإنما بالإختبار والابتلاء لكشف حقيقة حالهم.. فليس من سنة الله بأن يُطْلِع المؤمنين على الغيب الذي يَعْلمه من عباده، وإنما جرت سنة الله **تعالى** بأن يميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد في سبيل الله، كما حدث في غزوة أحد - وسائر الغزوات والمعارك - فالشدائد هي محك صدق الإيمان، فهي التي تميز قويّ الإيمان من ضعيفه، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين.. وكذلك الرخاء والنصر والتمكين.. فيها اختبار لصدق الإيمان وعد الافتتان بالنعمة:

﴿.. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء: 35]

✓ حادثة الإسراء قُبَيل الهجرة والتمكين في المدينة، تُعتبر من باب الفتنة والتمحيص قبل التمكين لإعداد المؤمنين وترقيتهم لمرحلة التمكين في الأرض، وتنقيتهم مما بقي عالقاً في نفوسهم من الشوائب - شهوات وشبهات - التي تعكّر صفو الإيمان.. كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ [الإسراء: 60]

حيث ورد في بعض الروايات أنه بعد انتشار الخبر عن حادثة الإسراء (أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَمَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ذَلِكَ، فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ. وَجَعَلَ اللهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخَرِينَ) كأبي بكر الصدّيق **رضي الله عنه**. فالواجب أن يُتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم والتصديق من غير شك ولا ارتياب [1].

✓ وفي نفس السياق، يمكن أن نفهم آية سوَرة المدثر:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي

---

1 - يقول ابن كثير في تفسير: ((وقوله: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به. {والشجرة الملعونة في القرآن} شجرة الزقوم... وتقدّم أن ناسا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين؛ ولهذا قال: {إلا فتنة}أي: اختبارا وامتحانا. وأما {الشجرة الملعونة}، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسّره كذلك بشجرة الزقوم... ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشجرة)). وانظر أيضاً (موسوعة الصحيح المسبور) - د حكمت بشير ياسين.

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)﴾ [المدثر: 27-31]

أي: (إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر لنعلم مَنْ يصدّق ومَنْ يكّذب من الناس:

أما أهل الكتاب، ليعلموا يقيناً أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بما يطابق ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله: { لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ }

أما الذين آمنوا، فكلما أنزل الله آية وآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم:

{ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ }

أي: ليزول عنهم الريب والشك.

أما الكافرون والذين في قلوبهم شك وشبهة و سُوءُ النِّيَّةِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ - يعني كموقف مُسبق وثابت - يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا؟ وهذا على وجه الحيرة والشك والكفر منهم بآيات الله **تعالى**:

{ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا}

فجعل الله ما أنزله على رسوله، مميزاً للكاذبين من الصادقين. لهذا يقول تعالى:

{ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ }

أي، وهكذا تنفذ مشيئة الله - ممثلة في سننه وتقديره - في هدايته من يريد الهداية من الناس، وفي إضلاله من يريد الضلال منهم [1].

فالواجب أن يُتلَقّى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم إلا هُوَ: { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } ، فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدّقوا خبره من غير شك ولا ارتياب) [2].

لذلك، في أول ما نزل من القرآن في المدينة (أول سوَرة البقرة) كانت أولى صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب:

﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) ﴾ [البقرة: 1-3]

والحمد لله رب العالمين

السمات العامة للسُّوَر المتعلقة بهذه المرحلة بأطوارها الثلاثة.

وبناء على ما تم ذكره من خصائص أطوار المرحلة الأولى وبيان سماتها، يمكن أن نستخلص بعض السمات العامة أو الخطوط العريضة في ما يخص السوَر المتعلقة بهذه

---

1 - يقول ابن كثير في تفسيره: ((أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة)).

2 - أنظر (تفسير السعدي).

المرحلة بأطوارها الثلاثة، ويمكن اعتبارها من القرائن المساعدة على تعيين الطّوْر الذي تتعلّق به السوَرة عند تبيانها:

- بداية من المعلوم أن الأصل في تبليغ الرسالة هو البيان والتوضيح والشرح والتفصيل **لمحتوى** "خطاب النذارة" (أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير) وخاصة في البدايات؛ في الطّوْر الأول وفي بداية الثاني.. لأن مقصود الرسالة، بيان الحق لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.. أما إذا أصرّ المخاطَبون على البقاء على الكفر - رغم البيان والتوضيح - وأخذوا يجادلون بالباطل ويتكبّرون على الإقرار بالحق البيّن.. عندها، يكون من الحكمة التنويع في اساليب الكلام والاستدلال، فلكل مقام مقال.. ذلك أن (الاستدلال على أمور لا تتعلق بها الرغبة والنفرة، مثل ما ترى في العلوم الطبيعية والرياضية أو في تاريخ الأولين، على الأكثر، كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح. فأما إذا استدللنا على أمور يتصادم فيها من القائل والسامع: حثّ واستنكار، وزجر واستكبار، وإلحاح وإصرار.. احتجنا - حينئذ - إلى إيراد الأدلة على وجوه مختلفة من أساليب الكلام، متفاوتة في الوضوحة واللطافة والقوة والحدة.. وربما نبدّل الأسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع، أو رجاء أن ينجح فيه بعض الأساليب أكثر من بعض، كما صرح به القرآن:

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)﴾ [الأنعام: 46] [(1)]

وكما فعل إبراهيم عليه السلام مع الذي حاجّه في ربه، فترك الإصرار على الدليل الأول، حين لم يفهمه الخصم، وعمد إلى دليل آخر أقرب إلى فهمه:

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة: 258]) [(2)]

وفي أجواء الخصومة والجدل والأخذ والردّ.. يَنْصَبُّ الاهتمام على **أسلوب عرض** "خطاب النذارة" فيزداد قوة وتنويعاً في استخدام وسائل البيان والتأثير المختلفة.. من أجل هزّ تلك القلوب القاسية كالحجارة أو أشد قسوة، لعلها تلين للحق وترعوي.. وتحريك هاتيك المشاعر الباردة والمتبلّدة، لعلها تهتز وتهشّ للحق.. وذلك، تارةً بالتخويف والترهيب بالمصير الرهيب

---

1 - أي: (انظر- أيها الرسول - كيف نُنوِّع حججنا الواضحات لهؤلاء المشركين لعلهم يفهمون فيعتبروا؟). التفسير الميسر. يقول الراغب في المفردات: (والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال. قال تعالى: (وَصَرَّفْنَا الْآياتِ) [الأحقاف/27] (وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) [طه/113]). وقال ابن فارس في المقاييس: (صَرَفَ؛ الصاد والراء والفاء، معظم بابِهِ يدلُّ على رَجْع الشيء. من ذلك صَرَفْتُ القومَ صَرْفاً وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعوا... ومعنى الصَّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِف إلى شيء، كأنَّ الدِّينارَ صُرِف إلى الدراهم، أي رُجِع إليها، إذا أخذتَ بدلَه... قال أبو عُبيدٍ: صَرْفُ الكلام: تزيينهُ والزِّيادةُ فيه، وإنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَفَ الأسماعَ إلى استماعه). نقول: والحاصل أنه في صرف الدينار أو صرف الكلام.. يبقى المعنى أو القيمة أو المضمون.. هو هو، إلا أن الشكل أو المظهر هو الذي يكون فيه=> التغيير والتبديل لقصدٍ وحكمةٍ. فتصريف الآيات هو: كثرة التنويع والتقليب في إيراد الدلائل على الحق الواحد البيّن، لعل المخاطَب يتأثر ويهتدي.

2 - (أقسام القرآن) - الفراهي الهندي، بتصرّف.

- في الدنيا والآخرة - إن أصروا على كفرهم.. وتارة أخرى، بالترغيب بالنهاية السعيدة في ذلك النعيم المقيم في الحياة الآخرة أو بالعز والنصر والكرامة وسيادة الناس، في الحياة الدنيا..

- هذا، وأحوال الإنكار والخصومة والجدل بالباطل وأجوائها، لم تظهر في مواقف قريش من الحق في بداية دعوة رسول الله لهم وتبليغهم الرسالة - كما بيّنّا في ما سبق - بل كانت متأخرة، وقد أصرّوا على الكفر. وقد بدت واضحة جداً في منتصف "الطّوْر الثاني" و أواخره، وخلال "الطّوْر الثالث"..

مما **يعني** - كخط عام - أن السوَر التي فيها **إجمال في** عرضها للأفكار والقضايا، وتكون **متميزة** بأسلوبها القوي في أدائها لـ "خطاب النذارة"، **وبالتنويع** في وسائل عرضه المؤثرة.. كالسوَر التي تُصوّر يوم القيامة وعذابه ونعيمه، بشكل متنوع عجيب يأخذ بالألباب.. وقد يرد فيها شيء من القَصَص بشكل مكثّف وموجَز وبأسلوب قوي.. فهي على الأغلب تتعلّق بأواخر الطّوْر الثاني و الطّوْر الثالث.

- ومن التنويع الظاهر في أسلوب الخطاب القرآني (تصريف الآيات)، والمناسب لمثل تلك الأجواء والأحوال من الخصومة والجدل بالباطل.. تبرز الأساليب والوسائل اللغوية التالية:

- ✓ القَسَم: (والقَسَم أسلوب في الخطاب ابرز ما فيه هو التأكيد.. ويقتضيه المقام وحال المخاطَب، في مثل حال الإنكار والخصومة والجدل بالباطل)) [1]..
- ✓ الاستفهام للتقرير: وهو سؤال يقتضي علم المُقرَّر - المسؤول - بما قُرِّر عليه:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) ﴾ [الضحى: 6]

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة: 40]

- ✓ الاستفهام للإنكار والتقريع:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ [النمل: 59-63]

- ✓ استعمال "كلّا" للردع والزجر: ويُقصد بها زجر المُخاطَب عن الأمر الذي يُنهى عنه، لئلا يعاوده. والأصل في "كلا" أن تقع بعد الكلام المُراد إبطاله والزجر عن مضمونه. ولكنّها قد

1 - أنظر (أقسام القرآن) - الفراهي الهندي.

تقع في أول الكلام، فيقتضي أن معنى الكلام الحقيق بالإبطال وبردع قائله يأتي بعدها، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ [العلق] [1]

مما يعني - كخط عام - أن السوَر التي يأتي في خطابها بعض الأساليب السابقة، بارزاً واضحاً.. تُعتبر من السوَر المرتبطة بأواخر الطّوْر الثاني والطّوْر الثالث.

- ومن التنويع في أساليب الكلام والاستدلال والتأثير (تصريف الآيات)، "الأسلوب القصصي" وهو من الأساليب البارزة والمهمّة في الأداء القرآني في عرض "خطاب النذارة".. (لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان المصير).. لما له من تأثير مباشر وقوي على المخاطَبين:

فبالنسبة لفريق المؤمنين؛ حَمَلة الرسالة: فيه تسلية ومواساة لهم وتثبيت لقلوبهم بتعريفهم وتفقيههم بسنن الله في حمل الرسالات.. مثل أن الله **تعالى** يُنجّي المؤمنين وينصرهم، ويُهلك الكافرين ويدمّرهم.. ومثل بيان مواقف مَنْ سبقهم من أهل الحق والإيمان في صبرهم وثباتهم.. وخاصة حين ما تبدأ الأحوال بالضيق والتعسّر وتزداد الأمور شدة.. كما في تعذيب المؤمنين، والهجرة إلى الحبشة، والحصار والمقاطعة في شِعب بني هاشم..:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام: 34]

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود: 120]

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

أمّا بالنسبة للفريق الآخر؛ الضالين: ففي "الأسلوب القصصي" تنويع في البيان والبشارة والنذارة وإقامة الحجة عليهم، بضرب الأمثال لهم بمن سبقهم من أهل الكفر، والبيان العَمليّ الواقعي لسنة الله **تعالى** بإهلاك أولئك ودمارهم لمّا بقوا مصرّين على كفرهم.. لعلّ هؤلاء يتوبون إلى الله ويتبعون رسوله:

﴿ .. فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف: 175-176]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)﴾ [المزمل: 15-16]

مما يعني - كخط عام - أن السوَر التي وردت فيها القَصص بشكل مفصّل، تتعلّق بالطّوْرين الأخيرين من المرحلة الأولى.. مثل سوَر: الأعراف، يوسف، هود، الشعراء، طه، القصص.

1 - أنظر تبيان (سورة العلق)، تبيان (سورة عبس).

- "أجواء السوَرتين متقاربة"، هذا التعبير قد يرد معنا أثناء محاولة ربط السوَرة من القرآن مع الطّوْر الذي تتعلق به. ومقصودنا من هذا التعبير أن مناطي سوَرتين أو أكثر متقاربان في زمن الحدوث، وقد يتداخلان أيضاً.. بمعنى أن "مناط سوَرة" قد حدث، وتداعيات "مناط سوَرة" أخرى أو ظروفه العامة، لا تزال موجودة ومؤثرة: مثل الحصار في شعب بني هاشم، فقد استمر ثلاث سنوات وفي أثنائه - في نفس الأجواء - تأتي سوَر أخرى لمعالجة مواقف وأحداث حدثت أثناء الحصار. ومثل حادثة الإسراء، حيث كان لها تأثير قوي وتداعيات (أجواء) استمرت فترة من الزمن.. وكذلك العذاب الأدنى (السنين والدّخَان).. وأيضاً طلب المشركين للآيات المادية (المعجزات).. ومثل الغزوات والمعارك في المرحلة الثانية (المدنيّة)، فلكل غزوة أجواؤها من حيث: أسبابها ومقدماتها، وأحداثها نفسها، ونتائجها وتداعياتها.. الخ.

ف "الأجواء"، هي ظروف وأحوال متتابعة أو متزامنة أو متقاربة.. وهي أخص من "الطّوْر". فقد تكون في طور واحد، وقد تكون في نهاية طور وبداية الطّوْر الذي يليه؛ يعني في فترة الانتقال من طور إلى آخر.. ومعرفة هذا الأمر له أهمية كبيرة في الفهم الدقيق لطبيعة سير رسول الله بالرسالة، وطبيعة تتابع أحداثه وأطواره.. وبالتالي إعطاء حَمَلة الرسالة - في كل زمان ومكان - القدرة على التشخيص الصحيح والدقيق للواقع الذي يتحركون فيه (تحقيق المناط)، ثم معالجته بدقة وكفاءة عاليتين.. وبأقرب ما يكون إلى الصحة وأبعد ما يكون عن الخطأ.. الأمر الذي يُجنّب حَمَلة الرسالة، التبعات السلبية والضارة، في حالة الخطأ سواء في "تحقيق المناط" الذي يواجهونه أم في تعيين المعالجات الشرعية المتعلّة به وتنزيلها عليه.

هذا، والقرائن الدالّة على تقارب "أجواء" سوَرتين أو أكثر، قد تكون قرائن من خارج السوَرة، كالروايات الثابتة حول أسباب النزول أو من السيرة، أو قد تكون القرائن من السوَرة نفسها؛ وأهمها المُشابَهة أو المُقارَبَة بين سوَرتين أو أكثر: إمّا في **الموضوع** أو في **الأسلوب**؛ أي إمّا في فكرة أو معنى معيّن.. او في كيفية أداء المعاني والأفكار:

بالنسبة لـ **مشابهة الموضوع**:

ليس كل مشابهة في الموضوع تعني أن تكون أجواء السوَر التي ورد فيها نفس الموضوع متقاربة، بل الأمر يعتمد أيضاً على طبيعة الموضوع:

✓ فإذا كان الموضوع متعلق بقضايا عامة كالإيمان بأنه لا إله إلا الله أو اليوم الآخر.. أو بحالة عامة كالنفاق أو الكفر.. أو متعلّق ببيان بعض الأحكام الشرعية، والتي نزلت في أوقات مختلفة ومتباعدة وحسب حدوث الحالات.. كأحكام الزواج والطلاق، مثلاً.. فهذه وأمثالها واضح أنها ليست كافية لاعتبار أن أجواء تلك السوَر التي ورد ذكرها فيها أنها متقاربة، بل لا بد من قرائن إضافية أخرى.

أما إذا كان الموضوع متعلّقاً بـ "الصراع الفكري" والجدال والأخذ والرد.. بين حقائق الإيمان وأباطيل الكفر، فإن ورود الفكرة نفسها أو المعنى ذاته الذي دار حوله الجدل أو "الصراع الفكري" في سوَرتين أو أكثر، يُعَدّ من القرائن القوية على تقارب أجواء تلك السوَر. ذلك، أن

الشُّبهة (المَثَل) المُعيّنة التي طرحها أهل الباطل، بأشكالهم المختلفة، كان من باب المجادلة بالباطل وأنهم قوم خَصِمون وقوم لُدّ.. فبعد أن يكشف القرآن الكريم ما فيها من لبس ويزيل باطلها، ويعرّي ويكشف حقيقة موقفهم، لا يعود أهل الباطل إلى ذكرها أو استعمالها مرة أخرى، بل يَدَعونها ويلجؤون إلى البحث عن شبهات ومواقف جديدة، للتلبيس على الناس.. وهكذا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان: 33]

ومن هنا - وبشكل عام - فإن السوَر التي تعالج نفس الشُبهة (المثل) المعينّة أو تطرّقت إلى ذكرها أو الإشارة إليها.. فإنه من الراجح اعتبار أن أجوائها متقاربة.. وأن مناطاتها قد حدثت في أزمان متقاربة.. مثل، وصف المشركين لرسول الله بأن به جِنّة.. وحاشاه ﷺ.

✓ وأما إذا كان الموضوع متعلّقاً بذكر وبيان صفة خاصة معيّنة من صفات أحد الفريقين الخَصْمَين: أهل الإيمان أو أهل الكفر.. طبعاً غير الصفات العامة مثل الإيمان، الإسلام، الضلال، الكفر، النفاق.. إنما نقصد **الوصف** الذي له **دلالة** على وصول أحد الفريقين إلى مستوى معين في موقفه من دين الله ورسالته، في طور من أطوار السير لتحقيق الغاية من الرسالة. أي تلك الصفة التي تمثّل درجة محددة من درجات "الزيادة في الإيمان" (التزكية)، بالنسبة لأهل الإيمان، مثل: أبرار، مخبتين، صدّيقين.. الخ.. أو في الجهة المقابلة، بالنسبة لأهل الباطل، فهي الصفة التي تمثّل دركة معينة من دركات "الزيادة في الكفر" (التَدْسِية، التَّسفُّل).. مثل مفسدين، مجرمين، فُجّار، أئمة كفر، عنيد، يكيدون، يمكرون.. الخ.

نقول: إن ورود مثل تلك الصفة المعينة لأيٍ من الفريقين في سوَرتين أو أكثر، يُعد من القرائن القوية على أن أجواء تلك السوَر متقاربة. فما أُطلق في القرآن الكريم وصف معيّن على أحد إلا لاستحقاقه لذلك الوصف، واستحقاقه أيضاً لما يترتب عليه من تبعات وأحكام ومعالجات [1].. سواء كانوا أهل الحق والإيمان؛ في ترقيهم في درجات "الزيادة في الإيمان" وصولاً إلى إكمال الدين لله عزّ وجلّ، واستحقاقهم للتمكين والاستخلاف في الأرض.. أم كانوا أهل الباطل والكفر في تردّيهم في دركات "الزيادة في الكفر" وصولاً إلى استحقاقهم العذاب والدمار في الدنيا وعذاب النار في الآخرة.

أمّا **مشابهة الأسلوب**:

فإن طريقة عرض القرآن الكريم للمعاني لا تنفصل عن المعاني والأفكار نفسها، من باب مناسبتها لمعالجة حال المخاطبين، مؤمنين وكافرين، والمستوى المعين الذي وصلوه في موقفهم من دين الله، في الطّوْر المعين من السير بالرسالة.. وهذا واضح تماماً.. فذلك من

---

1 - ويعزز هذا المعنى ويوضّحه، مفهوم "المصطلح" في وصف بعض ألفاظ القرآن الكريم. فـ "المصطلح القرآني" هو: ((ذلك اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة التي له في اللسان العربي، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة)). فهذه الصفات المعينة بمثابة مصطلحات القرآنية.

باب تنزيل المعالجة المناسبة على الواقع (المناط) المعيّن.. فالله تبارك وتعالى عندما خاطب الناس في القرآن الكريم، راعى أحوالهم وواقعهم، فخاطب كل إنسان بما هو أهل له، وبحسب الحالة التي هو فيها سواء من حيث المحتوى (المعاني) أم من حيث الأسلوب (شدة الخطاب). فلكل مناط معالجته الخاصّة به. فخطاب الكافر المعاند المحارب لله ورسوله، يختلف عن خطاب الكافر الجاهل وغير المحارب، أو عن المنافق. وخطاب المؤمن العاصي، يختلف عن خطاب المؤمن القائم على أمر الله تعالى.. وهكذا.

ومن هنا فإن ما ذكرناه سابقاً من ذكر المعاني والأفكار والأحكام – ما بين عمومها وخصوصها – في علاقتها بتطور المواقف أثناء السير بالرسالة.. ينطبق على "الأسلوب" أيضاً، أي على طريق أداء تلك المعاني والأفكار والأحكام والصفات.. ومناسبتها لحال المخاطَبين وموقفهم من الرسالة.. ويؤيد ذلك ما ذكرناه في النقاط السابقة (1-3) من هذا البند.. حول أسلوب القَسَم، والاستفهام التقريري، والقصص.. وتنوع أسلوب عرض "خطاب النذارة" بين التفصيل والإجمال.. إلخ [1].

والحمد لله رب العالمين..

وبهذا نصل إلى نهاية المرحلة الأولى، وما فيها من الاستضعاف والخوف..
ولندخل إلى المرحلة الثانية.. والتي فيها يُظهِر الله عزّ وجلّ دينه، وينصر أولياءه.

1 - كما في قوله تعالى لموسى وهارون: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44)} طه. إن جملة (قَوْلًا لَيِّنًا) وصف لأسلوب الكلام، وصف لطريقة أداء الفكرة، أما الفكرة نفسها فهي ما ذكره الله تعالى في سورة طه، وفي غيرها من السور: {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)} طه، فالفكرة هي الحق الكامل البيّن الذي لا لبس فيه. أما أن يكون أسلوب أداء الفكرة الحق بـ (القول اللّين) فهذا ما يناسب "الذي طغى" في هذا الطور من بلاغ الرسالة، أمّا بعد إصرار فرعون على الكفر ومجادلته بالباطل، وجعْل نفسه "طاغوتاً" يُعبَد من دون الله.. فقد تغيّرت المعالجات: من حيث الأعمال، ومن حيث أسلوب الخطاب.. كالمحاججة العلنية، والتحدي العلني السافر، إلى إنزال الآيات البينات: السنين والجراد والقُمّل.. حتى وصل الأمر بفرعون إلى أنه لن يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، وعندما أيقن أنه هالك في البحر، آمن.. ولكن، بعد فوات الأوان.. فأغرقه الله تعالى وجنوده في البحر، ونجّى أهل الإيمان الذين كانوا مستضعفين وجعَلهم أئمة وجعَلهم الوارثين.

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة " **التمكين**" [1] للحق وأهله في بقعة من الأرض **وإكمال الدين** لله وحده، ثم **"الاستخلاف"** في الأرض [2]، حيث تصير **الجماعة** المسلمة، **أمة** مسلمة، ويصبح المؤمنون مكلّفين بالرسالة ليس بوصفهم أفراداً في جماعة فقط، بل - كذلك - بوصفهم أمّة **مسلمة** لله، لها **سلطان** على بقعة من الأرض ولها **إمارة** عامة (خليفة، ولي أمر شرعي).

وهي استمرار للمرحلة الأولى ومبنيّة عليها ضمن خط السير بالرسالة، وطَوْراها الإثنان استمرار للأطوار الثلاثة السابقة.. ولكل طَوْر تفاصيله، خطاباً وأعمالاً.. وهما كالتالي:

الطّوْر الرابع:

تمكين المؤمنين في بقعة من الأرض ونصرهم، وعدم استئصالهم منها.
وذلك من الاستقرار في المدينة إلى غزوة الأحزاب.

في هذا الطّوْر يُظهِر الله تبارك وتعالى الحق وأهله ويُزهِق الباطل وأهله.. فبعد هجرة رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى المدينة المنورة، وبدء عملية الاستقرار فيها، كان إعلان ميلاد **"الأمّة المسلمة"** بشكلها الأساس (، بأن المؤمنين أمّة من دون الناس.. من خلال إعلان "وثيقة المدينة" [3].. وبيان الأصل الذي تقوم عليه هذه الأمّة وهو: حقيقة أنه **لا إله إلا** الله **محمّد رسول** الله، بمعنى أن الطاعة لا تكون إلا لله وحده وأن طاعة رسول الله من طاعة الله **تعالى**، **بوصفه رسولاً** مبلغاً لما يريده الله سبحانه وتعالى من شريعة ودين، وبوصفه **"القائد** الأعلى" لهذه الأمّة المسلمة الناشئة (الإمارة العامة).. وكان بناء **المسجد** النبوي، حيث أصبح **مركزاً**

---

1 - المعنى المحوري لكلمة التمكين: ((رسوخ الشيء مُتجمّعاً (من دقائق) في باطن يلتئم عليه. مكّنه من الشيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطاناً، وقدرة..{ مكّنّاهم في الأرض } (ألأنعام:6).. فيحمل معاني الرسوخ والثبات مع قدرة)). أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل. ((التمكين أقوى من التقوية وإعطاء القدرة والسلطة وغيرها، فإنه يدل على استقرار وتثبّت وتحقّق مع القدرة:{ وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم }(النور:56))). أنظر (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) - حسن المصطفوي.

2 - المعاني البارزة في الاستخلاف هنا: السيادة والقدرة على التصرّف، يبيّنه قوله نعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...{26}) ص. فالحكم بين الناس مترتب على كونه خليفة في الأرض أي ملكاً وسيداً عليها فله السلطة والحكم. "فالخليفة عبارة عن المَلك النافذ الحكم، اى جعلناك أهل تصرّف نافذ الحكم فى الأرض" أنظر (روح البيان) - الخلوتي، و(أضواء البيان) - الشنقيطي.

3 - أنظر الكلام حول هذه الوثيقة وصحة سندها في (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

لتداول "الأمور الجامعة" والتشاور فيها [1]، وتُتخذ فيه القرارات المتعلقة بقيادة الأمّة وإدارة شؤونها المختلفة، ومَقرّاً للتعليم والتزكية، والإعلام والتوجيه..

وكانت المؤاخاة بين المؤمنين مهاجرين وأنصاراً.. وأصبح الأصل في الخطاب القرآني للمؤمنين بـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾

وجاء يوم غزوة بدر، فكان "يوم الفرقان"، حيث فتح الله **تعالى** وحَكَم بين الفريقين؛ الحق وأهله والباطل وأهله، وبيّن لقريش ومَلَئها خاصّة، ولعرب الجزيرة عامة، أنّهم على الباطل، وأنّ الذين على الحق هم هذه الأمّة الناشئة بقيادة رسول الله.. حيث جاءهم الفتح الذي طلبوا من الله **جلّ وعلا**:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾ [الأنفال: 19]

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم: 15]

فقد تحقق وعد الله **جلّ وعلا** - بحسب سننه - بإحقاق الحق وإبطال الباطل، بوقوع "البطشة الكبرى" على قريش بأيدي المؤمنين، قتلاً وأسراً.. حيث قُتِل سبعون من كبرائهم ووجهائهم، وأُسِر سبعون آخرون [2].. حيث لم تترك قريش لنفسها أي أمان، فلا هم **استغفروا** الله **تبارك وتعالى**، ولا هم **أبقوا** رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم [3]. وذلك بعد سَنة ونصف من الهجرة.. وقد كان القتال مأذوناً به دفاعاً عن النفس:

﴿* إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ **مَكَّنَّاهُمْ** فِي الْأَرْضِ **أَقَامُوا** الصَّلَاةَ **وَآتَوُا** الزَّكَاةَ **وَأَمَرُوا** بِالْمَعْرُوفِ **وَنَهَوْا** عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج: 38-41]

كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس:

---

1 - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى **أَمْرٍ جَامِعٍ** لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...{62}) النور.

2 - (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ{7} لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ{8}) الأنفال.

3 - (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ {33}) الأنفال.

((لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيّهم **ليهْلُكُنّ**. فأنزل الله **تعالى**: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } الآية فقال أبو بكر: لقد **علمت** أنه سيكون قتال) [1].

وهكذا، كان يوم بدر يوماً نَصَر الله عزّ وجلّ به الحق وأهله، نصراً مؤزّراً.. وكان يوماً من أيام الله **تعالى** في إحقاق الحق وإبطال الباطل. وكان درساً وتعليماً للأمّة المسلمة في حال النصر والغنيمة، من خلال النظر في سنن الله **تعالى** (أمر الله القدري) وفي التكاليف الشرعيّة (أمر الله الشرعي)، سواء في ما يتعلّق بالمقدمات والمتطلبات، أم بمباشرة الحدث وعيشه، أم بالنتائج والتداعيات.. كما بيّن الله **تعالى** ذلك كله في سوَرة الأنفال..

و تلا ذلك أحداث مهمة منها: إخراج بني قينقاع من المدينة أذلاء بعد أن نقضوا عهدهم لرسول الله، الذي ورد نصه في "وثيقة المدينة"..

إلى أن جاء يوم أُحد، حيث أراد كفار قريش الانتقام ليوم بدر.. فحصل للمؤمنين ما حصل من هزيمة ومن إصابة لرسول الله ﷺ.. فكان - أيضاً - درساً وتعليماً للأمّة المسلمة ولكن، في حال الهزيمة والإصابة بالمصيبة، من خلال النظر في سنن الله **تعالى** وفي التكاليف الشرعيّة، سواء في ما يتعلّق بالمقدمات والمتطلّبات، أم بمباشرة الحدث وعيشه، أم بالنتائج والتداعيات.. كما بيّن الله **تعالى** ذلك كله في سوَرة آل عمران..

و تلا ذلك أحداث مهمة وجسام منها: مقتلة كبيرة لصحابة كرام في كلٍ من ماء الرجيع وبئر معونة.. ونصْرُ الله **تبارك وتعالى** الأمّة في غزوة بني النظير، بعد خيانة اليهود ونقضهم للعهد المنصوص عليه في "وثيقة المدينة" [2].. كما بيّن الله **تعالى** ذلك في سوَرة الحشر.

هذا، وما حصل في "أُحد" شجّع الكافرين من خارج المدينة المنورة؛ قريشاً وقيادتها الجديدة، وبعض قبائل يهود.. على توجيه ضربة قاصمة للأمّة المسلمة للقضاء عليها واستئصال شأفتها - في ما يظنون - فجمعوا الجموع وحزّبوا قبائل العرب في الجزيرة لقتال المسلمين، فحشدوا أقصى ما يستطيعون من قوة؛ عدداً وعدةً وعتاداً، ثم حاصروا المدينة المنورة..

---

1 - حَسن، سنن الترمذي، الصفحة أو الرقم 3171. وصححه الألباني في صحيح الموارد - الصفحة أو الرقم 1406. نقول: لاحظ حُسن فقه الصدّيق **رضي الله عنه** لسنن الله تعالى، والمستوى الراقي في توقّع ما يمكن أن يحدث بناء على فهمه العميق للسنن الربّانية. أنظر "الطور الثاني" من السير بالرسالة.

2 - { أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) } البقرة. "من سوء حال اليهود أنهم كلما أخذوا على أنفسهم عهدًا - ومن جملته الإيمان بما دلت عليه التوراة من نبوة محمد ﷺ نقضه فريق منهم. ((قَالَ عَطَاءٌ: هِيَ الْعُهُودُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ وَبَيْنَ الْيَهُودِ: أَنْ لَا يُعَاوِنُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى قِتَالِهِ، فَنَقَضُوهَا كَفِعْلِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ} [الْأَنْفَالِ: 56]، نَبَذَهُ: طَرَحَهُ ونقضه { فَرِيقٌ مِنْهُمْ }: طوائف من الْيَهُودُ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ})). تفسير البغوي - ط دار التراث.

وأمّا من داخل المدينة، فقد استغلّ المنافقون الموقف فعملوا على الإرجاف والبلبلة والتشكيك في رسول الله، بوصفه نبيّاً رسولاً وبوصفه قائداً عاماً للأمة، والتكذيب لوعد الله بنصر أوليائه.. إلا أن الله جلّ وعلا كان لهم بالمرصاد جميعاً، في الداخل والخارج، فخيّب آمالهم، ورد كيدهم إلى نحورهم وهزمهم شرّ هزيمة.. فصَدَق الله وعده، ونَصَر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، جلّ وعلا.. وقد بيّن الله تبارك وتعالى ذلك في سوَرة الأحزاب، كما في قوله جلّ وعلا:

﴿* لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾ [الأحزاب]

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب]

وقد قال رسول الله ﷺ بعد الغزوة: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم) [1]..
ونزل بعدها الأمر بالمبادأة بالقتال..

فكانت غزوة الأحزاب نقطة تحوّل في السير بالرسالة ومنعطف جديد تحوّل فيه الأمر لصالح الأمة المسلمة.

الطّوْر الخامس:

الفتح والانتشار، و إكمال الدّين (العبودية) لله **تعالى**، ثم "الاستخلاف في الأرض".
وذلك من بعد غزوة الأحزاب مروراً بصلح الحديبية إلى فتح مكة، ثم حجة الوداع.

"بعد غزوة الأحزاب وهزيمة جموع الكفر وتشتيت شملهم، أخذ مجرى الأحداث في التطور مع الأمّة المسلمة وميزان القوى بدأ في التحوّل لصالحها، وأعداء دين الله معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يتبقّ لهم أمل أن ينجحوا في كسر الدعوة إلى عبادة الله وحده، وخضد شوكة الأمّة المسلمة وقد قويت"..
وقد كان لهذا الواقع الجديد في ميزان القوى آثار، وترتّبت عليه أمور من أبرزها: تحوّل حُكم القتال من الدفاع إلى المبادأة. وكان له تأثير مباشر أيضاً على حكم الهجرة إلى المدينة المنورة بوصفها "دار الإسلام" وموطن الأمة المسلمة الناشئة الذي تُباشر سلطانها عليه، والمكان الوحيد على وجه الأرض الذي فيه كلمة الله هي العليا.. "حيث أن الهجرة إلى المدينة كانت فرضاً على من أسلم، في الطّوْر السابق.. فقد تتابعت الآيات في الأمر بالهجرة وبيان عظيم فضلها.. في سوَرة النساء وغيرها.. أما في هذا الطّوْر فقد طلب رسول الله من بعض المهاجرين بعد غزوة الخندق العودة إلى ديارهم قائلاً لهم: ((هجرتكم في رحالكم)).. كما ورد في بعض

---

1 - أخرجه البخاري. انظر (صحيح السيرة النبوية) لـ إبراهيم العلي. و (الرحيق المختوم).

الروايات.. ولا يُعتبر هذا وقفاً رسمياً للهجرة، بل إن إعلان وقف الهجرة كان بعد فتح مكة حيث قال رسول الله: ((لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استُنفِرتم فانفروا))" [1]..

ومن أبرز آثار هذا التحوّل والتطوّر في ميزان القوى: صلح الحديبية، " فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام والتسجيل على بقائه في ربوع جزيرة العرب".. حيث وصفه الله **تعالى** بأنه " فتحاً مبيناً " [2] .. وكان من أهم نتائجه؛ تحييد قريش من أن تكون عقبة أمام انتشار الإسلام في الجزيرة العربية.. بل وحتى خارج حدودها حيث بعث رسول الله ﷺ الكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام لله..

وتلا ذلك أحداث ووقائع عظيمة من أهمها: فتح خيبر، وغزوة مؤتة.. ثم فتح مكة المكرمة، فكان هو "الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به دينه ورسوله وجنده، ففيه جاء الحق وزهق الباطل إنه كان زهوقاً، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً":

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر: 1-3]

وبعد أن جاء نصر الله **تبارك وتعالى** وتم "الفتح الأعظم"؛ فتح مكة، ذهب طغيان قريش وطاغوتها، فأسلمت قريش لله **عزّ وجلّ** وانقادت لرسوله ﷺ.. وبذلك، ذُلت أكبر عقبة أمام انتشار دين الله و الدعوة إلى عبادته [3].. وبعد غزوتي حُنين والطائف، وتَنَزُّل التثبيت والنصر من الله على المؤمنين بقيادة رسول الله، بسطت الأمّة المسلمة سلطانها على جزيرة العرب، فأصبحت كلمة الله هي العليا فيها. حيث جاءت وفود العرب تترى تعلن ولاءها لله، وانقيادها لرسول الله، وتنضوي - مع جماعة المؤمنين - تحت راية **لا إله إلا الله محمّد رسول الله ..** وبهذا اقتربت الأمّة المسلمة من إتمام خصائصها ومقوماتها وإكمال دينها لله **جلّ وعلا**.. حيث نزلت الأحكام والتشريعات النهائية في سوَرة المائدة ومن بعدها سوَرة التوبة، وتم إنفاذ كل ما جاء فيها من أوامر الله **عزّ وجلّ** على مستوى جزيرة العرب، ولم يتجرّأ أحد من العرب على مخالفة ما أمر الله به ورسوله، وقد يأسوا من أن يَغلبوا دين الله **عزّ وجلّ** وأن يُطفئوا نوره، والحمد لله:

---

1 - أخرجه البخاري. أنظر (المجتمع المدني في عهد النبوة) - أكرم ضياء العمري.

2 - أنظر سورة الفتح في كتاب "في ظلال القرآن". وانظر كذلك كتاب "الرحيق المختوم" لـ صفي الرحمن المباركفوري، في كلامه حول الصلح.

3 - كما في حديث رسول الله: (يا ويح قريشٍ لقد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب. فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظن قريشٌ؟ فوالله لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني الله به حتى يظهرَه الله أو تنفردُ هذه السالفةُ - **يعني الموتَ**). وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية وقد أخرجه البخاري.

﴿..**الْيَوْمَ يَئِسَ** الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ** لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. ﴾ [المائدة: 3]

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة: 32-33] [1]

هذا، وقد أصبح أمر القتال إلى مقاتلة المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة. و (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استُنفِرتم فانفروا)..

وما لبث أن تَوفّى الله جلّ وعلا، رسولَه ﷺ، وقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، تاركاً الأمّة على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها.. حيث أكملت دينها لله جلّ وعلا.. فلا يزيغ عنها إلا هالك.

والحمد لله رب العالمين..

هذا بالنسبة لبيان **تتابع** الأحداث والمواقف - بمرحلتيها وأطوار ها - **الذي** حصل مع الرسول الخاتم ﷺ من البداية وحتى النهاية وتحقيق الغاية، وحسب **سنن** الله العامة في سير الرسالات في المجتمعات.

المبحث الرابع: لفهم السورة كمنهاج ينبغي الالتزام بأمرين

عند "**الفهم المنهاجيّ**" للسورة؛ أي عند النظر إلى السورة كـ "وحدة منهاجية" واحدة، مترابطة متماسكة، وتشكّل جزءاً من "المنهاج"، وخطوة من السير بالرسالة لتحقيق الغاية منها، لا بد من الالتزام بأمرين:

الأمر الأول : الخطوات العملية الثلاث التالية:

1- ربط السورة بخط السير؛ أي معرفة موقعها في أي **مرحلة** وفي أي **طور**، وحسب **التتابع** السُننيّ العام لأحداث السير بالرسالة وتطوّرها.. والذي أجملناه في المبحث السابق.. وذلك بتتبّع ما ورد ذكره في السّورة نفسها، من إشارات أو قرائن أو أدلة.. على طبائع وخصائص الطّور المعين من المرحلة المعينة.. أو ما ورد ذكره من خارج السّورة كالروايات الثابتة لأسباب النزول وغيرها.

2- تحديد "مناط السورة"؛ أي معرفة ما ورد ذكره في السّورة من مواقف أو أحداث أو شُبهات.. مما كان يواجهه المؤمنون ـ جماعة أو أمّة ـ في ذلك الطّور، أثناء سيرهم بالرسالة، وقد جاءت السّورة بمجموعها لمعالجته.

---

1 ـ ما أنزل الله جلّ وعلا، القرآن (النور) إلا ليكون هو وحده المعبود المُطاع أمره في واقع الناس في جميع مجالات حياتهم (إتمام النور). ولا يتحقق ذلك ـ في تقدير الله ـ إلا بأن يرسل الله رسوله محمّد، وينصره على أعدائه ويمكّن له في الأرض، حتى يكون دين الله هو الظاهر، وكلمته هي العليا.

3- بيان المعالجات التي وردت في السورة لـ "مناط السورة"؛ بنوعيها: المعالجات **السُننيّة**، والمعالجات **الشَرعيّة** [1].

هذا، والمعالجات الواردة في كل سورة سنذكرها بشكل مُجْمل، وسنشير إلى أرقام الآيات دون نصها - في الغالب - مع التركيز على الأفكار الرئيسة في المعالجات، ووضعها في أُطر عامة، دون الخوض في التفاصيل إلا ما كان ضرورياً ولازماً لـ "التبيان"، لأن مقصودنا هنا هو تحديد الإطار العام **الموجِّه** و **الضابِط** لمعاني آيات السورة.. الأمر الذي يُمْكِننا بواسطته فهمها بشكل مفصّل عند الحاجة؛ أي عند تنزيلها كمعالجات للمناط المعين حين وقوعه.

وبسبب عدم ذكر نصوص كل آيات السورة عند تبيانها، نأمل من القارئ الكريم، عند البدء في قراءة "تبيان" أي سورة كريمة، أن يصطحب معه نسخة من المصحف، وحبذا لو كان على هامشها معاني الكلمات أو تفسيراً مُختصراً أو مُيسّراً، حتى نتماشا سويّاً في مشاهدةٍ شاملةٍ للمعاني الواردة في السورة وكيفية معالجة مناطها (الفهم المنهاجيّ للسورة).

الأمر الثاني: مراعاة الخطوط العريضة أو القواعد العامة التالية:

هذه بعض القواعد العامة أو الخطوط العريضة التي ينبغي مراعاتها عند دراسة سور القرآن الكريم دراسة "منهاجية"، أي عند "**الفهم المنهاجيّ**" لها..

وسنعمل على تطبيق هذه القواعد العامة عملياً في "تبيان سور القرآن" لنرى السُوَر كمنهاج عملي للسير بالرسالة..

1- بيان معالجات "مناط السورة" هو "**مقصد** السورة". فبرغم ما قد يرد في السورة الواحدة من **تنوّع في المواضيع** والأفكار من الإيمان والعمل الصالح والدعوة وبيان المصير.. **وتنوّع** في **وسائل** العرض والتأثير، **وأساليب** البيان والتعبير.. إلا أنها **ينتظمها** أمر واحد، **وتنسجم** فيما بينها وتتسق حتى تلتقي فيه كأمر جامع (إطار) لها، وهو: كونها **معالجات** لـ "**مناط** السورة"، أي الموقف أو الحدث - مما كان يحصل مع المؤمنين أثناء سيرهم بالرسالة – الذي ورد ذكره في السورة وقد جاءت السورة بمجموعها **لمعالجته**.

فيُفهم ذلك التنوع في الموضوع والأسلوب الوارد في السورة، في **إطار** كونه بيان **لمعالجة** مناطها. بمعنى أن **بيان معالجات "مناط** السورة" هو "**مقصد** السورة" (سياق السورة).. فكل ما ورد في السورة، سواء من حيث **الموضوع** أم من حيث **وسائل** العرض **وأساليب** البيان، إنما جاء **ليحقق** "**مقصد** السورة". بمعنى أن السورة فيها أمران؛ الأول: ما ورد فيها من أفكار ومواضيع وأحكام، وأساليب بيان وتأثير.. وهو ما يمكن أن نسميه: "**محتوى** السورة" موضوعاً وأسلوباً. والآخر: كون هذا المحتوى، مسوقاً من أجل **غرض** معين وتحقيق **مقصد** بعينه، هو:

---

1 - قلنا إن المعالجات الشرعيّة هي: الفهم لدلالة الدليل الشرعيّ حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في ما يتعلّق بالإيمان أم بالعمل الصالح أم بالدعوة. فهي أشمل وأعم من الحكم الشرعيّ المتعلّقة بأفعال العباد، ومتضمنة له فهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعيّ.

"**مقصد** السورة"، أي **الغرض** الذي من أجله ورد هذا الجزء المعين من الموضوع المعين، وبهذا الأسلوب المعين، في هذه السورة.. ألا وهو بيان المعالجة أو المعالجات لـ "**مناط** السورة".

فلا بد من التمييز - عند النظر في السورة - بين "**محتوى** السورة" من حيث الموضوع ووسائل العرض وأساليب البيان.. وبين **الغرض** (القصد) الذي من أجله جاء هذا **المحتوى** المعيّن في السورة (**مقصد** السورة)؛ وهو كونه جاء **كمعالجة** (معالجات) لـ "**مناط** السورة".

وعليه، فإن ما يُعرف بـ "**الوحدة الموضوعية**" للسورة، وهو أن ما ورد في السورة يتمحور حول موضوع واحد.. لا يصلح أن يكون هو "**مقصد** السورة" أو "**سياق** السورة".. لأنه لا يخرج عن كونه بحثاً في "**محتوى** السورة" من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب، فهو جزء منه، وهو شكل من أشكال بلاغة الأسلوب القرآني الذي كان به التحدي.. فهو من الوسائل الموصلة إلى تحقيق "**مقصد** السورة"، أي معالجة مناطها.. والذي يؤدي بدوره - في النهاية - إلى تحقيق الغاية من الرسالة كلها..

فليس المقصود **بالأصالة** من "التسوير"، أي من جمع آيات محددة في سورة معينة.. أن يكون لتلك السورة "**وحدة موضوعية**".. بل الأصل في ذلك أن يكون في إطار تحقيق الغاية من الرسالة، بأن تشكّل السورة جزءاً من "**المنهاج" الكامل** للسير من أجل جعل الرسالة حقيقة حية في الواقع الإنساني، أي تحقيق العبودية الخالصة لله في الأرض، عن طريق إيجاد الأمّة المسلمة القادرة على تحمّل مسؤولية الرسالة الخاتمة والقيام بأعبائها، تطبيقاً ودعوة، وهذا هو "**الفهم المنهاجي**" للسورة من القرآن.

2- و مما قد **يرد** في **السورة الواحدة** من أفكار ومواضيع أو من وسائل العرض وأساليب التعبير.. ويكون ذا أثر مباشر في معرفة **الطور** وتحديد **المناط** أو فهم **المعالجة**، وعلى طول خط السير، سواء في ما **قبل** التمكين (في مكة)، أم **بعد** التمكين (في المدينة).. ما يلي:

✓ القصة، أو الحلقة المعروضة منها، من حيث صياغتها والفكرة التي أبرزتها لمعرفة مقصدها والحكمة منها، أو الأمر البارز فيها، فقد يكون هو المناط أو ما يُرشد إليه أو إلى معالجته.. فالقصة أو الحلقة منها، لم يرد ذكرها إلا لأن حالةً أو موقفاً أو شخصاً، مما ذُكر فيها، له شبيه أو مثْل في الواقع الإنساني زمن الرّسول محمّد ﷺ، أي حين نزول الآيات التي ذُكرت فيها تلك القصة أو الحلقة منها.. لذلك لا تجد تكراراً للقصص في السوَر المختلفة، بل إن كل سورة تناولت القصص **بالشكل وبالمحتوى** الذي يحقق معالجة الحالة أو الموقف (المناط) الذي هي بصدد معالجته حال حدوثه في طوره ومرحلته من السير.

✓ أسماء الله **تعالى** الحسنى، وآثارها في الآفاق والأنفس.. وأيُّها البارز ذكرها.. أو التي تكرّر ذكرها.. فما ذُكر منها في السورة إنما جاء ليحقق معالجة مناطها.. ((وإذا تأمّلت ختْمَ الآيات بأسماء الله جلّ وعلا، وجدت كلامه مُختَتَماً بذكر الاسم الذي يقتضيه ذلك المقام، حتى كأنه

ذُكر دليلاً عليه وموجباً له)) [1]، من حيث أن الله جلّ وعلا هو وحده **الإله** الحق، **صاحب الأمر** النافذ في الوجود **قدراً** و **شرعاً**:

قدراً؛ في سياق الخلق والتقدير، أو الرحمة والعذاب، أو القوة والسلطان والتدبير والقوامة.. وبيان **سنن** الله **تعالى** في ذلك كله..

وشرعاً؛ في سياق بيان الأفكار والأحكام والمعالجات الشرعيّة التي تَعبّد الله جلّ وعلا بها المسلمين – أفراداً وأمة ومجتمعاً - في تنظيم جميع شؤون حياتهم وعلاقاتهم بأنفسهم (الداخليّة) وبغيرهم (الخارجيّة).

- ✓ نوع الجزاء - الثواب أو العقاب - وطبيعته ووصفه.. ومواضع التفصيل فيه أو الإجمال والإشارة.. سواء في الدنيا أم في الآخرة.. حيث يأتي منسجماً ومتناسباً – في حكم الله **تعالى** - مع الحدث أو الموقف الحاصل فعلاً (المناط) المراد معالجته.. فالجزاء من جنس العمل.. لذلك نجد التنوع البديع الفريد، في السور المختلفة في عرض أهوال يوم القيامة، و مواقف الحساب، ومشاهد النعيم والعذاب في الجنة والنار.. تبعاً لاختلاف الحالة أو الموقف من الواقع الإنساني (المناط) المراد معالجته. وكذلك الأمر بالنسبة للجزاء في الدنيا، في ما ذكره الله **تعالى** في عقابه أو ثوابه للأمم السابقة؛ من آمن منهم ومن كفر، أفراداً أو جماعات، قرى (مجتمعات) أو أمماً.

- ✓ الأوصاف أو الصفات التي تُطلق على المخاطَبين، سواء كانوا من المؤمنين وحسب ترقيهم في مقامات العبودية وحتى إكمالهم الدّين لله **جلّ وعلا**.. أم من الكافرين وحسب تطوّر شدة عدائهم لله ولرسوله والمؤمنين، وبأشكالهم المختلفة من مشركين ومنافقين وأهل كتاب؛ يهوداً ونصارى.. وكذلك أسلوب الخطاب ودرجته وشدته.. حيث يمكن اعتبار أن كل صفة وردت أو وصف ذُكِر، إنما هو تحديد لمقام أو تعيين لمرتبة بَيّنة، لها صفاتها وخصائصها التي تميزها عن غيرها في **"العرف القرآنيّ"** [2]، مثل: المتقين، المحسنين، المخبتين، حزب الله.. في وصف المؤمنين. وأيضاً، مثل: المجرمين، الظالمين، الفاسقين، المفسدين، حزب الشيطان.. في وصف الكافرين.

وكذلك الأمر في وصف العلاقة بين الفريقين وتطوّرها، مثل: خصمان، المشاقّة، المحادّة، العداوة، القتال، البغضاء، المودّة، الموالاة، البراءة، الإعراض، النأي، التولّي.. الخ.

- ✓ الألفاظ التي تكررت في السورة، أو الألفاظ التي تفرّدت بها، كإشارة لأمر أو فكرة معينة قد تكون هي المناط أو تُرشد إليه أو إلى معالجته..
- ✓ مواضع الاستفاضة أو الإجمال، التركيز أو الإشارة إلى الأفكار والمواضيع..

1 - أنظر (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر) - ابن القيم.

2 - "العُرف القرآني": هو نتيجة للدقة العالية في استعمال القرآن للكلمات، فيقصرها على معنى محدد ويوظفها في سياقات معينة. ويأتي في مقابل "العُرف اللغوي" أو اللسان .

✓ الآيات الأولى من السورة، في بعض من السور، تأتي كمدخل عام لها أو كخط عريض.. والآيات الأخيرة كخاتمة لها أو تلخيص، أو كموقف - فكر أو عمل - مطلوب الآن، يُراد بيانه لتنفيذه..

✓ الثابت والصحيح من روايات أسباب النزول، للسورة أو لبعض آياتها.. أو ما ثبت من روايات في إطار تطبيق ما ورد في السورة من معالجات على الحدث (المناط) الحاصل فعلاً..

✓ القَسَم، وجواب القسَم كأسلوب تأكيد وبيان.. فقد يكون موضوعه هو المناط أو يُرشد إليه أو إلى معالجته..

3- هذا، و**المناطات** (الحالات أو المواقف) **تختلف** اعتماداً على أطوار السير وخطواته ومرحلته، فيما **قبل** التمكين أو **بعد** التمكين. وكذلك تختلف الجهة من المؤمنين المكلَّفة بالمعالجات؛ بوصفهم أفراداً أو جماعة أو أمّة مسلمة. لذلك، فإنه تبعاً لاختلاف **المناط، والمرحلة** التي وُجد فيها، واختلاف **المكلّف**.. تختلف **المعالجات**، ويختلف **التنوّع** في الموضوع والأسلوب من سورة إلى أخرى، الأمر الذي يجعل لكل سورة خصوصيتها وطابعها الخاص بها في ما تتناوله من مواضيع الدّين (العبادة).. وكل ما جاء في **موضوع** السورة **وأسلوبها** إنما جاء ليحقق المعالجة لمناطها.. **فمعالجة المناط** هي **"مقصد** السورة"، أي الغرض الذي من أجله سيق **"محتوى** السورة"، مواضيعَ وأساليبَ بيان.

4- هذا، وبرغم اختلاف **المناط** واختلاف **المعالجات** من سورة إلى أخرى، إلا أن جميع السور منضبطة **بمنهج واحد** وعلى **أساس فكري واحد** في بيان المعالجات، حيث أن حقيقة لا إله إلا الله بوصفها **"فكرة الرسالة"**، جاءت هي الأساس الفكري لكل أمور **الدّين** أو **العبادة** (الإيمان، العمل الصالح، الدعوة، بيان المصير)، في التلقي والتعلّم والفهم، والتطبيق والحمل، والخطاب والسير.. فهي تشكّل زاوية النظر **الوحيدة** إليها[1].

و الفكرة الأساس للرسالة وما بُني عليها من أفكار وما انبثق عنها من أحكام، لا يَرِد ذكرها في السورة الواحدة – في الأعم الأغلب – إلا مرتبطةً ومقرونةً بالجزاء والمصير في الدنيا والآخرة، صراحة أو ضمناً، تفصيلاً أو إجمالاً.. مع تنويع بديع في الأسلوب من سورة إلى أخرى في تناول الفكرة الأساس وما بُني عليها من أفكار وما انبثق عنها من أحكام، وما يترتب على ذلك من جزاء ومصير.. وما ذلك إلا بقصد **معالجة** كل **سورة** للحالة أو للموقف (المناط) الحاصل أثناء السير، الذي تواجهه تلك السورة.. مما يجعل لكل سورة ذلك الطابع الخاص بها في تناول مواضيع الدّين (العبادة) المتنوعة، فكراً وعملاً، والتي لا تخرج عن أحد المواضيع الرئيسة أو أحد الأصناف الكبرى التالية: **الإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلى عبادة** الله الإله الحق وحمل رسالته للعالمين، **مع ذكر الجزاء والمصير**.. كما بيّنتها سورة العصر:

---

1 - للتفصيل انظر الفصل الأول.

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ **لَفِي خُسْرٍ** (٢) **إِلَّا الَّذِينَ** آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر: 1-3]

فبرغم اختلاف **المناط** واختلاف **المعالجات** من سورة إلى أخرى، إلا أن جميع السور منضبطة **بمنهج واحد** وعلى **أساس فكري واحد** في بيان المعالجات، ألا وهو الحقيقة اليقينية الكبرى **لا إله إلا** الله.

5- وما سبق ذكره في النقطة السابقة، أصل عام **تشترك** فيه السور كلها.. إلا أنها – كما هو مشاهد - **تختلف** فيما بينها في **درجة التركيز** على أيٍ من مواضيع **العبادة**، وفي **التنويع** في ذكرها ووسائل عرضها.. وفي **بيان** المصير (البشارة والنذارة)، وبشكل متنوّع عجيب فريد.. وما ذلك إلا **لاختلاف** مقصد كل سورة وسياقها، أي اختلاف الحالات أو المواقف (مناط السورة) التي تواجهها السورة وتعالجها، والحاصلة أثناء السير الفعلي لتحقيق الغاية من الرسالة. مما يجعل لكل سورة "طابعها الخاص" في ما تتناوله من مواضيع العبادة (الدّين) وبيان المصير.. الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة، وتشكّل جزءاً من "المنهاج" لتحقيق الغاية من الرسالة؛ إكمال الدّين لله. وفي مجموع السور ثَمّ "المنهاج" كاملاً.

لهذا، أن يكون للسورة **"وحدة موضوع"**، ليس هو المقصود – أصالة – من "التسوير"، بل لا يصلح أن يكون هو "**مقصد** السورة" أو "**سياق** السورة".. وحتى السور التي يظهر فيها أنها ذات موضوع واحد [1] فهي لا تخرج عن ما سبق تقريره، وذلك:

✓ لأن اعتبار أن السورة ذات موضوع واحد، هو – في الحقيقة – بحث في "**محتوى** السورة" من حيث الموضوع ومن حيث وسائل العرض وأساليب البيان، وهو أمر آخر يختلف عن "**مقصد** السورة"، أي الغرض الذي من أجله جاء هذا الموضوع المعيّن، بهذا الشكل المعيّن، في هذه السورة. فلا بد من التمييز عند النظر في السورة، بين "**محتوى** السورة" من حيث الموضوع والأسلوب.. وبين "**مقصد** السورة".

✓ لأن مواضيع الدّين لم تُعرض في سور القرآن الكريم **مبوّبةً** حسب **الموضوع**، مثل أسلوب البشر في التأليف والتنسيق، كما في مؤلفات الفقه وكتب العقائد.. مثلاً.. وهذا ظاهر في جميع السور. لذلك نجد أن ما يَرد في السورة المعيّنة من الموضوع المعيّن، لا يشكّل إلا **بعضاً** من كلٍ موزّع على سور أخرى، فما جاء في السورة الواحدة ليس **كل** ما هو متعلق بالموضوع المعيّن، لا من حيث المحتوى ولا من حيث أسلوب العرض، "حتى إنك إذا أردت أن **تُلمّ بموضوع** واحد لا بد لك من تتبعه في طول القرآن وعرضه" [2]**..**

وعليه، أن يكون للسورة "**وحدة موضوع**".. ليس هو العامل المؤثّر في **تنويع** المواضيع والمعالجات أو أسلوب عرضها بين سور القرآن الكريم. بمعنى، أن الأساس في أن يأتي في السورة

---

1 - مثل السور التي تناولت "**اليوم الآخر**".

2 - (نحو تفسير موضوعي) - محمد الغزالي.

من القرآن هذا **الجزء** المعيّن من هذا **الموضوع** المعيّن، وأن يتم تناوله من هذه الزاوية.. بينما في سورة أخرى، يأتي نفس الموضوع العام – يوم القيامة مثلاً - لكن بصورة مختلفة من حيث تفاصيله وأجزائه، ومن حيث الشكل وزاوية التناول.. نقول: الأساس في ذلك كله والغرض منه، ليس أن يكون للسورة "وحدة موضوع".. إنما الغرض الأصل الذي من أجله جاء هذا الموضوع المعيّن، بهذا الشكل المعيّن، في هذه السورة بعينها، إنما هو اختيار ما يلزم – شرعاً وقدراً - **لمعالجة** "**مناط** السورة"، سواء من حيث الموضوع، أم من حيث أسلوب العرض والبيان.. وهذا "الغرض الأصل" هو "**مقصد** السورة".

ومن هنا: فلا يَرِد في "محتوى السورة"، لا موضوعاً ولا أسلوباً، إلا ما يلزم لمعالجة "مناط السورة"، أي ما يُحقق مقصدها. وعلى أساس هذا المقصد يكون فهم ما جاء في السورة من مواضيع ومعالجات (**محتوى** السورة).. وبهذا ومن خلاله تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة، وبدون تَكلُّف.. وبه أيضاً تكون متميزة عن غيرها من السُوَر.

فمنهج التعامل مع ما ورد في السورة الواحدة من **مواضيع الدّين** – من إيمان وعمل صالح ودعوة وبيان للمصير – يكون على أساس أنها **معالجات** لما جاء في السورة من مواقف وحالات (مناط السورة) أثناء حركة وسير المؤمنين – أفراداً وأمّة - لإكمال الدّين لله جلّ وعلا. فتكون السورة "**وحدة منهاجية**" واحدة، وتشكّل **جزءاً** من "المنهاج" **الكامل** لتلقي القرآن والسير به. وبمجموع السور يكتمل منهاج السير لبلوغ الغاية من القرآن.. وهذا هو "**الفهم المنهاجي**" لسور القرآن الكريم.

فإكمال الدّين لله عزّ وجلّ – على مستوى الأمة - هو ما أُنزل القرآن (الدّين) لأجله، وهو ما جُعل "المنهاج" طريقاً للوصول إليه، وكان "التسوير" من الأدلة على ذلك "المنهاج" وبيانه وبيان معالجاته. وما كان سير رسول الله ﷺ بالرسالة في واقعه إلا بحسب "المنهاج" نفسه، **بتلقي القرآن مرتّلاً** على مكث - بالترتيل الذي ناسب واقعه - **للعلم والعمل** به، حتى أصبح القرآن **حقيقة** في واقع الناس **والحاكم** على شؤون حياتهم.

فلم يُنزِّل الله عزّ وجلّ القرآن (الدّين) ويبعث به الرسول، على صورة مواضيع لإعطاء المعلومات عن القضايا المختلفة للمعرفة والثقافة العامة، أو للاستمتاع بجمال الأسلوب وموسيقاه، والانبهار بعذوبة طريقة العرض وقوتها.. فهذا وغيره ليس أهدافاً أو غايات – ولا يصح جعلها هدفاً أو غاية - إنما هي وسائل وأدوات لتحقيق ما نُزّل القرآن لأجله (الغاية من الرسالة).. هذه هي حقيقتها ويجب أن تُقدّر بقدرها فلا يُتلهّى بها عن الغاية الأصل.. فما أُنزل القرآن إلا ليكون الله جلّ وعلا **هو وحده** المعبود المُطاع أمره في الأرض كلها، وحتى قيام الساعة.. ولا يتحقق ذلك إلا بإنشاء أمة تُكْمل دينها لله، فتكون كلمة الله هي العليا فيها، ودينه هو الظاهرعلى الدين كله، ومن أجل ذلك أرسل الله رسوله الخاتم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة، الصف] [1]

---

1 - والمحافظة على الدين ظاهراً بعد رسول الله، هي - في الأصل - مهمة "العلماء الربّانيين" من هذه الأمة الخاتمة، كما في الحديث الشريف: (.. العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يُوَرّثوا ديناراً ولا درهماً

فجاءت **آيات الرسالة** بترتيبها **المنهاجيّ** (التسوير)، تعرض **مواضيع الدّين عرضاً خاصاً** مؤثراً، **كمعالجات للواقع الإنساني، هدماً** و **بناءً..** كـ "منهاج" ليكون السير بحسبه، لتحقيق "الغاية من الرسالة".

فالقرآن المجيد نور وفرقان.. فهو إما حجة **على** المتلقي أو حجة **له** [1]، وهو قولٌ فصل وما هو بالهزل، فما يُنَزّل منه يجب أن يُطبّق مباشرة على **الواقع الإنساني** لمعالجته وتغييره، فكراً وسلوكاً، فرداً ومجتمعاً.. ليصير كما أمر الله **تعالى** ورضيه أن يكون.. فالله تبارك وتعالى هو وحده **الإله الحق** الذي له الخلق والأمر؛ **فأمره الشرعيّ** لا بد من أن يَنْفُذ في الواقع **حال** نزوله، كما هو نافذ **أمره القدريّ**؛ لأنه **لا إله إلا الله**:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾ [الأحزاب] [2]

وفي الجملة، فإن الدّين بمواضيعه الكبرى - الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الله وبيان المصير - لم يُعرض في القرآن **مبوّباً** حسب **الموضوع**، أي لم يُبحث بحثاً **موضوعيّاً** بشكل أكاديميّ أو نظريّ كأسلوب البشر في التأليف والتنسيق، لا في القرآن كله ولا في السورة الواحدة، بل جاءت آياته **مرتّلة** حسب "التسوير"، فجاءت أفكار **ومواضيع** العبادة موزّعة على السور.. وتناولت كل سورة - وبالأسلوب القرآني الفريد - ما جاء فيها من مواضيع العبادة (الدّين)، من خلال تناول **"فكرة الرسالة"** الواحدة: لا إله إلا الله ، بمحاورها الثلاثة: الإيمان والعمل صالح والدعوة، وضمن إطارها العام: البشارة والنذارة، وبمنهجها القرآني **الثابت** في الخطاب والتلقي: "منهج الخطاب"، بشكل **ميسّرٍ للذّكر، موجدٍ** للعلم، **مُزيلٍ** للجهالة، **فُرقان** بين الحق والباطل.. ليكون هداية لمن أراد، مُقيماً للحجة على من أبى واستكبر..

إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر). صححه الألباني و حسّنه بعض أهل العلم، عن أبي الدرداء. أنظر موقع الدرر السنية.

1 - وحجة القرآن كما هي قائمة في أفكاره وحقائقه، فهي قائمة أيضاً في أسلوب عرضها الربانيّ البديع الفريد. فما جعل الله تعالى القرآن هكذا في خصائصه المختلفة إلا بقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنساني. ومن هنا، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات، وما الرسول إلا مبلّغ لآيات الله كما يريد الله تعالى، بمعنى أنه المفعّل للآيات وما فيها من البيّنات في واقع الناس والمعلّم لنا لكيفية تفعيلها لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس. فلا بد من السير على "منهاج=> النبوة" في تلقي القرآن وتبليغه وبيانه، أي السير على "منهاج النبوة" في تفعيل القوة التغييرية (الهداية) الكامنة في الرسالة، بما فيها من الآيات البيّنات، بقصد تحقيق الغاية منها، فيستحق - حينئذ - ذلك السائر أن يكون من ورثة النبيّ. "فلا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" .

2 - أنظر تفسير ابن كثير.

إلا أن ذلك كان **باختلافٍ** في **تركيز** كل سورة على أيٍ من تلك المواضيع أو بعضٍ منها، **وبالتنويع** في ذكرها وفي وسائل عرضها.. بما **يحقق معالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي واجهته "الجماعة المسلمة" ثُم "الأمة المسلمة" أثناء **السير** قُدماً لإكمال الدّين لله – تطبيقاً في الواقع وحملاً للناس - أي **لتحقيق الغاية** من الرسالة.. الأمر الذي يجعل لكل سورة طابعها الخاص بها فيما تناولته من مواضيع العبادة (الدّين)، ويجعل منها كذلك، وحدة واحدة تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل.. وهذا هو **"الفهم المنهاجي"** للسورة [1].

6- العلم بأن **المعالجات** للواقع الإنساني (المناط) تكون على **نوعين: معالجات سُننيّة** و**معالجات شرعيّة..** وذلك تأسيساً على الحقيقة اليقينية أنه لا إله إلا الله:

- ✓ بأن الله عز وجلّ هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب **الأمر القدريّ** خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية، قيّوميّة واستمراراً، جزاء ومصيراً.. **متمثلاً ذلك،** بما **قدّره** الله عزّ وجلّ في **كل مخلوق** من **خواص** و من **سنن** تضبطها وتحكمها.. سواء في الآفاق أم في الأنفس والمجتمعات والأمم.
- ✓ وأن الله عز وجلّ هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب **الأمر الشرعيّ** أمراً ونهياً، تشريعاً وتنظيماً للحياة الإنسانية بجميع مجالاتها. **متمثلاَ ذلك،** بما **أنزله** الله **تعالى** من **شريعة** ودين في رسالاته من لدن آدم حتى الرسول الخاتم محمّد ﷺ وعلى أنبياء الله ورسله جميعاً.

فكما بيّن الله جل جلاله لنا في رسالته الخاتمة **أمره الشرعي،** بيّن لنا كذلك، كثيراً من **أمره القدريّ** في خَلقه وتقديره وقيوميّته، عزّ وجلّ، للكون والإنسان والحياة. وعلى هذا، جاءت **المعالجات** - بوصفها **أحكاماً** لله - إما شرعيّة أو سننيّة:

النوع الأول: المعالجات السُّننيّة:

1 - فيما يلي من البحث مزيد من التفصيل والإيضاح لمعالم أخرى لـ "الفهم المنهاجيّ" للسورة إضافة لما بيّناه من معالم فيما سبق من النقاط. هذا، ويمكننا القول: إذا أردنا أن نفهم السورة من القرآن فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه، ينبغي أن يكون "الفهم المنهاجي" للسورة هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة. وأيضاً، إن "الفهم المنهاجيّ" للسورة يصلح لأن يكون أصلاً وإطاراً عاماً لفهم ما يُعرف بـ "علم المناسبة" كما عند البقاعي، أو بـ "نظام القرآن" كما عند الفراهي، أو بـ "علم مقاصد السور". انظر بحث (مناسبات الآيات والسور) د أحمد حسن فرحات. وأيضاً بحث (علم مقاصد السور) و بحث (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة. فالفهم المنهاجيّ للسورة، نرى أنه يصلح لأن يكون أصلاً عاماً جامعا لتلك العلوم ويضعها في صعيد واحد، بل ويصهرها في بوتقة واحدة، فيُظهر ما اتفقت واجتمعت عليه،=> ويبرز ما امتاز كل واحد منها عن غيره. و "الفهم المنهاجي" للسورة يمكن أن يقدم أيضاً حلولاً جذرية لكثير من الإشكالات في بعض مباحث علوم القرآن، ويقدّم جواباً شافياً على كثير من التساؤلات العالقة فيها، مثل علم الناسخ والمنسوخ.. لذلك نأمل مِن كل مَن يطّلع على هذه الدراسة أنْ لا يبخل بالتوجيه أو التسديد أو البيان.. حتى يكتمل هذا العمل ويستوي على سوقه ويؤتي ثماره الطيبة - بإذن الله. هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وهو الهادي سواء السبيل.

وتقوم على بيان وفهم **"السُنن الإلهية"**، أي فهم القوانين الدائمة والثابتة التي **قدّرها** الله **تعالى لضبط** الخصائص [1] التي خلق عليها كل مخلوق، في نفسه وفي علائقه مع غيره، سواء في الكون أم الإنسان؛ فرداً ومجتمعاً، أم في الحياة..

وكل من "الخصائص" و"السنن"، **تمثل مشيئة** الله **تعالى** الدائمة في الخلق، فلا تتغيّر ولا تتبدل. وبألفاظ أخرى، هي: **أمر** الله أو **قضاؤه** أو **حُكْمه** أو **جَعْله** القَدَريّ (القدر):

والمرجع في معرفة " السُنن الإلهية"؛ إمّا الدليل الشرعي، وهو الأصل، أو التجارب والخبرات الإنسانية المتنوعة والمختلفة، فـ "الحكمةُ ضالةُ المؤمنِ فحيثُ وجدها فهوَ أحقُّ بها".. وتؤخذ من التفكّر في خلق السماوات والأرض، ومن النظر في آيات الله في الآفاق والأنفس..

هذا، ومن أهم السنن التي ينبغي العلم بها - إن لم تكن الأهم - تلك المتعلقة بضبط وتسيير ما جعل الله في الإنسان، فرداً ومجتمعاً وأمّة، من خصائص بوصفه "الخليفة" في الأرض، والسيد فيها الذي سخّر الله له ما في السماوات والأرض جميعاً منه، ليتمكن من القيام بالخلافة في الأرض، والقيام بالأمانة المناطة به؛ إكمال الدّين لله، كما أشرنا في ما سبق من البحث [2].

وواضح أن مواقف الناس من **عبادة** الله **وحمل رسالته** لتحقيق الغاية منها، شأن إنساني؛ فهي سلوك **إنسانيّ** ناتج عن وعي واختيار.. فستكون مصبوغةً بالخصائص الإنسانية، ومضبوطةً بالسنن التي تحكم الواقع الإنساني بوصفه إنسانياً، فرداً وأمّة ومجتمعاً، وبغضّ النظر عن الزمان وتعاقبه، والمكان وتغيّره، والمستوى المدنيّ (التقنيّ) واختلافه.. سواء من جهة **"أمّة المسلمين"**؛ أهل الحقّ الذين رضوا بالله ربّاً وعبدوه وحده، من أنبياء الله ورسله مع من آمن بهم واتبعهم باحسان، من لدن آدم حتى خاتم النبيين **عليهم الصلاة والسلام**.. أَمْ مِن جهة أهل الباطل الذين كفروا بالله - الإله الحق - وعبدوا الطّاغوت وأطاعوه بأشكاله المتعددة، في الجاهليّات المختلفة على مر العصور.. أم من جهة الصراع المصيريّ بينهما:

فالعلاقات الإنسانية لها **خصائصها** ولها **سننها** الإلهية التي تحكمها وتضبطها، فلا بد عند **النظر والفهم** لما يقع من أحداث ومواقف (مناط) أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني المعيّن، أن يكون ذلك من خلال تلك الخصائص والسنن وفهمها في إطارها، لما لها من صفة الديمومة والثبات. ثم يكون التعامل معها بأن تُنزّل عليها "المعالجات الشرعيّة" المتعلقة بها، مع اتخاذ كافة الأساليب والوسائل لتحقيق تلك المعالجات الشرعيّة

---

1 - خاصيّة الشيء هي: ما يُعطيه الشيء نفسه وينتج عنه. مثل خاصية الإبصار في العين، والإحراق في النار.

2 - ((لهذا نجد أن صيغة (سنة الله) في القرآن الكريم ترد خاصة بالسنن الإجتماعية، دون السنن الكونية، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية - رحمه الله - بعد استعراض الآيات التي ورد فيها لفظ سنة، بقوله: "وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات)). أنظر كتاب (سنن الله في إحياء الأمم) د حسين شرفه.

في الواقع، على أساس قاعدة: "**مغالبة أقدار** الله **بأقدار** الله"، واعتماد **الحكمة** في معالجة الواقع.. **والصبر** على ذلك حتى يأتي الله بأمره.. كما في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ [آل عمران: 146] .. الخ.

وهكذا، وعلى مثل هذا كان **تلقي** رسول الله محمّد ﷺ والجماعة المسلمة والأمّة المسلمة، القرآن الكريم **وفَهْم** سنن الله **تعالى** الدائمة الجريان التي لا تتبدّل ولا تتغيّر، في عبوديتهم لله وتبليغ الرسالة وحمل الدعوة.. **وفَهْم** قصص الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام في **دعوة** أقوامهم **وتعبيدهم** لله تبارك وتعالى، ثم القدرة على توظيفها والاستفادة منها في تحقيق الغاية من القرآن في واقعهم (الحكمة).. رغم التباعد بينهم في الزمان والمكان، والاختلاف في المستوى المدنيّ والتقنيّ.. وما كان ذلك ليكون إلا بسبب أن الله جلّ وعلا، شاء وقدّر أن تكون خصائص كل مخلوق والسنن الضابطة لها، دائمة ومستمرة:

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾ [الإسراء]

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾ [الأحزاب]

وعلى هذا الأساس كان من سنّة الله **تعالى** في بعث الرسل، أن يبعث للقوم رسولاً **منهم** يَعرفهم ويعرفونه، ويتكلم **بلسانهم**؛ يفهمهم ويفهمونه.. ومن أجل ذلك بيّن الله **تعالى** في القرآن الكريم **سننه** في حمل الرسالات مفصّلة باستفاضة وشمول، وعلى طول الطريق لإكمال الدّين لله جلّ وعلا.. ومنها السّنن المتعلقة بتغيير الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة؛ الاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها.. وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكرٍ لبعض تلك السنن أو الإشارة إليها [1]، إما من خلال ذكر القصص وضرب الأمثال - وهو الأعم الأغلب - ثم بالتعقيب عليها والإشارة إلى سنة الله **تعالى** أو حكمته منها. أو من خلال الإخبار والبيان المباشر..

العلم بأسباب النزول .

ومما يساعد على فهم طبيعة الواقع الإنساني الذي تعمل فيه الرسالة، وفهم كيفية معالجته بالرسالة في إطار السنن الإلهية العامة التي تضبطه، فَهْمُ **أسباب النزول**، **ومنه** معرفة أحوال العرب وأفعالها وأقوالها **حال النزول**، فإن معرفة ذلك وفهمه يمنع من الوقوع في الاحتمالات المؤدية للشُّبَهِ والإشكالات عند فَهْم مراد الله **تعالى** من كلامه في القرآن الكريم، كما قال الإمام الشاطبي: (مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ التَّنْزِيلِ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْقُرْآنِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ

---

1 - انظر - مثلاً- مشروع كتاب (أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم) (كشّاف موضوعي) إعداد زينب عطية محمد، وقد صدر منه الجزء الأول في مجلدين كبيرين، وهو متعلق بـ (السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم).

أَنَّ عِلْمَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ إِعْجَازُ نَظْمِ الْقُرْآنِ فَضْلًا عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَاصِدِ كَلَامِ الْعَرَبِ؛ إِنَّمَا مَدَارُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ، وَلَيْسَ كُلُّ حَالٍ يُنْقَلُ وَلَا كُلُّ قَرِينَةٍ تَقْتَرِنُ بِنَفْسِ الْكَلَامِ الْمَنْقُولِ، وَإِذَا فَاتَ نَقْلُ بَعْضِ الْقَرَائِنِ الدَّالَّةِ؛ فَاتَ فَهْمُ الْكَلَامِ جُمْلَةً، أَوْ فَهْمُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمَعْرِفَةُ الْأَسْبَابِ رَافِعَةٌ لِكُلِّ مُشْكِلٍ فِي هَذَا النَّمَطِ؛ فَهِيَ مِنَ الْمُهِمَّاتِ فِي فهم الكتاب ولا بد، وَمَعْنَى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ هُوَ مَعْنَى مَعْرِفَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ) [1].

ومن هنا، فَمَن أراد أن يفهم مراد الله **تعالى** من كلامه فهماً صحيحاً ينبغي أن يسير على منهج رئيس في الفهم لا يمكن إغفاله وهو "المقام" أو "الحال" الذي نزل **النص لمعالجته،** لأن العلم بخلفيات النصوص وبالأسباب وبالأحوال التي وردت فيها، وسننها الإلهية الضابطة لها.. يورث العلم **بالمناط** الذي جاء الوحي لمعالجته، **وبكيفية** معالجته، مما ينفي الاحتمالات والظنون غير المراد، ويقطع الطريق على المقاصد المغرضة التي لم يُرِدها الشارع الحكيم ولم يرُمْها، ويصحّح ما اعوجّ من أساليب التطبيق [2].

وإلى هنا، نكتفي بما سبق ذكره حول النوع الأول من المعالجات: "**المعالجات السننيّة**"..

النوع الثاني: المعالجات الشرعيّة (العبادة):

وهي **المعالجات الشرعيّة** للأحداث والوقائع (المناط)، خطاباً وأفعالاً، فكراً وسلوكاً.. ولا تُؤخذ إلا من الدليل الشرعي، أي من الوحي وما دلّ عليه من إجماع واجتهاد. وهي أعم من الحكم الشرعي المتعلق بأفعال العباد، فهي تتعلق بالفكر أيضاً:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)﴾ [الجاثية: 18]

وهي التي **يجب فيها الاتباع** للرسول محمّد ﷺ **والتأسّي** فيه، **عبادةً** لله، وطاعةً لأمره، وحسب الضوابط اللازمة في ذلك، كما بيّنا في الفصل السابق من البحث:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب: 21]

هذا، والحاصل أن **المعالجات** الواردة في السورة لمعالجة مناطها، تأتي **على نوعين:**

شرعيّة، تثبت فقط بالدليل الشرعيّ وما دلّ عليه.

سننيّة، تثبت بالدليل الشرعي والدليل العقلي والنظر في الواقع، أحدهما أو كلاهما.

ولا يَرِدُ في السورة الواحدة من أفكار ومواضيع وأساليب بيان.. إلا ما **يلزم – شرعاً و قدراً - لمعالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) مما كانت تواجهه الجماعة المسلمة أو الأمة

---

1 - الموافقات، بتصرف يسير.

2 - أنظر (السيول المتدفقة في بيان مسائل متفرقة) - فراس عايد أبو سويلم، نقلاً عن (منهج السياق في فهم النص) - د عبد الرحمن بودرع، سلسلة (كتاب الأمة).

المسلمة أثناء **السير** لإكمال الدّين لله.. **فمعالجة** المناط هي **مقصد** السورة، الأمر الذي يجعل منها وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل.

7- العلم بأن تلك **المعالجات** - **قدراً وشرعاً** - تكون دائما متعلقة بـ **بفريقين اثنين**، قد يُذكران في السورة الواحدة صراحة أو إشارة، كلاهما أو واحد منها، وهما المؤمنون والكافرون:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) ﴾ [الأعراف: 29-30]

﴿* هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾ [الحج: 19-23]

الفريق الأول: **المؤمنون** بالله واليوم الآخر.. أفراداً أو جماعة أو أمّة ومجتمعاً.. **القائمون** على الرسالة، تطبيقاً ودعوة، من حيث؛ التزكية والإعداد الفكري، والإعداد التنظيمي والمادي، والعلم بالعقبات - ماديّة كانت أو شبهات فكريّة أو شهوات، وكيفية مواجهتها، والقدرة على إزالتها - أثناء السير لإكمال الدّين لله **تبارك وتعالى**، وتحقيق الغاية من الرسالة:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران]

الفريق الثاني: **الكافرون** بالله واليوم الآخر.. بأنواعهم ودرجاتهم المختلفة: مشركين، منافقين، أهل كتاب.. سواء كانوا هم الملأ ولهم السلطان (قبل التمكين).. أم كانوا جماعات تخضع لسلطان المسلمين (بعد التمكين).. أم كانوا دولاً وأمماً لا تخضع لسلطان المسلمين.. والذين يبغونها عوجاً عن سبيل الله المستقيم، ويشكّلون **عقبة** أمام جعل دين الله ظاهراً، ويُمانعون إكمال الدّين لله **جلّ وعلا**:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة: 32]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾ [المائدة: 64]

وهكذا، فإنه تبعاً لاختلاف **الفريق** المَعْني، المؤمنين أو الكافرين، تختلف **المعالجات** – السننيّة والشرعيّة - ويختلف **التنوّع** في الموضوع ووسائل العرض والبيان (محتوى السورة) من سورة إلى أخرى.. وكل ما جاء في "محتوى السورة".. إنما جاء ليحقق المعالجة لمناطها الحاصل أثناء سير المؤمنين لإكمال الدّين لله.. **فمعالجة** "مناط السورة" هي **"مقصد السورة"**، الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة، تشكّل جزءاً من "المنهاج".. وفي مجموع السور ثمّ "المنهاج" كاملاً.

8- العلم بأن تلك **المعالجات** - قدراً وشرعاً - كما كانت متعلقة بـ **بفريقين** اثنين، فإنها تأتي على **مرحلتين رئيستين** وهما:

المرحلة الأولى: مرحلة **ما قبل التمكين** للمؤمنين في الأرض، حيث يكون المؤمنون **مكلفين** بالرسالة بوصفهم **أفراداً** أو **جماعة**. فيَسيرون في معالجة الواقع الإنساني (المجتمع أو القرية) بحسب المعالجات الشرعية والسننية المتعلقة بأحداث وأعمال (المناط) الحاصلة في **هذه المرحلة**، بأطوارها المختلفة.. وبوصفهم أفراداً أو "جماعة مسلمة" تعيش في **مجتمع** ليست كلمة الله **تعالى** هي العليا فيه (مجتمع جاهليّ). والمعالجات الشرعية المتعلقة بهذه المرحلة (قبل التمكين) هي جميع المعالجات التي نزلت في **مكة**، وكذلك التي نزلت في **المدينة**، **باستثناء** تلك المعالجات المتعلقة **بالسلطان**؛ أي المكلّفة بها الأمّة بوصفها الشرعي الأساس (بعد التمكين) والمكلّف بها خليفة المسلمين (الإمارة العامة)، مثل إقامة الحدود وإعلان الحرب وجمع الأموال من عامة الناس.. ذلك، أن الفرد أو الجماعة لا يُجزء عن الأمة أو عن الإمام.. فلا يجزيء مكلف عن آخر فيما أناط الله **تعالى** به من أحكام ومعالجات إلا بدليل شرعيّ.. فلكل مكلّف واقعه، وله المعالجات المناطة به وهو وحده المسؤول عن تنفيذها..
هذا، ويستمر المؤمنون؛ أفراداً وجماعة، بالسير حسب "المنهاج" في هذه المرحلة؛ بتتابُع أحداثها وأطوارها.. وبتنزيل المعالجات ذات العلاقة، على الوقائع والأحداث (المناط) **حال ظهورها..** أولاً بأول.. حتى يُمكّن الله **تعالى** لهم في الأرض، فيصيروا "أمّة مسلمة" لله، بوصفها الشرعيّ الأساس؛ "الأمة المكلّفة".. أي، التي تُحقِّق شروط التكليف.

ويمثّل هذه المرحلة؛ "قبل التمكين" من سير الرّسول ﷺ والمؤمنين معه؛ المرحلة المكيّة.

المرحلة الثانية: مرحلة **"التمكين"** للمؤمنين في الأرض، حيث يكون المؤمنون **مكلفين** بالرسالة بوصفهم **أمّة** من دون الناس [1]، حيث وُجدت "الأمّة المسلمة" بالوصف الشرعي الأساس؛ "الأمة المكلّفة" وهو: أن المؤمنين قد **مكّن** الله **تعالى** لهم في بقعة من الأرض، وجعَل لهم **سلطاناً** عليها مُمثّلاً **بإمارة** عامة:

---

1 - المسلمون أمّة من دون الناس، باعتبار الأمر الجامع لهم. وهو أن الإسلام متمثل بهم ظاهر فيهم. والضابط في إطلاق وصف الأمّة على مجموع المسلمين هو أن يتحقق في واقعهم كل ما أوجب الله تعالى الإجتماع عليه من الدين وحرّم التفرق فيه. أنظر (الأمة) في (مفردات القرآن) - الراغب الأصفهاني.

﴿..وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ **أَقَامُوا** الصَّلَاةَ **وَآتَوُا** الزَّكَاةَ **وَأَمَرُوا** بِالْمَعْرُوفِ **وَنَهَوْا** عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج]

والمعالجات الشرعية المتعلقة بهذه المرحلة (بعد التمكين) هي جميع المعالجات الشرعية التي نزلت في **مكة**، وكذلك التي نزلت في **المدينة**، بما فيها المعالجات المتعلقة بالسلطان؛ أي المكلّفة بها الأمّة والمكلّف بها خليفة المسلمين (الإمارة العامة).. وهو المسؤول مباشرةً أمام الأمة عن تنفيذ جميع الأحكام الشرعية..

وتستمر **"الأمّة المكلّفة"** وقيادتها بالسير حسب "المنهاج" في هذه المرحلة، بتتابُع أحداثها وأطوارها.. وتقوم بتنزيل المعالجات (الدّين) على الوقائع والأحداث (المناط) حال ظهورها.. حتى تصير أمّة مسلمة لله **بكامل خصائصها**، وقد اكملت الدّين (العبودية) لله **تعالى**؛ من خلال قيامها **بتنفيذ جميع** ما أمر الله **تعالى** به في دينه وشريعته في **كل** شؤون الحياة، و**بحَمْل** رسالة الله **تعالى** هداية للعالمين **بالجهاد** في سبيل الله، وتستمر على ذلك حتى تصل رسالة الله إلى الأرض كلّها، وحتى قيام الساعة [1].

ويمثّل هذه المرحلة (بعد التمكين)، من سير الرّسول ﷺ والأمّة معه؛ المرحلة المدنيّة.

وعليه، فإنه تبعاً لاختلاف **المرحلة**، **"قبل** التمكين" أو **"بعد** التمكين"، واختلاف **المكلف** بالرسالة، **فرداً** أو **جماعة** أو **أمّة**.. تختلف **المعالجات**، قدراً وشرعاً، ويختلف **التنوّع** في الموضوع ووسائل العرض.. من سورة إلى أخرى من سور القرآن الكريم.. حسب تعلُّقها بأي مرحلة.. فلا يجيء في السورة إلا ما يحقق المعالجة للمناط (مناط السورة) الذي ورد ذكره فيها، وهو موقف أو حدث حصل – في مرحلته وطور - أثناء سير المؤمنين لإكمال الدّين لله **تعالى**..

فمعالجة "المناط" هي **"مقصد** السورة"، الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل. وهذا هو "الفهم المنهاجيّ" للسورة.

9- ويمكن **النظر** إلى تلك المعالجات - قدراً وشرعاً - الواردة في السورة، على أساس أنها جاءت كمعالجات إمّا **للشأن الداخلي** أو **للشأن الخارجي** أو لكليهما معاً، **سواء** بالنسبة للجماعة المسلمة أم للأمّة المسلمة، **وبحسب** المرحلة و الطور من السير حسب "المنهاج"، للوصول إلى الغاية المرادة، إكمال الدّين لله **تعالى**.

أمّا بالنسبة للمعالجات المتعلّقة بتنظيم الشأن الداخلي، أي **العلاقات الداخلية**، للجماعة المسلمة أو الأمّة المسلمة.. فخطها العام: أنها تأتي في إطار **بناء الكيان المسلم** وإكسابه القوة

---

1 - الجهاد ليس هو القتال فقط، بل الجهاد هو "الطريقة الشرعية" التي تحمل الأمة بحسبها رسالة الله الخاتمة إلى العالم. والقتال هو الخيار الثالث أثناء "عملية الجهاد" في سبيل الله. حيث لا بد بداية من أن يُطلب من الناس (دعوتهم) الدخول في دين الله وأن يسلموا لله مثل سائر المسلمين. فإن أبوا، يُطلب منهم دفع الجزية، والخضوع لشرع الله، وذلك بدخولهم تحت سلطان المسلمين وطاعة ولي أمر المسلمين بالمعروف. وإن أبوا، يُقاتَلوا.

- فكرياً وروحياً ومادياً - بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق الغاية من الرسالة، سواء كيان الفرد أم كيان الجماعة أم كيان الأمة. وذلك من خلال الأعمال الأساسية التالية – كخطوط متوازية - أثناء السير بالرسالة: التزكية، والتعليم للكتاب والحكمة، والإعداد الروحي، والتنظيمي (الإداري).. **وإزالة** جميع العقبات الفكرية والنفسية والمادية، أي الشبهات والشهوات والكيانات غير المسلمة..

بمعنى أن المعالجات تأتي في إطار عملية **بناء** و **هدم**؛ **بناءُ كيان الحق** متمثلاً في كيان الأمّة المسلمة الخاتمة وإعدادها – فكرياً وروحياً ومادياً - للمهمة التي وُجِدت من أجلها.. والتي بُعث الرسول الخاتم وأُنزلت الرسالة الخاتمة لتحقيقها؛ ألا وهي إعلاء كلمة الله **تعالى** في الأرض وتعبيد الناس لله **تعالى** وحده حتى قيام الساعة.. فتكون أمّة وسطاً شاهدة على الناس، مستمرة في أداء مهمة الرسول الخاتم محمّد ﷺ..

وفي نفس الوقت، **هدم كيان الباطل**، وذلك من خلال **هدم** وإزالة جميع العوائق التي تحول دون تحقيق تلك الغاية؛ سواء المادية منها متمثلة بالكيانات التي تعبد الطاغوت، أم الفكرية متمثلة بالشبهات والضلالات، أم النَّفسية متمثلة بالشهوات.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سُوَر: المؤمنون والشورى والبقرة والأنفال.. حيث ورد فيها صفات المؤمنين وأخلاقهم وسماتهم كجماعة أو أمّة، وورد فيها – كذلك - أحكامٌ ومعالجات تُنظّم علاقات أمّة المسلمين مع غير المسلمين الذين يخضعون لسلطانها، كالمنافقين وأهل الكتاب يهوداً ونصارى..

وكذلك الأمر في الشأن الخارجي أو **العلاقات الخارجية**، بين الكيان المسلم – جماعة أو أمّة - والكيانات الأخرى، سواء إقليمياً أم دولياً.. كما كان الحال في تنظيم علاقات الأمّة السياسية والعسكرية مع القبائل العربية المحيطة بالمدينة، ومع قريش، وقرى اليهود، والطائف..
ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سور التوبة والحشر والأحزاب والفتح.

والحمد لله رب العالمين

هذا، وبناء على ما سبق ذكره من خصائص أطوار المرحلة الأولى وبيان سماتها، نرى أنه من المهم أن نستخلص بعض السمات العامة أو الخطوط العريضة في ما يخص السوَر المتعلقة بـ "المرحلة الأولى" بأطوارها الثلاثة، والتي يمكن اعتبارها من القرائن المساعدة على تعيين الطّوْر الذي تتعلّق به السوَرة عند "تبيانها".. أي عند النظر إليها من زاوية "الفهم المنهاجي".. كما ذكرنا ذلك سابقاً

السمات العامة للسُّوَر المتعلقة بـ "المرحلة" بأطوارها الثلاثة.

- بداية من المعلوم أن الأصل في تبليغ الرسالة هو البيان والتوضيح والشرح والتفصيل **لمحتوى** "خطاب النذارة" (أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير) وخاصة في البدايات؛ في الطّوْر الأول وفي بداية الثاني.. لأن مقصود الرسالة، بيان الحق لهداية الناس وإخراجهم

من الظلمات إلى النور.. وفي حالة أصرّ المخاطَبون على البقاء على الكفر رغم البيان والتوضيح، وأخذوا يجادلون بالباطل ويتكبّرون على الإقرار بالحق البيّن.. كما فعلت قريش وأغلب أقوام الرسل.. عندها، يكون من الحكمة التنويع في اساليب الكلام والاستدلال، فلكل مقام مقال.. ذلك أن (الاستدلال على أمور لا تتعلق بها الرغبة والنفرة، مثل ما ترى في العلوم الطبيعية والرياضية أو في تاريخ الأولين، على الأكثر، كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح. فأما إذا استدللنا على أمور يتصادم فيها من القائل والسامع: حثّ واستنكار، وزجر واستكبار، وإلحاح وإصرار.. احتجنا - حينئذ - إلى إيراد الأدلة على وجوه مختلفة من أساليب الكلام، متفاوتة في الوضوحة واللطافة والقوة والحدة.. وربما نبدّل الأسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع، أو رجاء أن ينجح فيه بعض الأساليب أكثر من بعض، كما صرح به القرآن:

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)﴾ [الأنعام: 46] [1]

وكما فعل إبراهيم عليه السلام مع الذي حاجّه في ربه، فترك الإصرار على الدليل الأول، حين لم يفهمه الخصم، وعمد إلى دليل آخر أقرب إلى فهمه:

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة: 258]) [2]

وفي أجواء الخصومة والجدل والأخذ والردّ.. يَنْصَبُّ الاهتمام على **أسلوب عرض** "خطاب النذارة" فيزداد قوة وتنويعاً في استخدام وسائل البيان والتأثير المختلفة.. من أجل هزّ تلك القلوب القاسية كالحجارة أو أشد قسوة، لعلها تلين للحق وترعوي.. وتحريك هاتيك المشاعر الباردة والمتبلّدة، لعلها تهتز وتهشّ للحق.. وذلك، تارةً بالتخويف والترهيب بالمصير الرهيب - في الدنيا والآخرة - إن أصروا على كفرهم.. وتارة أخرى، بالترغيب بالنهاية السعيدة في ذلك النعيم المقيم في الحياة الآخرة أو بالعز والنصر والكرامة وسيادة الناس، في الحياة الدنيا..

- هذا، وأحوال الإنكار والخصومة والجدل بالباطل وأجوائها.. في مواقف قريش من الحق، لم تظهر في بداية دعوة رسول الله لهم وتبليغهم الرسالة - كما بيّنّا في ما سبق - بل

1 - أي: (انظر - أيها الرسول - كيف نُنوِّع حججنا الواضحات لهؤلاء المشركين لعلهم يفهمون فيعتبروا؟). التفسير الميسر. يقول الراغب في المفردات: (والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال. قال تعالى: (وَصَرَّفْنَا الْآياتِ) [الأحقاف/27] (وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) [طه/113]). وقال ابن فارس في المقاييس: (صَرَفَ؛ الصاد والراء والفاء، معظم بابِهِ يدلُّ على رَجْع الشيء. من ذلك صَرفْتُ القومَ صَرْفاً وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعوا... ومعنى الصَّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِف إلى شيء، كأَنَّ الدِّينارَ صُرِف إلى الدراهم، أي رُجِع إليها، إذا أخذتَ بدلَه... قال أبو عُبيدٍ: صَرْفُ الكلام: تزيينهُ والزِّيادةُ فيه، وإنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَفَ الأسماعَ إلى استماعه). نقول: والحاصل=> أنه في صرف الدينار أو صرف الكلام.. يبقى المعنى أو القيمة أو المضمون.. هو هو، إلا أن الشكل أو المظهر هو الذي يكون فيه التغيير والتبديل لقصدٍ وحكمةٍ. فتصريف الآيات هو: كثرة التنويع والتقليب في إيراد الدلائل على الحق الواحد البيّن، لعل المخاطَب يتأثر ويهتدي. فلكل نفس إنسانية جهة اهتمام، ومفتاح لشخصيتها، ونقاط ضعف ونقاط قوة.

2 - (أقسام القرآن) - الفراهي الهندي، بتصرّف.

كانت متأخرة، وقد أصرّوا على الكفر. وقد بدت واضحة جداً في منتصف "الطّوْر الثاني" و أواخره، وخلال "الطّوْر الثالث"..

مما يعني - كخط عام - أن السوَر التي فيها **إجمال** في عرضها للأفكار والقضايا، وتكون **متميزة** بأسلوبها القوي في أدائها لـ "خطاب النذارة"، **وبالتنويع** في وسائل عرضه المؤثرة.. كالسوَر التي تُصوّر يوم القيامة وعذابه ونعيمه، بشكل متنوع عجيب يأخذ بالألباب.. وقد يرد فيها شيء من القَصَص بشكل مكثّف وموجَز وبأسلوب قوي.. فهي على الأغلب تتعلّق بأواخر الطّوْر الثاني و الطّوْر الثالث.

• ومن التنويع الظاهر في أسلوب الخطاب القرآني (تصريف الآيات)، والمناسب لمثل تلك الأجواء والأحوال من الخصومة والجدل بالباطل.. يبرز استعمال الأساليب والوسائل اللغوية المتنوعة في سياق "البلاغ المبين"؛ بقصد التأثير في نفوس المخاطَبين، وإمعاناً في تجلية الحق، وإزالة الشبهات من العقول، وآثار الشهوات من النفوس، وإتماماً لإقامة "الحجة الرسالية".. ومن تلك الوسائل اللغوية :

✓ القَسَم:

(والقَسَم أسلوب في الخطاب ابرز ما فيه هو التأكيد.. ويقتضيه المقام وحال المخاطَب، في مثل حال الإنكار والخصومة والجدل بالباطل)) [1]..

✓ الاستفهام للتقرير:

وهو سؤال يقتضي علم المُقرَّر - المسؤول - بما قُرِّر عليه:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) ﴾ [الضحى: 6]

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة: 40]

✓ الاستفهام للإنكار والتقريع:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تعالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ [النمل: 59-63]

✓ استعمال "كلّا" للردع والزجر:

ويُقصد بها زجر المُخاطَب عن الأمر الذي يُنهى عنه، لئلا يعاوده. والأصل في "كلا" أن تقع بعد الكلام المُراد إبطاله والزجر عن مضمونه. ولكنّها قد تقع في أول الكلام، فيقتضي

1 - أنظر (أقسام القرآن) - الفراهي الهندي.

أن معنى الكلام الحقيق بالإبطال وبردع قائله يأتي بعدها، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ [العلق] [1]

مما يعني - كخط عام - أن السوَر التي يأتي في خطابها بعض الأساليب السابقة، بارزاً واضحاً.. تُعتبر من السوَر المرتبطة بأواخر الطّوْر الثاني والطّوْر الثالث.

- ومن التنويع في أساليب الكلام والاستدلال والتأثير (تصريف الآيات)، "الأسلوب القصصي" وهو من الأساليب البارزة والمهمّة في الأداء القرآني في عرض "خطاب النذارة".. (لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان المصير).. لما له من تأثير مباشر وقوي على المخاطَبين:

فبالنسبة لفريق المؤمنين؛ حَمَلة الرسالة: فيه تسلية ومواساة لهم وتثبيت لقلوبهم بتعريفهم وتفقيههم بسنن الله في حمل الرسالات.. مثل أن الله تعالى يُنجّي المؤمنين وينصرهم، ويُهلك الكافرين ويدمّرهم.. ومثل بيان مواقف مَنْ سبقهم من أهل الحق والإيمان في صبرهم وثباتهم.. "منهج التثبيت".. وخاصة حين ما تبدأ الأحوال بالضيق والتعسّر وتزداد الأمور شدة.. كما في تعذيب المؤمنين، والهجرة إلى الحبشة، والحصار والمقاطعة في شِعب بني هاشم..:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

أي (لَقَدْ كَانَ فِي خَبَرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمِهِمْ، عِبْرَةٌ لأولِي الْعُقُولُ، وذلك لما فيه من البيان لسنن الله فيهم وبأقوامهم.. وهو خبر صدقٍ ووقع حقاً وليس كذباً أو مختلقاً.. {وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} أي، وفي خبر المرسلين تفصيل كل شيء متعلق بحمل دعوة الله ورسالته والسير بها في القرى (المجتمعات)؛ من حيث سنن الله الدائمة فيها.. وثبات رسل الله وصبرهم ويقينهم بالله وبوعد الله.. وبيان طبيعة المجتمعات الجاهلية والملأ منهم، وبيان العقبات.. وكيف أن العاقبة للمتقين؛ حيث أَنْجَى الله الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ.. الخ.. "تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ" من سنن الله التي بيّنها الله من خلال ذكر قصص (أنباء) المرسلين.. فَلِهَذَا كَانَ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي، إرشادًا لكل خير، ورحمة لقوم يصدِّقون بالقرآن، وأن ما فيه من قصص الرسل هو الحق، وهم أولى من يأخذ منها العبرة ويدرك سنن الله في حمل دعوة الله وتبليغ رسالته؛ فهُم من أولي الألباب). [2] ،، كما في الآيات التالية:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام: 34]

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود: 120]

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

1 - أنظر (سورة العلق)، (سورة عبس) في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن).
2 - انظر تفسير الطبري، ابن كثير، القرطبي، ابن الجوزي.

أمّا بالنسبة للفريق الآخر؛ الضالين: ففي "الأسلوب القصصي" تنويع في البيان والبشارة والنذارة وإقامة الحجة عليهم، بضرب الأمثال لهم بمن سبقهم من أهل الكفر، والبيان العَمليّ الواقعي لسنة الله **تعالى** بإهلاك أولئك ودمارهم لمّا بقوا مصرّين على كفرهم.. لعلّ هؤلاء يتوبون إلى الله ويتبعون رسوله:

﴿ .. فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف: 175-176]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)﴾ [المزمل: 15-16]

مما يعني - كخط عام - أن السوَر التي وردت فيها القَصص بشكل مفصّل، تتعلّق بالطّوْرين الأخيرين من المرحلة الأولى.. مثل سوَر: الأعراف، يوسف، هود، الشعراء، طه، القصص.

- "أجواء السوَرتين متقاربة"، هذا التعبير قد يرد معنا أثناء محاولة ربط السوَرة من القرآن مع الطّوْر الذي تتعلق به. ومقصدنا من هذا التعبير أن مناطي سوَرتين أو أكثر متقاربان في زمن الحدوث، وقد يتداخلان أيضاً.. بمعنى أن "مناط سوَرة" قد حدث، وتداعيات "مناط سوَرة" أخرى أو ظروفه العامة، لا تزال موجودة ومؤثرة: مثل الحصار في شعب بني هاشم، فقد استمر ثلاث سنوات وفي أثنائه - وفي نفس الأجواء - تأتي سوَر أخرى لمعالجة مواقف وأحداث حدثت أثناء الحصار. ومثل حادثة الإسراء، حيث كان لها تأثير قوي وتداعيات (أجواء) استمرت فترة من الزمن.. وكذلك العذاب الأدنى (السنين والدّخان).. وأيضاً طلب المشركين للآيات المادية (المعجزات).. ومثل الغزوات والمعارك في المرحلة الثانية (المدنيّة)، فلكل غزوة أجواؤها من حيث: أسبابها ومقدماتها، وأحداثها نفسها، ونتائجها وتداعياتها.. الخ.

ف "الأجواء"، هي ظروف وأحوال متتابعة أو متزامنة أو متقاربة.. وهي أخص من "الطّوْر". فقد تكون في طور واحد، وقد تكون في نهاية طور وبداية الطّوْر الذي يليه؛ يعني في فترة الانتقال من طور إلى آخر.. ومعرفة هذا الأمر له أهمية كبيرة في الفهم الدقيق لطبيعة سير رسول الله بالرسالة، وطبيعة تتابع أحداثه وأطواره.. وبالتالي إعطاء حَمَلة الرسالة - في كل زمان ومكان - القدرة على التشخيص الصحيح والدقيق للواقع الذي يتحركون فيه (تحقيق المناط)، ثم معالجته بدقة وكفاءة عاليتين.. وبأقرب ما يكون إلى الصحة وأبعد ما يكون عن الخطأ.. الأمر الذي يُجنّب حَمَلة الرسالة، التبعات السلبية والضارة، في حالة الخطأ سواء في "تحقيق المناط" الذي يواجهونه أم في تعيين المعالجات الشرعية المتعلّقة به وتنزيلها عليه.

هذا، والقرائن الدالّة على تقارب "أجواء" سوَرتين أو أكثر، قد تكون قرائن من خارج السوَرة، كالروايات الثابتة حول أسباب النزول أو من السيرة، أو قد تكون القرائن من السوَرة نفسها؛ وأهمها المُشابَهة أو المُقاربَة بين سوَرتين أو أكثر: إمّا في **الموضوع** أو في **الأسلوب**؛ أي إمّا في فكرة أو معنى معيّن.. او في كيفية أداء المعاني والأفكار:

بالنسبة لـ **مشابهة الموضوع**:

ليس كل مشابهة في الموضوع تعني أن تكون أجواء السوَر التي ورد فيها نفس الموضوع متقاربة، بل الأمر يعتمد أيضاً على طبيعة الموضوع:

✓ فإذا كان الموضوع متعلق بقضايا عامة كالإيمان بأنه لا إله إلا الله أو اليوم الآخر.. أو بحالة عامة كالنفاق أو الكفر.. أو متعلّق ببيان بعض الأحكام الشرعية، والتي نزلت في أوقات مختلفة ومتباعدة وحسب حدوث الحالات.. كأحكام الزواج والطلاق، مثلاً.. فهذه وأمثالها واضح أنها ليست كافية لاعتبار أن أجواء تلك السوَر التي ورد ذكرها فيها أنها متقاربة، بل لا بد من قرائن إضافية أخرى.
أما إذا كان الموضوع متعلّقاً بـ "الصراع الفكري" والجدال والأخذ والرد.. بين حقائق الإيمان وأباطيل الكفر، فإن ورود الفكرة نفسها أو المعنى ذاته الذي دار حوله الجدل أو "الصراع الفكري" في سوَرتين أو أكثر، يُعَدّ من القرائن القوية على تقارب أجواء تلك السوَر. ذلك، أن الشُّبهة (المَثَل) المُعيّنة التي طرحها أهل الباطل، بأشكالهم المختلفة، كان من باب المجادلة بالباطل وأنهم قوم خَصِمون وقوم لُدّ.. فبعد أن يكشف القرآن الكريم ما فيها من لبس ويزيل باطلها، ويعرّي ويكشف حقيقة موقفهم، لا يعود أهل الباطل إلى ذكرها أو استعمالها مرة أخرى، بل يَدَعونها ويلجؤون إلى البحث عن شبهات ومواقف جديدة، للتلبيس على الناس.. وهكذا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان: 33]

ومن هنا - وبشكل عام - فإن السوَر التي تعالج نفس الشُبهة (المَثَل) المعينّة أو تطرّقت إلى ذكرها أو الإشارة إليها.. فإنه من الراجح اعتبار أن أجوائها متقاربة.. وأن مناطاتها قد حدثت في أزمان متقاربة.. مثل، وصف المشركين لرسول الله بأن به جِنّة.. وحاشاه ﷺ.

✓ وأما إذا كان الموضوع متعلّقاً بذكر وبيان صفة خاصة معيّنة من صفات أحد الفريقين الخَصْمَين: أهل الإيمان أو أهل الكفر.. طبعاً غير الصفات العامة مثل الإيمان، الإسلام، الضلال، الكفر، النفاق.. إنما نقصد **الوصف** الذي له **دلالة** على وصول أحد الفريقين إلى مستوى معين في موقفه من دين الله ورسالته، في طور من أطوار السير لتحقيق الغاية من الرسالة. أي تلك الصفة التي تمثّل درجة محددة من درجات "الزيادة في الإيمان" (التزكية)، بالنسبة لأهل الإيمان، مثل: أبرار، مخبتين، مقرّبين، صدّيقين.. الخ.. أو في الجهة المقابلة، بالنسبة لأهل الباطل، فهي الصفة التي تمثّل دركة معينة من دركات "الزيادة في الكفر" (التَدْسِية، التَّسفُّل).. مثل مفسدين، مجرمين، فُجّار، أئمة كفر، عنيد، يكيدون، يمكرون.. الخ.. نقول: إن ورود مثل تلك الصفة المعينة لأيٍ من الفريقين في سوَرتين أو أكثر، يُعد من القرائن القوية على أن أجواء تلك السوَر متقاربة. فما أُطلق في القرآن الكريم وصف معيّن على أحد إلا لاستحقاقه لذلك الوصف، واستحقاقه أيضاً لما يترتب عليه من تبعات وأحكام ومعالجات [1].. سواء كانوا أهل الحق والإيمان؛ في ترقيهم في درجات "الزيادة

1 - ويعزز هذا المعنى ويوضّحه، مفهوم "المصطلح" في وصف بعض ألفاظ القرآن الكريم. فـ "المصطلح القرآني" هو: ((ذلك اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة التي له في

في الإيمان" وصولاً إلى إكمال الدين لله عزّ وجلّ، واستحقاقهم للنصر والتمكين والاستخلاف في الأرض.. أم كانوا أهل الباطل والكفر في تردّيهم في دركات "الزيادة في الكفر" وصولاً إلى استحقاقهم العذاب والدمار في الدنيا وعذاب النار في الآخرة.

أمّا **مشابهة الأسلوب**:

فإن طريقة عرض القرآن الكريم للمعاني لا تنفصل عن المعاني والأفكار نفسها، من باب مناسبتها لمعالجة حال المخاطبين، مؤمنين وكافرين، والمستوى المعين الذي وصلوه في موقفهم من دين الله، في الطّوْر المعين من السير بالرسالة.. وهذا واضح تماماً.. فذلك من باب تنزيل المعالجة المناسبة على الواقع (المناط) المعيّن.. فالله تبارك وتعالى عندما خاطب الناس في القرآن الكريم، راعى أحوالهم وواقعهم، فخاطب كل إنسان بما هو أهل له، وبحسب الحالة التي هو فيها سواء من حيث المحتوى (المعاني) أم من حيث الأسلوب (شدة الخطاب). فلكل مناط معالجته الخاصّة به. فخطاب الكافر المعاند المحارب لله ورسوله، يختلف عن خطاب الكافر الجاهل وغير المحارب، أو عن المنافق. وخطاب المؤمن العاصي، يختلف عن خطاب المؤمن القائم على أمر الله تعالى.. وهكذا.

ومن هنا فإن ما ذكرناه سابقاً من ذكر المعاني والأفكار والأحكام - ما بين عمومها وخصوصها- في علاقتها بتطور المواقف أثناء السير بالرسالة.. ينطبق على "الأسلوب" أيضاً، أي على طريق أداء تلك المعاني والأفكار والأحكام والصفات.. ومناسبتها لحال المخاطَبين وموقفهم من الرسالة.. ويؤيد ذلك ما ذكرناه في النقاط السابقة (1-3) من هذا البند.. حول أسلوب القَسَم، والاستفهام التقريري، والقصص.. وتنوع أسلوب عرض "خطاب النذارة" بين التفصيل والإجمال.. إلخ [1].

وتفصيل أَوفى لكيفية ربط السورة من القرآن مع المرحلة والطور المتعلق بها من سير رسول الله بالرسالة.. ولطبيعة "الفهم المنهاجي" لسور القرآن الكريم.. في كتاب (تبيان سور القرآن)

والحمد لله رب العالمين..

اللسان العربي، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة)). فهذه الصفات المعينة بمثابة مصطلحات القرآنية.

1 - كما في قوله تعالى لموسى وهارون:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44)} طه. إن جملة (قَوْلًا لَيِّنًا) وصف لأسلوب الكلام، وصف لطريقة أداء الفكرة، أما <= الفكرة نفسها فهي ما ذكره الله تعالى في سورة طه، وفي غيرها من السور: {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)} طه، فالفكرة هي الحق الكامل البيّن الذي لا لبس فيه. أما أن يكون أسلوب أداء الفكرة الحق بـ (القول اللّين) فهذا ما يناسب "الذي طغى" في هذا الطور من بلاغ الرسالة، أمّا بعد إصرار فرعون على الكفر ومجادلته بالباطل، وجعْل نفسه "طاغوتاً" يُعبَد من دون الله.. فقد تغيّرت المعالجات: من حيث الأعمال، ومن حيث أسلوب الخطاب.. كالمحاجة العلنية، والتحدي العلني السافر، إلى إنزال الآيات البينات: السنين والجراد والقُمّل.. حتى وصل الأمر بفرعون إلى أنه لن يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، وعندما أيقن أنه هالك في البحر، آمن.. ولكن، بعد فوات الأوان.. فأغرقه الله تعالى وجنوده في البحر، ونجّى أهل الإيمان الذين كانوا مستضعفين وجعَلهم أئمة وجعَلهم الوارثين.

والآن، سنشرع في "تِبْيان سوَر القرآن"

أو **"الفهم المنهاجيّ"** لسور القرآن الكريم..

ونسأل الله الرحمن الرحيم، العليم الحكيم..

الهداية إلى الصواب والسداد في الرأي..

فهو وحده المستعان وعليه التِكْلان.. آمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تِبْيان سوَر القرآن

1- (سورة العلق)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في "الطور الثالث" من السير بالرسالة [1]، وذلك للاعتبارات التالية:

1– إن الملأ من قريش ما تجرّأوا على مقام رسول الله ﷺ ، بهذا السفور - بمثل إيذاء أبي جهل وتحدّيه - إلا من بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يمنعه من الناس. فالأشخاص الذين تجرّؤا على مقام رسول الله، ظهروا في هذه الفترة، وكان أشدها وأقساها موقف أهل الطائف [2].

2– وصف " التولّي " في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) ﴾ [العلق] يعني أن موقف التكذيب أصبح موقفاً نهائياً، وقد استحق صاحبه العذاب. يقول صاحب المفردات: ((وقولهم: تَوَلَّى، إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الوَلَايَةِ، وحصوله في أقرب المواضع منه. يقال: وَلَّيْتُ سمعي كذا، ووَلَّيْتُ عيني كذا، ووَلَّيْتُ وجهي كذا: أقبلت به عليه. وإذا عدّي بـ عن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه.. والتَّوَلِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار)).

نقول: فـ "التولّي عن" هو درجة تأتي بعد "الإعراض عن"، ففيه معنى الانفصال والبعد، وتحوّل الذات عن مكانها.. ويؤيّد ذلك، ظاهر استعمال: { **تَوَلَّى** } إذا عدّيت بـ عن لفظاً أو تقديراً ، في أغلب ورودها في الآيات القرآنية، فإنها ترد بمعنى: انصرَف الشخص - على الحال التي هو عليها (حسب السياق) - ولم يرجع. يعني أن موقفَ ذلك الشخص وتَصرَّفه كان نهائياً [3].

---

1 - لا يُقال هنا: لماذا جُعلت سورة العلق في "الطور الثالث" بينما هي أول ما نُـزّل من القرآن الكريم؟. لا يُقال ذلك، لأن الخمس آيات الأولى منها فقط هي كذلك، أما باقي السورة فقد نَـزل متأخراً، هذا أولاً. وثانياً، لأن هذا الترتيب الذي نحن بصدده، ترتيب منهاجيّ - كما بيّنا سابقاً. فهو نتيجة لربط السورة ربطاً **سننيّاً** بمنهاج السير بالرسالة لبيان دورها فيه، من أجل تحقيق الغاية منها. ونتيجةً للنظر إلى السورة من القرآن كوحدة منهاجيّة واحدة، وفي مجموع السور ثـمّ المنهاج كاملاً.. فهو ترتيب للسور من منظور **سننيّ منهاجيّ**، وليس من منظور **تاريخيّ** حسب "تاريخ النزول". وهذا ينطبق على جميع سور القرآن في " تبيان سور القرآن". وبهذا، نشاهد الفرق واضحاً كفلق الصبح، بين النظر إلى السورة من زاوية "منهاجيّة" سننيّة وبين النظر إليها من أيّ زاوية أخرى، بما فيها التاريخية.

2 - أنظر (الطور الثالث) من خط السير بالرسالة، في "الجزء الأول"، و (صحيح السيرة النبوية)، (صحيح أسباب النزول) - ابراهيم العلي. وقد وردت في سور أخرى نماذج وشخصيات أخرى شبيهة وقريبة في عداوتهم للحق وأهله، سواء من قريش أم من أمم الرسل السابقين، مثل أبي لهب وأبي جهل.. وفرعون.. كما في سور: (المسد، القلم، المدثّر، القيامة، البلد، الهُمزة، لقمان، والآيات الأخيرة من سورة يس..) وغيرها. ونشير هنا إلى أن سبب نزول الآية أو السورة نتناوله من منظور سننيّ منهاجي، فتبرز أهميته في كونه من القرائن المفيدة في ربط السورة مع الطور الذي تتعلّق به من خط السير بالرسالة.

3 - كما في قوله تعالى: (هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن **تَتَوَلَّوْا** يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {38}) محمّد.=>

ووصف "التولّي عن الحق" لموقف ملأ قريش من رسالة الله، ظهر منهم في الطور الثالث.

3– إنذار الكافرين وتخويفهم بعذاب الله في الدنيا، وبتحدّي سافر، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) ﴾ [العلق: 17-18]، ويكون في آخر المرحلة الأولى.. في "الطور الثالث".. فمواجهة الملأ والآلهة (طاغوت المجتمع) والتحدي السافر لهم بهذا الشكل، يحصل في وقت متأخر في المرحلة الأولى من خط السير، وقد صعّد المشركون من موقفهم في رفض رسالة الله تعالى.. كما أُمر رسول الله في سورة الأعراف:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)﴾ ﴾ [**الأعراف**: 194-197]

وكما هي سنة الله تعالى في رسل الله السابقين، مثل موقف هود عليه السلام في سورة هود:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾ [**هود**: 58]

وموقف نبيّ الله **نوح**، في سورة يونس، عليهما السلام:

﴿* وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾ **[يونس]**

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ **وَتَوَلَّى**{48}) طه. (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن **تَوَلَّى** وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ الله الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24}) الغاشية. (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى{15}نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى{16} تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ **وَتَوَلَّى**{17}..) المعارج. (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا **وَلاَّهُمْ عَن** قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا.. {142}) البقرة. (.. وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ **تَوَلَّواْ** وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ{92}) التوبة. (فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن **تَوَلَّوْاْ** فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ..{137}) البقرة. (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ **وَلَّى** مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ {31}) القصص. (إِنَّ الَّذِينَ **تَوَلَّوْاْ** مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ {155}) آل عمران. أنظر باقي الآيات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

والسوَر الثلاث السابقة من السوَر المتأخرة في المرحلة الأولى من خط السير، كما سنبيّنه لاحقاً عند "تبيانها".. بإذن الله.

مناط السورة [1] :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)﴾ العلق ،،، ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)﴾ العلق

اتخاذ الملأ موقف رفض العبودية لله عزّ وجلّ والطغيان على أمره موقفاً نهائياً لهم، ويطلبون الطاعة لأنفسهم، ويأخذون على عاتقهم معاداة من يعبد الله تبارك وتعالى ويدعو إليه، ويجاهرون بذلك [2].

المعالجة:

السورة في عمومها خطاب مباشر لرسول الله ﷺ :

﴿اقْرَأْ ﴾﴿رَبِّكَ﴾﴿اقْرَأْ﴾﴿وَرَبُّكَ﴾﴿رَبِّكَ﴾﴿أَرَأَيْتَ﴾﴿أَرَأَيْتَ﴾﴿أَرَأَيْتَ﴾ ﴿لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ..
وهذا ينبئ عن كمال العناية برسول الله، والرأفة والرحمة والرعاية بشأنه.. وفيه تسلية له ﷺ ومن تبعه، وتعجيب من حال هذا الإنسان الطاغي الشقي..
وعندما يتكلم الله ـ سبحانه ـ عن ذلك الذي طغى، يتكلّم بصيغة الغائب تحقيراً له..

---

1 ـ مناط السورة: هو حالة أو موقف مما واجهه المؤمنون أثناء سيرهم بالرسالة لتحقيق الغاية منها، وقد جاءت السورة كوحدة واحدة **لمعالجته**. فيُعتبر كل ما واجهه المؤمنون على طول خط السير، من البداية حتى تحققت الغاية، من مواقف وأحوال هو "المناطات" التي جاءت سور القرآن الكريم ـ بمجموعها ـ لمعالجته.

2 ـ (عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: " لئن فعله لأخذته الملائكة "). صحيح البخاري برقم (4958). (عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده. **فأغلظ** له رسول الله ﷺ **وانتهره**، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا ! فأنزل الله تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18)} العلق. قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته) سنن الترمذي برقم (3349) وقال: حسن صحيح. تفسير الطبري (164/30) وهذا لفظه. (عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: " لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً "). مسند الإمام أحمد (248/1). أنظر تفسير ابن كثير.
نقول: وهذا التأييد من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ ليس فقط بوصفه نبياً يُوحَى إليه، بل وبوصفه مؤمناً حاملاً لرسالة الله، مع الانتباه إلى خصوصية مقام النبوة وعموم مقام الإيمان. فللمؤمنين السائرين على "منهاج النبوة" نصيب من ذلك التأييد الرباني، الأمثل فالأمثل:{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)} غافر. { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)} يونس. { إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)} الحج. وصدق الله العظيم.

وقد سارت السورة في معالجة مناطها كالتالي:

1- الآيات (1-5)، تقرير حقيقة أن محمّداً رسول الله الإله الحق، وأن الله تعالى قد علّمه القرآن. وأمرٌ لرسول الله بأن يـقرأ القرآن، وأن يقرأه على أنه من ربّه الذي تكفّل به ورعاه، وربّه الذي تجب له الطاعة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ.. (١) ﴾ العلق [1].

ثم بيان خصائص وصفات الربّ الحقّ:

- أنه وحده الخالق لكل الخلق ولا خالق سواه، فهو الذي خلق كل شيء.. ثم خصّ الإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات، لأنه أشرف ما على وجه الأرض.. وهو المُخاطَب بالرسالة..
- وأنه ـ تعالى ـ هو الْأَكْرَمُ [2]، أي الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، يُنعِم على عباده النّعم التي لا تُحصى، وأن من كرمه ـ تبارك وتعالى ـ ما خصّ الإنسان به وفضّله وكرّمه به من حُسن الخَلْق وتقويمه والقدرة على التعلّم، وأن عَلّمه ما لم يكن يعلم. فشَرّفه وكَرّمه بالعلم، وهو القَدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة والجن.. وهو من أهم مقومات كونه الخليفة في الأرض.

ومن هنا، فالإنسان بعد أن تبلغه آيات الله جلّ ثناؤه، وقد عرف من خلالها من هو ربّه الحق.. فالأولى به أن يحقق العبودية لربّه ومولاه.. فهو الذي خَلَقه من علق ثم ربّاه حتى جعله في أحسن تقويم، ثم كرّمه وعلّمه ما لم يكن يعلم [3].. وتلك العبودية لله تتمثّل بالطاعة والخضوع

---

1 ـ كما في قوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)) النمل. أي إن الكتاب من الملك سليمان، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر في دعوتهم عن أوامر الله. وكان مجمل (فحوى) الكتاب: (أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)) النمل. أي مسلمين لله، متبعين لرسوله.

2 ـ (الكَرَمُ إذا وُصِف الله تعالى به، فهو اسم لإحسانه الكبير وإنعامه المتظاهر، نحو قوله: (فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل/40]. وإذا وُصِف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه.. والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله.. وقوله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقاكُمْ) [الحجرات/13] فإنما كان كذلك لأنّ الْكَرَمَ هو الأفعال المحمودة، وأكرمها وأشرفها ما يُقصد به وجه الله تعالى، فمن قصد ذلك بمحاسن فعله فهو التّقيّ، فإذاً أكرم الناس أتقاهم. وكلّ شيء شريف في بابه فإنه يوصف بالكرم. قال تعالى: (فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) [لقمان/10]، (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة/77]. والإِكْرَامُ والتَّكْرِيمُ: أن يصل إلى الإنسان إكرام، أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كَرِيماً، أي: شريفا، قال: (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) [الأنبياء/26] أي: جعلهم كراماً، قال: (كِراماً كاتِبِينَ) [الانفطار/11]، وقوله: (ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ) [الرحمن/27] منطوٍ على المعنيين). (المفردات) ـ الراغب. باختصار.

3 ـ فالمعاني الظاهرة في كلمة الربّ في لغة العرب هي: المُربي الذي يغذو، والمالك المتصرف بملكه كيف يشاء، والراعي المتكفّل، والسيّد المطاع. ويقابلها كلمة العبد أي المملوك المربوب الذي لا يتصرّف بشيء إلا من بعد إذن سيده. أنظر (المعجم الإشتقاقي) ـ محمّد حسن حسن جبل. كما في قوله تعالى في سورة الفاتحة: { الْحَمْدُ للهِ **رَبِّ** الْعَالَمِينَ{2}.. إلى.. **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5}}. فصارت الإلهية موقوفة على الخالقية، فمن لم يخلق لم يكن إلها مطاعاً، فلهذا قال تعالى: { أفمن يخلق كمن لا يخلق (17)} النحل. (ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {102}) الأنعام. (ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {62}) غافر.

لأمره وحده وبالشكر له وحده. فهو وحده الرّبّ الحق المستحق للعبادة؛ أي وحده الذي تجب طاعته في ما أعطى وقدّم، ووحده المستحق للحمد والشكر على ما تكرّم.

2- (6-8)، إلا أن بعض الناس من خَلْق الله لا يَشكر ولا يُطيع، بل يكفر ويطغى!!.. ولكن لماذا كفران الربّ الخالق الأكرم ؟!!.. لقد بيّن الله تعالى لنا السبب؛ فبعض الناس - كالحالة التي يواجهها رسول الله من الملأ في قومه - إذا رأى نفسه ذا غنى في المال والجاه والعشيرة.. ظن، لغُروره وبَطَره، أنه لا حاجة له لما يدعوه إليه رسول الله من الحق.. فيتجاوز حدوده كعبدٍ مملوك مربوب لله؛ سيّده وخالقه الأكرم، فيتجرّأ ويعلن الطغيان على أمره !!.. بل ويصل به الحد أن يطلب الطاعة لنفسه من دون الله !!.. فيأمر وينهى بما يُخالف أمر الله !!.. فشعوره بالقوة والاستغناء (الكِبْر) سيطر على نفسه، فطغى.. ناسياً أصل خَلْقه المهين!.. وناسياً فضل ربّه الأكرم الذي رفعه من ذلك الأصل المهين (العلقة) فجعله في أحسن تقويم وعلّمه ما لم يكن يعلم.. ألا فليعلم كل طاغية متمردٍ على أمر ربّه الخالق الأكرم.. أنّ إلى ربّه الرُّجعى، وإليه المصير والمُنتهى.

3- (9-18)، وعلى أساس ما سبق، تُكشف حقيقة ذلك الطاغوت [1]، أمام أتباعه والناس جميعاً، وتُعرّى دوافعه في محاربته الحق وأهله، بإنّها ليست البحث عن الحقّ أو الوصول إليه، وإنّما هي الطُغيان والتكذيب من أجل مصلحته الخاصّة. فتكرار لفظ (أَرَأَيْتَ) ثلاث مرات.. فيه تعجيب من حال هذا الإنسان الطاغية الذي يُصرّ على كفره، ويؤثر الغيّ على الرّشد..
ثم، وبشكل علني وسافر، يُهدَّد ذلك الطاغوت الذي يَمنع الناس عن **عبادة الله واتباع** رسوله - الصلاة مثالاً [2] - بسوء المصير في الدنيا قبل الآخرة، فالله يسمعه ويراه، ويقدر عليه، فهو الذي خلقه من علق.. فسيعاقبه العقاب الذي يتناسب مع تكبّره عن الشكر والطاعة لربّه الذي خلقه وأكرمه وعلّمه.. عقاباً عاجلاً في الدنيا، إذا بقي مصرّاً على طغيانه وتحدّيه السافر لله جلّ وعلا: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾ [العلق: 17-18]
ثم في الآخرة - عذاباً دائماً مقيماً - بإذلاله إذلالاً شديداً؛ بأخذه بشدة من ناصيته وبسحبه إلى النار.. تلك الناصية المكذّبة بالحق، والمتعمّدة لارتكاب المنكر، والمتكبّرة على ربها ومولاها ولا تريد السجود له [3].. فالجزاء من جنس العمل.

---

1 - (الطاغوت عبارة عن كل مُعتد، وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع. قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بالله}[البقرة /256]، {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا} [الزمر/17] {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ} [النساء/ 60]، فالطاغوت، عبارة عن كل معتدٍ على حق الله تعالى في أن يكون وحده المعبود المطاع أمره). أنظر (مفردات القرآن الكريم) - الراغب. و (تفسير الطبري).

2 - باعتبار أن الصلاة - بهيأتها الشرعية المخالفة لطريقة المشركين في عبادة أصنامهم - كانت في المجتمع الجاهلي آنذاك، هي **المظهر البارز** للدخول في دين الله وأداء العبادة له والكفر بالطاغوت وترك عبادته.

3 - السجود لله والخضوع له، فيه مصلحةٌ للإنسان نفسه وللمجتمع من حوله، فعندما يكون الإنسان متكبراً على الله ولا يؤمن بيوم يُبعث فيه حياً ويقف بين يدي الله عزّ وجلّ للحساب والجزاء على ما اقترفت يداه، فهو يطغى ثم يَظلم ويُفسد.. كالحالة التي تعالجها هذه السورة.. وأكثر المتضررين منه هم الفئات

بالنسبة للجماعة المسلمة:

إضـــافة لما ســبق من تذكيرهم بأن الله عزّ وجلّ هو وحده الرب الحق الذي تجب الطاعة لأمره.. وأنه يســـمع ويرى ما يحدث لهم، والتأكيد على أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يتولّى أمر أعدائه وأعدائهم. فليصدعوا بالحق ويجهروا به، ولا يخشوا إلا الله.. وفي قوله:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩ (١٩)﴾ [العلق: 19] ،

أمرهم الله تعالى - ممثلين برسـول الله - بعدم طاعة الطاغوت الذي يطلب الطاعة لنفســه من دون الله، الربّ الحق.. فيأمر بمعصـــية الله وينهى عن طاعة الله. وأن عليهم كشـــف حقيقته أمام كل الناس؛ بأنه عبد مملوك مربوب لله، وناصـيته بيد الله جلّ وعلا.. وكذلك تحديه تحدياً ســافراً بإظهار الرفض لأوامره وقوانينه وتشـريعاته.. وإظهار الطاعة لأمر الله وحده (صـلاة رســـول الله في المســـجد الحرام أمام الملأ).. والمداومة على طاعة الله تعالى مســـتعينين به متوكّلين عليه، ومتقربين إليه عزّ وجلّ بكثرة الصلاة والسجود بين يديه جلّ علا [1].

2- (سورة القلم)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في "الطور الثالث" من السير بالرسالة، وقد استحقت قريش العذاب في الدنيا ونزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء: 214] .. وفي بداية الاتصال بالقبائل والتهيئة للهجرة. يعني في أجواء التهيئة للفصل بين الفريقين (انتظار الفصل)، وذلك لما يلي:

الضعيفة في المجتمع التي ليس لها قوة تحميها من مال أو جاه أو قبيلة.. أنظر سوَر: الماعون، التين، القيامة، الفجر.. وغيرها.

1 - ذَكَر السجود وأراد الصلاة. بقرينة: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}) العلق. وأيضاً لأنه الفعل من الصلاة الذي يتجلّى فيه معنى الخضوع والإستسلام لله الرّب الخالق الأكرم جلّ ثناؤه، ويبرز فيه معنى القرب منه جلّ وعلا.. فـ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء } كما قال ﷺ. "صحيح مسلم" 1/ 350.

1- وصف الملأ المكذّبين بأنهم "مجرمين": ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)﴾ [القلم: 35] [1]، وأنهم استحقوا "العذاب الأكبر" في الدنيا، وقد عاينوا "العذاب الأدنى" – السنين والدّخان - لكنّ الله تعالى يُمْلي لهم ويستدرجهم، أي يُمهلم ويؤخّرهم حتى يحين موعد عذابهم: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم: 44-45]

أي، " فدعنى - يا محمّد - ومن يكذِّب بهذا القرآن سندنيهم من العذاب درجة درجة، من الجهة التى لا يعلمون أن العذاب يأتى منها، وأُمهلهم بتأخير العذاب إلى وقت معلوم. إن تدبيرى قوي مُحْكم لا يفلت منه أحد" [2] . فهُم الآن - وقد فتح الله عليهم الدنيا وزادهم غنى - في سُنة "الاستدراج" و "الإملاء" حتى يأتيهم العذاب من الله جلّ جلاله. والكلام هنا عن "العذاب الأكبر" (البطشة الكبرى) الذي ليس بعده إلا عذاب يوم القيامة. كما ضرب الله تعالى مثلاً لسنّته بـ "أصحاب الجنة"، حيث كفروا بأنعم الله ولم يحفظوها بالشكر، فغيّر الله تعالى ما بهم من نعمة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧)... كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم: 33] [3]

---

1 - يأتي في السياق القرآني، إطلاق وصف "المجرمين" على مَنْ استحق العذاب في الدنيا أو الآخرة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وعلى محاربة الله ورسوله وقد أقيمت عليهم الحجة الرسالية. ويكون هذا متأخراً قُبيل إنزال "العذاب الأكبر" في الدنيا. كما في قوله تعالى:{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ **الْمُجْرِمِينَ** مُنْتَقِمُونَ (22)} السجدة. وانتقام الله عزّ وجلّ في الدنيا يكون بانزال "العذاب الأكبر": { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُوالْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} الدخان. {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)} الروم.{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ **الْمُجْرِمِينَ** (110)} يوسف.{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا **مُجْرِمِينَ** (66)} التوبة.. الخ. أنظر باقي الآيات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

2 - كما في قوله تعالى في سورة مريم: (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً {84 }). أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

3 - وقد ذكّر الله تعالى قريشاً وملأها وأتباعهم بسنته تلك اكثر من مرة، كما في سورة النحل في قوله تعالى: (وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ {112}). وفي سورة سبأ آية (15- 19). وذكّرهم بها - كذلك - بعد أن نزلت بهم البطشة الكبرى في غزوة بدر، وبيّن لهم أن الذي أصابهم هو من سنة الله الدائمة في الذين كفروا، في قوله تعالى من سورة الأنفال: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ{52} ذَلِكَ بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ{53} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ{54}).

2- جاء في الآيتين (2،52)، ذكر اتهام الملأ من كفار قريش لرسول الله ﷺ بأنه مجنون. وهذا يأتي - حسب سُنن الله تعالى في حمل الرسالات - في وقت متأخر من "المرحلة الأولى" من السير بالرسالة.. بعد "العذاب الأدنى"، كما في قوله تعالى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) **ثُمَّ تَوَلَّوْا** عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) ﴾ [الدخان: 10-16]

كما في السوَر الأخرى التي ورد فيها وصف الكفار لرسول الله إليهم بأنه مجنون، وهي من السوَر المتعلقة في وقت متأخر من المرحلة الأولى في السير بالرسالة.. أثناء الإملاء والاستدراج، وقبيل انزال "العذاب الأكبر" بالكافرين.. فأجواؤها متقاربة [1] :

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)﴾ [الأعراف]

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)﴾ [الذاريات: 38-40]

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)... تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾ [القمر: 9-14]

فاتهام رُسِل الله بالجنون من قِبَل أقوامهم - حسب سُنن الله تعالى - من طبائع القوم الطاغين المُصرّين على الكفر بالحق، برغم بيان الآيات، وقد استحقوا العذاب (أنظر كلمة يطغى في سورة العلق):

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات: 52-55]

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [الطور: 29-31]

مناط السورة:

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم: 8-9]

---

1 - وهي إحدى عشرة سورة: الأعراف(184)، الحجر(6)، المؤمنون(25،70)،الشعراء(27)، الصافات(36)، الدخان(14)، سبأ(8،46)، الذاريات(39،52)، الطور(29)، القمر(9)، التكوير(22). هذا، مع الإشارة إلى أن السور السابقة - مع سورة القلم - جميعها قد ورد فيها وصف المشركين بالمجرمين، ما عدا سورتي الطور والتكوير.

وموقفهم التكذيب برسالة الله وما جاء فيها من الحق، يطرح الملأ من قريش على حَمَلة الرسالة - رسول الله والمؤمنين معه - خيار المداهنة أي المداراة والملاينة في "فكرة الرسالة" وقضية الصراع - عبادة الله وحده واتّباع رسوله - مقابل أن يوقف الكفار حالة العداء (الصراع) معهم. "فهم يريدون منه التساهل في أمر الدين وعدم أخذه بالجد والصلابة التي رأوها منه" مقابل أن يلينوا لهم.. فهو نوع من "الحل الوسط" [1].

المعالجة:

1- السورة في عمومها خطاب مباشر لرسول الله، وهذا ينبئ عن كمال العناية برسول الله.. وفيه تثبت له ﷺ - والذين آمنوا معه - وتسلية لهم عمّا يلاقونه من معاناة بسبب إصرار المشركين المستمر على التكذيب.

2- وعندما يتكلم الله - سبحانه - عن المكذّبين، يتكلّم بصيغة الغائب تحقيراً لهم.. إلا عند الإنكار عليهم فخطابه لهم كان مباشراً، زيادة في تبكيتهم (35- 39).

3- والسورة تتكلم عن كفار قريش بوصفهم مكذّبين. بمعنى أن التكذيب برسالة الله وما جاء فيها من الحق موقف نهائيّ لهم، فهو مصدر تصرفاتهم ومنبع أفعالهم.

هذا، والخط العام في سير السورة في معالجة مناطها كالتالي:

✓ التأكيد على نبوة محمّد وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة، وعلى اهتدائه وضلال معانديه، "وذلك بالقَسَم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة، فتضَمّن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم، لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم، لتكون الكتابة والعلم سبباً لحفظ القرآن".

✓ ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ - والمؤمنين معه - بعدم طاعة الملأ من قريش في طلبهم المداهنة (الحل الوسط) بين الكفر والإيمان، فالملأ أصحاب مصالح، غايتهم الحفاظ على ماعندهم من مال وجاه، وزيادته.. وأمّا المؤمنون فهم أصحاب حق وحَمَلة رسالة.. فكيف يلتقي الفريقان ؟!.

✓ " ثم أنحى على زعماء المشركين المكذّبين بمذَمّات كثيرة، وتوعّدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلاً بمن غرَّهم عِزُّهم وثراؤُهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم (أصحاب الجنة). وأنّ آلهتهم لا يُغنون عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة". ووعظهم بأنّ ما هم فيه من النّعمة - وقد فتح الله عليهم أبواب الدنيا - استدراجاً وإملاءاً. وأنّهم لا معذرة لهم في ما قابلوا به دعوة النبي ﷺ من كفر وتكذيب.. وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله جل ثناؤه، اجتباهم بالإسلام، وأنه في ميزان الله لا يمكن أن يستوي الفريقان:

---

1 - يبدو لنا أن الصلابة في موقف رسول الله ﷺ وعدم قبول التفاوض معهم - رغم ضعفه وقوتهم - هو ما أوحى إلى الملأ المتكبرين الطاغين بوصفه بالمجنون. وقوله: (وَدُّوا) من الوُدْ بمعنى المحبة. وقوله: (تُدْهِنُ) من الإدهان وهي المسايرة والمصانعة والملاينة للغير. وأصله أن يُجعَل على الشيء دهناً لكي يلين أو لكي يَحْسُن شكله، ثم استعير للملاينة والمساهلة مع الغير. **أنظر (مفردات القرآن) - الراغب. و(معجم المقاييس) - ابن فارس . (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل.**

المسلمون المنقادون لله المتّبعون لرسوله، والمجرمون المكذّبون الآبقون.. لا في حياتهم ولا في مصيرهم ومآلهم (أصحاب الجنة).

✓ وفي سياق تثبيت رسول الله والذين آمنوا معه، أمر الله رسوله ﷺ بالصبر على تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه، وأن لا يضجر من ذلك ضجراً مثل الذي عاتب الله عليه نبيّه يونس عليه السلام.

وبشيء من التفصيل في بيان المعالجات، نقول وبالله التوفيق:

أولاً: بالنسبة للذين كفروا، بوصفهم "المكذبين":

1- (1-7)، القَسَم، لتقرير وتأكيد حقيقة أنّ الله عزّ وجلّ هو الإله الحقّ وأنّ محمّداً – الذي يعرفونه وصاحب الخُلُق العظيم – قد أنعم الله تعالى عليه بالنبوّة والرسالة. والإنسان العاقل اللبيب هو منْ يُصدّق بهذه الحقيقة لأنّها الحقّ المبين: (1- 4) (52)، وأن الذين يُكذّبون هذه الحقيقة هم المفتونون الضالّون، وعن قريب سيُبصرون جزاءهم في الدنيا، ومن بعده في الآخرة (5-7).

2- (8-16)، **كشف** واقع المكذّبين القبيح، وسوء علانيتهم وسريرتهم كذلك، **وكشف** حقيقة موقفهم.. وخاصة الذي تولّى كِبر أمر التكذيب منهم (10-15) [1].. في مطالبتهم بالمداهنة وإثارة الشبهات – مثل تساوي المسلم والفاجر في الجزاء عند الله عزّ وجلّ [2]، واستحقاقهم الطّاعة والاتباع من دون الله تعالى ورسوله - بأنه بدافع التكذيب برسالة الله تعالى وما جاء فيها من الحق البيّن، وأنّهم يُضلّلون الناس لتبقى الطّاعة والقياد لهم.. (لاحظ سورة العلق).

و**بيان** أن ما يدّعيه الطاغوت من مقوّمات ومؤهّلات استحقاقه الطّاعة والاتّباع من دون الله – في ما يزعم - ومنها المال والنسب العريق وكثرة الاتباع والأنصار:

---

1 - " فهو فضلا عمّا اتسم به من الصفات القبيحة تلك، تراه إذا تُتلى عليه آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته.. وعلى صدق رسول الله محمد في ما يبلّغه عن ربه، قال هذا العتلّ الزنيم: هذه الآيات أكاذيب الأولين وخرافاتهم. ثم توعّده الله تعالى بأشد أنواع الوعيد، فقال تعالى: (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ). أى: سنبين أمره ونوضحه توضيحا يجعل الناس يعرفونه معرفة تامة لا خفاء معها ولا لبس ولا غموض، كما لا تخفى العلامة الكائنة على الخرطوم، الذي يراد به هنا الأنف. أو سنلحق به عارا لا يفارقه، بل يلازمه مدى الحياة، وكان العرب إذا أرادوا أن يسبوا رجلا سبة قبيحة.. قالوا: قد وُسِم فلان ميسم سوء.. أى: التصق به عار لا يفارقه، كالسِمة التي هي العلامة التي لا يُمحى أثرها. وذِكْر الوسم والخرطوم فيه ما فيه من الذم، لأن فيه جمعاً بين التشويه الذي يترتب على الوسم السّيّئ، وبين الإهانة، لأن كون الوسم في الوجه بل في أعلى جزء من الوجه وهو الأنف.. دليل على الإذلال والتحقير. وهو ما يناسب تكبّره عن الحق ". مثل قولهم: "رغم انفه".

2 - وقد ورد ذكر هذه الشبهة في عدة سور: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ }[الجاثية\21].{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[ص \28].{ أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ }[السجدة\18].

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) ﴾ [القلم: 14]،، والتي هي من أسباب بَطر الكافرين وطغيانهم.. إنّما هي كلها من الله عزّ وجلّ؛ خالقهم ومالكهم وهو الذي منحهم إياها، ويقبضها منهم متى يشاء وكيف يشاء (أصحاب الجنّة، مثلاً).. وبالتالي فهُم لا يستحقون الطّاعة، إنما الطاعة للربّ الحق، الخالق والمالك أصالة، والذي رزقهم إياها:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾ [النحل: 53-54]

فكيف يغترّ أولئك بما آتاهم الله ؟!! وما أوتوه إلا استدراجاً وإملاءاً.. حتى يحين اليوم الموعود لعذابهم وزوال نعمتهم وعزهم.. يوم "الفرقان"، يوم "البطشة الكبرى". كما بيّن الله تعالى ذلك في الآيات التي تلت.

3- (17-34)، النذارة والوعيد لهم بعذاب الله القريب في الدنيا ومن بعده في الآخرة، إن أصرّوا على تكذيبهم وكفرهم، من خلال بيان سنة الله تعالى فيمن هو مثلهم (قصة أصحاب الجنة). فحقيقة ما فتح الله تعالى عليهم من نعم الدنيا، ما هو إلا اختبار وامتحان ليشكروا أو يكفروا، مثل ما حصل مع أصحاب الجنة:

4- ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم: 17]،،، فلما كفروا بالله عزّ وجلّ عذّبهم بزوال نعمتهم وعِزّهم [1] فليعتبروا، وليُسلموا لله جلّ وعلا وليتّقوه ويتّبعوا رسوله، قبل أن يصيبهم ما أصاب أولئك [2] من العذاب في الدنيا، أما عذاب الآخرة – ألا فليعلموا - أنه أشد وأبقى وأعظم.

وفي المقابل، بيّن الله عزّ وجلّ ما وعد به المسلمين له الذين اتقوه واتبعوا رسوله في كل أحوالهم.. من جنّات اختصهم بها، لهم فيها النعيم الخالص الدائم، والتشريف والتكريم (عِنْدَ رَبِّهِمْ).. في الآخرة.

5- (35-43)، الإنكار على المكذّبين، ومطالبتهم بالحجج والبيّنات القاطعة - بدلالة الحس أو بدليل من الخبر الصادق - وإظهارها أمام الناس.. على صحة ما يزعمون، وهم المجرمون: (من أن لهم منزلة تكريم عند الله مثل المسلمين، بعلامة ما فتح عليهم من نِعَم الدنيا).. فقد بيّن الله تعالى لهم في ما سبق، أن إعطائهم تلك النّعم هي الفرصة الأخيرة قبل العذاب، فهي اختبار نهائي، ليشكروا أو يكفروا.. والتأكيد على أنّ الملأ ومنْ اتّبعهم لا يملكون

---

1 - قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ومثله قوله تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ). وفي الحديث الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه».

2 - ((إِنَّ الْغُرُورَ بِسَعَةِ الرِّزْقِ المؤدي إِلَى الِاسْتِخْفَافِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ البينة الواضحة، قَدْ أَوْقَعَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ أَصْحَابَهُ فِي بَطَرِ النِّعْمَةِ وَإِهْمَالِ الشُّكْرِ، فَجَرَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ شَرَّ الْعَوَاقِبِ، فَضَرَبَ الله لِلْمُشْرِكِينَ مَثَلًا بِحَالِ أَصْحَابِ هَذِهِ الْجَنَّةِ لَعَلَّهُمْ يَسْتَفِيقُونَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وَغُرُورِهِمْ. كَمَا ضَرَبَ الْمَثَلَ بِقَرِيبٍ مِنْهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، وَضَرَبَ مَثَلًا بِقَارُونَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ)). (محاسن التأويل - القاسمي). بتصرف يسير.

حُجّة تُنجيهم من عذاب الله عزّ وجلّ – لا في الدنيا ولا في الآخرة - وقد أصرّوا على التكذيب والكفر [1].

ثانياً: بالنسبة للجماعة المسلمة:

تثبيت الجماعة المسلمة على الحق، والتخفيف على نفوسهم من وطأة موقف التكذيب والصدّ والمناوأة من المجتمع ومَلَئه والاستمرار على رفضهم لرسالة الله.. وذلك – إضافة لما سبق:

✓ (44-47)، إرجاع الأمر كله لله عزّ وجلّ، فالقضية ليست قضية عداوة شخصية بين الطّاغوت (الملأ) وحَمَلة الرسالة، بل هي عداوة بين المكذّبين - الملأ وأتباعهم في جهة - و الله عزّ وجلّ:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم: 44-45]

أي: اترك - أيها الرسول الكريم - أمر هؤلاء الذين يكذبون بهذا القرآن، وخلِّ بيني وبينهم.. أما وهُم يصرّون على التكذيب والكفر، وقد فتَحتُ عليهم أبواب الدنيا وسقتُ لهم النعم.. فليعلموا أنّي أُقــرّبهم – بالإنعام عليهم رغم كفرهم – درجة درجة إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم، وليس كما يزعمون أن ذلك إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين، بل هو الطريق إلى هلاكهم.. فسآخذهم أخذ عزيز مقتدر، بغتة وعمّا قريب - وهذه سُنّة دائمة لله جلّ وعلا (قصة أصحاب الجنة) - واعلموا أن تدبيري للأمور شديد قوي، لا يفلت منه أحد، ولا يحصل إلا ما أريد.. فلا يمكن أن يفلتوا من العذاب إن بقوا مصرّين على التكذيب بالحق [2].

وبعد هذا التنبيه والإنذار، ألا فليبادروا إلى الإيمان بالله واتّباعك.. أيها الرسول الكريم.. فماذا ينتظرون ؟! نزول العذاب بهم ؟!.. أم ماذا يمنعهم عن الإيمان ؟!.. أأنت تطلب منهم أجراً

---

1 - قال الآلوسى: وقد نـبّه - سبحانه- في هذه الآيات، على نفي جميع ما يمكن أن يتعلقوا به في تحقيق دعواهم، حيث نـبّه - سبحانه- على نفي الدليل العقلي بقوله: (ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ). وعلى نفى الدليل النقلى بقوله: (أَمْ لَكُمْ كِتابٌ..). وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله: (أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ..). وعلى نفى التقليد الذي هو أوهن من حبال القمر بقوله: (أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ..). نقول: وفوق ذلك، تحداهم في ما إذا كانت آلهتم التي يُشرِكونها في العبادة مع الله تعالى (شركاؤهم)، تقدر أن تضمن لهم ما يزعمون من مساواتهم للمسلمين وأنهم سينجون من عذاب الله.. فليأتوا بهم !!.

2 - كما في قوله تعالى: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)} الأنعام. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود:101/ 102] }. أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.{..إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)}. الكيد في الاصطلاح القرآني هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك. لذلك وُوصف "الكيد" في القرآن - في إطار تحقيق المراد - بأنه: متين، أو ضعيف، أو عظيم، أو أنه في تضليل أو في ضلال، أي لم يحقق المراد. أنظر (تبيان سورة الفيل). فلا نجاة لهم من عذاب الله إلا باختيارهم سبيل النجاة الوحيدة، وهي التصديق بالحق واتباع رسول الله.

على دعوتك لهم حتى استثقلوا الطلب وتهرّبوا من الدعوة تفاديا من المَغرم والخسارة ؟!.. أم هم مطّلعون على غيب الله.. أم بيدهم أمر المستقبل ؟! فيقررون لأنفسهم ما يشاؤون حتى يبدو منهم هذا الاطمئنان إلى العاقبة.

✓ (48-50)، نهي المؤمنين - ممثلين برسول الله - وتنفيرهم من أن يرضخوا، تحت تأثير ضغط الواقع (المجتمع ومَلَئه)، للموافقة على مطالبة المكذّبين بالمداهنة في قضية الصراع؛ إخلاص الدين لله تعالى [1].. وكذلك مطالبتهم بالصبر والثبات على موقفهم البيّن والواضح مع الإيمان بالحق ضد الكفر، وعدم الاستعجال كما حصل مع يونس عليه السلام، فكاد أن يهلك لولا أن تداركه الله برحمته وتاب عليه:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)﴾ [القلم]

أي، وما دام الأمر كما ذكرنا لك [2]، فَاصْبِرْ أيها الرسول الكريم لحكم ربّك؛ **الشرعيّ**، بتكليفك بحمل الرسالة والدعوة.. **والقدريّ**، لقضائه فيك وفيهم؛ من إمهالهم وتأخير ظهورك عليهم.. أي "لا يثنينّك أذاهم وتكذيبهم عن تبليغ ما أُمرت به، بل امض صابراً عليه وستكون العاقبة لك ولأتباعك. ولا يوجد منك ما وُجد من يونس عليه السلام من الضجر والوَنَى عن التبليغ، فتُبتلى ببلائه، أي لا يكن منك ما يُلجئك إلى مثل ندائه. وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة، لقذفه الحوت من بطنه في الفضاء من الأرض والله غاضب عليه. فتوبته حالت دون أن يكون مذموماً، بل استنزلتْ عليه نعماً كثيرة، إذ أنقذه الله من تلك الورطات كلها إنقاذاً خارقاً للعادة"..

✓ (51)، الوعي على محاولات الملأ لحرف المؤمنين عن هدفهم وقضيتهم (إكمال الدين لله)، عن طريق الحلول الوسط (المداهنة)، أو تحويل اهتمام عامة الناس عن الرسالة وما فيها من الحق إلى شخص حامل الرسالة: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ [القلم]

أى: وإن يكاد الذين كفروا ليصرعونك بأبصارهم – أيها الرسول الكريم - من شدة نظرهم إليك شزراً، بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا القرآن الكريم.. (وَيَقُولُونَ) على سبيل البغض لك (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) أى: إنّك لمن الأشخاص الذين ذهبت عقولهم.. ((وَيَقُولُونَ ذَلِكَ اعْتِلَالًا لِأَنْفُسِهِمْ إِذْ لَمْ يَجِدُوا فِي **الذِّكْرِ** الَّذِي يَسْمَعُونَهُ مَدْخَلًا لِلطَّعْنِ فِيهِ فَانْصَرَفُوا إِلَى الطَّعْنِ فِي صَاحِبِهِ ﷺ

---

1 - قال صاحب الكشاف: ((قوله: (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ{8}) تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم).

2 - ((من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول ﷺ، وما تبعه من تكفّل الله لرسوله ﷺ بعاقبة النصر، وذلك أن شدتها على نفس النبي ﷺ، من شأنها أن تُدخل عليه يأسا من حصول رغبته ونجاح سعيه، ففرّع عليه تثبيته وحثه على المصابرة واستمراره على الهدى)). التحرير والتنوير - ابن عاشور.

بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ لِيَنْتَقِلُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْجَارِيَ عَلَى لِسَانِهِ لَا يُوثَقُ بِهِ لِيَصْرِفُوا دَهْمَاءَهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ. فَلِذَلِكَ أَبْطَلَ اللهُ قَوْلَهُمْ: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ بِقَوْلِهِ: (وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ)، أَيْ مَا الْقُرْآنُ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ وَلَيْسَ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ.. وما أنت إلا مذكّر)) [1].

✓ تزكية الجماعة المسلمة بتعريفهم وتذكيرهم بآثار إلهية الله الإله الحقّ عزّ وجلّ في الآفاق وفي أنفسهم، وبأمرهم بالقيام بأعمال الطّاعة والعُبوديّة مثل الصبر والاستقامة على أمره عزّ وجلّ.. وتوعيتهم على الواقع من خلال "النظرة الإيمانية"، أي النظر إلى الواقع والأحداث وفهمها من خلال الإيمان بأن الله هو وحده الإله الحق صاحب الأمر الفاعل والمؤثّر في الوجود: خلقاً وتقديراً واستمراراً ومصيراً، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.. والعلم بسُنن الله تعالى - أي طريقته الدائمة - التي بحسبها يُحدث الله تعالى ما شاء وقوعه.

3- (سورة المزمّل)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في أواخر "الطور الثالث"، وذلك:

1- لم تصح أي رواية في سبب نزول هذه السورة أو تأريخ نزولها [2]. فلم يثبت أن السورة - أو جزءاً منها - من أوائل ما نُـزّل من القرآن.

2- ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) ﴾ [المزمل: 11]

في هذه الآية الكريمة اكثر من إشارة:

- { وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا}، ذكر لقرب الفصل بين الفريقين، وأنهم في حال "الإمهال" وقد دنى وقوع "العذاب الأكبر" على الكافرين من قريش، والذي كان في غزوة بدر، مما يعني أنها متعلقة بطور متأخر، أي قُبيل الهجرة إلى المدينة. ويؤكّد ذلك أن الله تعالى ضرب مثلاً لموقف قريش في تكذيب رسول الله بموقف فرعون، فقد استحقوا العذاب مثله:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)﴾ [المزمل: 15-16]

- ومن ثَم، فإن قوله تعالى: { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ }، وصف الكفار بالمكذبين وأنهم مُنعّمين، فيه إشارة إلى ما فتح الله على قريش من أبواب نعم الدنيا "استدراجاً" و "إملاءاً"، وهو "الإمهال" قبيل وقوع "العذاب الأكبر" بهم.
- وما سبق، يشابه ماجاء في سورة (ن والقلم) من قبل:

---

1 - التحرير والتنوير - ابن عاشور.

2 - أنظر (صحيح أسباب النزول) و (صحيح السيرة النبوية - فترة الوحي) إبراهيم العلي. (الصحيح المسند) الوادعي.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ [القلم: 44-45] ''' من حيث وصف الكفار، وتهديدهم بعذاب الدنيا، والطور الذي هم فيه.. مما يشير إلى تقارب أجواء السوَرتين.

3- ونلاحظ أن ما كُلّف به خاتم الرسل محمّد ﷺ - وقد قَرُب الفصل بين الفريقين - من الانقطاع (التبتّل) إلى الله تعالى والقيام للصلاة أغلب وقت الليل (1-4) المزمل.. شبيه بما كُلّف به رسول الله موسى عليه السلام في نفس هذه الحال، كما بينه تعالى في سورة يونس الآيات (83-90)، أي قُبيل إنزال العذاب بفرعون وجنوده وقد استجاب الله لدعاء موسى وهارون، عليهما السلام:
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)﴾ [يونس: 87] [1].

4- والروايات الثابتة عن عائشة أم المؤمنين وابن عباس **رضي الله عنهم** تؤكّد أن الزمن الفاصل بين نزول أول سورة المزمل (الآيات:1- 19)، ونزول آخرها (الآية:20)، كان سنة أو سنة ونصف: ((.. فقالت [أي عائشة]: ألستَ تقرأُ: يا أيها المزمّل ؟ قلتُ: بلى. قالت: فإنَّ الله عزّ وجلّ افترض قيامَ الليلِ في أولِ هذه السورة. فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حَولًا. وأمسك الله خاتمتَها اثني عشرَ شهرًا في السماءِ حتى أنزل الله في آخر هذه السورة، التَّخفيفَ. فصار قيامُ الليلِ تطوُّعًا بعد فريضةٍ..)) [2]

5- وبناء على ما سبق، فإن "القول الثقيل" الذي سيتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون معه، إنما هو وصف لمرحلة جديدة من تلقي آيات الرسالة والسير بها سينتقلون إليها ويدخلون فيها، وستكون تالية لفترة التبتّل والانقطاع والتفرّغ لذكر الله تعالى وقيام الليل - في "الطور الثالث" - وقد استمرت لمدة سنة أو تزيد. والمرحلة التالية هي مرحلة الهجرة إلى المدينة المنورة والتمكين للمؤمنين في الأرض، وتلقيهم تكاليف العبودية كأمّة ودولة.. وهي تكاليف ثقيلة، منها: الهجرة إلى بلد آخر وترك الأموال والأهل والأقارب، ثم نصرة دين الله بالجهاد في سبيل الله بالمال والأنفس.. فكان لا بد من الاستعداد للدخول في هذا الأمر العظيم والثقيل على الأنفس [3].
فأنزل الله تعالى تلك الأحكام التي في أول السورة، والتزمها المسلمون لمدة سنة أو تزيد، وعندما أصبح المسلمون جاهزين للانتقال إلى المرحلة التالية؛ مرحلة الأمّة، وبعد هذه المدة من التبتّل لله، نزل التخفيف من تلك الأحكام في آخر السورة، بقصد توفير الوقت والجهد.. في إطار التهيئة للدخول في ذلك الأمر العظيم الذي فيه نصرةٌ لدين الله وإعلاءٌ لكلمته عزّ وجلّ، من الهجرة

---

1 - لاحظ (الطور الثالث) من خط السير، الجزء الأول.

2 - صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 746. الطبري، وابن كثير، (الصحيح المسند) الوادعي.

3 - لاحظ كثرة الآيات في السور المدنية - وكذلك الأحاديث النبوية - التي تتناول الحث على الجهاد في سبيل الله بالقتال وإنفاق الأموال، وبيان منزلة الشهيد، وتعالج تأخّر بعض المسلمين، وحتى تقاعس بعضهم، عن ذلك الأمر الثقيل على الأنفس: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)} البقرة.

وترك الأموال والعشيرة ومكان الإقامة.. والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وإقامة حدود الله تعالى..

6- وعليه، فليس من الصحيح القول: إن "القول الثقيل" هنا، وصف لعموم تلقي آيات الرسالة - ثقل الوحي - وذلك، إضافة لما سبق:

- ✓ لأن الوحي لم يكن ثقيلاً على رسول الله دائماً، بل كان في بعض حالاته فقط وليست كلها، كما في رواية البخاري عن عائشة أم المؤمنين: (أن الحارثَ بنَ هشامٍ سأل النبيَّ ﷺ كيف يأتيك الوحيُ ؟ قال: {كلُّ ذاك، يأتي الملَكُ أحيانًا في مثلِ صلْصَلَةِ الجرسِ، فَيفْصِمُ عني وقد وعيتُ ما قال، وهو أشدُّه عليَّ. ويتمثلُ لي المَلكُ أحيانًا رجلاً، فيكلِّمُني فأعي ما يقولُ}) [1].
- ✓ ولأن تلقي الآيات وثقل الوحي، كان حاصلاً قبل نزول آيات المزمّل، فهي ليست أول الآيات نزولاً. وكذلك فإن الأحكام قد خُفّفت برغم أن تلقي الآيات - أي ثقل الوحي - بقي مستمراً فعلاً بعد نزول آية التخفيف، فهي ليست آخر ما نزّل من آيات القرآن.. مما يدل على أن وصف "القول الثقيل" ليس وصفاً لعموم تلقي الوحي، بل هو وصف مرتبط بتلقي قسم معين من الآيات، وبمرحلة معينة من السير بالرسالة.

7- وليس صحيحاً - أيضاً - القول: أن آيات المزمّل الأولى نزلت قبل نزول آيات سورة المدثر الأولى، التي جاء فيها تكليف الرسول بالإنذار وتبليغ الرسالة، من باب إعداده لتلقي القول الثقيل، أي تلقي الوحي والقيام بأعباء الرسالة، وذلك، وبالإضافة لجميع ما سبق:

- ✓ لأنه لم تثبت رواية تُشير إلى ذلك أو تدل عليه. بل لم يثبت أن سورة المزمّل من أوائل ما نُـزّل من القرآن، كما ذكرنا، إنما الثابت في الصحيح رواية جابر بن عبد الله التي تنص على أن أول ما نزل بعد آيات "إقرأ" وبعد "فترة الوحي" هي آيات سورة المدثر الأولى. حيث يقول جابر: (سمعتُ النبيَّ ﷺ ، وهوَ يحدِّثُ عن فترةِ الوحيِ، فقالَ في حديثِهِ: (فبَيْنَا أنَا أمشِي، إذْ سمِعْتُ صوتًا من السماءِ، فرفَعْتُ رأسِي، فإذا المَلَكُ الذي جاءَنِي بحِراءَ، جالسٌ على كرسيٍّ بينَ السماءِ والأرضِ، فَجَئِثْتُ منهُ رعبًا، فرجعْتُ فقُلْتُ: زمِّلونِي زَمِّلونِي، فَدَثَّرونِي، فأَنْزَلَ الله تعَالى: { يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ.. إلى.. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ }). قبلَ أنْ تُفْرَضَ الصلاةُ، وهيَ الأَوْثَانُ)) [2].
- ✓ ولا ينسجم ذلك مع الروايات الثابتة من أن الفترة بين نزول أول المزمّل وآخر آية فيها (آية التخفيف) هو سنة أو سنة ونصف، من جهة أن الفترة الزمنية الفاصلة بين نزول آيات سورة إقرأ وآيات سورة المدثر - فترة الوحي - أقل من ذلك بكثير، بل على الراجح أنها لا تتجاوز أياماً معدودة [3].
- ✓ وأيضاً، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل: 20] ،،، والرواية الصحيحة السابقة عن عائشة أم المؤمنين:

---

1 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 3215.

2- صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4925. أنظر (الصحيح المسند) الوادعي.

3 - أنظر الرحيق المختوم - المباركفوري.

(.. فقام نبيُّ الله ﷺ **وأصحابُه** حَولًا..).. فكلاهما تنصّ على أن هنالك مؤمنون كانوا يقومون الليل مع رسول الله، وهذا لم يكن إلا بعد أن كُلّف رسول الله بالإنذار وتبليغ الرسالة، أي بعد نزول سورة المدثر، على أقل تقدير، وليس قبل ذلك [1].

- ✓ ويُفهم كذلك - من الآية والرواية السابقتين - أن التكليف بقيام الليل لم يكن خاصاً باعداد رسول الله وحده، بل هو في سياق إعداد "الجماعة المؤمنة" أيضاً، للانتقال إلى الحالة الجديدة؛ "تلقي القول الثقيل". ويؤيد ذلك أيضاً، أن مبررات تخفيف التكليف الواردة في الآية الأخيرة (20) هي مبررات تتعلق بواقع أمّة وحركة مجتمع، باعتبار ما سيكون.. أي في المدينة المنورة؛ من القتال في سبيل الله تعالى، وممارسة التجارة وهم آمنون:

﴿..عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ [المزمل: 20]

فمن الواضح أن تلك المبررات لا يمكن أن تتأتّى في مكة المكرّمة، وبعد مرور سنة واحدة على تبليغ الرسالة (رواية عائشة)، في أجواءٍ كان المؤمنون فيها أفراداً مستضعفين خائفين مستخفين في الشعاب.

- ✓ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل: 7] ''' أي أن هنالك فراغاً طويلاً في النهار للنوم والراحة فاجعل ناشئة الليل للصلاة والتبتّل إلى الله جلّ وعلا، وذلك في سياق بيان حيثيات ومبررات الأمر بالقيام لمعظم الليل، حثاً على الالتزام به. وهذا الفراغ الطويل في النهار يتناسب مع طبيعة أواخر "الطور الثالث"، حيث فيه "الانتظار" و "الإمهال" و "الهجر الجميل".. أي عدم الاحتكاك المباشر مع المجتمع في مكة، مما يعني توفر متسع من الوقت في النهار.. وقد مَنعت قريشٌ رسولَ الله أن يبلّغ كلام ربه، وصدّوه عن المسجد الحرام.. وهم جُرءآء عليه.

وفي النتيجة، فإن "القول الثقيل" وصف لآيات الله التي ستـتنـزّل على قلب رسول الله في مرحلة معينة من السير بالرسالة وتطبيقها وحملها، وهي التي ستكون فيها تكاليف العبودية على مستوى الأمّة، من هجرةٍ للأوطان [2] والأهل والعشيرة.. وجهادٍ بالأموال والأنفس.. أي بعد التمكين لـ "الجماعة المؤمنة" في المدينة المنورة وتحوّلهم إلى "**أمــة**".

---

1 - بل إن جعْل قيام الليل، من 4 - 6 ساعات، في المعدّل كل ليلة، فرْض على رسول الله والمؤمنين معه، قرينة قوية على أن التكليف به كان بعد مرور زمن كافي من السير في تبليغ الرسالة (قم فأنذر)، يسمح بنزول "قدر كافي" من آيات القرآن. وإلا كيف يفرض الله تعالى قيام هذا الوقت الطويل من الليل ولم يكن بعد نازلاً من القرآن على قلب رسوله إلا الآيات الخمس الأولى من سورة العلق !. وخاصة أنه مأمور بالترتيل أي بالقراءة على مكث وتمهّل. وأنه عبّر عن الصلاة بالقراءة: (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ)، (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ)، إشارة إلى أن الحكمة من الصلاة هو قراءة ما نزل من القرآن بتفكّر وتدبّر.

2 - المقصود هنا الوطن لغة، وهو مكان العيش والإقامة والتوطّن، وليس بالمفهوم السياسي الغربي الحديث. ووطن المسلم هو المكان الذي تكون فيه "كلمة الله هي العليا"، ولا يجوز له التوطّن والإقامة في مكان آخر إلا بعذر شرعيّ.

وعليه، فالسورة متعلقة بـأواخر "الطور الثالث" من السير بالرسالة. هذا، والله تعالى أعلم وأحكم.

8- الاختصار والتكثيف للقصص.. قرينة على تأخّر السورة في خط السير.. ذلك أن التفصيل ورد في سوَر سبقت.. فبعض الآيات في السورة تقرر السُنن الربانية ثم تأتي القصص لتؤكدها.. لكن هنا بشكل مختصر ومكثّف، لأن التفصيل قد ورد في سوَر سابقة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) ﴾ [المزمل: 15-16] [1]

مناط السورة:

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل: 10-11]
التكذيب والرفض لرسالة الله جلّ ثناؤه، وما جاء فيها من الحق، أصبحا موقفاً نهائياً للمجتمع ومَلَئه من رسالة الله تعالى وحمَلَتها.. وفريق المؤمنين في انتظار الفصل بينهم وبين الذين كفروا.. (الإمهال).

المعالجة:

1- (1-8)، الأمر لرسول الله - وللمؤمنين - بالتقرّب إلى الله تعالى بالطاعات والقُرُبات؛ بشكل مكثف لدرجة الانقطاع والتفرّغ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)﴾ [المزمل: 8] [2]، وأهمها قيام الليل من الثلث إلى الثلثين.. فلهم في النهار متسع من الوقت للنوم والراحة وقضاء الحوائج الضرورية: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) ﴾ [المزمل: 7]. يعني ((فراغا طويلا)) [3]. أي، فاجعل أغلب الليل للصلاة.. وكل ذلك من باب الاستعداد والتهيؤ لتلقي "القول الثقيل"، وهو وصف لما سيتلقاه رسول الله من آيات الرسالة في المرحلة القادمة، لما فيها من التكليف بالعبودية لله على مستوى الأمّة والدولة، أي القيام بأعباء الرسالة هجرةً وجهاداً وإنفاقاً.. كأمّة مسلمة لله تعالى..

2- (9-14)، وعلى أساس حقيقة أن الله وحده الإله الحق صاحب الأمر في الوجود؛ إيجاداً وتقديراً واستمراراً.. جاء الأمر باتخاذ الله وحده وكيلاً، أي فوّض أمرك إليه وحده، واعتمد عليه في تحقيق ما وعدك به. والأمر بالصبر على ما يقول الملأ الكافرون ﴿أُولِي النَّعْمَةِ..

---

1 - أنظر (تبيان سورة الأعراف) الآية 59 وما بعدها. وانظر (الطور الثالث) من خط السير، (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - الجزء الأول.

2 - ((تبتّلَ إلى الله تعالى: أي انقطع وأخلص نفسه له تعبداً، فلا ينزِعه عنه ما كان (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)، و الصيغة تعبّر عن الإجتهاد اللازم لتحقيق هذا)). المعجم الإشتقاقي المؤصّل - د محمّد حسن حسن جبل. { وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } ((أي: انقطِع في العبادة وإخلاص النية انقطاعاً يختص به)) أي بالله. المفردات - الراغب.

3 - عن ابن عباس، حسّنه الألباني في صحيح أبي داود - الصفحة أو الرقم 1304 .

(١١)﴾ من تكذيبهم، وإطلاقهم أوصافاً على رسول الله ﷺ كانت تؤذيه؛ كقولهم: مجنون وساحر.. وعدم التأثّر بموقفهم، والإعراض عنهم وتركهم دون الردّ عليهم أو إثارة مواقف معهم (الهجر الجميل).. فالله جلّ وعزّ سيتولّى أمرهم عمّا قريب في الدنيا، ولهم عذاب أليم يوم القيامة يناسب بطَرهم وتكبّرهم.

3- (10-19)، إنذار المكذبين - قريشٍ ومَلَئها - وتهديدهم بمصيرهم عند الله جلّ وعلا في الدنيا والآخرة وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم إن أصروا على موقفهم [1]. وبيان سنة الله تعالى الثابتة في إنزال العذاب على المكذبين العاصين لرسله سبحانه وتعالى (فرعون الطاغية مثالاً) وأنهم - قريشاً وملأها - دخلوا فيها، وهم الآن في حالة "الإمهال" قُبيل إنزال العذاب بهم، أي "البطشة الكبرى" التي قدّرها الله في غزوة بدر. وحثهم على عبادة الله تعالى وحده والكفر بما دونه من الطاغوت، وأن الطريق إلى الله عزّ وجلّ مفتوحة لمن شاء العودة إليه، فباب التوبة مفتوح.. فإذا نزل بهم العذاب فلا توبة حينئذٍ.

4- (20)، نزول الأمر بالتخفيف من التكاليف السابقة، وبيان حكمة الله تعالى من التخفيف وحيثياته: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: 20].. وقد كان هذا قُبَيل الهجرة إلى المدينة المنورة استعداداً لها.

فالله تعالى عندما كلّفهم بما سبق، لم يكن يريد أن يُثقل عليهم أو يُعجزهم، كما في قوله تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣)﴾ [طه: 1-3]، بل ليتهيّأوا للانتقال لمرحلة جديدة؛ تلقّي "القول الثقيل"، أي حمل أمانة الرسالة والتكاليف الشرعية على مستوى الأمّة والدولة، هجرةً ثم تطبيقاً وجهاداً.. وهذا سيُلقي على عواتقهم مسؤوليات بدنية ومالية كبيرة.. وسيحتاجون – حينئذ - إلى وقت وجهد في النهار، مما يعني أنهم لن يكون لهم ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل،، فلن يكون هنالك متسع من الوقت للنوم وقضاء الحوائج الضرورية، فيلزمهم – حينئذٍ - أن يأخذوا قسطاً أكبر من الراحة والنوم في الليل. ومن هنا جاء الأمر بتخفيف قيام الليل، كماً وكيفاً، فنُـزّل حكمه من الواجب إلى المندوب، وبمقدار ما يتيسّر: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾ [المزمل: 20]

---

1 - { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13)} المزمل. لاحظ كيف يكون العذاب.. تنكيلاً أي ألماً وذلة وقهر.. وغصّة في حلوقهم وهو الغِسلين والضَّريع والزَّقّوم. مقابل ما كانوا يتنعّمون به في الدنيا من الطعام الليّن والفاخر.. والرفاهية والراحة.. لأنهم لم يؤدّوا شكرها بتكبّرهم على أمر الله ربّهم وخالقهم. وإيذائهم لرسوله وبتكذيبهم بالحق.. فالجزاء من جنس العمل.

{ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ } المزمل،، استعداداً للدخول في ذلك الأمر الثقيل..

وكذلك الحث على الاستمرار في الطاعات والقرُبات - الواجبة والنافلة - فما عند الله تبارك وتعالى هو خير وأعظم أجراً، وطلب المغفرة من الله تعالى والتوبة إليه فهو غفور لهم رحيم بهم.

4- (سورة المدثّر)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في أواخر "الطور الثاني"، حيث اشتداد المواجهة الفكرية وإعراض المشركين إعراضاً كبيراً عن سماع آيات الله، وذلك:

1- الجو العام للسورة جو إصرار على التكذيب بالرسالة:

- ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)﴾ [المدثر] (فالعنيد هو الذي يردّ الحق مع العلم به) [1]..
- والفرار من سماع التذكرة فرار المرعوب الخائف من قاتِله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾ [المدثر: 49-51]
- والمكابرة وطلب الآيات المادية: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢)﴾ [المدثر: 52]

2- بروز قيادات من الملأ في مواجهة الرسالة.. المواجهة الفكرية، والاجتهاد في البحث عن طرق للتلبيس على الحق لصرف الناس عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١).. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾ [المدثر]

3- التركيز على العذاب في الآخرة.. دون ذكْر الجزاء في الدنيا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)﴾ [المدثر: 8-10]، ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر: 26]’’’ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ [المدثر: 42].

4- وصف الكفار بـ "المجرمين"، وأنهم استحقوا العذاب في نار "سقر" ، وبيان طبائعهم بصفات محددة. ويكون هذا في طور متأخّر من السير:

- ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)
- وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤)

---

1 - المعجم الإشتقاقي المؤصّل - محمّد حسن حسن جبل. وفي مفردات الراغب: ((عِنْد: لفظٌ موضوع للقرب، فتارة يستعمل في المكان، وتارة في الاعتقاد، نحو أن يقال: عِنْدِي كذا وتارة في الزّلفى والمنزلة... والعَنِيدُ: المعجب بما عنده، والمُعَانِدُ: المباهي بما عنده. قال: {كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [ق / 24]، {إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً} [المدثر / 16]))

- ✓ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)
- ✓ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) [1].
- ✓ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾ [المدثر: 43-47]، أي، بقوا مصرين على ذلك حتى شاهدوا العذاب. ففيه تحذير لهم إن لم يتوبوا قبل أن يفجأهم الموت، يذهبوا إلى مصيرهم المحتوم في سقر [2].

مناط السورة:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر: 49-51]،، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)﴾ [المدثر: 45] ،، ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)﴾ [المدثر: 16]

حالة الإعراض الشديد من المجتمع ومَلَله عن عبادة الله تعالى والرفض لدعوته، برغم البيان الواضح والإنذار القوي. وبروز فئة من المجتمع (من الملأ) تثير الشبهات حول الرسالة وتضع العراقيل أمام اتّباع الناس للرسول، لإبقاء الطاعة للملأ من دون الله تعالى في المجتمع.. كالقول بأن القرآن سحر من قول البشر.. والاستهزاء بعذاب الله في الآخرة في نار "سقر".

المعالجة:

1- (1-10)، تكليف الرسول ﷺ بالعبودية لله عزّ وجلّ، بحُزمة من التكاليف تأتي في سياق بداية التكليف بحمل الرسالة إلى الناس، وإنذارهم بعذاب الله تعالى في الآخرة إن لم يطيعوا الله ويتبعوا رسوله [3].

---

1 - ذِكْرُ الصفات السابقة، فيه بيان لبعض خصائص "المجرمين" وطبائعهم، وقد ترد خصائص أخرى في سور أخرى. فمن وصفه القرآن بأنه "مجرم"، يكون قد توفرت فيه تلك الخصائص.

2 - قال ابن عطية في (المحرر الوجيز): ((وقال المفسرون: الْيَقِينُ الموت، وذلك عندي **هنا** مُتعقَّب لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي، فإنما الْيَقِينُ الذي عنوا في **هذه** الآية، الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت. وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: 99])). نقول: نعم صحيح، لكنّ حصول الموت أمر مُسلّم به ومُشاهَد عند كل إنسان، المسلم وغير المسلم.. مما يُرجّح أن "اليقين" في الآيتين السابقتين؛ هو أن **وعْد الله** تعالى لرسوله والمؤمنين و **وعيده** للكافرين، متحقق قطعاً. آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون. **وإتيانه** لهم، يعني **مشاهدة** كل فريق له وقد تحقق، في الدنيا قبل الآخرة. كما في قوله تعالى عن المؤمنين: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً {22}) الأحزاب. وفي قوله تعالى عن الكافرين: (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ{52}) يس. والله تعالى أعلم.

3 - ما الحكمة بأن يكون بداية التكليف ببلاغ الرسالة بالأمر بالإنذار (أنذر) وليس بفعل آخر مثل: بشّر، بلّغ، ادعُ.. ؟ نقول:

2- (11-30)، التهديد المباشر بأنواع من عذاب الله تعالى في الآخرة.. في نار "سقر"، للمجرم الذي يعاند آيات الله، ويتكبّر على العبودية له تبارك وتعالى، كموقف نهائي له: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾ [المدثر: 23] ''' وقد بلغه الحق بيّناً واضحاً.. بل شاهد وشهد أن ما جاء به رسول الله هو الحق من عند الله.. ومع ذلك، يبذل أقصى جهده في الصدّ عن سبيل الله، وصَرْف الناس عن كتاب الله.

3- (31-37)، الرد على المجرمين الذين يكذّبون بعذاب الله في نار "سقر" ويستهزئون به، بأن ما ورد ذكره من أوصاف "سقر" وعدد زبانيتها.. إنما هو اختبار ليزداد المؤمنون إيماناً ويزداد الكافرون كفراً، مع التأكيد - بالقسم ببعض آيات الله الكونية - على أن تلك النار (سقر) التي يتهكّم بها وبخزنتها الكافرون لهي إحدى الأمور العظام، والدواهي الكبار، التي ليس لها نظير أو مثيل في عِظَمها وفي شدة عذاب من يصطلى بنارها، وهذا نذير لهم، فليعتبروا وينتهوا.. خيراً لهم [1].

4- (38-48)، وبعد أن يستقر المؤمنون بالله المصدّقون لما جاء به رسوله.. في جنات ربهم آمنين مُنَعّمين في الغرفات، بينما المجرمون قد استقروا في دركات "سقر" خائفين يذوقون أصناف العذاب الأليم.. جزاءً لأعمالهم السيئة مرتهنين بها.. يبيّن الله تعالى - من خلال سؤال المؤمنين للمجرمين، زيادة في التوبيخ والتخجيل - تلك الأعمال التي كانت السبب في دخولهم نار "سقر".. ويؤكّد لهم أن مَنْ كان متصفاً بهذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم لقاء الله تعالى شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من يوافي الله - عزّ وجلّ - يوم

- ✓ الإنذار: هو البلاغ مع التخويف. فكان محتوى خطاب الإنذار: لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير، النار أو الجنة. فالجزاء يكون بناء على موقف المُخَاطَب من الهدى الذي بلّغه إياه رسول الله في الرسالة التي أنزلها الله عليه: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)) البقرة. وإنذار الكافر يقتضي بشارة المؤمن. فحاصل الإنذار: دعوةٌ (طلب) مع نذارة وبشارة. فهو ليس بلاغ وإخبار فقط، بل هو طلب إلى عبادة الله مع تحميل السامع المسؤولية عمّا سمع من الحق.
- ✓ من سنة الله تعالى في إرسال الرسل أنه إذا استحقت قرية عذاب الله عزّ وجلّ بكفرها، أرسل لها رسولاً لينذرها عذابه، لأن الله تعالى يُحِبّ أن يُعذَر: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)) النساء، فإذا جاءها رسول الله أنذرها بعذاب الله إن لم يؤمنوا، ويبشر المؤمنين، ثم يحكم الله تعالى بين الكافرين والمؤمنين بالعدل: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)} يونس.
- ✓ من سنة الله تعالى، أنه يُرسِل الرسل إلى القرية عندما يستحقون العذاب بكفرهم، لينذرونهم عذاب الله إن لم يؤمنوا. ومن هنا فالإنذار يقتضي بيان المنذَر به (العذاب) وبيان لماذا أُنذروا (كفرهم)، والطلب منهم تركه واتباع الحق: أنه لا إله إلا الله فاعبدوه. أنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - نذارة وبشارة.

1 - ((وقوله تعالى: { لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(37)} المدثر، قال الحسن هو وعيد نحو قوله تعالى: { فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: 29]، وقوله تعالى: { وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ } [الحجر: 24]... ثم قوي هذا المعنى بقوله: { كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)} المدثر، إذ ألزم بهذا القول أن المقصّر مُرتَهن بسوء عمله)). (المحرر الوجيز - ابن عطية).

القيامة مجرماً فإنهم ماكثون خالدون في "سقر" التي كانوا بعذابها يستهزئون.. ويخوضون بالباطل مع الخائضين بلا بيّنة (المسؤولية الفردية) [1].

5- (49-51)، (الاستفهام للتعجيب) أي، عجباً لأولئك المجرمين - وخاصة الملأ منهم- من إصرارهم على الكفر بعد هذا البيان الساطع، ومن نفورهم من الاتعاظ بالقرآن الذي يتلوه عليهم رسول الله ﷺ .. رغم علمهم بأنه من عند الله. "وشبّههم سبحانه، في نفورهم عن القرآن وشرادهم عن استماع الذكر والموعظة، بحُمر جدّت في نفارها ممّا أفزعها.. وفي تشبيههم بالحُمر: مذمة ظاهرة، وتهجين لحالهم بيّن".. فهو موقف غير نابع من عقل وتفكير وتدبّر..

6- (52-56)، ثم بيّن الله تعالى وكشف حقيقة دوافعهم: (كَلّا) ليس العلة في إعراض المجرمين عن تذكرة القرآن عدم إنزال صحف لهم من السماء.. بَلْ العلة أنهم (لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ). فتكذيبهم بالآخرة وسخريتهم من عذابها هو سبب امتناعهم عن الهدى وسبب هلاكهم.. ثم أعاد الردع والزجر عن طلب "الآيات المادية"، مؤكداً أن القرآن (الآيات المتلوّة) تذكرة وعظة كافية لمن أراد أن يتقي الله ربه وينجو من عذابه. ثم أكد جازماً أن الله تعالى أهلٌ لأن يُتّقى ويُحذر عقابه، وهو أهلٌ للمغفرة.. فسارعوا إلى إصلاح أعمالكم والتوبة لربكم.. قبل أن تموتوا وتشاهدوا بأم أعينكم وتتيقّنوا أن ما أنذركم به رسول الله من عذابٍ هو الحق، وقد كنتم به تكذّبون.. ولكنّكم ضيّعتم الفرصة.

بالنسبة للفئة المؤمنة: إضافة لما سبق:

1– حث الرسول ﷺ والفئة المؤمنة على الصبر - مرضاة لله - على موقف المعاندين لآيات الله في القرآن الدالة على الحق ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [المدثر: 7] .

2- طمأنة قلوب الفئة المؤمنة - بوصفهم أصحاب اليمين- بأن مصيرهم عند الله عزّ وجلّ هو الجنة (39-40).

3– تثبيت ومواساة الرسول ﷺ والمؤمنون معه، بعدم التأثّر من موقف الملأ فقضيتهم مع الله عزّ وجلّ وهو سيتولّى أمرهم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١).. سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ..(٣٠)﴾ [المدثر]

5- (سورة الفاتحة)

ربط السورة بخط السير:

---

1 - {وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)}المدثر. أَيْ: نَتَكَلَّمُ في ما لَا نَعْلَمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلَّمَا غَوِيَ غَاوٍ غَوَيْنَا مَعَهُ. أنظر (تفسير ابن كثير). يعني أنهم كانوا إمّعات يميلون حيث مال الناس ؛ قطعان تسير خلف كل ناعق.. معطّلون لعقولهم: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ {10}) الملك.

تأتي السورة في " الطور الأول" وما بعده، وذلك:

1- السورة هي "أم الكتاب" أي أصله، فالرسالة مجملة ومكثّفة فيها.. ولهذا كانت "فاتحة الكتاب"؟.. وجَعْلُها في الصلاة تُقرأ وتُكرّر في كل ركعة، دليل على العناية الشديدة من المشرّع الحكيم بتركيز ما تحتويه من الحقائق، في نفوس المسلمين - أمّة وأفراداً - والتذكير الدائم لهم بها، تعليماً وتزكيةً للأفراد وللأمّة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾ [الحجر: 87]

وهذا هو دورها في "المنهاج" وقد أصبحت قراءتها في كل ركعة من فرائض الصلاة. ويؤيد ذلك، الرواية الثابتة عن أبي هريرة أنه قال:

((.. فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: قالَ الله تعالى: قسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفينِ ولعبدي ما سألَ؛

فإذا قالَ العبدُ: { الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ }، قالَ الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قالَ: { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }. قالَ الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

وإذا قالَ: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }. قالَ: مجَّدني عبدي (وقالَ مرَّةً: فوَّضَ إليَّ عبدي).

فإذا قالَ: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }. قالَ: هذا بيني وبينَ عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قالَ: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}. قالَ:هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)) [(1)].

والرواية الثابتة عن عن أبى سعيد بن المعلى أنه قال: كنت أصلى في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إنى كنت أصلّي. فقال: « ألم يقل الله: (اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ) ». ثم قال لي: (لأعلمنّك سورة هي أعظم السوَر في القرآن قبل أن تخرج من المسجد). ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله. ألم تقل: لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: ((الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعالَمِينَ)، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) [(2)].

2- وجعْل الحقائق الإيمانية الواردة في السورة - فكرة الرسالة مقرونة بالإنذار - في شكل دعاء، وقد علّمنا الله تعالى إيّاه لندعوه به. ذلك، لبيان أن الأمر كلّه من الله تبارك وتعالى ومن فضله وإنعامه، وبحَوْله وقوته.. فهو الربّ الحق، ربّ العالمين، وما نحن إلا من خلقه وعبيده..

3- أما جعْلها بصِيَغِ الجَمْع (نعبد، نستعين، الذين..) يُفهم منها أن تلك العبودية هي عبوديّة أمّة ومجتمع (عبوديّة مجتمعيّة)، وليست "عبوديّة فردية" فقط.

---

[1] - صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 395

2 - صحيح البخاري. كتاب التفسير. باب ما جاء في فاتحة الكتاب ج 6 ص 21.

4- وعليه، فإن قضية المسلمين ومهمتهم - أمّة وأفراداً - في هذه الحياة هي دائماً تحقيق العبودية الخالصة (الكاملة) لله وحده، بالقيام على أمره ونهيه تطبيقاً وحملاً لدعوة الله ورسالته للناس كافة، كما في قوله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ [البقرة: 285-286]

5- وبناء على ما سبق، فالخلاف بين العلماء في تأريخ نزولها – مكية أو مدنية – لا تأثير له على دورها في "المنهاج".. فيبقى الأمر في الإطار التاريخي فحسب، وليس له دلالة شرعية على المنهاج. بل قد يكون "الفهم المنهاجيّ" للسورة رافعاً للخلاف، وفيه الحل للإشكال.. و تؤدي السورة دورها في المنهاج من خلال أنها تُقرأ في كل صلاة، فقراءتها من فرائض الصلاة.

مناط السورة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: 5]

بيان حقيقة المسلمين - أمّة وجماعة وأفراداً - أنهم يشهدون أن الله هو ربّ العالمين.. وأنه هو وحده إلههم ومعبودهم.. ومن هنا، فمَهمّتهم في الأرض هي أن يحققوا العبودية الخالصة - أي الكاملة الشاملة - لله عزّ وجلّ وحده (إكمال الدين لله)، وذلك؛ بتطبيق كل ما جاء في رسالة الله على واقعهم وفي حياتهم، وحملها للعالمين هدى ورحمة.

البيان :

السورة قسمان:

القسم الأول: (1-5)، تقرير حقيقة أن الله تعالى هو وحده الإله الحق، أي وحده المستحق للخضوع والاستسلام لأمره (العبادة)، وذلك:

1- لأن له وحده الحمد.. أي أن جميع أجناس الحمد والثناء ثابتة لله وحده.. مقصورة - في الحقيقة - على الله، لأن كل ما يستحق الثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شيء:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾ [النحل: 53]

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص: 70]

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ [الإسراء: 111]

2- وهو رب العالمين.. **الربّ** وهو المنشيء بدءاً والمربّي والمُنعِمُ، والمالك المتصرّف.. ويبرز فيه معاني الإصلاح والرعاية والإنماء. ولا يقال الربّ، مطلقا، إلا لله تعالى خالق الموجودات والمتكفّل بمصلحتها. وبالإضافة، يُقال له ولغيره [1] :

﴿* قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت: 9-12]

وعلى هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران: 64]

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)﴾ [آل عمران: 79-80]

أي: آلهة، وتزعمون أنهم الباري مسبّب الأسباب، والمتولّي لمصالح العباد.

3- وهو الرحمن الرحيم.. " الرَّحْمَنُ " يعني ذو الرحمة الممتلئ بها الملازمة له. فهو دائم الرحمة، العامّ برحمته الذي وسع كلّ شيء رَحْمَةً، فيعم برحمته المؤمن والكافر، أي وليّه وعدوه. ولا يُطلَق إلّا على الله من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلّا له جلّ وعلا. لذلك قام هذا الاسم مقام لفظ الجلالة "الله" في مثل قوله تعالى:

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء: 110]

وهناك 57 موضعاً يصلح فيهن اسم "الرحمن" أن يقوم مقام اسم الذات العلية [2].

و "الرَّحِيمُ" هو الذي كثرت رحمته.. وقد يطلق على غير الله جلّ وعلا.. ووَرد 115 مرة، يُلحَظ فيهن جميعاً تَطلُّب المَوْضِع لوقوع الرحمة، ومسبوقاً بما يناسبها كالغفور والرؤوف

---

1 - أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن جبل . وأيضاً (المفردات) - الراغب.

2 - أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن جبل.

والتّواب والبرّ. وفي بضع مواضع سُبق بالعزيز، وبالتأمل تراها للجمع بين صفتي القوة والرحمة معاً[1].

4- وهو وحده المَلِك في يوم الحساب، المالك له.. فكل مَنْ كان في الدنيا من الأباطرة والملوك والفراعنة والطغاة.. إلخ.. يذلّون ويَخْنسون، وتَخَشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر: 15-16]

وله وحده مجازاة العباد على أعمالهم:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم: 47-48]

فما سبق، هو من حيثيات ودلائل وآيات الحقيقة اليقينية الكبرى: **لا إله إلا الله**..

القسم الثاني: (5-7)، بيان الموقف الطبيعي لمَنْ شهد الحقيقة اليقينية؛ **لا إله إلا الله** بحيثياتها: وهو أن يؤمنوا بها ويجعلوها الأساس لحياتهم ووجودهم.. أفراداً وأمة.. بأن يقوموا بمقتضاها: أن يُسْلموا وينقادوا جميعاً للإله الحق، **مخلصين** له الدين، فتكون مهمتهم في الأرض هي تحقيق العبودية الكاملة الشاملة لله وحده - تطبيقاً ودعوة - وأن لا يطلبوا العون على ذلك إلا منه وحده عزّ وجلّ:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: 5] [2]، ومن ذلك:

- ✓ الطلب من الله تعالى الهداية والتوفيق إلى طريق عبادته الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وذلك، بالعلم بالحق وبالاستقامة عليه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: 6]،، فالسير على طريق عبادة الله القويم، من سنة عباد الله الصالحين - الأنبياء والصدّيقين والشهداء - وسبيلهم وهديهم: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ وَلَا (٧)﴾ [الفاتحة: 7]

1 - انظر المرجع السابق. نقول: كما في سورة الشعراء.. وذلك في سياق البشارة والنذارة، الترغيب والترهيب.. لدفع عباد الله المذنبين للجوء إلى رحمة الله فراراً من عذابه. ويأتي هذا حين اقتراب نزول العذاب بالكافرين. أنظر الجزء الأول وانظر (تبيان سورة البروج).

2 - يقول الإمام الطبري في تفسيره: ((وتأويل قوله: (إيَّاكَ نعبُدُ)، لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.. لأنّ العبودية، عندَ جميع العرب أصلُها الذِّلّة، وأنها تُسمّي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذلّلته السابلة: معبَّدًا. ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب في الحوائج: معبَّد. ومنه سمي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه... ومعنى قوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها، لا أحدًا سواك، إذْ كان مَنْ يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة)). كما في قوله تعالى في سورة الزمر: (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ..{3}). أنظر تفسير آية الزمر عند الطبري أيضاً. أنظر (تبيان سورة العصر).

✓ والطلب منه – سبحانه – أن يجنّبهم خصلتين:

- عدم **الاهتداء** إلى الحق أو الجهل به..
- عدم **اتباع** الحق والاستقامة عليه، بعد العلم به..

حتى لا يكونوا مثل بعض الأمم السابقة ممن علِم الحق ولم يتبعه:

- { الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } الفاتحة؛ كاليهود.. أو ممن جهل الحق فضَلّ..
- { الضَّالِّينَ } الفاتحة؛ كالنصارى.. "فمعنى الكلام: اللهم نعبدُك وحدَك لا شريك لك، مخلصين لك العبادةَ دونَ ما سِواك.. فأعِنّا على عبادتك في كل شؤون حياتنا، أمة وأفراداً، ووفِّقنا لما وفَّقت له مَن أنعمتَ عليه من أنبيائك وأهل طاعتك، من السبيل والمنهاج".

6- (سورة المسد)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في بداية " الطور الثالث"، وذلك: أنها نزلت بعد نزول آية سورة الشعراء:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء: 214] ،، في بداية "الطور الثالث"، لورود رواية صحيحة في أسباب النزول [1].. بمعنى أن نزولها كان بعد "النذارة الخاصة" لقريش بالعذاب الأكبر (البطشة الكبرى)، الوارد في الآية. وبعد وفاة أبي طالب، وتجرّؤ قريش على إيذاء رسول الله ﷺ ، ومنعه من تبليغ رسالة الله وصده عن المسجد الحرام.

مناط السورة:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد: 1]،
الأشخاص أو الجماعات - من الملأ أو من أتباعهم - الذين انبروا لصد الناس عن اتّباع دعوة الله تعالى، وبرزوا في معاداة وإيذاء من يعبد الله ويدعو إلى عبادته عزّ وجلّ (أبو لهب وامرأته.. مثالاً). كما وردت نماذج أخرى في سوَر عدة، فأجواؤها متقاربة [2].

المعالجة:

1- **تعيين** أولئك الأشخاص أو الهيئات، وإنذارهم بعذاب الله الشديد والمُهين، مع ذكر العذاب ونوعه وتفصيله.
2- بيان أن ما يغتـرّ به الملأ (الطاغوت) ويفتخرون من مال وجاه ونسب - والتي يستخدمونها كمبررات لاستحقاقهم الطاعة لأنفسهم من دون الله أو مع الله عزّ وجلّ [3] - لن تغني

---

1 - (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. (الصحيح المسند) الوادعي. أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

2 - مثل سور: (العلق، القلم، المدثر، القيامة، البلد، الهُمزة، عبس، لقمان، والآيات الأخيرة من سورة يس..).

3 - كما في قوله تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ: يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ {51}) الزخرف

عنهم شيئاً، ولن تحميهم من نزول عذاب الله بهم [1]، فالأجدر بهم أنْ لا يقفوا عقبة أمام دعوة الله عزّ وجلّ..

3- وأما الحكمة في تعيينه وذكره باسمه - أبو لهب - دون غيره من أعداء الله ورسوله، في ما يظهر لنا:

✓ لكون معاداته لرسول الله كانت أشد وأكبر أثراً على العرب - المدعووين - من غيره، في الصد عن سبيل الله، بحكم قرب نسبه منه، حيث كان في المواسم وغيرها ينهاهم عن تصديق الرسول واتّباعه، وهو معروف عندهم أنه عمه، فكأنه يقول لهم: إنه ابن أخي وأنا أدرى الناس به. بينما غيره ممن هو أبعد نسباً - كأبي جهل مثلاً - فعداوته لرسول الله قد تكون أقل تأثيراً على عامة الناس، فقد يُظن أن عداوته تلك بسبب دوافع خاصة به مثل الحسد و التنافس على السيادة.

✓ ترسيخ ميزان الله تعالى في تقييم الناس: التقوى، ومحو وإزالة الموازين الأرضية: كالنسب والمال والجاه.. ثم، إعلاء رابطة الإيمان على غيرها من الروابط والعلائق وجعلها هي الأساس قبل أي رابطة أخرى، إنما هي أخوة الإيمان وليس أخوة الدم والنسب: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. (١٠)﴾ [الحجرات: 10]
فأبو لهب، وإن كان هو عم رسول الله ﷺ ، فما دام كافراً فهو في النار.. ورسول الله هو أول المسلمين وإمام المتقين وهو القدوة والأسوة الحسنة.. كما فعل ﷺ عند نزول تحريم الرّبا، حيث قال في خطبة حجة الوداع: (و ربا الجاهليّة موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس ابن عبد المطلب فإنه موضوع كله) [2] .
وهكذا حال كُلّ مَن تحمّل أعباء إمامة المسلمين وقيادتهم.

✓ كنيته (أبو لهب)، ليست كنية تكريم له، بل أُطلقت عليه بسبب وجهه المُحْمرّ. فاشتُهر بتلك الصفة (أبو لهب) وكأنها اسم عَلَم عليه. وعلى أية حال، فقد ربط الله تعالى في كتابه العزيز بين اسم (أبو لهب) المشهور به، وبين مصيره في نار (ذات لهب)، لأنه عَلِم الحق وتولّى عنه، بل ويؤذي رسول الله ويصدّ الناس عن سبيل الله.. فذاك الوجه المتورّد المُحمرّ سيُصلى بالنار ذات اللهب. فهو الآن (أبو لهب) لأنه (سيصلى ناراً ذات لهب)، استهزاءً به وتحقيراً له...

كما سمّى رسولُ الله عمروَ بن هشام بـ "أبي جهل" بدل كنيته المعروف بها "أبي الحَكَم"، تحقيراً له من أن يكون سيداً مطاعاً، لأن حكمته تلك لم تؤدي به إلى اتباع الحق والنجاة من النار، وهذا هو الجهل بعينه، فهو "أبو جهل".. وهو "فرعون هذه الأمّة":

---

1 - كما في قوله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ{25}... مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ{28} هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ{29} خُذُوهُ فَغُلُّوهُ{30} ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ{31} ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ{32} إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ{33} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{34} فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ{35} وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ{36} لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ {37}). الحاقة.

2 - (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)﴾ [طه: 79] .

7- (سورة التكوير)

ربط السورة بخط السير:

قد تأتي السورة في نهاية "الطور الثاني" وبداية "الطور الثالث". وذلك:

1- أسلوب السورة ليس نقاشاً عقلياً وبيان حجج، بل هو إنذار وتخويف وتحميل المخاطَب المسؤولية على موقفه بأسلوب تقريري.. يعني من باب التنويع في خطاب النذارة.. وهذا يُشير إلى أن السورة متعلقة بمرحلة متأخرة من السير، أي بعد التفصيل في ذكر البيّنات والبراهين على الحق، والذي كان في أول الأمر..

2- وقد تكون قريبة من سورة النجم أو بعدها، حيث جاء في سورة النجم قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) ﴾ [النجم: 1-12].

أما سورة التكوير:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾ [التكوير: 15-27]

3- ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) ﴾ [التكوير: 22] هناك سوَر أخرى عالجت وصف الكفار لرسول الله بأنه مجنون.. وحاشاه ﷺ .. وهي من السوَر المتعلقة في وقت متأخر من المرحلة الأولى في السير بالرسالة..(أنظر تبيان سورة القلم).

4- ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير: 8-9] ،، توجيه النقد المباشر لبعض العادات والتشريعات الجاهليّة، يأتي - عادة - في طور متأخر من السير كما في سوَر: المطففين، والأنعام، والإسراء، والأعراف.. وكما في قصص الأنبياء التي في السوَر المتعلقة بطور متأخر من المرحلة الأولى، حيث يوجه رسل الله وأنبياؤه النقد المباشر لبعض التشريعات في قومهم ومجتمعهم..

مناط السورة :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) ..(١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾ [التكوير: 1-14]،، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) ﴾ [التكوير: 26]
إصرار المجتمع ومَلَئه على رفض اتباع الحق الذي جاء في رسالة الله تعالى، برغم معرفتهم أنه الحق.

المعالجة :

السورة متميزة بأسلوبها.. من باب تصريف الآيات [1].. ففيها تصوير بديع قوي التأثير لما يصيب الناس من أهوال وشدائد يوم القيامة، كما في رواية الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: { مَنْ سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ)} [2]..

1- (1-14)، إخبار من الله تبارك وتعالى عن تغيير كونيّ هائل، وانقلاب شامل في الخصائص والسُنن الكونيّة التي يحيى فيها الإنسان وتوفّر له حياته ومعيشته.. وبعد هذا الانقلاب الكوني الهائل تُعَدُّ الجنَّة لاستقبال أصحابها وتُسَعَّر النار كذلك لأصحابها.. وبعد أن يمرّ الإنسان خلال هذه المواقف العصيبة ويعيش ما فيها من أهوال.. يعلم نتيجة ما قدّم من أعمال، ويعلم مصيره للجنّة أو للسعير.

2- (15-25)، فمن أجل أن يواجه الإنسان نتيجة سعيه في الحياة الدنيا، كانت تلك الأحداث الرهيبة في ذلك اليوم العصيب - جواب « إذا» الشرطية الظرفية - أي حتى يعلم الإنسان نتيجة موقفه من الرسول والرسالة، والتي هي الحقّ المُبين، وقد بلّغها رسول الله كما أوحاها الله إليه تماماً.. ولا يمكن مطلقا، أن يأتيها الباطل [3] :

- لا من جهة ناقل الرسالة (الأمين جبريل).
- ولا من جهة الرسول المبلّغ (محمّد) فهو ليس بمَجْنون كما تعلمون.
- ولا من جهة المصدر (ما هو بقول شيطان رجيم).. (لاحظ سورة النجم)

3- (26-29)، فما دام أن هذه الرسالة هي الحق من عند الله تبارك وتعالى لا يأتيها الباطل أبداً، وهي موعظة وهدى.. فلتُقـرّروا - على أثر ذلك - مصيركم، فماذا تريدون الهداية

1 - انظر الجزء الأول - (الطور الثالث) من خط السير، (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى).
2 - التاج الجامع ج 4 ص 252. أنظر التفسير الحديث - دروزة.
3 - القَسَم، أسلوب تقريري. "أقسم الله تعالى، بهذه الأشياء، لأنها في حركاتها المختلفة من ظهور وأفول، ومن إقبال وإدبار.. تدل دلالة ظاهرة على قدرة الله تعالى، وعلى بديع صنعه في خلقه".. وبالتالي على قدرة الله تعالى على **حفظ** ما يوحيه إلى عبده.. كما في سور: النجم، والحِجر، والجن.

أم الضلال ؟ وأين تريدون الذهاب للجنّة أم للسعير؟! [1] فالله تعالى هو وحده الربّ والإله الحقّ المتصرّف في مُلكه كيف يشاء، وكلّ أمر من شأن الخَلْق مرهون بمشيئته عَـزّ وجلّ[2]..
وما جعل الله طريق الهدى والنجاة إلا طريقاً واحداً لا غير: اتباع وحيه والاقتداء برسوله.. فالأَولى بهم – إن أرادوا النجاة - أن يبادروا إلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله واليوم الآخر، واتباع الرسول محمّد ﷺ .

---

1 - (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) ((جملة معترضة بين ما سبقها، وبين قوله تعالى، بعد ذلك: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ)، والمقصود فيها توبيخهم وتعجيزهم عن أن يأتوا ولو بحجة واحدة يدافعون بها عن أنفسهم. والفاء لتفريع هذا التعجيز والتوبيخ، على الحجج السابقة، المُثْبتة بأن هذا القرآن من عند الله تعالى، وليس من عند غيره)). التفسير الوسيط للقرآن الكريم - سيد طنطاوي.

2 -{ **وَمَا** تَشَاءُونَ **إِلَّا** أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } التكوير. هذا عام في كل ما يشاؤه الإنسان ويريده؛ ابتداء من تحريك إحدى أصابعه، حتى الصعود إلى الفضاء. فلا يمكن أن تنفذ إرادة الإنسان في الواقع (تحقيق ما يريد) إلا حسب ما قدّره الله تعالى في الأشياء والموجودات وفي نفس الإنسان، من طبائع وخصائص وسنن حاكمة لها (والتي تمثّل مشيئة الله فيها). وقديماً قالت العرب حكمة: (إنك لا تجني من الشوك العنب). فمن أراد أن يجني عنباً عليه أن يزرع الشجرة التي من شأنها أن تثمر عنباً، وأن يرعاها حسب حاجاتها والظروف العامة المحيطة بها.. يعني حسب ما قدّر الله جلّ وعلا في الأشياء والموجودات من طبائع وسنن. فهذه هي مشيئة الله جلّ وعلا، ولا يستطيع الإنسان أن يتجاوزها أو أن يغيّر فيها. فالإنسان مخلوق لله محكوم لأمر الله القدريّ، أي محكوم للخصائص والسنن التي جعلها الله فيه وجعله عليها. وكما هي كل المخلوقات، فلا يمكن لأي كائن الخروج عن ما قدّر الله فيه من خصائص وسنن ضابطة لها، بأي حال من الأحوال فهو مقهور بها ومقهور عليها. إلّا أن الله تعالى ميّز الإنسان بالعقل والإدراك، وأعطاه القدرة على التصرف بالموجودات.. والتي هي من أهم خصائصه الإنسانية ومقومات كونه خليفة في الأرض.. فجعله الله قادراً على مغالبة أقدار الله بأقدار الله. فيستطيع - مثلاً - أن يُغالب قدر الله في الظلمة والعتمة، بما قَدّره الله في النور من خصائص وسنن. فعندما يضيء الإنسان شمعة يقهر الظلام. وهكذا الداء والدواء.. والحر والبرد..الخ. فيستطيع الإنسان أن ينتفع بالموجودات ويسخّرها لما يريد (إنفاذ مشيئته)، لكنّه محكوم لطبائعها وسننها، أي مشيئة الله فيها، "فما يشاءه الإنسان لا ينفذ في الواقع إلا بعد أن يشاء الله رب العالمين"، إي إلا بحسب ما قدّر الله تعالى في الإنسان والأشياء من خصائص وسنن حاكمة لها. فالله عزّ وجل هو وحده القادر على كل شيء، والفعّال لما يريد.. أما الإنسان فإرادته وفاعليّته محكومة لقدر الله ومشيئته، ممثلة بما جعل الله تعالى في الكون والحياة والإنسان من خواص وسنن ضابطة لها. فأقصى ما يستطيعه الإنسان هو أن يختار بين البدائل المتاحة أمامه حسب ما قدّر الله في الأشياء من خاصيات وسننها الحاكمة لها، فيُغالب قدَراً لله بقدَرٍ آخر. وهذه منزلة وجودية راقية خصّه الله تعالى بها، وهي سبب ارتقائه.. فكلما زاد علم الإنسان بطبائع الأشياء وإدراكه لسننها الحاكمة لها (يعني مشيئة الله فيها وتقديره لها) كلما زادت فاعليّته في الوجود وتأثيره فيه، فيرتفع مستوى إنتفاعه بالموجودات. وما تشهده الإنسانية الآن من التقدّم في العلوم التطبيقية والأمور التقنية، وكيف تطوّرت قدرات الإنسان عبر القرون.. إلا دليل على ذلك.
للتفصيل أنظر كتاب (الإيمان بالقدر) على الرابط التالي:
https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCzNrOc?usp=sharing
وأنظر (نظام الإسلام - العقيدة والعبادة) - محمد المبارك.

بالنسبة للجماعة المؤمنة:

زيادة في التذكير والتأكيد على ما هم عليه من الحق، فالمؤمن يزداد إيماناً وتثبيتاً كلما نُـزّلت سورة جديدة من آيات الله تبارك وتعالى:
﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة: 124-125]

8 - (سورة الأعلى)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في "الطور الثالث".. وبعد ظهور موقف الرفض التام بشكل واضح من المجتمع ومَلَئه لرسالة الله ودعوته.. وذلك:

1- بقرينة قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨)﴾ [الأعلى: 8].. إشارة إلى تعسّر أحوال المؤمنين في عبادتهم لله تعالى، وحمل رسالته في المجتمع.

2- وكذلك بما ورد من وعد الله لرسوله أن لا ينسى القرآن:
﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) ﴾ [الأعلى: 6-7]
والظاهر أن استعجال رسول الله في تحفّظ وقراءة ما يُلقى إليه من القرآن خشية تفلته منه ونسيانه، كان في فترة معينة من سيره بالرسالة، وليس حالة عامة. ونحن نرجّح أنها في فترة اشتداد المواجهة وتأزّم العلاقات مع المجتمع الجاهليّ في مكة، الأمر الذي استدعى أن تُنزَّل الآيات والسوَر من القرآن بكثافة أعلى مما كانت عليه قبل ذلك، لمعالجة ما كان يواجهه رسول الله والمؤمنون من أحوال صعبة وعسيرة.. تثبيتاً لهم وبصيرة. هذا، ونظراً لازدياد عدد الآيات والسوَر المنزّلة في أوقات متقاربة شعر رسول الله أنه سيحتاج إلى جهد أكبر في تَحفّظ ما يتنزّل من القرآن وضبطه.. فازدادت خشيته ﷺ من تفلّت القرآن منه..
وهذا يشير إلى أن أجواء هذه السورة قريبة من أجواء سورة الشرح، وسورة القيامة [1].

مناط السورة:

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) ﴾ [الأعلى: 8-9]

---

1 - { قال الحسن البصري وقتادة ومالك بن أنس: هذه الآية في معنى قوله تعالى: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)) القيامة}. التفسير الوسيط للزحيلي. نقول: مما يشير إلى أن أجواء السورتين متقاربة. وكذلك في معنى قوله تعالى: (..وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ..{114}) طه. ويبدو أن وعْد الله تعالى لرسوله بعدم نسيانه القرآن وجمعه في صدره الشريف، سابق للنهي عن الإستعجال بالقرآن. انظر (تبيان سورة القيامة).

حالة الضيق والشدة التي تواجهها الجماعة المؤمنة – بقيادة رسول الله - في عبوديتهم لله تعالى وحملهم لرسالته، نتيجة إصرار المجتمع وملئه على عدم الإستجابة لدعوة الله تعالى، أي عدم الانتفاع بالذكرى.

المعالجة:

<u>**أولاً:** (1-8)</u>: تقرير الحقائق؛

1- (1-5)، يأمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ ومن تبعه، بتسبيحه وتعظيمه لأنّه هو وحده الربّ الأعلى صاحب الأسماء الحسنى والأفعال الجليلة العظيمة، والتي تُشاهَد آثارها في الآفاق والأنفس، خلقاً وتسويةً وتقديراً وهدايةً.. فهو جلّ جلاله "الذي خلق كل شيء فسواه، فأكمل صنعته وبَلَغ به غاية الكمال الذي يناسبه. وهو الذي قَدّر لكل مخلوق وظيفته وطريقته وغايته، فهداه إلى ما خلقه لأجله، وألهمه غاية وجوده، وقدّر له ما يصلحه مدة بقائه، وهداه إليه. وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود، ويشهد بها كل شيء في الكون والإنسان والحياة، من الكبير إلى الصغير.. وهي من أكبر الأدلة المشاهدة على أنه - تعالى - <u>يتصرف في خلقه كما يشاء وأنه على كل شيء قدير</u>".. كما في قوله تعالى:
﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: 50]

2- (6-7)، تقرير أنّ الله عزّ وجلّ مُتكفّل بحفظ رسالته من الضياع والنسيان، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن وهو على كل شيء قدير.. ثم يُبشّر رسوله ﷺ بأنه لن ينسى القرآن فلا يشعر بالمسؤولية تجاه هذا الأمر.

3- (8)، ويَعِدُ الله عزّ وجلّ، رسولَه ﷺ - ومن تبعه - أنه سيوفّقهم للطريقة التي هي الأسهل والأخف؛ شرعاً وقدراً.. في القيام بمهمتهم.. في سيرهم ببلاغ رسالة الله وحمل دعوته.. فعُسْر السير في الطريق لا يُزال إلا بأمر الله عزّ وجلّ، ويتحقق بالاستمرار على الاستقامة على طاعة الله وتسبيحه.

<u>**ثانياً:** (9-15)</u>، وبناء على العلم **بالحقائق** السابقة:

- ✓ من أن الله تعالى هو صاحب الأمر في الوجود خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية..
- ✓ وأن وحي الله تعالى محفوظ في الصدور ولن يُنسى..
- ✓ وأن الله تعالى سييسّر الأمور العسيرة..

فعلى المسلمين – حَمَلة الرسالة - أن يستمروا على عبادة الله تعالى، وتذكير الناس بحقيقة أنه لا إله إلا الله والطلب منهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وبيان المصير.. بدون إبطاء أو يأس، غير مستائين من عدم انتفاع معظم الناس بالتذكير بالله واليوم الآخر، (عدم استجابتهم لله) فسينتفع بعضهم.. لأن من **سُنَن** الله تعالى التي قدّرها في الناس، أنّهم من الذكرى على نوعين:

- من يَتذكّر، وهو الذي يؤمن بالله ويخشى دائما عذابه يوم القيامة. فلا يـؤْثِـر عليه سواه.

- من يَتجنّب الذكرى، لإصراره على أن يشرك بالله عزّ وجلّ ولا يخشى عذابه يوم القيامة، وقد أخذ موقفاً مسبقاً بالرفض، فمثل هذا لن يهتدي.. فهو شديد الشقاوة والتعاسة (الأشقى) لأن مصيره الاصطلاء بالنار العظيمة الفظيعة.. التي لا يَمُوتُ فِيها فيستريح من العذاب، وَلا يَحْيى حياة طيبة يهنأ بها [1].

فمن المُحَقق إذن، أن الفلاح والفوز لمن طهّر نفسه من الشرك والمعاصي (تزكّى)، وذكر اسم ربه فخشع له وخضع.. فَوَجل قلبُه، وفاضت عينُه.. فقام بالأعمال الصالحة التي تنفعه؛ أهمها وأبرزها الصلاة. وفي هذا تشجيع للمؤمنين ليزدادوا التزاماً بما هم عليه من طريق الفلاح؛ عبادة الله وحده واتباع رسوله.. وفيه حث وتحريض لغيرهم ليسلكوا معهم سبيل الفلاح.

<u>**ثالثاً**: (16-17)</u>، وعندما يواجَه حامل الرسالة أثناء سيره، مَنْ يتجنّب الذكرى - وقد بلغته مراراً - ولا يتّبع الحق وما يؤدي إلى الفلاح.. مثل الملأ من قريش ومن تبعهم.. فليقل لهم كاشفاً حقيقتهم للناس: إن حُبّكم ملذات الحياة الدنيا الزائلة وإيثاركم لها هو سبب عدم هدايتكم - حسب سنّة الله - ولتعلموا حقاً إن الآخرة هي الخير والأبقى .

<u>**رابعاً**: (18-19)</u>، وليعلم الجميع أن ما سبق ذِكْره:

- ✓ مِن فلاح مَن ذكَر الله تعالى وتزكّى..
- ✓ وأن إيثار الناس الدنيا من أسباب الضلال وعدم الهدى..
- ✓ وأن الآخرة خير وأبقى من الدنيا.. (خطاب النذارة)..

ليس بالأمر الجديد، بل هو أمر معروف ومما أُثبت معناه في الرسالات الأولى التي أنزلها الله عزّ وجلّ إلى الناس، منذ إبراهيم وموسى عليهما السلام [2].. فهذا هو دين الله عزّ وجلّ الواحد الثابت وهو خطّ الأنبياء والرسل عليهم السلام.. فعلى الرافضين لهُدى الله تعالى أن ينتهوا.. وعلى الجماعة المؤمنة حَمَلة الرسالة، الثبات والاستمرار في عبادة الله تعالى وحده والدعوة إلى عبادته.
أخرج الإمام أحمد عن عامر بن عقبة الجهني قال: لما نزلت: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها في رُكوعِكم ». فلما نزلت: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال: « اجعلوها في سجودكم ».

أخرج أحمد وأبو داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ: { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} قَالَ: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ».

---

1 - كما في قوله تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها، كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) } فاطر.

2 - أنظر تفسير ابن كثير. كما في قوله تعالى في سورة النجم: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى{33} وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى{34} أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى{35}<u>أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى</u>{36} <u>وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى</u>{37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{38} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{39} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{40} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى{41} وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى{42}..).. وهي من السور المتعلقة بالطور الثالث.

في رواية للإمام أحمد عن علي - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ كان يحب هذه السورة: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى».

وفي صحيح مسلم أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ (سبح اسم ربك الأعلى) و (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ). وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما.

9 - (سورة الليل)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في "الطور الثاني"، وبعد اشتداد "المواجهة الفكرية" وذلك:

1- أن السورة تتكلّم عن إظهار الملأ تكذيبهم بالحق الذي جاءهم في رسالة الله.. وفيها إشارة إلى إيذائهم للمؤمنين، وخاصة الضعفاء منهم، مثل العبيد والموالي وغيرهم.. كما في رواية سبب النزول:

(عن عبد الله بن الزبير قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت، أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك. فقال أبو بكر: يا أبت إنما أريد ما أريد. فنزلت هذه الآية فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)﴾ إلى قوله:﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ [الليل]) [(1)].

2- ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)﴾ [الليل: 14-16]،، التولّي وهو مكذّب، يعني أن التكذيب أصبح موقفاً نهائياً لذلك المكذّب، فيخوّفه الله تعالى النار المستعرة حتى لا يستمر في تكذيبه، فيكون في أقصى الشقاء (الأشقى). **انظر ("تولى" في سورة العلق)**

مناط السورة :

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا **الْأَشْقَى** (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)﴾ [الليل: 14-16]'' حالة المكذّبين وقد استمروا في تكذيبهم، واستغنوا بالباطل عن الحق، وتجديد الإنذار لهم حتى لا يصلوا إلى أقصى دركات الشقاء.

المعالجة :

الخط العام في سير السورة في معالجة مناطها، كالتالي:

بيان الفرق الواضح بين الصنفين من البشر، من خلال بيان حقيقة كل صنف وتأثيره على مَن حوله وعلى المجتمع (القرية)، خيراً كان أو شراً، ومصير كل صنف منهما.. والفرق بينهما

---

1 - أخرجه الحاكم: 525/2، وابن جرير: 221/30. والحديث حسن، وقد صرّح ابن اسحاق بالتحديث فانتفت شبهة التدليس، ويرتقي إلى الصحة بشواهده. (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي.

واضح وضوح الفرق بين الليل والنهار، والذكر والأنثى.. فأي الصنفين يختار العاقل من الناس التشبّه به والاقتداء به واتباعه ؟.. حيث أن كل صنف يوجَد مَن يُمثّله في قريتهم ومجتمعهم ويعيش بينهم.. فالصنف الصالح والخيّر هم رسول الله ومن تبعه على الحق كأبي بكر.. والصنف الآخر هم الأغنياء وأصحاب السلطان (الملأ) من قريش ومن تبعهم على باطلهم وتكذيبهم.. وهم معروفون [1].

وبشيء من التفصيل، نقول ما يلي:

1- (1-3) القَسَم لتأكيد حقيقة أن الله تعالى هو وحده الإله الحق، فهو الخالق القادر على جعل الخلق أزواجاً وأنواعاً مختلفة.

2- (4-11) جواب القَسَم؛ أن من تقدير الله و سنته في عمل الإنسان أن يكون مختلفاً ومتنوعاً، فمن العمل ما يَسعَد به الساعي ومنه ما يَشقى به [2]، ومن سنة الله أيضاً: أن جعل كل طريق ميسّر للسير عليها لمن شاء. والله عزّ وجلّ قد كرّم الإنسان فجعله قادراً على الإختيار بين طريقي الهدى والضلال والخير والشر.. فكل فرد يتحمّل عاقبة الطريق الذي اختاره.. وفي المحصلة فإن موقف الناس من رسالة الله عزّ وجلّ على صنفين مختلفَين:

الأول: مَن صدّق بالحق الذي جاء به رسول الله: أنه لا إله إلا الله وأنه سيلاقي الله يوم القيامة، فيَظهر على سلوكه وأخلاقه مقتضيات ذلك التصديق من الطّاعة وتقوى الله وإعطاء المال في سبيل الله.. فهذا المصدّق مُيسّر لليسرى؛ وهي طريق الفلاح والخير، في الدنيا والآخرة.. وسيظهر أثر ذلك عليه وعلى الناس من حوله في المجتمع.

الثاني: مَنْ كذّب بالحق: بـ "لا إله إلا الله" وما تقتضيه من العمل والجزاء.. فسيظهر على عمله مقتضيات ذلك التكذيب من البخل في إنفاق المال على مستحقيه - والذي لن ينفعه بعد موته - والاستغناء عن الحقّ والتكبّر عن طاعة الله تعالى [3].. فهذا المكذّب ميسّر للعسرى؛ وهي طريق الضنك والشقاء في الدنيا والآخرة.. وسيظهر أثر ذلك على الناس من حوله في المجتمع.

---

1 - أنظر (تبيان سورة الماعون).

2 - [(إن سعيكم لشتّى) جواب القَسَم، أقسم سبحانه على أن أعمال عباده شتى جمع شتيت. وقيل للمختلف المتباين شتّى لتباعد ما بين بعضه وبعضه، والشتات الافتراق]. إعراب القرآن وبيانه - محي الدين الدرويش. قال القرطبي: السعي ؛ العمل، فساعٍ في فكاك نفسه، وساعٍ في عَطبها. يدل عليه قوله ﷺ: (الناس غاديان: فمبتاع نفس فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها). [وفي القَسَم بالليل وبالنهار التنبيه على الإعتبار بهما في الإستدلال على حكمة الله في نظام هذا الكون وبديع قدرته.. واختير القسَم بالليل والنهار لمناسبته للمقام، لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة]. التحرير والتنوير - ابن عاشور.

3 - [(واستغنى) جُعل مقابلاً لـ (اتقى) فالمراد به الاستغناء عن امتثال أمر الله ودعوته، لأن المصرّ على الكفر المُعرض عن الدعوة يَعدّ نفسه غنياً عن الله مكتفياً بولاية الأصنام وقومه. فالسين والتاء للمبالغة في الفعل، مثل استجاب بمعنى أجاب]. التحرير والتنوير - ابن عاشور. نقول: ومن الظاهر أن الذي بخل واستغنى، من الملأ أصحاب الأموال.

3- (12-21)، التأكيد على أن الله تعالى هو الإله الحق الذي له الخلق والأمر: فمنه الهدى - بياناً وتوفيقاً - وأنه يملك أمر الدنيا والآخرة، ابتداءً ومصيراً، فلا مهرب منه إلا إليه [(1)].. ثم إنذار الشقي الذي كذّب بالحق واستغنى عن رضى ربّه، أن مصيره - ومن اتبعه لماله وسلطانه - إلى الهلاك والنار التي تتوقّد وتتلهّب، وأنه لن تُغني عنه أمواله ولا سلطانه من عذاب الله شيئاً، وأنه إذا أصرّ على موقفه ذاك: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) ﴾ [الليل: 16]،، سيكون "الأشقى"، في الدنيا قبل الآخرة.. وفي المقابل فإن "الأتقى" الذي يقدّم ماله مُتزكيّا به عند الله تعالى بأن يخرجه لله تعالى خالصاً، لا رياء ولا سمعة فيكون زاكيا عند الله.. هو الذي ينجو ويُفلح.
فالمراد بالأشقى: الأشد والأكثر شقاءً.. والأتقى: الأشد والأكثر تقوى.

10 - (سورة الفجر)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في بداية "الطور الثالث"، وذلك:

1–﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر: 14] [(2)]، تهديد بالعذاب المدمّر في الدنيا لكل من طغى فأكثر الفساد في الأرض - مثل عاد وثمود وفرعون - وأنه قريب.. وأنه من سنّة الله جلّ وعلا الدائمة في الأمم. وفي هذا إنذار لقريش بأنهم إذا تمادوا في طغيانهم وإفسادهم سيشملهم هذا التهديد، لذلك ذكّرهم الله تعالى بسنته هذه وأكّدها لهم. وهذا قرينة على أن السورة متعلقة بالطور الثالث، فهو الطور الذي أنذر الله به قريشاً بالعذاب الأكبر.
ومن هنا، فما ورد في السورة حول الغنى والفقر وعن كرامة الغني ومهانة الفقير.. يناسب حال الغنى والرفاه الذي حدث لقريش بعد أن فتح الله عليهم "أبواب كل شيء" من الدنيا.. وذلك بعد أن وعدوا بالإيمان وقد ذاقوا العذاب الأدنى (الدّخَان)، فرفعه الله تعالى عنهم.. إلا أنهم نكثوا وعدهم.. ففتح الله تعالى عليهم أبواب الدنيا إملاءً واستدراجاً لهم حتى يحين موعد نزول العذاب بهم [(3)].. فأخذوا يقولون إن الله ما فتح علينا الدنيا إلا لكرامتنا عنده، فكيف يعذبنا؟!.

2 - عند النظر في السوَر التي جاء فيها وصف أقوام الرسل بـأنهم "مفسدون" أو "فاسدون" أو "يعيثون في الأرض الفساد".. (أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).. نجدها، إما من السوَر المرتبطة بطور متأخر من <u>المرحلة الأولى</u> (قبل التمكين) وحينئذٍ، فالفساد

---

1 - والمقصود: (فَفِرُّوا إِلَى الله إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{50} وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{51}) الذاريات.

2 - المرصاد: المكان الذي يَرصد فيه الإنسانُ عدوّه. أي، إن ربك أيها الرسول يرقب الطغاة المفسدين في الأرض، ويترصّد خطواتهم، وسيجازيهم بأعمالهم السيئة، ولا يفوته واحد منهم. مثل قوله تعالى: (ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون {42}) إبراهيم.

3 - أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

وصف ينطبق على أفعال قريش. أو من السوَر المرتبطة بالمرحلة الثانية (بعد التمكين)، وقد ورد ذلك الوصف في سياق وصف أفعال أهل النفاق أو أهل الكتاب..
وأما وصف أقوام الرسل - ومنهم قريش - بـأنهم "طاغون"، فيُفهم على أنه بسبب "طغيانهم" أكثروا الفساد..
فالطغيان [1] يُجرّئ صاحبه على التعدّي على حقوق الناس وظلمهم.. أي الفساد [2]، لذلك فقد استحقوا "العذاب الأكبر" في الدنيا.. ووصْف "إكثار الفساد"، يدخل فيه ما قامت به قريش من ظلم بحصار رسول الله والمؤمنين ومن ناصرهم.. في الشِّعب.

3 – تشترك هذه السورة مع سورة الماعون - المتعلقة بالطور الثاني - في تقرير أن سبب الشقاء والضنك الذي يعيشه "أهل القرى" (المجتمعات) هو اتخاذهم الملأ الكافرين أسياداً متبوعين.. إلا أن سورة الماعون لم يرد فيها ذكر "الطغيان" و "إكثار الفساد"، وهذا يشير إلى أن "سورة الفجر" متعلّقة بأحوال وأوضاع حصلت بعد ذلك.. وقد ازداد إصرار الملأ من قريش على الكفر، وتماديهم في طغيانهم، فكثُر فسادهم. وهي قريبة من "سورة الشمس".

---

1 - الطغيان: من طغوت وطغيت ؛ طغوانا وطغيانا، وأطغاه كذا: حمله على الطغيان، وذلك تجاوز الحد في العصيان والظلم. قال تعالى: {اذهب إلى فرعون إنه طغى} [النازعات/17]، {فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا} [الكهف/80]، {قال قرينه ربنا ما أطغيته} [ق/27].. والطغوى الاسم منه. قال تعالى: {كذبت ثمود بطغواها} [الشمس/11]، تنبيها أنهم لم يصدقوا إذا خُوفوا بعقوبة طغيانهم. وقوله: {هم أظلم وأطغى} [النجم/52]، تنبيها أن الطغيان لا ينجّي الإنسان، فقد كان قوم نوح أطغى منهم فأهلكوا. وقوله: {إنا لما طغى الماء} [الحاقة/11]، فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد. والطاغوت عبارة عن كل مُعتد، وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع. قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بالله}[البقرة /256]، {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا}[الزمر/17]، {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ} [النساء/ 60]، فالطاغوت، عبارة عن كل معتدٍ على حق الله تعالى في أن يكون وحده المعبود المطاع أمره. ولِمَا تقدّم سُمّي الساحر، والكاهن، والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير طاغوتا. أنظر (مفردات القرآن الكريم) - الراغب. (تفسير الطبري).

2 - الفساد: خروج الشيء عن الفطرة، وعن الغاية أو الحكمة التي خُلق من أجلها. وعن كونه مُنتَفع به. فالفساد: سوء حال الشيء ولحاق الضرّ به. ويضاده الصلاح وهو أن يؤدي المهمة التي خُلق من أجلها وكونه منتَفَع به. (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها{56}) الأعراف. والإصلاح إنماء الصالح وإكثاره وزيادة فاعليته ومنفعته. أو جعل الشيء صالحاً مرة أخرى بعد أن أُفْسِد، فالإِصْلَاحُ: ضدّ الإفساد. وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ{81}) يونس، فالمُفسِد يضادّ الله في فعله، فإنّه يفسد والله تبارك وتعالى يريد في جميع أفعاله الصَّلَاحَ، فهو إذن لا يُصْلِحُ عملَه. وقوبل الصلاح في القرآن بالفساد تارة، وبالسّيّئة تارة أخرى. قال تعالى: (خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) [التوبة 102]، (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) [الأعراف 56]. والصُّلْحُ يختصّ بإزالة النّفار بين الناس، يقال منه: اصْطَلَحُوا وتَصَالَحُوا، قال تعالى: (أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) [النساء / 128]، (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) [الحجرات 10]. ولهذا كان من أشكال الفساد قطع الرحم والصلات بين الناس: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) [محمد 22]. وقد ذكر القرآن الكريم أشكالاً متعددة من "الفساد". أنظر مادة "فسد" في (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم). أنظر (تفسير الشعراوي). (مفردات القرآن الكريم) - الأصفهاني. وأيضاً (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - د محمّد حسن حسن جبل.

مناط السورة:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا **ابْتَلَاهُ** رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا **ابْتَلَاهُ** فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر: 15-16]،، ادعاءات الأغنياء من المجتمع بأن الله تعالى هو الذي أغنى الغني لكرامته عنده، وأفقر الفقير لهوانه عليه.. فليس بعد هذا النعيم من عذاب.. هذا من ناحية. ومن الناحية الأخرى، من الطبيعي - حسب منطقهم - أن يكون الأغنياء هم السادة (الملأ) الواجب اتباعهم لكرامتهم عند الله تعالى [(1)].

المعالجة:

سارت سورة الفجر في معالجة مناطها في ثلاث خطوات رئيسة:

الأولى: (1-14)، إنذار قريش وملئها بعذاب الله في الدنيا إذا أصرّوا على طغيانهم وفسادهم. كما هي سنة الله في إهلاك الأمم الطاغية.. ويأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر: 14]’’ أساساً في تقرير ذلك، حيث جاءت الآيات التي سبقتها في إطار تقرير دلالتها وإثبات صدقها وأنها سنّة لله تعالى جارية دائمة. وقد استُخدمت في الآية ثلاثة أساليب توكيد: فبالإضافة إلى حرفي التوكيد "إنّ" و "لـ"، جاء القَسَم ببعض آثار قدرة الله تعالى في الكون، ثم الإستشهاد بحقائق تاريخية معلومة ومعروفة. فسُنن الله لا تُحابي أحداً، وليس لأحد كرامة عند الله - جلّ وعلا - إلا بالتقوى.

الثانية: (15-20)، وعليه، جاء الرد على الملأ، وتكذيبهم في ما يدّعونه: بأن ما هم فيه من النعيم علامة على إكرام الله تعالى لهم، وأن ما فيه غيرهم من الخصاصة علامة على أهانة الله تعالى لهم. وذلك ببيان وتقرير حقيقة أن الأغنياء - وهم من الملأ عادة - هم طغاة مفسِدون، و هُم سبب تفشّي الشرور وانتشار الظلم في المجتمع.. حيث أن جشعهم وحبهم للمال دفعهم إلى ظلم الفئات الضعيفة في المجتمع (القرية).. وعليه فقد دخلوا في سنة الله تعالى في الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ونذكّر أن ذلك الكشف لحقيقة الملأ يأتي في إطار "خطاب النذارة"، وليس في الإطار المصلحي الدنيوي الضيّق.. أي إنذار أفراد المجتمع أن **اتّباعهم** للملأ الطغاة هو سبب الفساد الذي يعيشونه، وسَيَجُرّ عليهم **عذاب** الله تعالى فيدمّرهم كلّهم، الأتباع والمتبوعين.

الثالثة: (21-30)، وبعد ذلك إنذارهم بمصيرهم يوم القيامة، عندما يحكم الله عزّ وجلّ بين عباده: بعذابه الشديد الأليم للطغاة المفسدين ومن تبعهم.. وبالجنة والرضوان لعباد المؤمنين.

---

1 - ومعنى "نَعّمه" جعله في نعمة، أي في طيب عيش. والإكرام على ضربين: أكرمه بأن يصيب الإنسان ما هو نفع لا غضاضة فيه، أو بأن جُعِلَ كريماً سيداً شريفاً. وقوله: (فأكرمه..) من المعنى الأول للإكرام. وقوله: (فيقول ربي أكرمن) من المعنى الثاني. والإهانة: المعاملة بالهون وهو الذلّ. أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. و(مفردات القرآن) - الراغب.

وبشيء من التفصيل نقول [1]:

1- (1-5)، في سياق التأكيد على تحقق سنّة الله تعالى بإهلاك الطاغين المفسدين، جاء ذكر بعض آثار قدرة الله عزّ وجلّ في الآفاق، ولكن بأسلوب القَسم. حيث يُقْسِم الله سبحانه بوقت الفجر، ساعة ينشق ضوء النهار مطارداً للظلام. ويُقْسِم - سبحانه - بالليالي العشر، وهي الليالي من أول كل شهر والتي يكون ضوء القمر فيها مطارِداً للظلام في كل ليلة إلى أن تُغلَب الظُلمة، كما يَهزم ضوءُ الصبح ظلمة الليل حين يسطع النهار. ويُقْسِم - سبحانه - كذلك بالعدد المزدوج وبالعدد الفرد من الأيام والليالي أثناء تعاقبها، فأول يوم يكون وتراً ثم يتبعه الشفع ثم الوتر.. وهكذا تسير الأيام والليالي وتنقضي. ثم يُقْسِم سبحانه، بالليل إذا يمضي ويذهب فيعقبه الفجر.. والمُقسَم عليه (جواب القسم) - كما أشرنا - هو أن الله سبحانه وتعالى سيُطهّر وجه الأرض من الفساد بإزالة الطاغين المفسدين، وهذه سنّة لله تعالى دائمة نافذة، كما هي سنّته الدائمة النافذة في ذهاب الظلام وبزوغ نور الفجر.. أليس في ذلك القسم تأكيد كاف لكل ذي عقل ولُبّ بأن الله هو الإله الحق وأن أمره ومشيئته وحده - ممثلة بسُننه - هي الفاعلة في الوجود ؟!.. أليس في ذلك القسم كفاية للإنسان العاقل ذي الحِجْر، الذي يقهر نفسه ويمنعها من الوقوع في ما لا ينبغي؟! لكي يعتصم بالله الإله الحقّ ويترك ما هو فيه من طغيان وإفساد، لينجو بنفسه من عذابه عزّ وجلّ.. فلا ملجأ من الله إلا إليه.

2- (6-14)، ثم أورد الله - سبحانه - دليلاً عملياً على تحقق سنّته تلك وإنفاذ عقابه وجزائه، من تاريخ الأمم السابقة المعلوم والمشاهدة آثاره: فإذا لم يكن في القَسَم السابق كفاية، ألم يعلم ويرى الطغاة المفسدون من قريش ما فعله الله جلّ وعلا في اقوام رسل الله السابقين

---

1 - نرى أنه من المهم، عند توجيه معاني آيات سورة الفجر وتحديد الإطار العام الذي يضبطها، مراعاة الحقائق التالية:

- إنّ السياق العام للسورة هو البشارة والنذارة (خطاب النذارة) موضوعاً. ومن باب تصريف الآيات وتنويعها أسلوباً. أما النذارة فهي للكافرين لحثهم على التوبة إلى الله وتعظيمه وطاعته والبشارة للمؤمنين زيادة في إيمانهم وتثبيت لهم على الحق حتى يأتي الله تعالى بأمره.
- إنّ الأشياء الخمسة المُقسَم بها في أول السورة، لا بد وأنها من الأمور التي كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، فهُم المخاطَبون بها ابتداءً.. فالسورة نزلت في مكة (قبل التمكين).. لذلك فالتفسيرات الواردة بمعاني لم تُعرف إلا في "مرحلة التمكين" في المدينة، لم يكن من باب التفسير لتلك الألفاظ، بل - قد يكون - من باب دخولها في عموم تلك الألفاظ. كالقول بأن "الليالي العشر" هي أيام العشر من ذي الحجة..
- المقصود من القَسَم التأكيد لكل ذي حجر (أي صاحب العقل الذي يمنع صاحبه من الوقوع في الخطأ) من المخاطَبين - كفاراً ومسلمين، وفي كل زمان ومكان - على المُقسَم عليه (جواب القسم) وهو تقريرٍ وبيان سنّة الله تعالى في إهلاك الطغاة المفسدين. فالعاقل (ذو الحجر) هو الذي لا يوقع نفسه تحت طائلة تلك السنّة، بل يُنقذ نفسه من غضب الله جلّ وعلا، بالفرار إلى مرضاته. ((فالقسَم في الكلام من طرق تأكيد الخبر، إذ القسَم إشهاد المُقسِم ربَّـه على ما تضمّنه كلامه. وقسَم الله تعالى متمحض لقصد التأكيد)). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. للتفصيل أنظر (إمعان في أقسام القرآن) - الفراهي الهندي.

[(1)]، مثل: عاد وثمود وفرعون.. وقد استحقوا "العذاب الأكبر".. أي، تدميرهم وإستئصالهم بسبب طغيانهم الذي أدى بهم إلى إكثارهم الفساد..

وسبب طغيان أهل تلك القرى هو اغترارهم بقوتهم وشدّتهم وغناهم، كما يشير إلى ذلك صفاتهم التي وصفهم الله تعالى بها، فكل صفة تُشير إلى شكل من أشكال القوة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر:6-10] [(2)]

(ألم تر - أيها الرسول - كيف فعل ربُّك بقوم عاد، قبيلة إرم، ذات القوة والأبنية المرفوعة على الأعمدة، التي لم يُخلق مثلها في البلاد في عِظَم الأجساد وقوة البأس؟ وكيف فعل بثمود قوم صالح الذين قطعوا الصخر بالوادي واتخذوا منه بيوتًا؟ وكيف فعل بفرعون مَلِك «مصر» ، صاحب الجنود الذين ثبَّتوا مُلْكه، وقوّوا له أمره؟ هؤلاء الذين استبدُّوا، وظلموا في بلاد الله، فأكثروا فيها بظلمهم الفساد، فصب عليهم ربُّك عذابا شديدا.) **التفسير الميسر**

للإشارة إلى أن أهل تلك القرى كانوا أكثر قوة وغنى من قريش وعَمَروا الأرض أكثر مما عمَروها، فعذّبهم الله جلّ وعلا.. فقوتهم وشدّتهم وإمكاناتهم الكبيرة.. لم تغن عنهم من الله شيئاً:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾ [الروم: 9-10]

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر: 14]'' التهديد المؤكَّد بالعذاب المدمّر في الدنيا لكل من طغى فأكثر الفساد في الأرض، وأنّهم غير معجزي الله؛ خالقهم ومالكهم وخالق السماوات والأرض ومالكها. فهذه سنّة الله تعالى - جارية لا تتبدّل - في الأمم التي تطغى وتُفسد مُحقّقة فيهم إنْ لمْ يدخلوا في دين الله عزّ وجلّ كافة، ويستغلّوا ما رزقهم الله تعالى من القوّة والغنى في طاعة الله، أي في الإصلاح.. فلا بد من تطهير وجه الأرض من المفسدين وفسادهم.

3- (15-20)، ثم، يكشف الله سبحانه وتعالى ادّعاءات الملأ من قريش، ويُزيل تلبيسهم حول ما يدّعونه من استحقاقهم هم للطاعة والاتباع، وأن الله تعالى لن يعذّبهم؛ بناء على أن

---

1 - الكلام موجه إلى النبي ﷺ كما دل عليه قوله: (ألم تر كيف فعل ربّك بعاد) [الفجر/6] وقوله: (إن ربّك لبالمرصاد) [الفجر/14]. ولذلك فالقسم تعريض بالمعاندين لإنذارهم بحصول المُقسَم عليه، فإن ما فعله الله بهذه الأمم الثلاث موعظة وإنذار للقوم الذين فعلوا مثل فعلهم، وقُصد منه تقريب وقوع ذلك وتوقّع حلوله. ومن جهة أخرى فيه تثبيت للنبي ﷺ كقوله تعالى: (ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون {42}) إبراهيم. وكذلك، في العدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى "ربّك" في قوله: (فصب عليهم ربّك سوط عذاب) وقوله: (إن ربّك لبالمرصاد) إيماءً إلى أن فاعل ذلك ربّه الذي شأنه أن ينتصر له، فهو مُؤمّل بأن يعذّب الذين كذبوه انتصاراً له انتصار المولى لوليه. أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. وأنظر أيضاً (تبيان سورة الفيل).

2 - كما في قوله تعالى: (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى{6} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى{7}) العلق. أنظر (تبيان سورة العلق).

غِناهم دليل كرامتهم عند الله تعالى وعلو منزلتهم.. وأن فقر غيرهم دليل على وضاعتهم عند الله وإهانته لهم [1]..

---

1 - { **فَأَمَّا** الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ..(15)..(16)} الفجر،، يقول ابن عاشور في (التحرير والتنوير): ((دلت الفاء على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرّع عليه لا محالة. ودلت (أمّا) على معنى: مهما يكن من شيء، وذلك أصل معناها ومقتضى استعمالها، فقوي بها ارتباط جوابها بما قبلها وقبل الفاء المتصلة بها. وإذا كان تفريع ما بعد هذه الفاء على ما قبلها خفيا، فلنبيّنه بياناً جلياً: ذلك أن الكلام السابق حول الآيات (1- 14) اشتمل على وصف ما كانت تتمتع به الأمم المُمثّل بها، مما أنعم الله عليها به من النّعم والقوة، وهم مُعْرِضون عن إجابة دعوة ربهم، مُقتحمون المحرمات التي نُهوا عنها، بَطِرون بالنّعمة، معجبون بعظمتهم.. فبعد ذكْر ما كانوا عليه، وما جازاهم الله به عليه من عذاب في الدنيا.. <u>أعقبه باستخلاص العبرة</u> [بيان السُنّة]، وهو تذكير مشركي قريش بأن حالهم مماثل لحال أولئك ترفاً وطغياناً وبَطراً، وتنبيههم على خطئهم إذ أنهم بسبب حال الترف والنّعمة توهّموا أن الله جعلهم محل كرامة، فحسبوا أن إنذار الرسول ﷺ إياهم بالعذاب الأكبر ليس بصدق لأنه يخالف ما هو واقع لهم من النّعمة، فتوهموا أن فعل الله بهم - إمدادهم بالنّعم - أدلّ على كرامتهم عنده، مما يُخبر به رسول الله: أن الله أمَرَهم بخلاف ما هم عليه من الشرك وأن عذابه سينزل بهم إن بقوا على حالهم.. فكان هذا الوهم مُسَوّلاً لهم التكذيب بما أُنذروا به من وعيد، وبما بُشّر به المؤمنون من ثواب في الآخرة. ففاء التفريع { فَأَمَّا الْإِنْسانُ..} مرتبطة بجملة:{ إن ربّك لبالمرصاد}[الفجر:14] بما فيها من العموم الذي اقتضاه كونها تذييلا. والمعنى: هذا شأن ربك الجاري على وفق علمه وحكمته - يعني في كون الغنى والفقر ابتلاء واختباراً - فأما الإنسان الكافر فيتوهم خلاف ذلك إذ يحسب أن ما يناله من نعمة وسعة في الدنيا تكريماً من الله له، وما يناله من ضيق عيش إهانة، أهانه الله بها.
هذا، وقد عُرف هذا الاعتقاد الضال في كلام أهل الجاهلية وأشعارهم... وجعلوا هذا الغرور مقياسا لمراتب الناس، فجَعَلوا أصحاب الكمال هم أهل المظاهر الفاخرة، ووَصَموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس. لذلك لما أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبي ﷺ وعنده عمّار وبلال وخباب وصهيب.. وأناس آخرين من ضعفاء المؤمنين قالوا للنبي: اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك. وقالوا لأبي طالب: لو أن ابن أخيك طرد هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأدعى لاتباعنا إياه. وفي ذلك نزل قوله تعالى: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) [الأنعام 52]. فذلك الاعتقاد أوجَب تمادي أهل الشرك في إشراكهم وصَرَف أنظارهم عن التدبر في ما يُخالف ذلك.. فنبّه الله تعالى على خطأ اعتقادهم بذِكْر ما يماثله مما اعتقدته الأمم قبلهم، الذي كان موجباً صبّ العذاب عليهم)). **(التحرير والتنوير) - ابن عاشور، باختصار وتصرّف.**
<u>وفي سياق ما سبق - تفريع ما بعد الفاء على ما قبلها - وتأكيداً له نشير إلى ما يلي:</u>
- أن سنّة الله هذه ليست متعلقة بالأفراد فقط، بل إن الأصل فيها أنها متعلقة بالقرية أو المجتمع، بدليل أن المثال الذي ضربه الله لهم في تحقق سنته، كان بأمم سابقة وليس بأفراد، وكذلك الآيات التالية للآيتين (15، 16) خاطب قريش بمجموعهم (قرية): لا تكرمون، ولا تحاضّون، وتأكلون التراث.. وعليه،=> فقد ذَكَر الله تعالى هذه السنّة في سورة الفجر، تحذيراً لقريش القرية، وإنذاراً لهم، لأن الحال الذي تمرّ به قريش - والذي تعالجه السورة - مشابه لحال تلك الأمم المضروب بها المثل.. وبأنهم إذا استمروا في طغيانهم وفسادهم سيصيبهم ما أصاب تلك الأمم: { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)} الْفجْر. كما في أسلوب سورة (الشمس وضحاها): (..وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}كَذَّبَتْ ثَمُودُبِطَغْوَاهَا{11}) فبعد القسم بالنفس الإنسانية (الفرد) لبيان المسؤولية عن تزكيتها وتدسيتها، ضرب مثلاً بثمود التي طغت وكذبت (القرية) وكيف أهلكها الله تعالى.

وكان كشف تلبيسهم بتقرير حقيقتين:

الأولى: إن الغنى والفقر ابتلاء واختبار من الله تعالى للإنسان أيشكر أم يكفر.. وليس علامة على التكريم أو الإهانة. وسبب مقولتهم الباطلة تلك، توهّمهم وادّعاؤهم أن الله – سبحانه – هو الذي أراد أن يكون الغني غنياً لكرامته وشرفه، والفقير فقيراً لوضاعته وهوانه، فاعتقدوا ذلك وقالوه واعتذروا به لأنفسهم، وتصرّفوا على أساسه، كما في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)﴾ [يس: 47]

الثانية: تقرير وبيان أن حال تفشي الفقر بين الناس، بينما الأموال محصورة بأيدي فئة قليلة بِعَيْـنها تحكم الناس، يُعتبر من أَبْيَـن أشكال الفساد.. وإن سببه المباشر هو **طغيانكم** أيها الملأ الأغنياء وظلمكم للفئات الضعيفة في المجتمع وتعدّيكم عليهم، بسبب اعتقادكم الفاسد ذاك وتصرّفكم على أساسه، لذلك نراكم تُكثرون **الفساد** في البلاد، ومن أشكاله:

- ✓ أنكم لا تكرمون اليتيم.. وهو الطفل الذي مات عنه أبوه وهو دون سن البلوغ.. " وإكرام الْيَتِيم: سدُّ خلته، وَحُسْنُ مُعَاملَتِه، لِأَنَّهُ مَظِنَّةُ الْحَاجَةِ لِفَقْدِ عَائِلِهِ..
- ✓ ولا يحث بعضكم بعضاً على إطعام مَن أصابته الفاقة والمَسْكنة..
- ✓ وتعتدون على حقوق الضعفاء - كالنساء والأطفال - في المال الموروث، فتأكلونه جميعاً بالباطل.. " وَقَدْ كَانَتِ الْأَمْوَالُ فِي الْجاهليّةِ يَتَدَاوَلُهَا رُؤَسَاءُ الْعَائِلَاتِ ".
- ✓ وأنّكم تُحبّون المال حباً كثيراً يدفعكم إلى الحرص على جمعه والبخل عن إنفاقه إلى مستحقيه. (أنظر تبيان سورة الماعون)

وعليه، فعلى جميع الناس أن يعلموا - خاصة الضعفاء والمظلومين - أن ما سبق بيانه، هو السبب في الظلم والضنك الذي يعيشونه في قريتهم ومجتمعهم.. وأن تغيير حالهم يكون بالإيمان بالله والدخول في طاعته واتباع رسول الله، وترك اتّباع أولئك الملأ الفاسدون المفسدون..

- أما ما نلاحظه في خطاب السورة من تنقّله بين خطاب المجموع (الجماعة أو القرية) وخطاب الفرد (الإنسان) وهو عادة من الملأ، فله فائدتان:

الأولى: التأكيد على أن المسؤولية أمام الله تعالى - في النهاية - هي "مسؤولية فردية"، فقد عذّب الله تعالى القرية كلها في الدنيا بسبب شيوع فساد الملأ وأتباعهم فيها، ولم يُنكره باقي أفرادها، يعني "كَثُر الخَبَث". كالقرى التي ضربها الله تعالى مثلاً. وفي الآخرة كذلك المسؤولية فردية: (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23}) الفجر. وقوله: (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{95}) مريم.

والثانية: إبراز الدور القوي والمؤثر للأغنياء والملأ (الإنسان)، ليس في مصير أتباعهم فقط، بل في مصير القرية كلها. كما في قوله تعالى: (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى{79}) طه. وقوله: (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً{21}) نوح. حتى يتنبّه أهل القرى، وليعلموا من هو الأحق بأن يُتّبَع: الرسول أم الملأ .. حتى لا يوردوا أنفسهم المهالك.. وليتحمّل كل فرد المسؤولية عن أعماله ومواقفه (المسؤولية الفردية). والحمد لله رب العالمين

4- (21-30)، ثم زَجْـر الطغاة المفسدين وإنذارهم مرة أخرى: بأن ارتدِعوا عن تلك الأقوال والأفعال وانتهوا عن ذلك الطغيان والفساد [1].. لِمَا ينتظركم من الوعيد، ليس في الدنيا فحسب، بل هنالك عذاب ينتظركم أشدّ وأبقى في يوم عظيم، يوم تُزلزل الأرض ويُكَسِّر بعضُها بعضًا.. ويوم يجيء ربُّك - سبحانه وتعالى - والملائكة صفوفًا صفوفًا، لفصل القضاء بين الفريقين [2]..

---

1 - (وحرف **كَلّا** زجر عن قول ذلك الإنسان وفعله ؛ قوله: (ربي أَكْرَمَن) عند حصول النعمة. وقوله: (ربي أهانن) عند ما يناله تقتير، فهو ردع عن اعتقاد ذلك، وردع عن أعمال الفساد الأخرى. فكِلا القولين صادر عن تأوّل باطل، أي انّ حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ليست دليلاً على منزلته عند الله تعالى. وإنما يُعرف مراد الله بالطرق التي أرشد الله إليها بواسطة رسله وشرائعه، قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً{103} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً{104} أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً{105}) الكهف. فرُب رجل في نعمة في الدنيا هو مسخوط عليه ورب أشعث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه. فمناط الردع جعل الإنعام علامة على إرادة الله إكرام المنعم عليه وجعل التقتير علامة على إرادة الإهانة). أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

2 - (وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً{22}) الفجر، قال: ربّك، ولم يقل: الله أو غيره من الأسماء الحسنى. وذلك ليبـيّن أن ربّك الذي سيحكم بين الناس يوم القيامة، هو ربّك الذي فعل بـ عاد ما فعل، وأنه ربّك الذي صبّ العذاب الأليم على الطغاة المفسدين، وأنه ربّك الذي هو لقريش بالمرصاد وأنه هو ربّك الذي سيحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة.. وهذا فيه ما فيه من التسلية لرسول الله ومن معه من المؤمنين وزيادة صبرهم والتثبيت لهم على الحق، لما في وصف "الربّ" من الإشعار بالولاية والتأييد، ولما تؤذن به إضافته إلى ضمير المخاطب (ك) من إعزازه وتشريفه. أنظر (تبيان سورة الفيل). هذا أولاً. وثانياً:(وَجَاء رَبُّكَ..): إنه غير ممكن عقلاً، ولا يجوز شرعاً، البحث والنظر في أفعال الله تعالى، لا من حيث كيفيتها ولا كيفية تعلقها بذات الله سبحانه.. كالقول: بأن ذلك الفعل لله - المَجيء مثلاً - على الحقيقية أو على المجاز.. لأن القول بأي منهما يقتضي قطعاً أن تكون الذات الفاعلة مُحسَّة مُدرَكة، ذلك أن القرائن الصارفة للمجاز أو المثبتة للحقيقة مردّها إلى الحسّ، أي إلى أمر يقع تحت الحسّ.. فالنظر من تلك الحيثية لا يكون إلا في المحسوسات.. والله عزّ وجلّ (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{103}) الأنعام. و(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11}) الشورى. فذات الله وكيفيات أفعاله - سبحانه وتعالى - من الغيب المطلق الذي لا سبيل لأحد العلم به. فالبحث فيها من زاوية أن ذلك الفعل أو الصفة لله تعالى على الحقيقة أو على المجاز غير ممكن هنا، بل ويدخل في النهي الوارد في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً{36}) الإسراء، وفي النهي عن القول عن الله بغير علم. إنما البحث والنظر يكون فقط في معاني الألفاظ الدالة على ذلك الفعل في سياقها، لا غير، وكما هو في **معهود** كلام العرب، **ومضبوط** بما هو في معهود=> القرآن، دون الدخول - مطلقاً - في بحث كيفية الفعل أو الصفة أو في كيفية تعلّقها بذات الله جلّ وعلا. فالآيات (21، 22، 23) من سورة الفجر، جاءت كل آية لتدل على موقف أو مشهد من مواقف يوم القيامة، فـآية (21): تُشير إلى مشهد زوال الكون والحياة الدنيا. و (22) (وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً): تشير إلى موقف القضاء والحساب بين يدي الله جلّ وعلا، ثم (23) وما بعدها: تبيّن المصير النهائي ؛ الكافرون في جهنّم والمؤمنون في جنّة الله. كما في سورة الزمر: الآيات (67 - 68) تُشير إلى مشهد زوال الكون وحصول القيامة والبعث، والآيات (69 - 70) تشير إلى موقف القضاء والحساب بين يدي الله جلّ وعلا. ثم الآيات (71 - 75) تبيّن المصير النهائي ؛ الكافرون في جهنّم والمؤمنون في جنّة الله.

ويومئذ يصير فريق إلى الجنّة وفريق إلى جهنّم.. وحينما يواجه الطاغي المُفسِد مصيره من العذاب الأليم في جهنّم، لن ينفعه الندم ولا التمنّي لو أنه قدّم في دنياه من الإيمان وإنفاق الأموال ما ينفعه في حياته الحقيقية؛ الحياة الآخرة [(1)]..

أما المؤمن الطائع لأمر الله، الإله الحق، المتّبع لرسول الله.. فكما كانت نفسه مطمئنّة مستكينة بالإيمان بالله واليوم الآخرة في الدنيا.. وغير قلقة، وعلى ثقة بوعد الله بالنصر والتأييد.. رغم اضطراب الأحوال وصعوبتها.. فنفسه - كذلك - ستكون مطمئنة على مصيرها عند لقائه تبارك وتعالى يوم القيامة، حيث يُقال لها من قِبَل الله جلّ وعلا: "ادخلي في عداد عبادي الصالحين، وادخلي معهم جنتي".

هذا، ووصف نفس المؤمن أنها "مطمئنة"، فيه تعريض بالمشركين، وخاصة الضعفاء والفقراء الذين لا يزالون على الشرك وهم يعانون ما يعانون من ضيق العيش والضنك والقلق.. من أن الأمان والإطمئنان الحقيقي هو في رضوان الله تبارك وتعالى.. في العبودية لله واتباع أمره والتقرّب إليه.. وليس في الدنيا والغنى.. فالله هو الربّ الحق وهو الرازق المالك المتصرّف في هذا الوجود.. والفوز والأمان والإطمئنان الحقيقي هناك في جنة الله.. فاتبعوا الله ورسوله لتنجوا في الدنيا والآخرة.

بمعنى: أن رفض عامة الناس دعوة الله تعالى إلى طاعة أمره واتباع رسوله.. وقبولهم طاعة واتباع أولئك الملأ والأغنياء االذين طغوا وأفسدوا، واتخاذهم لهم أسياداً ومتبوعين.. هو سبب "المعيشة الضنكى" التي يحيونها في قريتهم (مجتمعهم)، ومن أبرز مظاهرها:" الظلم الإجتماعي" والتعدّي على حقوق الضعفاء، كعقوبة وجزاء عاجل من الله تعالى لهم.. يعني في سياق "خطاب النذارة".. وليس في سياق المصلحة الدنيوية الضيقة، فلا بد من الانتباه للفرق.

بالنسبة للجماعة المؤمنة:

إضافة لما سبق: فإن ((من وراء المَصارِع كلها - للأمم الطاغية المفسدة - تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان. ومن قوله تعالى: « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ » تفيض طمأنينة خاصة، فربّك هناك، راصد لا يفوته شيء، مُراقِب لا ينِدّ عنه شيء. فليطمئنّ بال المؤمن، وليَنَمْ ملء جفونه، فإن ربه هناك!.. بالمرصاد.. للطغيان والشر والفساد!..

هذا والله تعالى أعلم وأحكم. للتفصيل في تحقيق المنهج الحق في النظر إلى أسماء الله جلّ ثناؤه وأفعاله وصفاته، ومختلف قضايا "الغيب" الأخرى أنظر بحث (عنده مفاتح الغيب) من "الجزء الثالث" (مفاهيم ومصطلحات رسالية).

1 - ((قال الحسن من طريق معمر: " قد علم الله أن في الدنيا عذاباً ووثاقاً، فقال: فيومئذٍ لا يعذِّب مثل عذابه أحد في الدنيا، ولا يوثِق مثل وثاقه أحد في الدنيا ")). (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار. نقول: وفي هذا تعريض بقريش - بسبب طغيانهم وإفسادهم - في إيذائهم لرسول الله والمؤمنين معه والفئات الضعيفة. يعني كأن الله تعالى يقول لهم: في مقابل ما تفعلونه بأوليائي وبالمستضعفين من عذاب ووثاق في الدنيا، فإن لكم عندي عذاب ووثاق لم يعمله أحد في الدنيا قط، ولم تشاهدوا مثله ولم تسمعوا عن مثله، فليس له مثيل.. نعوذ بالله الرحمن الرحيم، من جميع سخطه وعذابه.

وإضافة الفعل إلى (رَبُّكَ) فيها للمؤمن طمأنينة وأُنس وراحة، وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة، وعسف الجبارين من المشركين، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد..
وهكذا نرى هنا نماذج من قَدَر الله في أمر الدعوة، غير النموذج الذي تَعْرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود. وقد كان القرآن - ولا يزال - **يربي** المؤمنين بهذا النموذج وذاك، وفق الحالات والملابسات، **ويُعِـدّ** نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء، لتطمئن على الحالين وتتوقّع الأمْرين، وتكِل كل شيء لقَدَر الله يجريه كما يشاء)) [1].
ونذكّر هنا، أن هذه "الطمأنينة" والثقة بنصر الله، أساسها - فقط - يقين حامل الدعوة أثناء سيره بحمل "دعوة الله".. أنه على الحق المبين، وأنه على سبيل رسول الله ..
﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النمل]
وبغير شرط ؛ يقين حامل الدعوة أنه ﴿عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، لا تستقيم هذه السنة ولا تتحقق نتائجها.

11- (سورة الضحى)

ربط السورة بخط السير:

بدايةً، هذه بعض الروايات الصحيحة في سبب نزول آيات سورة الضحى:

- ✓ عند البخاري: ((اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمّد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أرَه قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى])).

1 - (في ظلال القرآن) - سيد قطب

- وعنده أيضاً: (احتَبسَ جبريلُ ﷺ على النبيِّ ﷺ ، فقالت امرأةٌ من قريشٍ: أَبْطَأَ عليهِ شيطانُهُ، فنزلتْ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى]).
- وفي لفظ لمسلم، عن جندب بن سفيان: (أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد وُدِّع محمّد. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى]).
- وعند أحمد: (عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبًا الْعَلَقِيَّ يُحَدِّثُ، "أَنَّ جِبْرِيلَ أَبْطَأَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَجَزِعَ ". قَالَ: فَقِيلَ لَهُ [يعني؛ قد وُدِّع محمّد أو ربه قلاه]: قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى]) [1].

وكما هو ظاهرٌ من الروايات السابقة، أن المشركين علموا بإبطاء الوحي على رسول الله، فاستغلوا ذلك، وكأنهم كانوا ينتظرون أي فرصة للنيل من رسول الله – وخاصّة الملأ منهم والذين أظهروا عداءً شديداً له – فأذاعوا ذلك في مكة وقالوا في سخرية وشماتة: إن ربّه قد قلاه وَودّعه، وإن منهم من عيّره بذلك مواجهة. وقد أثّر كلامهم ذاك في نفس رسول الله وأحزنه، كما في رواية أحمد وغيره: (أَنَّ جِبْرِيلَ أَبْطَأَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَزِعَ).. وخاصة أنه صار حديثهم عامّة (فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ..)، وليس فقط حديث تلك المرأة من قريش وحدها.. فنزلت سورة الضحى، وجاء خطاب الله جلّ ثناؤه فيها يدور حول تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ – ومَن معه من المؤمنين - وتعزيز ثقتهم بالله عزّ وجلّ، والرد على الشامتين.. فكأن الله تعالى يقول لرسوله: إن مَن آواك في يُتمك، وهداك من ضلالك، وأغناك من فقرك، لا يتركك في مستقبل أمرك.. فقد أنعم عليك بتلك النعم الجليلة قبل أن تصير رسولاً، فكيف يهجرك بعد أن اختارك لتبليغ رسالته. فمقصود القَسَم، وما تبعه من البشارة، وذكر النعم الجليلة.. إنما هو تأكيد المعنى الوارد في جواب القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ الضحى،، والذي يُعتبر مركز الثقل في السورة، والمحور الذي تدور حوله معانيها؛ أي ما تركك ربك وما أبغضك.. تثبيتاً وتطميناً له، ورداً على الشامتين، فالمقام مقام التطمين والبشارة والتثبيت [2]..

---

1 - مسند أحمد (18806)، إسناده صحيح على شرط الشيخين، إلا أن شيخ أحمد هاهنا وكيع، وهو ابن الجراح الرؤاسي. وأخرجه البخاري (1125). ومسلم (1797) (114)، والترمذي (3345) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. يُرجى العودة إلى فتح الباري لابن حجر، لمعرفة مزيد من التفصيل والتقييم للروايات الواردة كأسباب نزول.

2 - كثير من المفسرين وجّه معنى الآيات الأخيرة من السورة باتجاه الشكر، أي شكر الله تعالى على ما سبق ذِكْره من نعَمه.. وهذا الفهم له وجاهته، إلا أن المعنى الأصلي الذي ذُكرت له تلك النعم، هو ما أثبتناه، أي تأكيد المعنى المقسَم عليه في السورة: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3}). أي في مقام التطمين والبشارة والتثبيت.. وهذا هو مقصود قوله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11}) أي: فتحدّث دائماً - مع كل الناس، مؤمنهم وكافرهم - عن إنعام الله عليك وكيف أنه لن يتخلى عنك.. أي كما تحدث الله تعالى معك حول نعمه عليك في هذه السورة.. وذلك تطميناً وتثبيتاً للمؤمنين، وتبكيتاً وتكذيباً للكافرين.

هذا، والمفسرون متفقون على أن السورة مكيّة، إلا أنهم اختلفوا في تعيين زمن النزول، في أولها أو وسطها أو آخرها؛ فالروايات الثابتة ليس فيها إشارة إلى ذلك. وعلى اعتبار أن سبب نزولها: تأخُّر جبريل على رسول الله، فبعضهم قال: هذا في فترة الوحي الأولى بعد سورة العلق.. وآخرون: هذا في تأخّر الوحي الوارد في سبب نزول سورة الكهف، والذي لم يصح له سند.. الخ.

ولكن إذا نظرنا إلى السورة من خلال التتابع السُنني لأطوار السير بالرسالة، كما بيّناه في الجزء الأول.. نرى أن السورة ترتبط في طور متأخر من "المرحلة الأولى"، وعلى الأغلب، في أواخر "الطور الثالث"، وذلك:

1- ما ورد في روايات سبب النزول من أن تأخر نزول الوحي أوجد شعوراً عند حامل الرسالة وكأن الله تعالى قد تخلّى عنه وتركه. فعلى أساس أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعند النظر في التتابع السُنني لأطوار السير بالرسالة فإن هذا الظن يرد - على حامل الرسالة - ويَقْوى في أحوال متأخرة أثناء السير بالرسالة، عندما تعرّض المسلمون لمواقف ابتلاء شديدة وفتنة قوية، وعدم وجود النصير، كالمواقف التي حصلت مع رسول الله في وقت الحصار والمقاطعة أو بعده من موت أبي طالب ووفاة خديجة رضي الله عنها.. يعني فقدان النصير..

وهو السياق نفسه الذي نزلت فيه التكاليف:{ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)} فهذه الأعمال يجب أن تظهر على نبي الله بوصفه رسولاً من الله وحاملاً لرسالته، داعياً بدعوة الله في المجتمع الجاهلي. والواقع أن هذا الأمر له أثران: الأول ؛ ذاتي على المؤمنين أنفسهم من باب استمرار التذكير بنعم الله تعالى عليهم واستشعار قيمتها عند رؤيتهم لمن هو دونهم، الأمر الذي يستدعي الشكر الدائم والمستمر لله جلّ وعلا. والثاني؛ إن ظهور هذه الأخلاق على المؤمنين حاملي دعوة الله للناس في المجتمع الجاهلي فيه تعريض بذلك المجتمع الذي طابعه العام السائد فيه هو ظلم تلك الفئة من الناس وأكل حقوقهم، لأن فيه مخالفة واضحة لتلك الأجواء السائدة في المجتمع الجاهلي. فهي ليست أعمالاً فردية، أو من باب أعمال الجمعيات الخرية وكفالة اليتيم.. إلخ، كما هو معروف الآن.. بل هو الأمر للمؤمنين بالتميّز عن واقع المجتمع الجاهلي والسمو على أخلاقه وأعرافه السائدة، تزكيةً لهم وإعداداً ليكونوا أمناء الله على دينه في أرضه، والشهداء على الناس.. بوصفهم أمة ممكّن لها في الأرض (تحقيق الغاية من الرسالة).

ومن جهة أخرى، هذا يؤآزر ويقوّي ما ورد في السور الأخرى، مثل سور: الماعون، الفجر، القيامة.. في سياق كشف فساد الملأ وأنهم سبب الظلم الحاصل في المجتع بأشكاله وألوانه.. وذلك في إطار "البشارة والنذارة" من باب أن ترك عبادة الله وعدم اتباع رسوله، وطاعة واتباع ما دونه من أشكال الطاغوت المختلفة.. من الملأ والأهواء، ودين الآباء.. هي أصل كل فساد وظلم في حياة الناس، كعقوبة عاجلة من الله.. فاعبدوا الله وحده وأخلصوا له الدين، إني لكم ناصح أمين.

هذا، وما ذكرناه: من أن تخلّق المؤمنين - حملة دعوة الله في المجتمع - بهذه الأخلاق، فيه تعريض بذلك المجتمع الجاهلي الذي يسود فيه الظلم.. ويُعتبر **أصلاً عاماً** في النظر إلى التكاليف الشرعية (الأحكام الشرعية) التي نزلت في "المرحلة الأولى" (قبل التمكين)، في مثل سُوَر: المؤمنون، الفرقان، الأنعام، الإسراء.. والتي نزلت في طور متأخر منها. ولذلك الأصل العام، تفاصيل، سنتعرّض لها عند تبيان تلك السور وغيرها، بإذن الله تعالى.

وخاصة ما حصل معه من بعد ذهابه – عليه الصلاة والسلام - إلى الطائف (الكرب العظيم).. ودعاءه المؤثّر الذي ناجى به ربه جلّ وعلا:

{اللهم إليكَ أشكو ضعفَ قوتِي وقلةَ حيلتِي وهواني على الناسِ، يا أرحمَ الرحمينَ إلى منْ تكلُني إلى عدوٍّ بعيد يَتَجَهَّمُنِي [أهل الطائف] أو إلى قريبٍ ملكتَهُ أمرِي [أهل مكة]، إنْ لمْ تكنْ ساخطًا عليَّ فلا أُبالِي غيرَ أنَ عافيتَكَ أوسعُ لِي، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ والأرضُ، وأشرقتْ لهُ الظلماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ، أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبَكَ، أو تُنزِلَ عليَّ سخطَكَ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ } [1].

فسورة الضحى تأتي مناسبة كمعالجات لمثل هذه المواقف.. فتأتي تأييداً وتثبيتاً من الله تبارك وتعالى لرسوله في حاله تلك، وكأنها جواب لهذا الدعاء الذي لخّص فيه رسول الله ﷺ حاله - آنــئــذٍ - مع قومه، وذلك بما ورد في السورة من قَسَمٍ وأساليب توكيدٍ، ووعــدٍ بتفريج الكرب، وتذكير بما سبق من الإنعام والإفضال..

وكان من أول بشائر التأييد والتثبيت نزول جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال لإنزال العذاب بهم.. ثم كان إسلام النفر من الجن.. وكذلك رحلة الإسراء.. وإسلام الأنصار ثم بيعة العقبة الثانية.. ثم الهجرة إلى المدينة.. واستمر الأمر في زيادة الخير واضمحلال الشر.. حتى إكمال الدين لله [2].. فكانت كل حالة متأخرة من أحواله، لها الفضل على الحالة السابقة:

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)﴾ الضحى [3].

2– جاء في رواية البخاري أن رسول الله "لم يقم ليلتين أو ثلاثاً" وفي رواية أخرى "لم يقم ليلة أو ليلتين" [4].. ويُفهم منه أن رسول الله كان من عادته – في تلك الفترة - أنه يقوم كل ليلة وباستمرار.. حتى يُلاحظ أنه لم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاث. والقيام بهذا الشكل المكثّف لعلّه كان بعد نزول الأمر بوجوب قيام الليل في سورة المزمل، والذي كان في أواخر "الطور الثالث".

ومن هنا يمكن القول: بأن من ((مُنَاسَبَةُ الْقَسَمِ بِـ الضُّحى وَاللَّيْلِ... أَنَّ اللَّيْلَ وَقْتُ قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَسْمَعُ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ قِرَاءَتَهُ مِنْ بُيُوتِهِمُ الْقَرِيبَةِ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَلِذَلِكَ قُيِّدَ اللَّيْلِ بِظَرْفِ (إِذا سَجى) [أي إذا سكن بالخلق واشتد ظلامه] فَلَعَلَّ ذَلِكَ وَقْتُ قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ . قَالَ تَعَالَى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)..﴾ [المزمل])) [5].

3– خطاب السورة شبيه بخطاب الله تعالى لرسوله في سورة الشرح ((فَمَضْمُونُهَا شَبِيهٌ بِأَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَضْمُونِ سورة الضُّحَى؛ تَثْبِيتًا لَهُ بِتَذْكِيرِهِ سَالِفَ عِنَايَتِهِ بِهِ، وَإِنَارَةِ سَبِيلِ الْحَقِّ،

1 - أنظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي.

2 - أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

3 - أنظر (تفسير السعدي).

4 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4983.

5 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

وَتَرْفِيعِ الدَّرَجَةِ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَهُ بِنِعْمَتِهِ مَا كَانَ لِيَقْطَعَ عَنْهُ فَضْلَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ بِطَرِيقَةِ التَّقْرِيرِ بماضٍ يعمله النّبيّ ﷺ)) [1].. فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح] هو مركز الثقل في "سورة الشرح" ومحورها الذي تدور حوله معانيها.. فكأن الله جلّ ثناؤه يقول لرسوله: " خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله، ولا تكترث بأذى قريش، فإن الذي وهب لك هذه النعم الجليلة، مستمر في معيّتك وتأييدك وسينصرك عليهم.. فإن مع العسر الذي أنت فيه، يسراً ". فأجواء سورة الضحى قريبة جداً لأجواء سورة الشرح، والتي تأتي متأخرة في "المرحلة الأولى" [2].

4– أن قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى] كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم] [3]

(أخرج البخاري في باب التفسير، والإمام أحمد، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قَالَ، فَنَزَلَتْ: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}.. وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، فَوَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ من ذلك وحَزِن، فأتاه جبرائيل وَقَالَ: يَا محمّد {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ} الآية... قَالَ مُجَاهِدٌ والسُّدِّيُّ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)} [الضحى]) [4].

وهذا يشير إلى أن اجواء سورة الضحى مشابهة أو قريبة من الأجواء العامة لسورة مريم، والتي تأتي متأخرة في "المرحلة الأولى".

---

1 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

2 - أنظر (تبيان سورة الشرح).

3 - { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً } ،أي ومَا نَسِيَكَ رَبُّكَ..(.. فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) أي، وإذ قد علمت أنه الربّ المسيطر على ما في السموات والأرض وما بينهما، القابض على أعنّتهما، فاعبده ودُم على مشاقّ العبادة وشدائدها، فِي الْأَدَاءِ وَالْإِبْلَاغِ.. وإياك أن يصدّك عنها ما يحدث من إبطاء الوحي وتقوّل المشركين الخرّاصين عن سببه. فَإِنْ قِيلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ وَاصْطَبِرْ عَلَى عِبَادَتِهِ بَلْ قَالَ:(وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)، قُلْنَا: لِأَنَّ الْعِبَادَةَ جُعِلَتْ بِمَنْزِلَةِ الْقِرْنِ فِي قَوْلِكَ لِلْمُحَارِبِ: اصْطَبِرْ لِقِرْنِكَ أَيِ اثْبُتْ لَهُ في ما يُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ شَدَّاتِهِ. وَالْمَعْنَى أَنَّ الْعِبَادَةَ - وأعظمها تبليغ الرسالة - تُورِدُ عَلَيْكَ شَدَائِدَ وَمَشَاقَّ فَاثْبُتْ لَهَا وَلَا تَهِنْ.. يشبه قوله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {112}) هود.. ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله: (هل تعلم له سميا؟) أي هل تعلم له شبيها ومثلا يقتضى العبادة والطاعة لأمره ؟ لكونه مُنْعِماً متفضلاً بجليل النعم وحقيرها، فيجب تعظيمه غاية التعظيم، بالاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه. أنظر (مفاتيح الغيب) - الرازي. و (تفسير المراغي).

4 - أنظر (تفسير ابن كثير).

5– هذا، وما واجهه رسول الله والمؤمنون معه من عُسر وشدة، حينها، يذكّرنا بما واجهه أهل الإيمان من قبلهم؛ رسل الله السابقين وأتباعهم، مثل ما حصل مع نبي الله لوط عليه السلام عند إصرار قومه على الكفر، وتماديهم بفعل المنكر - قُبيل إنزال العذاب بهم - وما شعر به من فقدان النصير نتيجة ذلك. يقول تعالى في سورة هود:
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود]''' أي: يوم شَدِيدٌ بَلَاؤُهُ وكرْبُه... إلى قوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود]''' أي، ((يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لُوطًا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: {﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ } الآية، أَيْ لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ وَفَعَلْتُ بِكُمُ الْأَفَاعِيلَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ وَإِحْلَالِ الْبَأْسِ بِكُمْ، بنفسي وعشيرتي.

ولهذا ورد في الحديث الصحيح: « رَحْمَةُ الله عَلَى لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - يَعْنِي الله عزّ وجلّ - فَمَا بَعَثَ الله بَعْدَهُ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ فِي ثروة من قومه ». "فلما ضاق الأمر، وبلغ الكرب أشُدّه"، َعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ رُسُلُ الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه:
﴿قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود]) ..[1]

وكما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾ [يوسف: 110]،
يقول الشيخ السعدي في تفسيره: ((يُخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذّبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل. حتى إن الرسل - على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال {جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ} وهم الرسل وأتباعهم، {وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ} أي: ولا يُردّ عذابنا، عمن اجترم وتجرأ على الله: {فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ [الطارق]}).
وهكذا، إذا نظرنا إلى السورة من خلال التتابع السُنني لأطوار السير بالرسالة، نرى أن السورة ترتبط في طور متأخر من "المرحلة الأولى"، وعلى الأغلب، في أواخر "الطور الثالث".

مناط السورة:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى: 3]''' شعور المسلمين حَمَلة الرسالة، وكأن الله - سبحانه تعالى - قد تخلى عنه، وخاصة في حالة تعرّضهم للابتلاء الشديد والفتنة القوية، وشعورهم بعدم وجود النصير.

---

1 - أنظر (مختصر تفسير ابن كثير) - الصابوني.

المعالجة:

جاء خطاب الله جلّ ثناؤه في السورة - كما ذكرنا سابقاً - يدور حول تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ، ومعه الجماعة المسلمة، وتعزيز ثقتهم بالله عزّ وجلّ .. فخطاب رسول الله خطاب لأمته، مع مراعاة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان. وتفصيل ذلك:

1- (1-5)، أكّد رب العزة والجلال بالقسم بالضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وما فيه من الضياء واجتماع الناس وكمال الأنس. وبالقسم بالليل إذا أظلم وستر كل شيءٍ وسكن الخلق - كدليل ظاهر على قدرة الله جلّ وعلا على تغيير الأحوال وتدبير أمور الخلق - بأنه (جواب القسم):

- ما تخلّى الله تبارك وتعالى عن عبده ورسوله ولا تركه [1]..
- وأن عَاقِبة أَمْره خَيْرٌ مِنْ بِدَايَتِهِ، سواء في الدنيا أم في الآخرة [2]. (فَاللَّامُ فِي "الْآخِرَةُ" و "الْأُولى" لَامُ الْجِنْسِ، أَيْ كُلُّ آجِلِ أَمْرِهِ هُوَ خَيْرٌ مِنْ عَاجِلِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْأُخْرَى. وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: "لَكَ" لَامُ الِاخْتِصَاصِ، أَيْ خَيْرٌ مُخْتَصٌّ بِكَ، وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا لَهُ تَعَلُّقٌ بِنَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَاتِهِ وَفِي دِينِهِ وَفِي أُمَّتِهِ. فَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ بِأَنْ يَنْشُرَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يُمَكِّنَ أُمَّتَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَأْمُلُهَا النّبيّ ﷺ لَهُمْ).
- ولسوف يمنحه ربه عطاءً جزيلاً، ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة، حتى يرضى [3]. "وَحَرْفُ الِاسْتِقْبَالِ لِإِفَادَةِ أَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ الْمَوْعُودَ بِهِ مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ ".
  " فَكَانَ مُفَادُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَعْمِيمَ الْعَطَاءِ كَمَا أَفَادَتِ الْجُمْلَةُ التي قَبْلَهَا تَعْمِيمَ الْأَزْمِنَةِ ".. وهذا فيه ما فيه من البشارة والتطمين لرسول الله ومن معه من المؤمنين، أثناء حملهم لرسالة الله وعبوديتهم له تبارك وتعالى، فلا يحزنوا مما يقع لهم.. وما عليهم إلا أن يثبتوا ويصبروا على أمر الله؛ الشرعي والقدري.

2- (6-8)، وبعد التأكيد بالقسم، يُذكّر الله تبارك وتعالى عبده المؤمن - زيادة في التوكيد - بنعمه السابقة السابغة.. فكيف يتخلّى الله جلّ وعلا عن عبده المؤمن (الجماعة المؤمنة) وما تركه وما أخلاه من قبل من رحمته ورعايته وإيوائه ؟. مستخدماً أسلوب "الاستفهام

---

1 - ولعامّة المؤمنين حظهم من ذلك: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ{47}) الروم. (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ{38}) الحج

2 - ولعامّة المؤمنين حظهم من ذلك: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{21}) الجاثية.

3 - ولعامّة المؤمنين حظهم من ذلك: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}) الفجر. ((وفي الصحيح: "يقول الله تعالى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ:إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ")) تفسير ابن كثير.

التقريري" بقصد التذكير بما سبق الإنعام به كدليل على أنه ما تخلّى عنه، وأن ما وعده به سيتحقق. وأما النعم الكبرى المتعلقة بشخص رسول الله والتي سبق وأنعم بها عليه:

- فقد كنت يتيماً تحتاج إلى مَن يرعاك، فجعل لك مكاناً ترجع إليه، ومَن يحسن القيام بأمرك.. وكان ذلك برعاية جده له ثم عمه.
- وكنت "ضالاً"، أي حائراً لا تقنعك المعتقدات حولك، فهداك إلى منهج الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى: 52-53]
- وكنت فقيراً لا مال لك، فأغناك بمال خديجة ومال أبي بكر، رضي الله عنهما. قال رسول الله: (ما نفعَنِي مالٌ قطُّ ما نفعَنِي مالُ أبي بَكرٍ) [1].

3- (9-11)، أما وقد علمت ما سبق، وَأَقْرَرْتَ به.. فَعليكَ القيام بما يلي:

- أن تواسي اليتيم، وأن تكرمه، وأن تكون رفيقا به..
- وأن تفتح صدرك للسائل الذي يسألك العون، فلا تزجره ولا تغلظ له بالقول.. بلْ رُدَّهُ ردًّا جميلاً.
- ونِعَم ربّك فخُصها بالكلام عنها، وإذاعتها بين الناس [2]. اي: تحدّث دائماً - مع كل الناس، مؤمنهم وكافرهم - عن إنعام الله وتفضّله عليك في ما مضى، وكيف أنه لن يتخلى عنك في ما يأتي.. أي كما تحدث الله تعالى معك حول نعمه عليك في هذه السورة..

هذا، وبما أن السياق الذي جاءت فيه هذه الأحكام الثلاثة الأخيرة هو معالجة "مناط السورة": ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى:3].. أي تطميناً وتثبيتاً للمؤمنين، وتبكيتاً وتكذيباً للكافرين. فهذا هو "سياق السورة" الذي جاءت فيه هذه التكاليف. وعليه:

- فالأمر بإكرام اليتيم و بالإحسان للسائل، ينضوي تحت عملية تزكية المؤمنين وإعدادهم.. الأمر الذي يجعلهم يَسْمُون على أخلاق المجتمع الجاهليّ وأعرافه السائدة، والمتناقضة مع أوامر الله، فيتميّز المؤمنون عن واقعهم الجاهليّ.. وهذا فيه تعريضٌ بالمجتمع الجاهليّ بالإشارة إلى واقعهم السيّء، وخاصة أغنياءه وكبراءه الذين يغلبون اليتيم ويذلونه ويظلمونه.. والسائل يزجرونه.. وقد بيّن الله جلّ وعلا – في أكثر من سورة - أن من طبائع الذي لا يعبد الله ولا يؤمن باليوم الآخر، أنه جبّار وظالم ولا يرحم ضعاف الناس من الفقراء والمساكين والأيتام [3].

---

1 - عن أبي هريرة، في صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم:5808

2 - { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)} الضحى، والتحديث بالشيء: الإخبار به، والحديث عنه. و(نعمة) نكرة مفردة تفيد العموم، أي كل نعمة من ربك. وحذف مفعول (فَحَدِّثْ) يفيد العموم، أي كل أحد.

3 - أنظر مثلاً: (تبيان سورتي: الفجر و الماعون).

- والأمر بالتحديث بما أنعَم الله تعالى على رسوله الكريم وما وعده به من كرامة، وإذاعته بين كل الناس.. فيه تكذيب لما أشاعه الكافرون من دعوى "أن محمّداً ودّعه ربه".. وتبكيت لهم "بالتأكيد على أَنَّ مَا وَعَدَ الله بِهِ رسوله مُحَقَّقُ الْوُقُوعِ، قِيَاسًا عَلَى مَا ذَكَرَه مِنْ مُلَازَمَةِ لُطْفِهِ بِهِ في ما مَضَى، وَهُمْ لَا يَجْهَلُونَ ذَلِكَ، عَسَى أَنْ يُقْلِعُوا عَنِ الْعِنَادِ وَيُسْرِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ، وَإِلَّا فَإِنَّ ذَلِكَ مَسَاءَةٌ تَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ، ستعقبها حسرة وندم. وفيه أيضاً، امْتِنَانٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَقْوِيَةٌ لِاطْمِئْنَانِ نَفْسِهِ - والمؤمنين - بِوَعْدِ الله تَعَالَى إِيَّاه" [1].

وفي المحصلة، على المؤمن حامل الرسالة - خاصة في المواقف الصعبة والعسيرة - الثبات والاستقامة على أمر الله وأن يعمل الخير في المجتمع وخاصة مع الضعفاء والمساكين، وأن يتصف بفعل الخير دائماً.. وأن يُحدّث الناس بما عَرفْ وعَلم من إنعام الله عزّ وجلّ عليه، وأهمها الهداية والتوفيق إلى حمل رسالته.. وأن يُذكّر الذين هم في مثل حاله ليعلموا ما علم، وليُجدّدوا ثقتهم بالله ربهم عزّ وجلّ، فهو المنعم المتفضّل في سابق أمرهم فكيف يتخلى عنهم في حاضر أمرهم ومستقبلهم، وقد أصبحوا من أوليائه وحَمَلة رسالته ؟! فهو عزّ وجلّ نعم المولى ونعم النصير لهم.. فليصبروا، وليستقيموا على أمر الله تبارك وتعالى.

12- (سورة الشرح)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في أواخر الطور الثالث، وذلك:

1- إن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح]'' هو مركز الثقل في السورة ومحورها الذي تدور حوله معانيها.. وهو يوحي (بأن هناك ضائقة كانت في نفس الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلّفها، ومن العقبات الوعرة في طريقها ومن الكيد والمكر المضروب حولها.. توحي بأن صدره ﷺ كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنه كان يحس العبء فادحاً على كاهله. وأنه كان في حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد.. مما اقتضى هذا التذكير وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد، وهذا الاستحضار لمظاهر العناية، والاستعراض لمواقع الرعاية وسَوق البشرى باليسر والفرج، والتوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق..) [2]

فكأن الله جلّ ثناؤه يقول لرسوله: "خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله، ولا تكترث بأذى قريش، فإن الذي وهب لك هذه النعم الجليلة، مستمر في معيّتك وتأييدك وسينصرك عليهم.. فإن مع العسر الذي أنت فيه، يسراً".. "ثم في الآيتين الأخيرتين يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير، ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل":

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) ﴾ [الشرح: 7-8]

---

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

2 - (في ظلال القرآن) - سيد قطب. بتصرف

يقول له: " لمّا تقرر ما سبق، فإن عليك أن تُشغل نفسك ـ ومَنْ معك ـ فإذا فرغت من عملٍ فاتْعَب بمباشرة عمل آخر [1].. {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} الشرح.. أي، واجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. وارغب في سائر ما تلتمسه دينا ودنيا ونصرة على الأعداء إلى ربك وحده.. بدلالة تقديم الجار والمجرور التي تفيد التخصيص..

فالأمر الذي كان يُثقل على نفس رسول الله هكذا، لا بد أنه كان أمراً عظيماً.. وأول ما يَتبادر إلى الذهن تلك الأحوال الصعبة العسرة في السير بالرسالة التي واجهها رسول الله في أواخر "المرحلة الأولى"، ومن أشدّها، فترة ما بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها، وفقدان النصير.. وتجـرّؤ الملأ من قريش على إيذائه بما لم يستطيعوه من قبل، حتى منعوه عن المسجد الحرام.

2- وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح]، أي خففنا عنك حملك الثقيل الذي أثقل ظهرك وأوهنه وأتعبه حتى سَمع له نقيض[2].. والاسم الموصول نعت للوزر، مما يشير إلى وزر معيّن في تبليغ الرسالة هو الذي أثقل ظهر رسول الله. وفي سياق النقطة السابقة، ومن منظور التتابع السُنني لأحداث السير بالرسالة، نرى أن ذلك الحمل الثقيل هو إحساسه بالمسؤولية عن هداية قومه، وشعوره بالهم والحزن الشديدين

---

1 ـ قال الإمام الطبري في تفسيره: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إن الله تعالى ذِكْره، أمر نبيه أن يجعل فراغه من كلّ ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته، مما لا بد له من الشغل به أو أمره بالشغل به، إلى النصب في عبادته والاشتغال في ما قرّبه إليه ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال، فسواء كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلا.. لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ دون حال أخرى). نقول: المقصود هو إشغال جميع الوقت وعدم ترك وقت فراغ من غير عمل صالح، وأولاها ما كان فرضاً ثم مندوباً ثم مباحاً.

2 ـ والنقيض: هو الصوت الخفي (الصرير) الذي يُسمَع من الرحل الثقيل الكائن فوق ظهر البعير، ولا يكاد البعير يحمله إلا بمشقة وعُسر. (والنقيض: صوت عظام المفاصل وفرقعة الأصابع.. وإسناد " أنقض إلى الوزر مجاز عقلي، وتعديته إلى الظهر تبع لتشبيه المشقة بالحِمْل. فالتركيب تمثيل للذي يُجابه المشاقّ الشديدة، بالراحلة المُحمَّلة بالأحمال الثقيلة جداً حتى يُسمَع لعظام ظهرها فرقعة وصرير. ووصف الوزر بهذا الوصف تكميل للتمثيل بأنه وزر عظيم. والآية تُشير إلى أحوالٍ كان النبي ﷺ في حرج منها أو من شأنه أن يكون في حرج، وأن الله كشف عنه ما به من حرج منها أو هيّأ نفسه لتحمّل أعبائها). أنظر (التحرير والتنوير) ـ ابن عاشور. نقول: إن الهم الأكبر عند رسول الله هو بلاغ رسالة الله ونجاة أمته من النار. عن أبي هريرة أن رسول الله قال: (لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه. وإنِّي اخْتَبأْتُ دَعوتي شفاعةً لأُمَّتي يومَ القيامةِ. فهي نائلةٌ، إن شاءَ الله، من مات من أُمَّتي لا يُشركُ باللهِ شيئًا) صحيح مسلم ـ الصفحة أو الرقم199 : والبخاري الصفحة أو الرقم 6304 . وكما في حديث الشفاعة المشهور: (.. فأسجُدُ للَّهِ تعالى فيقولُ: ارفع رأسَك يا محمَّدُ وتَكلَّم يُسمَعْ لك، وقل يُقبَلْ منكَ، واشفع تُشفَّعْ فأرفعُ فأقولُ: أمَّتي أمَّتي يا ربُّ..). وكما في حديث خطبة حجة الوداع، حيث أشهد الله تعالى على شهادة أمته أنه ـ ﷺ ـ بلّغ الرسالة وأدى الأمانة.

لعدم إيمانهم [1]، وخاصة بعد إصرارهم على الكفر في أواخر "المرحلة الأولى" وعِلمه أن الله تعالى سينزل العذاب بهم بسبب ذلك:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) ﴾ [الكهف:6-7]

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر: 8]

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء:3-4]

وأثقل همّ وجده رسول الله كان بسبب ما لاقى من أهل الطائف من أذى [2]؛ (الكرب العظيم)، حيث علم أن الله تعالى معذّبهم.. حتى أنه صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن خرج من القرية لم يشعر بنفسه إلا وهو في منطقة "قرن الثعالب".. وقد حضره جبريل ومعه ملك الجبال، وما أنْ علم أنّ الله جلّ ولا خيّره بأن يفعل بهم ما يشاء، حتى اختار إمهالهم وعدم إنزال العذاب بهم لعل الله تبارك وتعالى " يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ". لذلك أعطاهم الله تعالى أمانَيْن من العذاب، حسب سُننه جلّ ثناؤه، والتي بيّنها في سورة الأنفال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وبالأمان والإمهال، أراح الله تبارك وتعالى رسوله وخفف عنه حمله الثقيل ذاك..

3- وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ [الشرح:8]، قريب من قوله تعالى في سورة **المزمّل:** ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)﴾ "أي انقطِع وأخلِص نفسك له تعبدّاً، فلا ينزِعك عنه ما كان. والصيغة تعبّر عن الإجتهاد اللازم لتحقيق هذا" [3] .. فكلاهما يتماشى ويتوافق مع الأمر بالإعراض عن المشركين في أواخر "الطور الثالث"، فهو طور "الانتظار" و "الإمهال" و " الهجر الجميل".. أي عدم الاحتكاك المباشر مع المجتمع في مكة.. وقد منعت قريش رسولَ الله أن يبلّغ كلام ربه، وصدّوه – والمؤمنين - عن المسجد الحرام.. الأمر الذي نتج عنه وقت فراغ طويل في النهار ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ المزمل.. فالسوَرتان أجواؤهما متقاربة..

مناط السورة:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح: 5-6]، تعرّض المسلم و الجماعة المسلمة لحالة عُسر وضيق شديدة في قيامهم بعبوديتهم لله تعالى وحملهم لدعوته وتبليغ

---

1 - أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمّد حسن حسن جبل.

2 - كما ثبت في الرواية الصحيحة عن عائشة. أنظر (صحيح السيرة النبوية) - ابراهيم العلي. وانظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

3 - (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن حسن جبل. أنظر (تبيان سورة المزمّل).

رسالته، بسبب الرفض الشديد من المجتمع ومَلَئه للرسالة، والإصرار على صدها ومقاومة أهلها وحمَلتها بشدة.

المعالجة:

والخط العام لسير السورة في معالجة مناطها – كما أشرنا سابقاً - كان كالتالي:
إن الله الذي شرح لك صدرك وخفف عنك الحمل الذي كان شديداً عليك، ورفع ذكرك.. مما هو مُعتَرف به منك (استفهام تقريري).. لا يمكن أن يدعك وشأنك، ولا أن يجعل عسرك مستمراً، فـ الأكرم الذي ابتدأك بنِعَمه ما كان ليقطع عنك فضله. وعليك أن تتجلّد وتصبر، فإن مع العسر الذي أنت فيه، يسراً.. فلتتحمّل متاعب الرسالة، وارغب إلى الله في عونه [1].
فالنِّعم التي أنعم الله بها على نبيّه الكريم، كان ورودها في السورة في سياق التطمين لنفس النبي وتثبيته، بتذكيره باستمرار عناية الله له. وفي هذا الاتجاه تسير معاني آيات السورة، ومعاني ألفاظها، ودلالات أساليب تعبيرها [2]. وتفصيل ذلك:

1- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾ [الشرح: 1]، و(نشرح) فعل مضارع فيه دلالة على الاستمرارية، خلافاً لـ (وضعنا) و (رفعنا). فشرْح صدر رسول الله؛ بمعنى جعله واسعاً منبسطاً راضياً، عملية مستمرّة وتجلياتها عديدة، وكان ﷺ يعلمها - " كما أَشْعر به إجمالها في الاستفهام التقريري المُقتضي علم المقرَّر بما قُرِّر عليه" – ولعلّها ابتدأت منذ الشَّق البدني لصدره الشريف، ثم الشرح المعنوي لصدره عن طريق إيداعه الإيمان والحكمة والعلم، وتهيئته لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية والروحية.. كقوله تعالى:
﴿..وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ [النساء]
إلى إعانته على تبليغ الرسالة على أكمل وجه، بإزالة ما كان يجد في نفسه من همّ وغمّ وضيق في الصدر، نتيجة العقبات التي كان يضعها المشركون في طريق دعوته.. فكلّما نزل عليه وحي من الله تبارك وتعالى أكسبه شرحاً لصدره، حتى وَسِع هموم النبوّة ودعوة الثقلين:

---

1 - (وهذا الاستفهام التقريري مقصود به التذكير لأجل أن يراعي رسول الله هذه المنّة عندما يُخالجة ضيق صدر مما يلقاه من أذى قومٍ يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطاً غير ذي أسف أو كمد). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

2 - افتراض أن السورة نزلت في بدايات نزول الوحي - حسب ترتيب النزول الوارد - كان له تأثير ظاهر وقوي على فهم كثير من المفسّرين للسورة وتوجيه معاني آياتها.. سواء في معنى "شرح الصدر"، أم في بيان "الوزر" ومفهومه، أم في تعيين نوع العمل في "فرغت".. إلخ. وهذا أمر طبيعي، ودليل قوي على أهمية ربط السورة من القرآن مع خط سير الرسول بالرسالة - يعني السياق أو المقام أو الحال الذي نزلت فيه - وأثره المباشر في توجيه معانيها، ألفاظاً وآيات.. لدرجة اعتباره "ضابطاً" مهماً في توجيه المعاني. وهذا ما نحاول بيانه وإثباته في هذه الدراسة من ضرورة ربط السيرة بالقرآن أو ربط القرآن بالسيرة، وأنه يجب أن يكون ربطاً "منهاجيّاً" سُننياً.. وليس تاريخياً، والذي يؤدّي في النهاية إلى "الفهم المنهاجيّ" للسورة. أنظر "الجزء الأول"، فيه البيان مفصلاً للأدلة والضوابط الشرعية لتأصيل "الفهم المنهاجيّ" للسورة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر: 97-99]
﴿* وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان]

2- (2-3)، أما حَطَطْنا عنك حِمْلك الثقيل الذي أتعبك ؟. فقد وفّقناك إلى حَمْل الرسالة، وأعنّاك على تَحمّل أعبائها، وأمهلنا قومك – كما رغبت - إلى حين، لعلّهم يهتدون..

3- (4)، أما رفعنا لك ذكرك بالنبوّة وحملك الرسالة ؟، فإذا ذُكر الله جلّ وعلا ذُكرتَ معه.. وقبل ذلك بخُـلُقِـك العظيم، وأنت الصادق الأمين..

4- (5-6)، ثم قـوّى الله تعالى رجاء رسوله ببيان سنّة من السُنن الربّانية في حياة الناس، وهي: أن الشدة يأتي معها اليُسر والفرج.. "وفي هذا إشارة إلى إدراك العناية الإلهية به في ما سبق، وتعريض بالوعد باستمرار ذلك في كل أحواله. وسياق الكلام: وَعْـدٌ من الله تبارك وتعالى بأن ييسّر لنبيّه الكريم المصاعب كلما عرضت له أثناء عبادته لله، ومن أعظمها تبليغ الرسالة. فاليسر لا يتخلّف عن اللحاق بتلك المصاعب. وذلك من خصائص كلمة "مع" الدّالة على المصاحبة [1].

5- (7-8)، وبناء على ما سبق تقريره، فعلى رسول الله:

- ✓ أن يبذل كل وسعه في القيام بما كلّفه به ربه من أعمال - إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة - حتى تكون شغله الشاغل، فلا يترك وقت فراغ بين الأعمال الصالحة - فرْضها ومندوبها ومباحها -.. بل يبقى في عمل دائب مستمر.. فما أن ينتهي من عمل حتى يجتهد ليُباشر العمل الذي يليه.. وهكذا.
- ✓ وأن لا يكون ذلك - صغيره وكبيره - إلا رغبة إلى الله سبحانه لا إلى غيره، كائناً من كان، وإلى ما عند الله عزّ وجلّ من الرضا والثواب.. ولا يطلب أياً من حاجاته أو مرغوباته إلاّ منه سبحانه، ولا يعوّل في طلب حصول أمر من أموره إلاّ عليه تبارك وتعالى.

هذا، ولعامّة المؤمنين حظهم مما سبق ذكره، فخطاب رسول الله خطاب لأمته، مع ملاحظة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان:

- ✓ فمِنْ شرْح الله تعالى صدر المؤمن: هدايته إلى الله ومنهاج عبوديته، وجعله مطمئناً للحق راضياً به، بعد أن كان في ضيق الضلال وشقاء المعصية، وعدم الهدى الكامل للحق. كما في قوله تعالى:
﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعام: 125]

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ [يونس: 57]

- ✓ وللمؤمن حظه من وضع العبء الثقيل عن عاتقه، وعونه على عبادة ربه وحمل دعوته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت]
- ✓ وله أيضاً نصيب من رفع الذكر، وجعل المحبة له والرضى عنه في قلوب الناس: (قيل لرسولِ الله ﷺ : أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخيرِ، ويحمدُه الناسُ عليه ؟ - وفي روايةٍ: ويحبُّه الناسُ عليه ؟ - قال: "تلك عاجلُ بُشرى المؤمنِ") [1].

فخطاب الله جلّ ثناؤه في هذه السورة فيه طمأنة للمؤمنين؛ حَمَلة الرسالة - ممثلين برسول الله ﷺ - بأن الأمور المتعسرة في طريق عبوديتهم لله وحملهم لرسالته ودعوته، سيجعل الله عزّ وجلّ لها فرجاً. وذلك بالتأكيد على أن وَعْد الله تعالى بتفريج الكرب عن المؤمنين متحقق، وطمأنتهم بقرب اليُسر، مستخدماً أسلوب "الاستفهام التقريري" بقصد التذكير بما سبق الإنعام به عليهم، كدليل على أن الوعد متحقق.. ومبيّناً سنته - عزّ وجلّ - التي لا تتخلّف في معيّة ومصاحبة اليسر للعسر.. فما عليهم إلا الصبر والثبات، وإشغال فراغهم بالأعمال الصالحة [2].. فما أن يفرغوا من عمل حتى يبدأوا القيام بعمل آخر.. راغبين إلى الله، معتمدين عليه مستعينين به وحده، جلّ وعلا..

ونذكّر هنا، أن هذا الوعد من الله جلّ وعلا مقطوع لمَن هو على الحق المبين وعلى سبيل رسول الله ﷺ ... لذلك فعلى حملة "دعوة الله" أن يكونوا على **يقين** أنهم على الحق المبين وعلى سبيل رسول الله ﷺ.. وخاصة في "فكرة الدعوة" وفي "كيفية مخاطبة" المجتمع بها.

13- (سورة العصر)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في "الطور الأول" وما بعده، وذلك:

خلاصة معنى السورة (توجيه معانيها): بيان أن غير المؤمنين - بوصفهم هذا، أفراداً أو مجتمعاً - هم الخاسرون في الدنيا والآخرة، برغم قوتهم وملكهم للدنيا. وأن المؤمنين - بوصف الإيمان، أفراداً كانوا أو جماعة أو أمة - هم الفائزون والفالحون في الدنيا والآخرة، برغم ضعفهم وقلة حيلتهم..

ففيها بيانُ ميزان الله تعالى في الفلاح والخسران. ومن ثَـمَّ:

- ✓ فـ "محتوى السورة " يأتي من باب التنويع في "خطاب النذارة" وبيان فكرة الرسالة، والتذكير بها، فتأتي عامة لمختلف أطوار السير.. من البداية حتى النهاية.

---

1 - رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري. صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 2642 .

2 - كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ{153}) البقرة.

- ✓ وقد يكون "محتوى السورة" - أفكاراً وأسلوباً - مناسباً عندما يحتدم الصراع الفكري بين الحق والباطل في أطوار السير اللاحقة. ذلك أن استعمال القَسَم كأسلوب تأكيد، وعرض أفكار السورة بشكل مجمل ومركّز (جامع مانع) وليس بأسلوب البيان والتفصيل، يشي بأن السورة مناسبة لمعالجة مناطات تأتي متأخرة في السير، وخاصة بعد ظهور مواقف الإعراض والرفض من المجتمع.. ومن هنا يمكن إضافة هذه السورة إلى سوَر مثل: الضحى، والشرح، والأعلى، والكوثر..

مناط السورة:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر: 2]، تقرير وبيان سبيل النجاة من الخسران، على أساس أنّ الإنسان مخلوق لحكمة، وأنّ له قضية ومصير مع الله؛ الإله الحق، جلّ جلاله.

البيان :

جاءت صياغة البيان بأسلوب تقريري، ومُجمل، ومُحدّد، وملفت للإنتباه.. وذلك من باب التنويع في خطاب النذارة، وتصريف الآيات:

أولاً – ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] [(1)]، العصر: هو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس، والمقصود جنس الإنسان. فيؤكّد الله تعالى، بالقسم بالدهر والزمان، حقيقة أن الناس – أفراداً ومجتمعات وأمماً - كلهم في خسران.. بقرينة الإستثناء الذي جاء بعد هذا التقرير. " فالسورة فيها وعيد شديد، لأن الله تعالى حكم بالخَسار على جميع الناس، إلا الذين يأتون بما ورد فيها من أمور.. فدلّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع تلك الأمور".

ثانيا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر: 3]،،

بيان طريق النجاة في أمور جامعة أربعة، وهي الإسلام لله أو الدخول في دين الله:

1. الإيمان بكل ما طلب الله عزّ وجلّ الإيمان به، وأصله الإيمان بـ لا إله إلا الله..
2. العمل الصالح، منبثق عن الإيمان وثمرة له.. وهو كل ما أمر الله تعالى به..
3. حمل الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى؛ العبودية الكاملة الشاملة. فكلمة (وتَوَاصَوْا) تدل على المشاركة الجماعية، فالتواصي بالحق يعني أن يوصي المؤمنون – أفراداً وأمة - بعضهم بعضاً ببيان الحق وإتباعه. ويعني كذلك التواصي بإظهاره وبإبقائه ظاهراً أيضاً، فالحق (الدّين) لا يمكن أن **يُتّبع كاملاً** إلا بأن يكون ظاهراً (كلمة الله هي العليا).. فاتّباع

1 - العصر: هو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس، وما فيه من العبر وتقلّبات الليل والنهار، وتبدّل الأحداث والدول، والأحوال والمصالح، وما يكون فيه من الأحوال المتناقضة.. والتي تدل على أن لهذا الكون خالقاً مدبّراً، ولهذا الدهر إلهاً هو القادر المتصرّف فيه، عزّ وجلّ. والزمان إنما هو عمر اللإنسان، فكل لحظة تمضي فإنها من عمره ونقص من أجله، تقرّبه من لقاء ربّـه، الله تبارك وتعالى، ليواجه الإنسان مصيره.. يواجه نتيجة كدحه وسعيه في حياته الدنيا.

جميع أحكام الدين **شرطه** أن يكون الدين ظاهراً... فـ "إخلاص الدّين لله" شرطه اللازم أن يكون الدّين ظاهراً.

4. وبعد ذلك كله وفي أثنائه، لا بد من الصبر؛ على **طاعة** الله، وعن **معصية** الله، وعلى **قضائه** وقدره.. يعني؛ الصبر على لأواء الطريق حتى الوصول للغاية.. والتواصي بذلك.

ثالثاً - بيان أن ظهور الدّين وإكماله يقتضي أن يتجسّد في "أمّة مسلمة" تجتمع فيها الأمور الأربعة السابقة.. فجاءت الألفاظ بصيغة الجمع لتدل على ذلك: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا.. وَعَمِلُوا .. وَتَوَاصَوْا .. وَتَوَاصَوْا ..﴾ صيغ تدل على المشاركة الجماعية في الفعل بين المؤمنين بعضهم بعضاً..

رابعاً - وفي الجملة، فإن الأمور الأربعة السابقة هي سفينة النجاة، وطريق الفلاح والفوز، لا غير.. ألا وهي حال "إكمال الدين" لله.. وذلك أن يكون المسلمون: أمّة متمثلة بالرسالة، وحاملة لها، وصابرة على ذلك.. وهي الحال التي ترك عليها رسول الله الأمة، حين اختار الرفيق الأعلى.

" قال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) قال الشافعي رضي الله عنه: **"لو فكّر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم"**. ذلك أنه بالمراتب الأربعة - السابقة - وباستكمالها يحصل للناس غاية كمالهم... فهذه السورة، على اختصارها، هي من أجمع سوَر القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير" [1].

14- (سورة العاديات)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في بدايات "الطور الثاني"، أي بعد التبليغ والبيان في "الطور الأول".. وبعد الحوار، والأخذ والرد في أول "الطور الثاني". ذلك:

1- أن السورة تُعالج حالة الإنسان الذي لا يريد أن يؤمن أو أن يعترف بأن ما به من نعمة، من الله وحده.. يعني لا يريد إظهار شكر النعمة. وهذا الموقف يكون بعد البلاغ والبيان لأَنْعُم الله تبارك تعالى عليه، وأن الله تعالى هو الخالق المُنعم الوهّاب.. المستحق وحده للحمد. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾ [العاديات]، هذه الآيات هي مركز الثقل في السورة والمحور الذي تدور حوله معانيها.. فَهي جواب القسم، وفيها بيان حقيقة الإنسان الذي يرفض طاعة الله وشكره، وهو مقصود القَسَم الذي ورد في الآيات التي سبقتها (1-5) وأما الآيات التي تلتها (9 -11) ففيها المعالجة وبيان الموقف منه، وهو الإنذار بعذاب الله تعالى يوم القيامة..

---

1 - (تفسير القاسمي)، بتصرف.

و كَنود، أي: ((كفور لنعمته، كقولهم: أرض كَنُودٌ: إذا لم تُنبت شيئا)) [1]. وهي من صيغ المبالغة، والمعنى المحوري لـ " الكُنُود ": ((حَبْس الشيء ما في باطنه، لا يُبرز منه. ومنه الكُنُود: كفر النعمة، إذ هو مع الحصول على النعمة يكتمها ولا يُبرز أمرها بالشكر والتحديث)) [2].

2- أن إنذار الإنسان الجَحود كان بتخويفه بعذاب الله تعالى يوم القيامة، وليس بعذابه في الدنيا: ﴿* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)﴾ [العاديات: 9-11]، أما الإنذار بالعذاب في الدنيا؛ الأدنى ثم الأكبر، فمن خصائص نهايات الطور الثاني و بداية الطور الثالث.. كما في حالة، أصحاب الجنة في سورة القلم، وصاحب الجنتين في سورة الكهف، وقارون في سورة القصص:

﴿* إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ... (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١)... ﴾ [القصص: 78-81]

فقارون كان أشدّ كفراً من الإنسان (الحالة الإنسانية) [3] الذي في سورة العاديات، بدليل وصف الله تعالى له - كما في الآيات - بأنه من الفرحين (المتكبّرين)، والمفسدين، والمجرمين، بالإضافة إلى كونه من الجاحدين لأنعم الله (كَنود)، بل ومن المجاهرين بذلك حيث أنكر أن تكون تلك النعم التي يَرْفُل فيها، من الله تبارك وتعالى، وإنما نسبها لنفسه، حيث قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}

1 - (مفردات القرآن) - الراغب.

2 - (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن جبل.

3 - أغلب وُرود كلمة "الإنسان" في التعبير القرآني للإشارة إلى شخص معيّن، معروف لدى المخاطبين آنذاك بتلك الصفات الواردة في سياق الكلام عنه. وعدم تعيينه باسمه، بل بصفاته وطبائعه، من باب أنه يمثّل حالة إنسانية عامة لها خصائصها وسُننها الضابطة لها، ويمكن أن يواجهها حامل الرسالة في أي زمان ومكان. فالقرآن رسالة الله الخاتمة للبشرية حتى قيام الساعة. لذلك، فالأصل عدم الإنشغال في تعيينه ما لم يكن لذلك تأثير على فهم مراد الله تعالى وبيان قوله، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهذا الأصل ينطبق على الإنشغال في تعيين كل ما أهمل النص ذكره في سياق معيّن، من زمان أومكان أو تفصيل في أمرٍ ما، فلا نتكلّف عناء التفتيش عنه لأن في ذلك تشويش على فهم مراد الله وصرف للأنظار والأفهام عنه، وتضييع للعبرة.. وهو من التكلّف المنهي عنه.. كما حصل عندما نهى الله تعالى رسوله من جدال الخائضين في عدد أهل الكهف إلا جدالاً (مراءً) ظاهراً لا يتجاوز حدود ظاهر ما أخبر به الوحي، وَقَصَّه عليهم فحسب.

مناط السورة:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) ﴾ [العاديات: 6]، حالة إصرار الإنسان على جحوده لإنعام الله تعالى عليه، وعلى عدم الإقرار بأن تلك النعم إنما هي من الله، الخالق المالك، وأنه وحده له الحمد والشكر.. برغم علمه بهذه الحقيقة، وقد سبق أن ذُكّر بها: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧)﴾ [العاديات: 7].

المعالجة:

1- (1-5) القَسَم بأحوالٍ للخيل أثناء الغزو والقتال، وهي مُشاهَدَة معروفة مألوفة عند المخاطبين في حينه - وهي لا تزال كذلك حتى الآن - تذكيراً لهم بأهميتها في حياتهم ومعاشهم.. فهي من نعم الله الظاهرة [1]، وأن الله رب العالمين هو الذي سخرها لهم، وهو وحده المستحق للحمد وللعبادة .

2- (6-8) جواب القَسَم، وفي معرض التنديد والإنذار، يبيّن الله تعالى ثلاث صفات للإنسان الذي بلغه العلم بأن ما به من نعمة فمن الله وحده؛ الخالق الأكرم المُنعم.. وبقي مصرّاً على كفره وجحوده:

الصفة الأولى: كونه كنوداً، أي جَحوداً متنكّراً لفضل ربه، غير شاكر لأنعمه العظيمة عليه..

والثانية: أن حاله وأعماله القبيحة شاهدة على كفره وجحوده، فهو ينفق المال على الشهوات والملذات ولا يعرف فيه حقاً للفقير والمسكين.. وهو لا يستطيع إنكار ذلك لظهوره، وإن لم يقر بلسانه أمام الناس عناداً.. أما في نفسه فهو يشهد بأنه جاحد منكر لأنعم الله.. وسيشهد على نفسه بذلك يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) ﴾ [التوبة: 17]

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) ﴾ [الطارق: 9].

الصفة الثالثة: أنه يحب المال حباً جماً، فهو حريص على جمعه وتكديسه [2].

---

1 - ((أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للناس. وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات)) تفسير السعدي. ((يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عَدْوَها وجَرْيها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار.. غبار المعركة على غير انتظار، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب! إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

2 - وهذه الصفات تدل على أن ذلك الإنسان الكنود من الملأ أولي النعمة. وجاء ذكرها في سياق كشف حقيقة مواقفهم الرافضة للحق الذي جاء به رسول الله من ربه، وقد بلغهم بيّناً واضحاً. يعني بيان أن تكذيبهم إنما هو بدافع الحفاظ على مصالحهم الشخصية ؛ أموالهم وسلطانهم. وذلك في بدايات المواجهة مع الملأ في بداية الطور الثاني.

وما اتصف بتلك الصفات إلا لأنه قَصَر نظره على هذه الدار الفانية، ونسي مصيره في الآخرة الباقية ..

3- (9-11) أَجَهِل ذلك الإنسان الجاحد عاقبة أمره ؟! (استفهام في معرض الاستنكار والإنذار) أفلا يعلم إذا القبور قُلب ترابها وأُثير ما فيها.. وأُرجعت الناس إلى ربها للحساب والجزاء.. وكُشفت أسرار الصدور فيظهر ويبرز ما كانوا يخفونه في نفوسهم الجَحودة الكَنودة؛ من أنهم كانوا على علم بالحق؛ بأن الله هو وحده المستحق للعبادة: حمداً وشكراً وطاعةً لأمره.. وقد أبوا أن يعترفوا بذلك.. ألا فليعلموا أن ربّهم - الذي خلقهم ويرزقهم والمتكفّل بهم - عليم تمام العلم حتى أدقّ التفاصيل (خبير)، بجميع ما كانوا يصنعون وأنه سيجازيهم أوفر الجزاء على القليل والكثير.. فكيف يقابلون إنعام ربّهم ومولاهم عليهم، وتعهده وكفالته لهم - من غير استحقاق - يقابلون كلّ ذلك بالجُحود والكُفران للنعمة، فيُشرِكون معه - سبحانه وتعالى - في العبادة والطاعة مَن هو دونه ؟!!.

15- (سورة الكوثر)

ربط السورة بخط السير:

قد ترتبط السورة بأكثر من طور أو مرحلة، وارتباطها أوثق وأقوى بفترات اشتداد المواجهة، وازدياد قوة "الصراع الفكري" حول "خطاب النذارة" - أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير - بين المؤمنين حَمَلة الرسالة، وبين رؤساء الضلال والشرك والنفاق.. يعني في بداية "الطور الثالث". وذلك:

1- من الظاهر أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ [الكوثر: 3]، هو المحور الذي تدور حوله السورة؛ فالخبر أو البشارة في الآية الأولى، وما ترتّب عليها من تكليف في الآية الثانية، جاءتا في سياق جوابٍ وردٍّ على مَن طعن في رسول الله ﷺ أنه أبتـر.
والشنآن - أي البغض والتجنّب – لرسول الله، لم يكن في إطار التنافس والتكاثر والتفاخر في متاع الدنيا، كما كانت عادة العرب في الجاهليّة، بل كان في إطار الصد عن سبيل الله:
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام: 33-34]
فشانئوا رسول الله ما كانوا يبغضونه لشخصه، بل كان مُحَبّباً إلى نفوسهم، وكانوا يصفونه بالصادق الأمين، ويستودعونه الأمانات حتى قُبيل هجرته.. إنما كانوا يمقتون ما جاء به من الهدى والحكمة، لأنه سفّه أحلامهم وعاب معبوداتهم، ونادى بفراق ما ألفوه ونشأوا عليه من الشرك والجهل..
ومن هنا، فهذه السورة شبيهة بسورة الضحى وسورة الشرح، من حيث أن الله تبارك وتعالى يُسرّي على رسوله ﷺ فيها، ويعده بالخير، ويتوَعّد أعداءه بالبتر..

2- فالسورة "تمثّل حلقة من السير بالرسالة، وصورة من حياة حامل الرسالة.. صورة من كيد وأذى أعداء الله لرسول الله ودعوة الله التي يبشّر بها، ليصرفوا انتباه عامة الناس عن

الاستماع للحق الذي جاءهم به محمّد من عند الله، وتنفيرهم من اتّباعه".. وذلك من خلال العمل على تحويل قضية الصراع، من الصراع حول "فكرة الرسالة" في إطار "خطاب النذارة" - لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير - إلى صراع شخصي حول شخص حامل الرسالة..

هذا، وفي نفس الإطار أو السياق يدخل، أيضاً، ما قام به الملأ من قريش بوصف رسول الله بأنه مجنون أو شاعر.. وطلبهم الآيات المادية.. بعد انتشار الدعوة في مكّة. وما قام به المنافقون، ومن ورائهم يهود، من إرجاف وتشكيك واتهام.. في المدينة.

3- وما سبق ذكره يبيّن دور السورة في "المنهاج"، وعليه، فلا تأثير لكون السورة مكيّة أو مدنيّة، فيبقى الخلاف حول ذلك في إطاره التاريخي فقط.. بل قد يكون "الفهم المنهاجيّ" للسورة رافعاً للخلاف وفيه الحل للإشكال.

مناط السورة:

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ [الكوثر: 3]، الاتهامات الموجهة إلى المؤمنين حَمَلة الرسالة، ممثلين في إمامهم وقدوتهم؛ رسول الله ﷺ مع مراعاة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان - ووصفهم بصفات نقص حسب مقاييس الجاهليّة، يعني في ما يتعلق بزينة الحياة الدنيا من مال وجاه وأبناء.. إلخ، وذلك في سياق الصد عن سبيل الله ودعوته.

المعالجة:

1- ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾ [الكوثر: 1] ، و"الكوثر": صيغة مبالغة من الكثرة. يقول الله جلّ ثناؤه مؤكّداً لنبيّه، إنا أعطيناك الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية، في الدنيا والآخرة.. ومنه: ما أُعطِي من النبوّة والرسالة، ومنه النهر الذي في الجنة، والخُلق العظيم، ورِفْعَة الذّكْـر.. وغير ذلك مما لا يُحصى [1].

وافتتح - سبحانه - الكلام بحرف التأكيد (إن)، للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المُعطَى شيء عظيم.. وضمير العظمة (نا)، لبيان أن مُعطِي ذلك كله: أنا رب العالمين، أكرم مُعطٍ وأعظم مُنعِم.

---

1 - والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر: كوثراً. أنظر (تفسير البغوي)، و (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن حسن جبل. ((عن أنس أنه قرأ هذه الآية:{إنا أعطيناك الكوثر} قال، قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجري ولم يُشقّ شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضَرَبْت بيدي في تُربته، فإذا مِسْك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ » (أخرجه الإمام أحمد). وعن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: {إنا أعطيناك الكوثر} قالت: " نهر <= أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه درّ مجوف آنيته كعدد النجوم " (أخرجه البخاري). وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو البِشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه (أخرجه البخاري4966). وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "الكوثر الخير الكثير". وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير)). مختصر تفسير ابن كثير - الصابوني.

2- ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ [الكوثر: 2]، وكان المقتضَى أن يقول: (فصلّ لنا..) ولكنه انتقل من المُضمَر إلى المُظهَر على سبيل الالتفات اهتماماً بذكر "ربّك" وتعظيماً له.
وظاهر الآية، الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر، وأن يجعلهما لله عزّ وجلّ لا لغيره.
والفاء في { فَصَلِّ}، لترتيب ما بعدها - الصلاة والنّحر - على ما قبلها، أي أن الخبر المؤكّد الذي ورد في الآية السابقة، تعليل للأمر الذي في هذه الآية [1].. وذلك من باب أن الله تعالى - بوصفه الربّ الحق - هو وحده الذي بيده العطاء والمنع، وهو وحده القابض الباسط، فالأمر له وحده: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾ [الكوثر]، بدلالة حرف التوكيد وضمير العظمة.. فاخلص العبادة له وحده واعتمد عليه وحده..
فيصبح المعنى الإجمالي: أما وقد أعطاك الله ربّك العظيم القدير، الخير الكثير في الدنيا والآخرة.. **فأخلِصْ** لربّك العبادة: فافرد له صلاتك، **مراغِماً** لقومك الذين يعبدون غير الله.. وانْحَر لوجهه وباسمه إذا نَحرت، **مخالفاً** لهم في النَّحْر للآلهة المدّعاة، وفي ذِكْر اسم غير الله تعالى.. فأول حق لربّك عليك هو أن تعبده وحده ولا تُشرك به شيئاً، فإنه هو مربّيك ومُسبغ نِعَمه عليك دون سواه [2].

---

1 - مثل قوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{95}) الحجر. فالجملة (إِنَّا كَفَيْنَاكَ..) تعليل للأمر بإعلان ما أمر به: (فَاصْدَعْ..) فالأمر مترتب على الخبر بدلالة (الفاء).

2 - كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{162} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ{163}) الأنعام. أنظر السورة في (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار، ولاحظ المنهج الحسن الذي بيّنه وجلّاه الشيخ للنظر في الروايات التفسيرية المختلفة الواردة عن الصحابة والتابعين. نقول: "وتخصيص هاتين العبادتين بالذكر - في ما نحسب - لأن الصلاة والنحر أعظم أشكال العبادة وأقدمها وأرسخها في فطرة الناس. فترى السجود والركوع وتقديم النذور لإظهار التعبد موجودة في كل ملة ونحلة، وسواءعبدوا الله الواحد أم آلهة متعددة أو روحاً أو صنماً، أو عظموا إنساناً كإله معبود".. إلا أن طريقة أدائهما قد تكون هي العلامة الفارقة بين الأديان والمعبودات المختلفة. فتقديمهما لله تعالى كما أمر الله يُعتبر المَظهر البارز للدخول في دين الله وتقديم العبادة له سبحانه وتعالى، مخالفةً للدين السائد في الجاهلية الأولى. فالأمر بالصلاة والنحر لله وحده أمام الناس، فيه إظهار التحدّي للدّين السائد في المجتمع الجاهلي من خلال إظهار التمسّك بما يأمر به الله، وترك شريعتهم ونظام حياتهم (قانونهم). كما في قوله تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}... كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15}.. فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17}سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19}) العلق، => فقد صح في أسباب النزول قول أبي جهل: (هل يعفّر محمد وجهه **بين أظهركم**). حيث كان يصلي في الكعبة على مرأى منهم. وقوله تعالى: (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا **يُنَازِعُنَّكَ** فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ{67}) الحج. أي ((لكل أمة من الأمم الماضية جعلنا شريعة وعبادة أمرناهم بها، فهم عاملون بها، فلا ينازعنّك - أيها الرسول - مشركو قريش في شريعتك، وما أمرك الله به في المناسك وأنواع العبادات كلها. وادع إلى إخلاص العبادة لربك واتباع أمره، إنك لعلى دين قويم، لا اعوجاج فيه)) **التفسير الميسر**. وأيضاً قوله تعالى: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ{116}... فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ{118} وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ{119}... وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ

3- وبناء على ما سبق تقريره: من أن الله هو الرب الحق، العظيم القدير، بيده الأمر كله.. وقد أعطاك يا محمّد من الخير الكثير الكثير، وأنـك في رعايته وكفالته (ربّك).. يؤكّد الله تعالى لنبيّه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ [الكوثر: 3]، أي إن مبغضك، أياً كان، هو "الأبتر" - وإن كان له أبناء ذكور كثيرون - لأنه بِمَحَلّ السُّخْط من الله جلّ جلاله، فهو الأقلّ الأذلّ.. والمنقطع عن عموم الخير، خيرَيّ الدنيا والآخرة. هذا هو الأبتر في ميزان الله.. وهو الميزان. وفي هذه الآية إِبْطَال لِقَوْلِهِم ذَاك، باسْتِخْدَامِ صيغة الْقصر فِي قَوْله: {هُوَ الْأَبْتَرُ} ليدل على نَفْيُ وَصْفِ الْأَبْتَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وإثباته لشانئِهِ قَصْراً عليه، لَكِن بِمَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّذِي عَنَاهُ شَانِئُهُ، وَذَلِكَ بِصَرْفِ مُرَادِ الْقَائِلِ عَنِ الْأَبْتَرِ الَّذِي هُوَ عَدِيمُ الِابْنِ الذَّكَرِ، إِلَى مَا هُوَ الْأَجْدَرُ بِالِاعْتِبَارِ وَهُوَ: الذي لا خَيْر فيه [1].

بالنسبة للجماعة المؤمنة:

السورة "تمثّل صورة من رعاية الله تبارك وتعالى المُباشِرة لعبده ورسوله والجماعة المؤمنة معه، ومن تطمين الله تبارك وتعالى وتثبيته على الحق، وجميل وعده لنبيّه، وتبكيت شانئيه ومرهوب وعيده لهم".. يعني اصبروا ولا تأبهوا لقول أولئك الكفّار، واستمروا في إظهار الطاعة لله جلّ وعلا.

و قوبل معنى "الأبتر" بمعنى "الكوثر" لتقرير من هو الأبتر على الحقيقة،لإبطال قول أئمة الكفر.. وإبطال ما يقومون به من حملات التلبيس والتشويه.. وإزالة أثرها السلبي من نفوس عامة الناس؛ مؤمنين وغيرهم.. وذلك من خلال التأكيد على أن الفوز والخسران - على الحقيقة - لا يكون إلا حسب ميزان الله تعالى، وهو: الفوز برضاه والجنة، والنجاة من غضبه والنار، لا بما يَتَطاول به الكافرون على المسلمين من الثروة والأبناء.. وهم مغضوب عليهم من الله عزّ وجلّ لأنهم أبغضوا رسوله. وغَضَبُ الله عليهم بترٌ لهم.. فَـهُم بمَحَلّ السّخط من الله، فعَمَلهم مقطوع لا خير فيه ومصيرهم النار، وبئس القرار. كما في قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران: 185]

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم: 18]

فلا قيمة لأي عمل ما لم يستند إلى الله؛ إخلاصاً واتباعاً.. فمن انقطع عن الله وعن رحمته فقد انقطع، وفَـقَـد حقيقة معناه.. وهذا هو "الأبتر" حقيقةً.. فالسورة، تُصوّر وتُجلّي "حقيقة الهدى

اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ{121}) الأنعام.

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. نقول: وهذا يذكّرنا بحديث رسول الله في تعريف المُفلس في ميزان الله ؛ فالمفلس ليس هو الذي لا يملك الدرهم والمتاع في الدنيا.. إنما هو الذي يأتي يوم القيامة فيخسر كل ما يملك من الحسنات، لسداد حقوق مَن ظلمهم وتعدّى عليهم.

والخير والإيمان، وحقيقة الضلال والشر والكفران.. الأولى كثرةٌ وفيضٌ وامتدادٌ، والثانية قلةٌ وانحسارٌ وانبتارٌ.. وإن ظن الغافلون غير ذلك" [(1)].

16- (سورة التكاثر)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في "الطور الثاني"، أي بعد البيان الذي كان في "الطور الأول"، وأثناء المناقشة والجدال في بدايات "الطور الثاني"، وذلك:

((أَلْهاكُمُ: أَيْ شَغَلَكُمْ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْكُمْ الِاشْتِغَالُ بِهِ، لِأَنَّ اللهو شُغْلٌ يَصْرِفُ عَنْ تَحْصِيلِ أَمْرٍ مُهِمٍّ.
التَّكَاثُرُ وَالْمُكَاثَرَةُ: التَّبَارِي فِي الْإِكْثَارِ مِنْ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ فِي كَثْرَتِهِ. فَمِنْهُ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ، وفِي الْعَدَدِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَحْلَافِ لِلِاعْتِزَازِ بِهِمْ..
وَلَمْ يَذْكُرْ الْمُلْهَى عَنْهُ لِظُهُورِ أَنَّهُ **الْقُرْآنُ** وَالتَّدَبُّرُ في ما جاء به من الذكرى والإنذار..
وَهَذَا الْإِلْهَاءُ حَصَلَ مِنْهُمْ وَتَحَقَّقَ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حِكَايَتُهُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي)) [(2)].
وموقفهم هذا كان منهم بعد البلاغ والبيان. حيث بقوا مُصرّين على عدم الاستجابة لدعوة رسول الله، بسبب عدم الاكتراث، والإنشغال بأمور الدنيا، فجاءت السورة بأسلوبها القوي المثير لتنبيههم من غفلتهم وبيان خطورة موقفهم [(3)].

مناط السورة:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)﴾ [التكاثر: 1]، حالة تلهّي المجتمع، وخاصة مَلَائه، بالتنافس في الازدياد من متاع الدنيا والإكثار منه، إلى درجة الغفلة حتى يفجأهم الموت ، عن أن يأخذوا بالجدّية اللّازمة، ما يُدعون إليه من عبادة الله عزّ وجلّ، وما يُنذرون به من مصير سيواجهونه في الحياة الآخرة (خطاب النذارة) [(4)] .

---

1 - ((إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترّون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ؟ أين هم ؟ وأين ذكراهم، وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيه محمّد وقد كانوا يقولون عنه: أبتر ؟!.. إن الدعوة الى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي.. ؟ إنما يُبتَر الكُفر والباطل والشر ويُبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور.. وصدق الله العظيم وكذب الكائدون الماكرون)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب. أنظر (تبيان سوة العصر).

2 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. بتصرّف.

3 - انظر (الطور الثالث) من خط السير، (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى). في "الجزء الأول".

4 - ((الآية تصوّر الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل.. «أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ».. وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

المعالجة:

الخط العام :

1- من حيث **المحتوى والمعاني**: الْخِطَابُ في السورة - الأصل فيه - لِلْمُشْرِكِينَ بِقَرِينَةِ غِلْظَةِ الْوَعِيدِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [التكاثر]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)﴾ [التكاثر] [1] إِلَى آخَرِ السورة. وَالْمُرَادُ بِالْخِطَابِ سَادَتُهُمْ وَأَهْلُ الثَّرَاءِ مِنْهُمْ؛ المُنَعّمون، لقَوْله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]، وَلِأَنَّ سَادَةَ الْمُشْرِكِينَ (الملأ) هم الَّذين آثروا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ النِّعْمَةِ عَلَى الاهتمام بِتَلَقِّي دَعْوَةِ النَّبِي ﷺ ، فَتَصَدَّوْا لِتَكْذِيبِهِ وَإِغْرَاءِ عامة الناس بِعَدَمِ الْإِصْغَاءِ لَهُ [2].

2- من حيث **الأسلوب**: التنبيه القوي والزجر الشديد للذين ألهوا أنفسهم بمكاثرة المال والأولاد والجاه.. وقد تمادوا في الغفلة عمّا أنذروا به. ((وَأَشَارَ فِي « الْكَشَّافِ » إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُفْتَتَحَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [التكاثر: 3]، وَالْمُنْتَهِيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾ [التكاثر: 7]، اشْتَمَلَتْ عَلَى وُجُوهٍ مِنْ تَقْوِيَةِ الْإِنْذَارِ وَالزَّجْرِ: فَافْتُتِحَتْ بِحَرْفِ الرَّدْعِ وَالتَّنْبِيهِ {كَلَّا}. وَجِيءَ بَعْدَهُ بِحَرْفِ {ثُمَّ} الدَّالِّ عَلَى أَنَّ الْإِنْذَارَ الثَّانِيَ أَبْلَغُ مِنَ الْأَوَّلِ. وَكُرِّرَ حَرْفُ الرَّدْعِ وَالتَّنْبِيهِ. وَحُذِفَ جَوَابُ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)﴾ [التكاثر: 5]، لِمَا فِي حَذْفِهِ مِنْ مُبَالَغَةِ التَّهْوِيلِ. وَأُتِيَ بِلَامِ الْقَسَمِ لِتَوْكِيدِ الْوَعِيدِ ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)﴾ [التكاثر: 6]. وَأُكِّدَ هَذَا الْقَسَمُ بِقَسَمٍ آخَرَ. فَهَذِهِ سِتَّةُ وُجُوهٍ)) [3].

وبشيء من التفصيل نقول:

1- الآيات (1- 4)، التوبيخ للذين ألهاهم التكاثر بالمال والأولاد وغيرهما.. عن النظر في ما بلغهم من رسالة الله ودعوته.. وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا إلى القبور.. وليعلموا أنهم في تلك القبور لن يمكثوا إلا كالزائر، فهم سيغادرونها، لأنهم سيُبعَثون وسيُحاسَبون على الغفلة عمّا جاءهم من الحق والإنذار.. وعلى ترْكهم شكر المُنعِم العظيم وعبادته..
ثم حثّهم بشدة على التدبّر في ما يُنْجيهم من الجحيم، فهي مصيرهم في الآخرة إن بقوا غافلين عنها، مُتلهّين عنها بالتكاثر في أمور الدنيا، وعند ذلك يندمون ولا ينفع الندم.

2- (5)، وبعد الزجر المؤكّد ﴿كَلَّا.. ثُمَّ كَلَّا.. ﴾ لإبطال ما هم عليه من التشاغل، قيل لهم: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)﴾ [التكاثر: 5]. أي، لو أنّكم تعلمون علماً يقينيّاً جازماً لا شك فيه، أن الله سيبعثكم وسيحاسبكم، لما شغلكم هذا التكاثر، ولَبان لكم شنيع ما أنتم فيه من الغفلة، ولبادرتم إلى عبادة الله واتباع رسوله (جواب « لو» المحذوف). ولكن عدم علمكم بالحق علماً يقيناً، صيّركم إلى ما ترون [4]..

---

1 - ورد عن ابن عباس من طريق العوفي أن هذه الآية في أهل الشرك. (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار.

2 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. بتصرّف.

3 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. بتصرّف يسير.

4 - أنظر (تبيان سورة الماعون).طبائع الذي يكذّب بيوم الدين.

وهذه سنّة ربّانيّة جارية: فالإيمان الناتج عن "العلم اليقين" بالبعث والحساب، هو وحده طريق النجاة.. فهو الدافع الذي يسوق الإنسان إلى ترك التلهّي بالتافه الزائل، والاهتمام بمصيره الرهيب الدائم الذي سيواجهه.

3- (6-8)، ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)..﴾ [التكاثر]، جواب القسمِ مُضْمرٍ أكِّدَ بهِ الوعيدُ وشددَ بهِ التهديد - لأنهم ألهاهم التكاثر بمتاع الدنياعن رسالة الله إليهم وإجابة دعوته - وأوضحَ بِهِ مَا أُنذروُه بعدَ إبهامِه تفخيماً.. أي، أُقسم لكم وأؤكد أنّكم ستشاهدون النار الموقدة عياناً.. ثم أُقسم وأؤكد أنّكم ستشاهدونها رؤيةً يقينيةً ومعاينة حقيقية حين تذوقون عذابها.. ثم أُقسم وأؤكد أنّكم ستحاسبون على ألوان النعيمِ الذي ألهاكُم الالتذاذ به والمكاثرة منه.. عن اتباع هدى الله والحق الذي في رسالتي، وقد بلغكم بلاغاً مبيناً.

الله أكبر!! ربُّنا العظيم الجليل يقسم.. ويقسم.. ويل للقاسية قلوبهم..!!!!

17- (سورة الماعون)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في بداية "الطور الثاني" (المواجهة الفكرية). وذلك:

1- السورة - بشكل عام - فيها بيان بعض خصائص وطبائع الذين يُكذّبون بيوم الجزاء، وبيان تأثيرهم السيئ على عامة الناس، خاصّة عندما يكونون من الملأ. ثم مواجهة هؤلاء الملأ المكذبين بالحق وبيان أنهم سبب الظلم الإجتماعي الذي يعيشه الناس (كشف الطاغوت). وان ذلك ناشيء عن تكذيبهم بيوم الدين، أي يوم الحساب والجزاء [1]..

وبيان ذلك [2] :

- ✓ "الْفَاءُ في ﴿فَذَلِكَ.. (٢)﴾ [الماعون]، لِعَطْفِ الصِّفَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى الْأُولَى لِإِفَادَةِ تَسَبُّبِ مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ فِي الْحُكْمِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْكَلَامِ؛ أنه (يكذّب بيوم الدين)، وَذَلِكَ شَأْنُهَا فِي عَطْفِ الصِّفَاتِ إِذَا كَانَ مَوْصُوفُهَا وَاحِدًا مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)﴾ [الصافات]

---

1 - وذلك في سياق " النذارة ": من باب أن اتّباع عامة الناس لمن "يُكذّب بالدين" واتخاذهم قادة متبوعين، هو أصل الشقاء والضنك الذي يعيشونه في حياتهم.. فلكي ينجوا، عليهم اتّباع مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر، ويمثلهم رسول الله، بما جاء به من الحق من عند الله جلّ ثناؤه.. والذين آمنوا معه.

2 - التحليل اللغوي لآيات السورة اقتبسناه من تفسير (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.. بتصرّف.

فَمَعْنَى الْآيَةِ عَطْفُ صِفَتَيْ: دَعِّ الْيَتِيمِ، وَعَدَمِ إِطْعَامِ الْمِسْكِينِ، عَلَى جُـرْمِ التَّكْذِيبِ بِالدِّينِ.. فجميعها مِنْ صِفَاتِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْجَزَاءِ.

وهذا يَكشف عن بشاعة وسوء إِنْكَارِ الْبَعْثِ بِسبب مَا يَنْشَأُ عَنْ إِنْكَارِهِ مِنَ الْمَذَامِّ والمساوئ، وَمِنْ مُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ..

وَجِيءَ فِي: يُكَذِّبُ، ويَدُعُّ، ويَحُضُّ.. بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِإِفَادَةِ تَكَرُّرِ ذَلِكَ مِنْهُ وَدَوَامِهِ.

- ✓ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)﴾ [الماعون: 4]، لِرَبْطِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِمَا قَبْلَهَا، لِأَنَّ الله أَرَادَ ارتباط هَذَا الْكَلَامِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. فمَوْقِعُ الْفَاءِ صَرِيحٌ فِي اتِّصَالِ مَا بَعْدَهَا بِمَا قَبْلَهَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى معنى التَّفْرِيع والترتّب وَالتَّسَبُّبِ". فالسهو **عن** الصلاة.. وما بعدها من الصفات.. سببه التكذيب بيوم الحساب.
- ✓ وفي توسّط { وَيْلٌ } لتلك الصفات كلها ـ من بداية السورة حتى نهايتها ـ إِشَارَة إِلَى أَن الويل ناشىء عَنْ جَمِيعِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي هُوَ ـ أي المكذّب بيوم الحساب ـ أَهْلُهَا.

2- وبناء على ما سبق، نلاحظ أنه بصرف النظر عن اعتبار السورة ـ كلّها أو بعضها ـ مكيّة أو مدنيّة، فإن مدار الكلام حول بيان صفات وخصائص الذين يكذّبون بيوم الحساب، في أي زمان ومكان، وبيان الأثر السيء لاتخاذهم قادة متبوعين. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.. وهذا هو دور السورة في "المنهاج"، ولا تأثير عليه من جهة تعيين زمن نزولها، مكيّة أو مدنيّة.

مناط السورة:

بيان أن المكذّبين بالله وبيوم الحساب والجزاء، من الملأ خاصّة، وهُم من الأغنياء أصحاب الدثور والمقنيات الكثيرة (الماعون)، أنهم سبب تفشّي الشرور وانتشار الظلم في المجتمع.. فكيف يقبل الناس بهم أسياداً ومتبوعين وهم سبب " الظلم الإجتماعي" و "المعيشة الضنكى" التي يحيونها في قريتهم وفي مجتمعهم ؟!!.. كعقوبة عاجلة من الله تعالى جزاءً لهم.

المعالجة:

أولاً: " أَصْلُ ظَاهِرِ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَيَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ.. إلى آخر الصفات الواردة.. وَالْإِشَارَةُ إِلَى الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ (ذلك) لِتَمْيِيزِهِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ حَتَّى يَتَبَصَّرَ السَّامِعُ فِيهِ وَفِي صِفَتِهِ، فيكون بِمَنْزِلَةَ الظَّاهِرِ الْوَاضِحِ بِحَيْثُ يُشَارُ إِلَيْهِ". وفي هذا كشف القناع عن حقيقة الذي يكذّب بيوم الجزاء والحساب [1]، فسيعرفه من سلوكه الظاهر وصفاته الواضحة التالية، فهو ذلك الذي:

---

1 ـ أي كشف حقيقة إيمانه دون الحاجة إلى شق صدره. فظاهره يكشف حقيقة داخله، وسلوكه يكشف حقيقة إيمانه. وقد بيّن الله تعالى طبائع المؤمن، وطبائع الكافر.. وهي الميزان في تقييم الناس، حكاماً ومحكومين.

- ✓ آية (1-3)، لا يعطي ضعاف الناس من المساكين والأيتام.. حقّهم ولا يَرحمهم، ويزجرهم بشدة وقسوة.. بل ولا يحثّ على الإحسان إليهم.. حيث لا منفعة من ضعاف الناس تُرتجى، ولا أذى أو شر منهم يُخشى.
- ✓ آية (4-6)، يحاول جاهداً إظهار نفسه - أمام الناس - بأنه من الصالحين الفاعلين للخير، طلباً للثناء عليه: (يراؤون). فهو قد يؤدي الصلاة.. أو غيرها من أعمال الخير، مراءاة للناس.. وإذا خلا مع خاصته غفل عنها ولم يبال أأداها أم لم يؤدها.. كما قال تعالى:
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾ [النساء: 142-143]
﴿..إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) ﴾ [النساء:36-38]
﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة: 264]
- ✓ آية (7)، وهو الذي يَمنع إعطاء الناس من الأشياء والأمور التي لم تجرِ العادة بمنعها (الماعون)، ويُنسَب مَنْعُها إلى لؤم الطبع وسوء الخُلُق وخسّة النفس.. كالعارية التي لا تضر إعارتها.. وذلك ضنّاً بعمل الخير وإن قَلّ..

فلو صدَقوا في إيمانهم، لأحسنوا عبادة ربهم - إخلاصاً واتباعاً - ولأحسنوا إلى خَلْقه..

ثانياً: إنذار المترفين والملأ وغيرهم من أصحاب الصفات السابقة - وهي علامة عليهم بأنهم يُكذّبون بيوم الدين [1] - إنذارهم بما ينتظرهم من العذاب الشديد والهلاك (ويل) من الله تعالى إن بقوا على حالهم.

وفي ما سبق، تقريرٌ لحقيقة أن صدق الإيمان بالله واليوم الآخر، وإخلاص العبودية لله عزّ وجلّ رغبة في ما عند الله من أجر وثواب، هو أهم وأكبر دافع لفعل الخير مع عموم الناس،

---

1 - ((قال الزمخشري: جَعَل عَلَامة التكذيب بالجزاء، منْع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد، لخشي الله تعالى وعقابه، ولم يُقدم على ذلك. فحين أقدم عليه عُلم أنه مكذّب. فما أشده من كلام! وما أخوفه من مقام! وما أبلغه في التحذير من المعصية، وإنها جديرة بأن يُستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين)). محاسن التأويل - القاسمي. كما في قوله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{5}) التكاثر. أنظر (تبيان سورة التكاثر). (وَهَذَا إِيذَانٌ بِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ هُوَ الْوَازِعُ الْحَقُّ الَّذِي يَغْرِسُ فِي النَّفْسِ جُذُورَ الْإِقْبَالِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ لَهَا خُلُقًا، إِذَا شَبَّتْ عَلَيْهِ، زَكَتْ وَانْسَاقَتْ إِلَى الْخَيْرِ بِدُونِ كُلْفَةٍ وَلَا احْتِيَاجٍ إِلَى أَمْرٍ وَلَا إِلَى مَخَافَةٍ مِمَّنْ يُقِيمُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَاتِ حَتَّى إِذَا اخْتَلَى بِنَفْسِهِ وَأَمِنَ الرُّقَبَاءَ، جَاءَ بِالْفَحْشَاءِ وَالْأَعْمَالِ النَّكْرَاءِ). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

وخاصة مع ضعافهم كالمساكين والأيتام.. فالذي يتعامل باحسان مع ضعاف الناس بدون مقابل في الحياة الدنيا، هو مَن ارتجى الثواب والأجر من رب العالمين في الحياة الآخرة.

وعليه، فصلاح المجتمع ورفع الظلم و " المعيشة الضنكى" عنه يكون في العبودية الكاملة والشاملة لله عزّ وجلّ، أي الدخول في السلم كافة..

(لاحظ تبيان سوَر: الحاقة، الفجر، الضحى، الليل، الأحقاف، الإنسان، البلد، الإسراء).

ومن هنا، فإن أول ما يُحْمل من الرسالة إلى الناس هو دعوتهم إلى عبادة الله مع بيان المصير (خطاب النذارة).. فإجابتها أصل كل خير ورفضها أصل كل شر:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾ [النحل: 2]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء]

18- (سورة الكافرون)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في الطور الثالث حيث أصبح الكفر موقفاً نهائياً للمجتمع ومَلَئه، وذلك:

1- ورد في سبب النزول أن بعض الملأ من قريش وساداتهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له: (هلمّ يا محمّد فاتّبع ديننا ونتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله. تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة.. الخ). وهذه الرواية لم تثبت [1]. ورغم ذلك، أغلب المفسرين ذكروا الرواية وجعلوها مؤثرة في توجيه معاني آيات االسورة.

2- هذا، وقد يكون اعتماد المفسرين للرواية، رغم ضعف سندها، له ما يبرره ـ في ما يبدو ـ وهو أن متن الرواية لا يتعارض مع محتوى السورة ـ أسلوباً ومعنى ـ بل قد ينسجم معه. ذلك أن، كلمة (قُلْ) في أول السورة تشير إلى أن السورة نزلت جواباً لطلبٍ من كفّار قريش، حيث أن أغلب ورود (قُلْ) في آيات القرآن يأتي في سياق جواب سؤال مباشر وُجّـه للرسول: (يَسْأَلُونَكَ)، أو ردّ شبهة أثارها الكفار أو طلب طلبوه [2]. ومعاني آيات السورة (جواب السؤال) ـ سنبيّنها بعد قليل ـ يدل على أن موضوع الطلب متعلق بالمهادنة أو المداهنة، كما في آيات أخرى كثيرة تُبيّن محاولة الملأ للالتقاء مع رسول الله في منتصف الطريق، أو الوصول معه لـ "حل وسط" بين الشرك والإيمان.. خاصة عندما يكون التحدي ـ بين الفريقين ـ في أَوْجِه، والخصومة في أشدّها.. كما هو الحال في "الطور الثالث".

3- أورد ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره أربعة أقوال للمفسرين في فهم آيات السورة وتوجيهها، نلخّصها بما يلي:

---

1 ـ (أسباب نزول القرآن) ـ الواحدي. وقال محقق الكتاب عصام الحميدان: ضعّفه الحافظ ابن حجر (فتح الباري: 733/8).

2 ـ أنظر (تبيان سور: الإخلاص، الفلق، الناس).

الأول: هذه سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون]، يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجَهون بهذا الخطاب هم كفّار قريش.. وأمَر الله رسولَه أن يتبرّأ من دينهم بالكليّة، وذلك بإعلان البراءة من المعبود أي الآلهة المطاعة: الآيتان (2-3)، والبراءة من طريقة العبادة، أي من الشريعة: الآيتان (4-5). فتبرّأ منهم في جميع ما هم فيه، ولهذا كانت كلمة الإسلام: " لا إله إلا الله محمّد رسول الله "؛ أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما أوحاه الله إلى رسوله الخاتم محمّد ﷺ . والمشركون يعبدون غير الله، عبادةً لم يأذن بها الله. ولذلك قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون: 6]. وهذا كان اختيار ابن كثير.

الثاني: ما حكاه البخاري وغيره أن المراد في: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ [الكافرون: 2-3]، في الماضي. والمراد في: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)﴾ [الكافرون: 4-5]، في المستقبل. وهو اختيار الطبري. حيث قال: (فأَمَر نبيّه ﷺ أن يؤيّسهم مِنَ الذي طمعوا فيه، وحدّثوا به أنفسهم، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم، في وقت من الأوقات. وآيس نبيّ الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً. فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا، إلى أن قُتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضهم قبل ذلك كافراً).

الثالث: أن ذلك تأكيد محض. ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربيه أن ذلك تكرار من باب التأكيد، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح] وكقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾ [التكاثر]

الرابع: نصره ابن تيمية في بعض كتبه؛ وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون]،، نفي الفعل لأنها جملة فعلية. و ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)﴾ [الكافرون]،، نفي قبوله لذلك بالكليّة. لأن النفي بالجملة الاسميّة آكد، فكأنّه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك. ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً [1].

هذا وبالنظر في الأقوال السابقة للعلماء، ظهر لنا ما يلي:

1- أنهم متفقون على أن هذه السورة سورة البراءة من **العمل** الذي يعمله المشركون.. براءة من **المعبود** ومن **نظام** العبادة [2].. فهذا هو فحواها ومقصودها: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]

2- وعند بحثهم أسلوب السورة وكيفية أدائها لذلك المعنى - البراءة من آلهة المشركين ودينهم - فقد اتفقوا أيضاً على أن مقصود الأسلوب ومؤدّاه أن تكون تلك البراءة بشكل علني، ومؤكّد، ودائم، وواضح وضوحاً بيّناً لا لبس فيه.

3- فبقي الخلاف محصوراً في تفاصيل أسلوب التوكيد بين أن يكون عن طريق التكرار مطلقاً، او عن طريق تكرار الجملة الأسمية بعد الفعلية.. فالجملة الفعليّة دلالتها مرتبطة بالزمن،

1 - تفسير ابن كثير - باختصار.

2 - دون البراءة من الأشخاص أو الأعيان، حيث ستكون من الأحكام المتعلقة بالمرحلة الثانية، أي بعد التمكين للمؤمنين في الأرض.

فالفعل المضارع (أعبد) يعني الآن، ويحتمل المستقبل. ولتأكيد النفي بالمستقبل أورد جملة اسميّة (عابد) يعني دائماً وأبداً، فلا علاقة لدلالتها بالزمن. وإذا دققنا في أساليب التوكيد المذكورة نلاحظ أن بينها نوع من الترابط والتداخل وتقوّي بعضها بعضاً.. بمعنى، إنْ كان مطلق التكرار توكيداً، فإن تكرار الجملة الاسميّة بعد الفعليّة، توكيد أقوى يمنع أي احتمال للتغيير في المفهوم، وعلى مدار الزمان: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

وعليه، فالمعنى المُراد إيصاله من آيات السورة هو "تأييس الملأ الذين كفروا من قريش من أن يوافقهم رسول الله في شيء مما هم عليه من الكفر، بالقول الفصل المؤكّد في الحال والإستقبال، وأن دين الإسلام لا يُخالط شيئاً من دين الشرك". وهذا هو مدلول كلمة الإسلام وشعاره، وركنه الأول:

لا إله إلا الله محمّد رسول الله.. وهذا المدلول ثابت ودائم ويتمثّله المسلم من بداية نطقه بالشهادتين، إذاً ما الجديد في السورة ؟

4- الجديد في السورة أمران:

- ✓ إعلان هذه البراءة من الدين السائد (الآلهة المدّعاة ونظام عبادتها) على عامة الناس.
- ✓ وصف مَن يعتنق ذلك الدين السائد بـ " الكافرون " ومخاطبتهم بتلك الصفة. على اعتبار أن الكفر هو موقفهم النهائي، كما في سورة يس:

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ..(٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)﴾ [يس: 7-11]

وهذا الأمر كان متأخراً في سير رسول الله بالرسالة؛ في "الطور الثالث"، حيث أن إعلان البراءة من دين الكافرين - الآلهة والشريعة وليس الأشخاص - يكون بعد إصرارهم على الكفر، وقُبيل أن يُنْزل الله تعالى بهم عذابه المدمّر؛ أي "البطشة الكبرى". كما ورد في سوَر أخرى متعلّقة بـ "الطور الثالث"، مثل قوله تعالى في سورة الشعراء بعد آية الإنذار بالعذاب:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا **تَعْمَلُونَ** (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)﴾ [الشعراء: 214-217]

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)﴾ [يونس: 41] [1]

---

[1] - نتمنّى على القاريء الكريم الرجوع إلى تفسير "سورة الكافرون" في كتاب (نظام القرآن) للفراهي الهندي رحمه الله. فهو يستقصي الأدلة والقرائن في بيان أن هذه السورة هي إعلان للبراءة من دين المشركين، وأن هذا يكون من المواقف الأخيرة للمؤمنين قُبيل إنزال العذاب بالكافرين بسبب إصرارهم على الكفر.

هذا، ونذكّر هنا أن البراءة من الكفر في هذه المرحلة وهذا الطور - كما نصّت سورة الكافرون وغيرها من الآيات - هو البراءة من كل ما عُبد من دون الله (الطاغوت)، ومن شريعته المتّبعة، دون البراءة من الأشخاص والأعيان. أما في "مرحلة التمكين" للمؤمنين، فتكون البراءة من الجميع ؛ من الطاغوت => ومن شريعته، ومن الذين يتبعونها (الأعيان). أنظر مثلاً، الآيات التي فيها لفظة (بريء) وتصريفاتها،

مناط السورة :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]، الملأ الذين اتخذوا الكفر موقفاً نهائياً لهم، يستميلون المؤمنين العابدين لله عزّ وجلّ والحاملين لدعوته، لصرفهم عن عبوديتهم لله تبارك وتعالى وتحقيق الغاية من الرسالة، عن طريق "الحل وسط" [1].

المعالجة:

1- الآية (1)، إطلاق وصف الكفر على مَن لا يعبد الله ولا يَتّبع شريعته.. وقد جَعَله موقفاً نهائياً له.

2- (2، 3)، بيان أن الكافرين هم الذين لا يتخذون الله وحده إلها معبوداً مطاعاً؛ فهم إما يعبدون غير الله جلّ وعلا.. أو يشركون معه غيره في الطاعة، تبارك اسم الله وتعالى جَدّه..
وأن المؤمنين هم الذين لا يعبدون إلا الله عزّ وجلّ وحده مخلصين له الدين، فلا يتخذون غيره إلهاً معبوداُ، ولا يشركون معه غيره بالطاعة.

3- (4، 5)، وعليه، فإن منهاج حياة الكافر - دينه - من عند غير الله جلّ وعلا. وأما منهاج حياة المؤمن - دينه - فلا يأخذه ولا يتلقاه إلا من الله وحده عزّ وجلّ.
فمفاد الجملتين الأُوليين الاختلاف التام في المعبود بين الفريقين، ومفاد الجملتين الأُخريين تمام الاختلاف في العبادة، فلا معبودهما واحد ولا عبادتهما واحدة.. فلا يمكن أن يلتقيان أبداً.. ولذلك قال لهم: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

4- (6)، إعلان المؤمنون حمَلة الرسالة براءتهم التامّة والدائمة من آلهة الكفار وشريعتها (الدين السائد).. إعلاناً بيّناً واضحاً لا لبس فيه.

عن فروة بن نوفل عن أبيه أن النبي ﷺ ، قال لنوفل: ((إقرأ { قل يا أيها الكافرون } ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك)) [2].

ولاحظ الفرق الذي ذكرناه، بين آيات السور المكيّة والمدنيّة. أنظر أيضاً "الجزء الأول" - الفصل الخامس /السير العملي (النقطة الثانية).

1 - شبيه بمناط سورة ن والقلم، وهي من السور المتعلقة بالطور الثالث، مما يعني تقارب أجواء السورتين. انظر تبيان سورة القلم.

2 - صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الأذكار. فـ ((هذه السورة هي إحدى سورتي الإخلاص، لأن سورتي الإخلاص:{قل يا أيها الكافرون} و {قل هو الله أحد} وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في سُنة الفجر، وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف، لما تضمنتاه من الإخلاص لله عز وجل، والثناء عليه بالصفات الكاملة في سورة {قل هو الله أحد})). تفسير جزء عم - ابن عثيمين.

19- (سورة الفيل)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في نهاية "الطور الثاني" وبداية الثالث، وذلك:

1- فيها تهديد لقريش بعذاب الله تعالى في الدنيا.. فكما أفشل الله كيد أصحاب الفيل.. فإنه قادر على إفشال كيد قريش لأوليائه؛ رسول الله والمؤمنين معه:
﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢)﴾ [الفيل: 2]

2- تسمية أعمال المشركين في الصد عن سبيل الله، خاصة في "الطور الثاني" وبداية الثالث؛ من إيذاء المسلمين وتعذيبهم وتجويعهم وحصارهم.. بـ **"الكيد"**. أما وقد فَشِلت تلك الإجراءات والأساليب (الكيد) في تحقيق مراد قريش في القضاء على الدعوة إلى عبادة الله أو - على الأقل - الحد من انتشارها.. فصعَّدوا أعمالهم ومواقفهم إلى "الطور الثالث"، حيث لجأوا إلى النظر والبحث عن أساليب وأعمال أخرى أكثر فاعلية في القضاء على دعوة الله قضاء مبرَماً.. في ما يظنون.. وهذا التخطيط والتفكير وتقليب الأمور سمّاه القرآن **"المكر"** [1].. ومنه القضاء على صاحب الدعوة وحامل الرسالة.. ومنه التلبيس على آيات الله وصرفها عن الدلالة على الحق، والاستهزاء بها: "المكر في آيات الله".. كما في قوله تعالى:
﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس: 21]
أي، وإذا أذقنا كفار مكة مطراً وخَصباً - وقد فتح الله عليهم الدنيا إملاءً واستدراجاً - من بعد بؤس وجدب مسَّهم، وهو الدّخَان أو العذاب الأدنى، إذا لهم مكر في آياتنا، أي يُوهِمون عامة

---

1 - (المكر): تدبير أمر في خفاء. فمجاله التخطيط، ومناقشة الأساليب والأعمال لاختيار الناجع منها.. كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَوَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {30}) . وكذلك الآيات من سورة النمل (48-52). وقد يكون المكر في الخير أو في الشر. فجاء وصف "المكر" في القرآن بأنه خير أو سيئ. وقد ذم الله تعالى المكر السيئ فقط، ولم يذم مطلق المكر، فقال تعالى في سورة فاطر: (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ{10}).(اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ..{43}).
أما (الكيد): مُعَالَجَة الشَيْءِ بشِدَّةٍ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْكَيْدُ، الْمُعَالَجَةُ (معجم مقاييس اللغة). فمجاله الأعمال نفسها، ومحاولة تنفيذها في الواقع لتحقيق الغاية المرادة، وإلغاء تأثير (معالجة) المقاومة أو الممانعة التي تحول دون تحقيق الغاية المرادة. فـ " الكيد " هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك. كما في قوله تعالى عن إبراهيم الخليل: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{57} فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{58}) الأنبياء. لذلك وُصف " الكيد " في القرآن - في إطار تحقيق المراد - بأنه: متين، أو ضعيف، أو عظيم، أو أنه في تضليل أو في ضلال، أي لم يحقق المراد. أنظر (تبيان سور الإخلاص والفلق والناس)، (تبيان سورة القلم). للتفصيل أنظر (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ) - حبنّكة الميداني. وأنظر "الجزء الثالث" (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - المكر والكيد في القرآن.

الناس أن آيات القرآن غير كافية للدلالة على صدق الرسول، ويزعمون أنه لو أنزلت عليه آية مادية (معجزة) لآمنوا بها؛ تكذيباً واستهزاء [1]..

مناط السورة:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢)﴾ [الفيل: 2]''' مواجهة ما يقوم به الكافرون من أعمال وإجراءات (كيد) لصرف الجماعة المؤمنة عن عبادة الله والدعوة إليه، وتحقيق الغاية من الرسالة.

المعالجة :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل: 1-5]

معنى آيات السورة واضح، وهي تُذكّر السامعين بقصة معروفة لديهم [2]، بما كان من نكال الله تعالى بأصحاب الفيل، حيث جعل كل ما قاموا به من أعمال وجهود شاقة وإعدادات كبيرة - زَحْف جيش كبير بكامل عتاده، وفِيَلة.. - من أجل تخريبِ الكعبةِ.. جعل الله كل ذلك "الكيد" في تضييعٍ وإبطالٍ فلم يدركوا مقصودهم، بأنْ دمَّرهُم أشنعَ تدميرٍ، فأرسل الله عليهم جماعات من الطير متتابعة (أَبَابِيلَ) فأحاطت بهم من كل ناحية، ترميهم بحجارة طينية (سِجّيل)، فجعلتهم كورق الزرع وساقه المتكسّر المُتَبقّي بعد أن أَكَلت منه البهائم وداسته بأرجلها (كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) [3].. شبّه تقطّع أوصالهم بتفرّق حطام النبات المتكسّر.

وبشيء من التفصيل يمكن القول [4]:

1. الخطابُ لرسول الله ﷺ، والهمزةُ لتقريرِ رؤيتِه ﷺ .. أيْ ألَمْ تعلَم علماً لا شك فيه متاخماً للمشاهدةِ والعَيَانِ، باستماعِ الأخبارِ المتواترةِ ومعاينةِ الآثارِ الظَّاهرةِ.

وتعليق الرؤيةِ بكيفيةِ فعلِه عزّ وجلّ، لتهويلِ الحادثةِ والإيذانِ بوقوعِها عَلَى كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ عجيبةٍ دالةٍ عَلَى عظمِ قُدرةِ الله تعالَى وكمالِ علمِه وحكمتِه، فهي آية من آيات الله تعالى الخارقة للعادة [5].

---

1 - أنظر (الطور الثالث) من خط السير، بند 11. في "الجزء الأول".

2 - بعضهم شهدها وبعضهم معلومة لديه بالرواية المتواترة.

3 - العَصْفُ والعَصِيفَةُ: الذي يُعْصَفُ من الزّرع، ويقال لحطام النّبت المتكسّر: عَصْفٌ. وعَاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ: تَكْسِرُ الشيءَ فتجعله كَعَصْفٍ، وعَصَفَتْ بهم الرّيحُ تشبيها بذلك. (مفردات القرآن) - الراغب الأصفهاني.

4 - أنظر تفاسير (التحرير والتنوير). (أبو السعود). (في ظلال القرآن). (ابن كثير). (جزء عم) - مساعد الطيّار.

5 - ((إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه. وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل، فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله. ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه! [ودليل ذلك أن الله تعالى ما خلق شيئاً إلا وجعل له نظامًا خاصًا، وسنة ثابتة: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾=> القمر:49، ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ الطلاق:3 ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد:8].. ومن ثَم، فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي

2. وَجِيء فِي تَعْرِيفِ الله سُبْحَانَهُ، بِوَصْفِ (رَبُّ) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ النَّبِيِّ ﷺ (كَ) إشارة إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ التَّذْكِيرِ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ تَكْرِيمُ رسول الله وتسليته وتثبيته ﷺ .. لما في وصف "الربّ" من الإشعار بالولاية والتأييد ولما تؤذن به إضافته إلى ضمير المخاطب من إعزازه وتشريفه.. فهو ـ سبحانه ـ الذي ربّى نبيه ﷺ وتعهده بالرعاية، وهو الكفيل بنصره على أعدائه.. وأَنَّ الله قادر على أن يَدْفَعُ عَنْه ـ والمؤمنين معه ـ " كَيْدَ" الْمُشْرِكِينَ؛ أي ما يقومون به من أعمال تعذيب وايذاء وتخويف وتجويع وحصار.. لصدّ المؤمنين عن عبادة الله ومنْعهم من الدعوة إليه. فَإِنَّ الَّذِي دَفَعَ " كَيْدَ " الذين كادوا لِبَيْته لَأَحقُّ بِأَنْ يَدْفع "كَيْدَ" الذين يَكِيدُون لِرَسُولِهِ ﷺ وَدِينِهِ وأوليائه.. ويؤيّد هَذَا قَوْله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢)﴾ [الفيل]،، حيث جاء بأسلوب السؤال التقريري في خطاب رسول الله، والذي يذكرنا باستخدامه في سورتي الضحى والشرح.. في سياق طمأنة رسول الله وتثبيته.

3. وفي إيراد القصّة أيضاً، تذكير لقريش بنعمة الله تبارك وتعالى عليهم في حماية هذا البيت وصيانته، بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ هُوَ الله رَبُّ الْبَيْتِ.. الربّ الحق الذي يعبده محمّد: { كَيْفَ فَعَلَ

ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم. هذا، وقد شاع في تفسير محمد عبده وفي تفسير تلميذه رشيد رضا.. الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه «المعقول»! وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبّل الغيبيات.. ذلك أن مواجهة ضغط الخرافة من جهة، وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى، تركت آثارها في تلك المدرسة، من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله.

إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية، لعل هنا مكان تقريرها: إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص. بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا. فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا، فإذا قرَّرت النصوص لنا أمراً فهو المقرَّر كما قررته!. ذلك أن ما نسميه «العقل» ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية.. هو إفراز واقعنا البشري المحدود، وتجاربنا البشرية المحدودة. وهذا العقل وإن يكن في ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب والوقائع بل تسمو عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها.. إلا أنه في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري. وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند الله. والقرآن صادر عن هذا المطلق، فهو الذي يحكمنا، ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها. ومن ثم لا يصلح أن يُقال: "إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله". كما يرد كثيراً في مقررات أصحاب هذه المدرسة. وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة. ولكن معناه أن العقل ليس هو الحَكم في مقررات القرآن. ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى)). (في ظلال القرآن) ـ سيد قطب. بتصرف. وبتعبير آخر يمكننا القول: بعد أن يَثبت أصل النص بالعقل، أي بأنه وحي من الله تعالى، يصبح دور العقل وعمله إدراك دلالة النص (فهم مراد الله) وحسب الأصول المعتبرة، لغة واصطلاحاً، ثم التسليم بتلك الدلالة. والإختلاف في الفهم ممكن، ما سمح بذلك النص؛ ثبوتاً ودلالة. وفي كتابه "درء تعارض العقل والنقل" قرر ابن تيمية ما يقرره سيد قطب هنا، رحمهما الله تعالى.

رَبُّكَ} وليست الأرباب والْأَصْنَامِ التي يعبدونها من دون الله وقد نَصَبُوهَا حَوْلَ البيت، حيث عجزت – كما عجزوا هم أيضاً - عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء..
لعلهم بتذكيرهم بإنعام الله عليهم بدفع العدو عنهم، يستحون من جحود نعمة الله تبارك وتعالى، الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم، فيبادروا إلى أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، كما في قوله تعالى:
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

4. ومن جهة أخرى، إعلامهم بِأَنَّ الله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، لعلّهم يطامنون من اغترارهم بقوتهم وَوَفْرَةُ عَدَدِهِمْ اليوم، في مواجهة رسول الله ﷺ والقلة المؤمنة معه. فقد حطّم الله "أصحاب الفيل"؛ الأقوياء ذوي البأس حينما أرادوا الاعتداء على بيته وحرمته، فلعلّ الله يُحطّم الذين يقفون لرسوله ودعوته، وهم أقل من أولئك قوة.. فالذين يعادون دين الله وأولياءه، أعداء لله عزّ وجلّ.. فهم في حرب مع الله سبحانه وتعالى.. فلمن تكون الغلبة والنصر ؟.

فهذا التذكير بالحادث على هذا النحو، هو طرف من الحَمَلَة عليهم.. وفيه إنذار بالعذاب المدمّر لهم من الله جلّ وعلا في الدنيا قبل الآخرة.

20، 21، 22 - (سوَر: الفلق، الناس، الإخلاص)

ربط السوَر بخط السير:

1– يأتي دور هذه السوَر من البداية في "الطور الأول"، مع الآيات الأولى من سورة العلق.. يعني في سياق البيان بأنه لا إله إلا الله، تعليماً وتزكيةً، على اعتبار أن فعل الأمر (قل) في هذه السوَر يدل على عموم الأمر بالقول والإخبار، بقراءة وتلاوة ما أنزله الله تعالى، أي: إقرأ، أُتلُ.. وعلى هذا تُفهم الأحاديث النبويّة التي فيها توجيهٌ لتلاوة هذه السوَر صباحاً ومساءً.. في الصلاة وخارجها.. ليبقى المسلم مستشعراً آثار إلهية الله تعالى، مستحضراً عظمته في قلبه، الأمر الذي يستدعي منه العبودية لله تعالى في قلبه وسلوكه وواقعه [1]..

2– هذا، وبعد الدخول في المواجهة الفكريّة والسياسية مع المجتمع وملئه في "الطور الثاني".. وبعد ما تشتد المواجهة ويقوى الصراع في الطور الثالث.. يلجأ المؤمنون؛ حَمَلَة الرسالة، إلى الله ربهم ومولاهم مستعيذين به من شرور أعدائهم شياطين الإنس والجن.. عندها، قد يأتي فعل الأمر (قل) في هذه السوَر كجواب سؤال أو رد على شبهة أثارها الكفار.. في سياق تثبيت قلوب المؤمنين وتبكيت أعدائهم. كما في سبب نزول سورة الإخلاص [2].. وكما هو الحال

---

1 - وسورتا الفلق والناس تشتركان في أسم واحد، وهو " المعوذتان "، ولهما فضائل ؛ منها: معوذتان من السِّحر والعين، وأنهما تُقرآن في أذكار دبر الصلوات، وفي أذكار الصباح والمساء، وعند النوم، وفي صلاة الوتر. ومن فضل " سورة الإخلاص ": أنها تعدل ثلث القرآن، وأنها تُقرأ في صلاة الوتر، وسنة الفجر، وسنة الطواف، وفي أذكار الصباح والمساء، وأذكار دبر الصلوات.

2 - أخرج أحمد والترمذي عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ يا محمد انسب لنا ربك [يعني اذكر نَسَبه] فأنزل الله تبارك: (قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ (1) الله الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا

في مختلف السوَر أو الآيات التي ورد فيها الفعل (قل). وكذلك في الآيات - سنذكرها بعد قليل - التي أمر الله تعالى فيها أولياءه؛ رسول الله والذين آمنوا معه، بالاستعاذة بالله السميع العليم من نزغ الشيطان [1] ؛ من الإنس والجن، والتي وردت ضمن مجموعة أحكام - في سياق تبليغ الرسالة وحمل الدعوة - تضبط العلاقة العامة والتعامل مع الناس في مجتمع مكة الجاهلي: من حيث الإعراض عن الجاهلين، والرفق والتعامل بالتي هي أحسن من الفعل والقول.. إلخ.. وقد جاءت هذه الأحكام في سوَر متعلّقة في "الطور الثالث" حيث التوتّر في العلاقة بين الفريقين كان في أعلى درجاته، ولا يَحتمل الأمر أدنى إثارة أو استفزاز حتى يتحوّل إلى اقتتال بالسلاح بين الفريقين (حرب أهلية). كما في الرواية الثابتة التي ورد فيها وصف عتبة بن ربيعة للحال بين الفريقين عندما أرسله الملأ من قريش ليتفاوض مع رسول الله ﷺ للوصول إلى حل وسط. حيث قال: (.. أما والله ما رأينا سخلة أشأم على قومها منك، فرّقتَ جماعتنا، وشتّتتَ أمرنا، وعِبْت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أنّ في قريش ساحراً، وأنّ في قريش كاهناً، ما يُنتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى..) [2] .

في مثل هذه الأجواء المشحونة والمتوتّرة جداً، جاءت تلك المجموعات من الآيات الكريمة التي وردت فيها تلك الأحكام.. وقد قَرُب إنزال العذاب بالكافرين.. فكانت توجيهاً حكيماً من الله جلّ وعلا، حيث جاء فيها:

- ✓ تنبيه المؤمنين لتخفيف حدّة التوتّر: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]، واستيعاب أي عملٍ طائش من جاهل، أو نزغٍ من شيطان خبيث قد يؤدي إلى تدهور الوضع.
- ✓ تسلية المؤمنين عمّا أصابهم ويصيبهم من أذى أعداء الله.
- ✓ إعداد المؤمنين وتدريبهم على الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد، والاستقامة على أمر الله تعالى والتوقف عند حدود الله، مهما كانت درجة الغضب أو الاسفزاز قوية من الجَهَلة والشياطين من الإنس والجن.. لأن المؤمنين هم الذين سيحْمِلون رسالة الله والانسياح بمنهج الله في الأرض، ولا شكَّ أن القيام على منهج الله يحتاج إلى صلابة وقوة وتدريب. ومن تلك الآيات الكريمة:

- ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾ [المؤمنون: 93-98]

أَحَدٌ(4)). حسن لشواهده، كما قال إبراهيم العلي في (صحيح أسباب النزول). وقد ضعّفه بعض أهل العلم.

1 - النَّزْغُ هو: دخولٌ في أمرٍ لإفساده. (المفردات) - الراغب. يعني مثل دخول الشيطان - من الإنس أو الجن - لإفساد الأمر بين الناس ؛ ذات البين.

2 - صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي.

أي، لمّا أعلم الله تعالى نبيه ﷺ بأنه مُنزل عذابه بهؤلاء المشركين الذين لم ينتفعوا بتلك التوجيهات التي تقدمت في الآيات قبل هذه - في سورة المؤمنون - علّمه كيفية الدعاء للنجاة من عذاب الله لهم.. وأكّد له أن العذاب نازل بهم قريباً، لكن في موعده المقدّر.. ثم أمره، مرشداً له إلى الترياق النافع: بمقابلة سيئات هؤلاء المشركين الجاهلين، بالأخلاق والسجايا التي هي أحسن من غيرها.. وبأن يستعيذ بالله ربّه من وساوس الشياطين وحَضّهم على مخالفة ما أمرهم الله تعالى به من الصبر ودفع السيئة بالحسنة.. كما في قوله تعالى:

- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ [الأعراف: 199-202]
- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت]
- ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..(٥٥)﴾ [الإسراء]

والآيات من سورة الإسراء، استمرار للسياق السابق فيها، الذي احتوى صوراً لِما كان يحتدم بين المسلمين والكفار من جدل محوره "خطاب النذارة".. ففي الآية الأولى: أمرٌ لرسول الله أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم "الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفِعال، ووقع الشّر والمخاصمة والمقاتلة.. فإنه عدو لآدم وذريته.. وعداوته ظاهرة بينة". وفي الآية الثانية: إخبار من الله ربهم أنه أعلم بمَنْ يستحق العذاب؛ وهم الكافرون. وأعلم بمَنْ يستحق الرحمة؛ وهم المؤمنون. فما عليك أيها الرسول الكريم إلا البلاغ والبيان بالتي هي أحسن، وكُل مَنْ استمع يتحمّل مسؤولية اختياره. فجملة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}،

زيادة لبيان أن الهداية والضلال من جعْل الله تعالى، وأن النبيّ غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلالة، إزالةً للحرج عنه في ما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم، أي ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنما أرسلناك داعياً [1].

وهذا يشير إلى أن **الحرص** الزائد من رسول الله والمؤمنين معه على هداية المشركين، **والشفقة** عليهم من أن يصيبهم العذاب الشديد وقد قَرُب نزوله.. قد يدفعان - الحرص والشفقة- بعض

1 - كقوله تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ {21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ {22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ {23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ {24}..) الغاشية. وقوله: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ {45}) ق.

المؤمنين إلى الشدة أو الخشونة في مخاطبة المشركين، الأمر الذي يستفزهم للقيام بأعمال مادية ضد المؤمنين، بسب كرههم للحق وأهله، وإصرارهم على الكفر.. مما قد يؤدّي إلى نشوب الإقتتال بينهم.. ويؤيد هذا، الآية التالية من سورة الجاثية، وهي قوله تعالى:
﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾ [الجاثية]

حيث، يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحض المؤمنين على التجاوز والصفح عما يصدر من المشركين من كلمات بذيئة، ومن أفعال قبيحة.. حتى يأتي الله بأمره - الذي لا يتوقعه المشركون ولا يخافونه - والذي فيه النصر للمؤمنين، و العذاب الشديد والخسران للكافرين.. {أَيَّامَ اللَّهِ} وقد كان يوم بدر، يوم الفرقان.

.. الخ..

هذا، **وتكرار** مجموعة الأحكام السابقة: من الأمر بالصبر والعفو، ومقابلة أخلاق المشركين السيئة بالسجايا الحسنة، والإعراض عن الجاهلين.. ثم الإستعاذة بالله تعالى من شر شياطين الإنس والجن ومحاولاتهم التدخّل لإفساد ذات البين (النَّزغ).. نقول، إن تكرار تلك المجموعات من الأحكام في سوَر مختلفة، يدل على شدة حساسية الموقف وهشاشة الوضع في مجتمع مكة الجاهليّ حينئذ، فكان من السهل أن يتحوّل إلى اقتتال داخلي (حرب أهلية) بين الفريقين؛ المؤمنين والكافرين. والله جلّ وعلا لا يريد ذلك، بل يريد استمرار البلاغ والبيان ومقارعة الحجة بالحجة والصبر على ذلك.. حتى يحكم هو - عزّ وجلّ - بين الفريقين وفي الوقت المقدّر.. بعد الفصل بينهما.. كما قدّر تعالى ذلك بعد الهجرة في غزوة بدر، في أسبابها ومقدماتها، وفي أحداثها ونتائجها.. ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وفي إطار سبق بيانه، تبرز أهمية وضرورة الاستعاذة بالله الأحد الصمد، ربّ الفلق، وربّ الناس، وملك الناس، وإله الناس، السميع العليم.. من شر ما خلق الله، وخاصة من وساوس ونزغات وهمزات شياطين الإنس والجن.. كمعالجات لمثل هذه المواقف والأحداث (المناط) ..[1]

فالمعنى العام لسورة الناس، يدخل فيه ما كان يجري بين كلٍ من الكفار والمنافقين واليهود.. إزاء رسالة الله ودعوته - على ما ذكَرَته آيات كثيرة مكية ومدنية - حيث كان زعماؤهم (شياطين الإنس) يبثون الدعاية والوساوس ضدها ويمكرون بها ويتآمرون عليها ليلا ونهارا:
﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة: 14-16]

1 - كما روى البخاري ومسلم ؛ قال سليمان بن صرد: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ ورجلان يستبّان، وأحدهما قد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه. فقال رسول الله ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه => ما يجد. لو قال: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ذهب عنه ما يجد).

وكذلك، وساوس شياطين الجن ونزغاتهم وإغراءاتهم للكفار وتزيينهم لهم مواقف الجحود والعناد والبغي.. في مثل ما جاء في الآيات التالية:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل: 23-24]

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾ [العنكبوت: 38]

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [الأنعام: 112]

3– وعلى ما سبق، فالخلاف في تأريخ نزول هذه السوَر لا تأثير له على دورها في المنهاج.. فيبقى الأمر في الإطار التاريخي فقط، وليس له تأثير على دلالة السوَر على "المنهاج". ويؤيّد هذا، أن القاعدة الشرعية المعتبرة في فهم النصوص الشرعية هي: العبرة بعموم اللفظ (النص) وليس بخصوص السبب.

مناط السور:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: 1-2]

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) ﴾ [الفلق: 1-2]

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾ [الناس: 1-4]

ما يواجهه المسلمون في سيْرهم في عبوديتهم لله جلّ وعلا وحمل رسالته، من شرور الكائنات جميعها، وخاصة أعدائهم من شياطين الإنس والجن.

المعالجة:

أولاً: بيان بعض الأسماء الحسنى التي يتفرّد بها الله؛ الإله الحق عزّ وجلّ.. فلا إله غيره.. وليس له نظير ولا نـدّ.. فهو وحده - جل ثناؤه - الخالق للخلق وربهم وإلههم، وهو المَلِك الصّمد الذي يُلجأ إليه ويُستعاذ به.. وهو وحده الذي تُصرف إليه العبادة؛ التوجُّه إليه والطاعة لحكمه وأمره.. ثم، توجيه المؤمنين وتعليمهم دعاء الله عزّ وجلّ وحده بأسمائه الحسنى، والاستعاذة به وحده واللجوء إليه والاحتماء بجانبه العزيز من الشرور المتوقعة أو عند تعرّضهم للشرور ومواجهتها من أعدائهم من شاطين الإنس والجن.. فهو القادر على نُصرتهم وحمايتهم. فأَمْر أعدائهم بيده وحده، فَهُم مِنْ خَلْقه وعبيده، ونواصيهم بيده عزّ وجلّ، وهو القاهر فوق عباده. ليبقى المؤمنُ متوكّلاً على الله وحده، مستعيناً به وحده، قوياً به وحده.

ثانياً: وإليك بيان لبعض المعاني الواردة في هذه السوَر[1]:

1 - أنظر (تفسير جزء عم) - مساعد الطيّار. ولاحظ المنهج الحسن الذي بيّنه الشيخ في النظر في الروايات التفسيرية المتعددة والمأثورة عن الصحابة والتابعين.. وفي التقريب والترجيح في ما بينها.

1- أعوذ: أحتمي وألتجئ وأستجير.

2- الفَلَق: أي المفلوق. والفَلْقُ: شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض. يقال: فَلَقْتُهُ فَانْفَلَقَ. والفَلَق: الخَلْق كله، كأنَّه شيءٌ فُلِق عنه شيء حَتَّى أُبرِزَ وأُظْهِر. فـ المفلوق يعني المخلوق قال تعالى: (فالِقُ الْإِصْباحِ) [الأنعام/96]، حيث ينفلق من ظلمة الليل. (إِنَّ الله فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى) [الأنعام/95]، (فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [الشعراء/63] [1].. فـ (ربُّ الفَلَق) أي "ربُّ كل مخلوق"، بمعنى أنه الخالق للخَلْق، والمالك أمرهم، وسيّدهم المتصرّف فيهم، والقاهر لهم، ونواصيهم بيده.. وذلك هو الله، جلّ جلاله.

3- الشّر: ضد الخير. وهو السّوء والمعابة والضُّر، وما يكرهه الإنسان ويبغضه.

4- (وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3)) الفلق. غاسق: الليل المظلم. وقَبْ: خيّم أو انتشر.. وذلك عبارة عن النائبة بالليل كالطارق. فالاستعاذة ليست من الظرف نفسه، الليل، بل مما يتخلله من شرور حاصلة أو مُحتَمَلة.

5- (النفاثات في العُقَد): النفث هو النفخ. والعُقَد جمع عقدة. والجملة كناية عن أعمال السَحَرة حيث يعقدون عُقداً في خيط وينفثون عليها وهم ويتمتمون بتعاويذهم، حين إرادتهم السحر لأحد.

6- الوَسواس: الذي من طبعه الوَسوسة وهي: الصوت الهامس جداً، الخفي. وتكون من الشيطان بالإغراء في الشر وما يَصرف عن سبيل الرشاد. الوِسواس: حديث النفس الخفي والأفكار: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد {16}) ق.

7- الخنّاس: الذي من طبعه أن يخنُس. وهو أن يتأخّر وينقبض ويتوارى بعد ظهور.. "فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله، جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس الشريرة التي هي أصل الذنوب. فإذا ذَكَر العبدُ ربَّـه واستعاذ به، تأخّر وانقبض، كما يخْنس الشيء ليتوارى. فذِكْرُ الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه، كالسياط والمقامع التي تؤذي من يُضرب بها. ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة" [2]..

---

1 - وصف " الفلْق " يكاد ينطبق على جميع أشكال الخلْق والإيجاد في الجماد والأحياء: كفلْق الصبح من ظلمة الليل.. وكالولادة عند الثدييات. وتفقيس البيض عند الطيور والأسماك والزواحف والحشرات.. وفلْق الحب والنوى في النبات.. وانقسام (فلْق) الخلايا الحية، سواء عند وحيدة الخلية (بكتيريا..) أم متعددة الخلايا أو في نمو الأنسجة.. الخ.

2 - ((روى الإمام أحمد بسنده عن عاصم، سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب". تفرد به أحمد، إسناده جيد قوي، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلب [خنس]، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلب)). (تفسير ابن كثير)

والوَسوسة هي أقصى ما جعل الله تعالى، للشيطان من كيد أو تأثير وسلطان على الإنسان. لهذا فالأمر منوط بالإنسان بداية ومآلاً، وهو وحده مَنْ يتحمّل المسؤولية عن أعماله، فكما أن الشيطان وَسواس فإنّـه خَنّاس [1].

1 - روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أُحدّث نفسي بالشيء، لأن أَخرّ من السماء أحب إلي من أن أتكلم به. قال: فقال النبي ﷺ: "الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة ". (تفسير ابن كثير). نقول: ولذلك وصف الله تعالى كيد الشيطان بأنه ضعيف فهو لا يجاوز تزيين الباطل والتحريض عليه: (..فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً {76}) (النساء) (كانَ ضَعِيفاً) لِلتَّأْكِيدِ لِضَعْفِ كَيْدِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ مُنْذُ كَانَ كَانَ موصوفا بالضعف والذلة. فهذا وصف لحقيقة قدرته وتأثيره المباشر - سلطانه وكيده - على الإنسان. لذلك فهو عندما يُهزَم أولياؤه يتولّى عنهم ويتركهم وحدهم يواجهون مصيرهم السيّء، فهو أعجز من أن ينصرهم، كما حصل في غزوة بدر مثلاً:{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ. فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ{48}} (الأنفال). ولهذا يوم القيامة لا حجة لأحد على الشيطان، بأنه سبب معصيته أو كفره.. لأنه ما كان له عليه من قوة يقهره بها على اتباعه، ولا كانت معه حجة.. فليس له إلا الطلب والتزيين بالباطل فمن استجاب له استجاب باختياره اتباعاً لأهوائه وشهواته. وعليه فالإنسان وحده يتحمّل مسؤولية عمله: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {22}) (إبراهيم). (وما كان لي عليكم من سلطان) أي قدرة ومَكَنة وتسلّط وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، (إلا أن دَعَوْتكم) أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني للباطل، فاستجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل. ولم تستجيبوا لربكم إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج. قال النحويون: الدعوة هنا ليس من جنس السلطان. فهو استثناء منقطع. أي لكن دعوتكم.=>

أما الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - وبحكم أنه الخليفة في الأرض فقد أعطاه الله تعالى الفاعلية والقدرة على التأثير في سائر المخلوقات والموجودات، وقد سخرها الله تعالى له.. ومنها تأثيره على أخيه الإنسان فقد جعل الله له عليه سلطاناً قوياً. فقدرة الإنسان على حَمْل غيره على عمل من الأعمال، تارة يكون بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه.. فله مجالات عديدة من التسلط والقدرة والكيد.. ومن هنا جاء وصف كيد النساء بأنه عظيم: (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ{28}) (يوسف).. وذلك بوصفها الإنساني أولاً، ثم لكونها امرأة، فعندها القدرة على القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرها - رجلاً أو امرأة - على القيام بما يكره (الكيد). مثل ما قامت به امرأة العزيز من أعمال وما أعدته من ترتيبات ضد نبيّ الله يوسف عليه السلام لتجبره على المعصية، إلا أن الله تعالى جعل كيدها في تضليل فعصم نبيّه وكشف أمرها. ومثل ما عملته وأعدته ضد النسوة في المدينة من أعمال وترتيبات ألجأتهن إلى تقطيع أيديهن. وعلى هذا المعنى يُفهم "الكيد" في القرآن الكريم، ألا وهو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك. فالكيد مجاله الأفعال والقيام بها. أنظر (تبيان سورة الفيل). ولهذا كان كيد الشيطان ضعيفاً لأن الله تعالى لم يعطه قدرة على التأثير في حياة الإنسان - بوصفه الخليفة في الأرض - إلا الوسوسة. بل وقد جعله الله تعالى، "خـنّاس" فما أن يستعيذ الإنسان بالله رب الناس، ويذكره بأسمائه الحسنى، تبارك وتعالى.. حتى يتصاغر ويتوارى.

وتأمّل حكمة وجلالة القرآن كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه «الوسّواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس». لتعم الاستعاذة شرَّه جميعه. ولم يقل: من شر وسوسته، فقط. والوسوسة هي بدايات الإرادة: ذلك أن قلب الإنسان يكون فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس الشيطان إليه، **فيخطر** الذنب بباله. فيُصوّره لنفسه ويُشهيه، فيصير **شهوة** يحبها ويرغبها. ويزيّـنها له ويحسّنها، ويخيّـلها له في خياله، حتى **تميل** نفسه إليه فيصير **إرادة**. ثم لا يزال يُخيّل له ويُشهّي حتى يُشغله في صورة المعصية والتذاذه بها عن علمه بضررها وسوء عاقبتها، فلا يرى إلا لذة المعصية فقط وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة **عزيمة** جازمة. فيشتد الحرص عليها من **القلب**، فتتحول إلى **فعل**.. حيث يبعث القلبُ الحواسَ وسائر الأعضاء في الطلب. ويبعث الشيطانُ معهم مدداً لهم وعونا، فإن فتروا حرّكهم.. كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) ﴾ [مريم: 83]

فكلما فتروا أو وَنوا أزعجتهم الشياطين وأزّتهم وأثارتهم. فما تزال بالعبد تقوده إلى الذنب. فقد رضي الشيطان لنفسه أن يصير قوّاداً لكل من عصى الله. كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه وقُبْح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة وصار قــوّاداً لذريته [1]

فبذرة كل معصية: إنما هي الوَسوسة أو خواطر النفس - وقد يقويها الشيطان بوسوسته ونزغه - فإذا انساق وراءها الإنسان، خطوة بعد خطوة (خطوات الشيطان)، اتّـباعاً لأهوائه وشهواته.. نَمَت وكبرت وقويت حتى تصبح إرادة جازمة، فتتحوّل عندها إلى فعل في الواقع [2]. أما إذا ذَكر الإنسانُ الله تعالى بعد ورود الخاطر السيء مباشرة، واستعاذ بالله

وحتى في حالة السحر، فإن تأثير الشيطان المباشر على المسحور له، لم يحصل إلا من خلال دائرة تأثير قدرة إنسان آخر وهو الساحر: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1}.. وَمِن شَرِّ **النَّفَّاثَاتِ** فِي الْعُقَدِ{4}). هذا والله تعالى أعلم وأحكم.

1 - أنظر (التفسير القيم) - ابن القيّم الجوزية

2 - هذه المراحل التي يمر فيها الفعل الإنساني من بداية الخاطرة إلى حصوله في الواقع، يشير إليها قوله تعالى في وصف حال القاتل من ابني آدم في كلمة واحدة هي "طوّع"، في قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{27} لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{28} إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{29} **فَطَوَّعَتْ** لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{30}) المائدة. يقول البغوي في تفسيره: (({ فطوعت له نفسه }، أي: طاوعته وشايعته وعاونته { قتل أخيه }، في قتل أخيه، وقال مجاهد: فشجعته، وقال قتادة: فزينت له نفسه، وقال يمان: سهلت له ذلك، أي: جعلته سهلاً. تقديره: صوّرت له نفسه أن قتل أخيه طوْع له، أي سهل عليه، فقتله)). (والمعنى أن القتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس). {فأصبح من الخاسرين} أي: صار ممن خسر الدنيا والآخرة، وذهب عنه خيرهما. ويبيّنه ما صح عن النبي ﷺ أنه قال: « ما قُتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، وذلك أنه أول من سن القتل ». وهذا يعني أن القتل كان محرماً في شريعة آدم عليه السلام بدليل ترتّب الإثم والعذاب على القاتل. وأغلب الظن أن ابني آدم هذان هما من نسل آدم وليس ابناه المباشران.

من شرّ الشيطان وشرّ نفسه.. وخاف **مقام ربه** ونهى النفس عن الهوى.. ذهبت وانتهى أثرها تماماً..

8- الجِنّة: مرادفة لكلمة الجِنْ. وأصل معناها: الخفي المستتر غير الظاهر.

9- الأَحَد: يعْنِي المتفرّد. و(أَحَد) على صِيغَة "الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ"، وهي تُفِيدُ تَمَكُّنَ الْوَصْفِ فِي مَوْصُوفِهَا بِأَنَّهُ ذَاتِيٌّ لَهُ. فَوَصْفُ الله نفسه بِأَنَّهُ "أَحَدٌ" مَعْنَاهُ: أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ فلا شريك له، أي في كونه الذي له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، ولا تصلح لشيء سواه [(1)].

10- الصَّمد: الذي يقصده الخلائق في قضاء الحوائج والرغائب. فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه.. فهو أَحَد يَصْمد إليه كل شيء في كل شيء، وهو لا يَصْمد إلى شيء.

11- كفؤ: نظير وندّ.

والحمد لله رب العالمين

23- (سورة النجم)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في "الطور الثالث"، وذلك لما ذُكِرَ فيها من سِماته وخصائصه، وهي:

1- وصف "التولّي" دليل على أن الكفر أصبح موقفاً نهائياً لبعض الكفار:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) ﴾ [النجم: 33-34]

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ﴾ [النجم: 29]

وهُم الذين برزوا وظهروا في محاربة دين الله تعالى والتلبيس على الحق (كما في سوَر: العلق، اللهب، المدثر..) وهذا يكون في مرحلة متأخرة من السير بالرسالة وبعد الدعوة والبيان والمقارعة بالحجة والبرهان.

2- إنذار قريش بعذاب الاستئصال من الله في الدنيا، كما هي سنته في الأمم السابقة الظالمة الطاغية مثل عاد وثمود، ووصف قوم نوح بأنهم أظلم وأطغى:

---

1 - أنظر (تفسير الطبري). و (التحرير و التنوير) ابن عاشور.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) ﴾ [النجم]

فهذا إنذار لقريش حتى ينتهوا عن السير على خطى وسُنن تلك الأمم، وإلا سيلاقُون ما لاقَوا.

3– فيها ذكر لحادثة الإسراء والمعراج:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ [النجم: 13-18]،، وقد حدثت في "الطور الثالث" من المرحلة الأولى [1].

مناط السورة:

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢)﴾ [النجم: 59-62]

وصْف الكفار بـأنهم "سامدون". والسامد: السائر على هواه بغير دليل، من سمدت الإبل في سيرها، إذا جدّت ومضت على رؤوسها. فهو خروج عن الطريق البيّن الواضح الموصل للمقصد، وسير بلا هدى ولا دليل. ووصْفُهم بـ "السامدون" تشبيهٌ لحالهم بتلك الحال من سير الأبل [2].

فهم يسيرون في جميع مجالات حياتهم باتباع الظن وما تهوى الأنفس، في عقائدهم ونظام حياتهم وأقوالهم وأفعالهم.. بلا دليل ولا علم.. تاركين الهدى والصراط المستقيم الذي جاءهم به رسول الله من عند الله تبارك وتعالى.. وليس هذا فحسب، بل ويستهزؤون بالحق الذي بلغهم وبالمصير الرهيب الذي ينتظرهم، في الدنيا قبل الآخرة.

المعالجة:

الخط العام في معالجة السورة لمناطها؛ أي في كون المجتمع ومَلَئه سامدون يضحكون من الحق، كالتالي:

---

1 - ((ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث، وأنه قبل الهجرة بسنة. قاله الزهري وابن سعد وغيرهما. وبه جزم النوويّ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه)).(محاسن التأويل) - القاسمي. وانظر أيضاً (الرحيق المختوم) - المباركفوري، وقد ناقش الأقوال المختلفة ورجّح القول بأن الإسراء متأخر جداً، حيث قال: ((..غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً... نرى أن الإسراء إنما وقع إما قُبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، والله أعلم)). والتفصيل أنظره هناك. وانظر كذلك (السيرة النبوية الصحيحة) - أكرم ضياء العمري. نقول: وهذا هو الراجح في وقت الإسراء.

2 - سامد: ((المعنى المحوري؛ انتصاب جرم الشيء قائماً من شدة اكتنازه بما يشغل جوفه.. والسامد: المنتصب إذا كان رافعاً رأسه ناصباً صدره.. كما يسمد الفحل إذا هاج.. { وأنتم سامدون }: مستغلظون راكبون رؤوسكم في الباطل غير خاشعين)) (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل. ((سامِدُونَ: مِنَ السُّمُودِ وَهُوَ مَا فِي الْمَرْءِ مِنَ الْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ، يُقَالُ: سَمَدَ الْبَعِيرُ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ فِي سَيْرِهِ، مُثِّلَ بِهِ حَالُ الْمُتَكَبِّرِ الْمُعْرِضِ عَنِ النُّصْحِ الْمُعْجَبِ بِمَا هُوَ فِيهِ بِحَالِ الْبَعِيرِ فِي نَشَاطِهِ)). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

أولاً: بالنسبة للكافرين، كانت على ثلاثة محاور رئيسة:

المحور الأول: تقرير وبيان الحق واليقين الذي يكتنف رسالة الله؛ القرآن الكريم:

- فمن حيث المصدر: فهو من الله عزّ وجلّ.. ثم الإخبار عن بعض مظاهر القدرة والعظمة والجلال التي لله تبارك وتعالى، وآثارها في المُلْك والملكوت الأعلى.. فالله هو الربّ الحق، وقد أوحى لرسوله برسالته للناس، وفيها بيان مراده منهم..
- والناقل: هو الملَك جبريل عليه السلام، من مخلوقات الله العظيمة، أمين وقوي وحافظ..
- والمتلقّي: هو محمّد بن عبد الله، الصادق الأمين الذي يعرفونه. فهو رسول الله المتيـقّن تماماً مما تلقى، فدليله المشاهدة ورأي العين.. فلا مجال للخطأ أو اللّبس في الأمر.

المحور الثاني: وعلى النقيض مما هو عليه رسول الله - والمؤمنون معه - من اليقين وما جاء به من الحق.. بيان أن قريشاً يسيرون في حياتهم باتباع الظن وما تهوى الأنفس بلا دليل ولا علم، والتكبّر عن سماع الحق والخشوع له (سامدون).. وضَرْب بعض الأمثلة على ذلك من عقائدهم، ونظام حياتهم، وأقوالهم، وأفعالهم.. وبروز أفراد من الملأ منهم - سامدون أيضاً - يعلنون الكفر كموقف نهائي، ويقومون بالتلبيس على الحق، وإثارة الشبهات.. كل ذلك بناء على الوهم.. ثُمّ بيان فساد ذلك جميعه، وإقامة الحجة عليهم. ويستغرق ذلك معظم آيات السورة.

المحور الثالث: إنذارهم بالهلاك والدمار بحادثةٍ تَحُلُّ بهم قَرِيبًا (الآزفة) في الدنيا قبل الآخرة - كما هي سنة الله تعالى في مَنْ سبقهم من الأمم التي طغت على أمر الله - إن استمروا على حالهم "سامدون" غير مبالين.

ثم بيان طريق النجاة وهي طريق الحق: اتباع الهدى الذي مصدره العلم اليقين، المبني على الحس والخبر الصادق. أي ترك تلك الحال (سامدون) التي هم عليها في نظام حياتهم، بترك الأوثان والآلهة المدّعاة والباطل الذي هم عليه المبني على الوهم وما تهوى الأنفس.. والعودة إلى الجادة والدخول في دين الله والسجود له.

ثانياً: بالنسبة لحَمَلة الرسالة بوصفهم جماعة مؤمنة، وبيان المطلوب منهم:

- تبليغ وبيان ما سبق ذكره في السورة..
- ترك دعوة أولئك الأفراد الذين أدبروا وأصروا على الكفر (تولّوا)، وعدم الاهتمام بهم.. والذين هم أشد كفراً من سائر قومهم.. ومتابعة الاهتمام بمن قد يستجيب [1].
- وأن لا يَصِفوا أنفسهم بالتزكّي، لأن ذلك ادّعاء بلا دليل وقول (تسمية) بلا علم.. فالله خالق الإنسان هو وحده الذي يعلم حقيقته:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ

1 - كما جاء في قوله تعالى في سورة عبس، في ترك من استغنى عن الحق، والاهتمام بمن جاء يتعلّم: (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10}).

الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)﴾ [النجم: 31-32]

والآن، إلى شيء من التفصيل:

- ✓ (1-12)، التأكيد بأسلوب القسم [1]، على الآتي:

أن محمّداً ابن عبد الله الصادق الأمين الذي تعرفونه، هو رسول ﷺ ، وأنه راشد وتابع للحق ليس بضال [2]. وأن هذا القرآن هو الحق من الله عزّ وجلّ: فمن حيث المصدر فهو من الله تعالى، والناقل هو المَلَك جبريل عليه السلام أمين وقوي وحافظ لما يُكلَّف به من الوحي. والمتلقّي هو مَن تعرفون حق المعرفة؛ صاحبكم، وهو متيقّن تماماً مما تلقى، فدليله المشاهدة، فقد رأى جبريل - عليه السلام - على صورته الحقيقية رأي العين، له ستمائة جناح وقد سد الأفق بخَلْقه العظيم.. فلا مجال للخطأ أو اللبس في الأمر فهو الحق. فـ محمّد ﷺ ، رسول الله حقاً، وما ينطق به وحيٌ من الله تبارك وتعالى [3].

---

1 - قوله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى). يشبه قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الواقعة. فالنجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم، ومنها التي تعرفها العرب كالثُريّا و الشِّعرى. والقسَم بـالنجوم لما في خَلْقها من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم: {فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي} [الأنعام: 76]. وتقييد القسَم بالنجوم بوقت غروبها، إشارة إلى أن غروب تلك المخلوقات العظيمة بعد أوجها في شرف الارتفاع في الأفق، دليل على أنه تسخير لقدرة الله تعالى، ولذلك قال إبراهيم: {لا أحب الآفلين} [الأنعام: 76]. فيكون قوله: {إذا هوى} إشعاراً بأن النجوم كلها مسخّرة لقدرة الله، مسيّرة في نظام أوجدها عليه ولا اختيار لها، فليست أهلا لأن تُعبَد، فالنجم مهما يكن عظيما هائلا فإنه يهوي ويتغير مقامه. فلا يليق أن يكون معبوداً. فللمعبود الثبات والارتفاع => والدوام. فحصل المقصود من القسَم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية، مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها، وحتى لا يتوهّم المشركون أن في القسَم بالنجم - الشِّعرى أو غيره - فيه تعظيم له. فإن حالة الغروب المعبّر عنها بالهَوِي حالة انخفاض ومغيب، لأنهم يعدّون طلوع النجم أوجاً لشرفه، ويعدّون غروبه حضيضاً. أنظر (تفسير ابن كثير). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. و(تفسير السعدي). و(في ظلال القرآن) - سيد قطب.

2 - (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3}): الضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المقصود، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق. والغواية: فساد الرأي وتعلقه بالباطل. والسامد: السائر على هواه بغير دليل وقد ترك الطريق الموصل إلى المقصود. ومن ثَمّ، فـ "السامدون" هم الضالون بسبب تعلّقهم بالباطل، وينطقون عن الهوى. فنفى الله تعالى ذلك كله عن رسوله وأثبته لهم. وبالتعبير عن رسول الله بوصف (صاحبكم) تعريض بأنهم أهل بهتان، فمقتضى الصحبة أن يكونوا عارفين به ؛ نسبه وصدقه وأمانته. ومقتضى الصحبة أن يكونوا مصدقين مناصرين له، لا أن يكونوا أعداء له.

3 - ((فالأمر إذن - أمر الوحي - أمر عيان مشهود. ورؤية محققة. ويقين جازم. واتصال مباشر. ومعرفة مؤكدة. وصحبة محسوسة. ورحلة واقعية. بكل تفصيلاتها ومراجعها.. وعلى هذا اليقين تقوم دعوة « صاحِبُكُمْ » الذي تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون في صدق الوحي إليه. وهو صاحبكم الذي عرفتموه

✓ (13-18)، ولقد رأى من آيات ربه العظيمة، أي من مظاهر القدرة والعظمة في ملكوت الله في الملأ الأعلى، منها: سدرة المنتهى التي ما من أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها لحسنها وبهائها.. وجنة المأوى.. وجبريل – عليه السلام – فقد رآه مرة أخرى بخَلْقه العظيم الذي سد الأفق الأعلى [(1)]..

✓ (19-28)، ولما بيّن الله سبحانه وتعالى ما رآه النبي ﷺ من آيات ربه العظيمة في الملكوت الأعلى، قال مخاطباً لهم:
﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)﴾ [النجم: 19-20]،

وهذا الاستفهام للتوبيخ وللتحقير وانحطاط رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله عزّ وجلّ. فالمعنى: عُقيب ما سمعتُم من آثارِ كمالِ عظمةِ الله عزّ وجلّ في ملكوتِه، وجلالِه وجبروتِه وإحكامِ قدرتِه في الملأ الأَعْلى.. أخبرونا عن شأن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله - عزّ وجلّ - ما قيمتها، وما مرتبتها، وما عزّتها؟!!.. هلْ لهَا شئ من القدرة والعظمة تُوصَف بها ؟!! هل أوحت لكم بشيء تُبيّن لكم فيه ما تريده مما يجب فعله وما لا يجب ؟! فقد أوحى الله ذو الجلال والعظمة إلى محمّد الهُدى ودين الحق.. أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع ؟!.. إن ما تعبدون من

وخبرتموه. وما هو بغريب عنكم فتجهلوه. وربّـه يصدّقه ويقسم على صدقه. ويقص عليكم كيف أوحى إليه. وفي أي الظروف، وعلى يد مَنْ وكيف لاقاه. وأين رآه! ذلك هو الأمر المستيقن، الذي يدعوهم إليه محمد- ﷺ). (في ظلال القرآن) - سيد قطب. كما في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16} وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{17} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27}). أنظر (تبيان سورة التكوير). ((وتوافُق آيات (النجم) لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضا، أمر لا خفاء به عند المتدبّر، وكله ردّ على المشركين المفترين، وإقسام على حقيقة الوحي والتنزيل، وصدق ما يُخبر به، لا سيما وهو صادق عندهم لا يكذّبونه. فما بقي بعد التعنت والجحود إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة، كما أشار له في آخر السورة)). (محاسن التأويل) - القاسمي.

1 - وروى البخاري بسنده عن مسروق قال: قلتُ لعائشة: فأين قوله (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى)؟ قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنما أتى هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق. صحيح البخاري (361/6-ح3235)، وصحيح مسلم (160/1 ح177). قوله تعالى: (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى). روى النسائي بسنده عن عبد الله [ابن مسعود]، عن النبي ﷺ (ولقد رآه نزلة أخرى) قال: {رأيت جبريل -عليه السلام- عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر} (التفسير350/2 ح562) وابن خزيمة في (التوحيد 500/1 ح291)، والطبري (التفسير 49/27). وأخرجه أحمد (المسند 460/1). قال ابن كثير عن إسناد أحمد: إسناد جيد قوي. وساق له روايات أخرى عند أحمد وحسنها كلها وجوّدها (التفسير 389/4-390). ويشهد له ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة (ولقد رآه نزلة أخرى) قال: رأى جبريل. (الصحيح - 158/1 ح175). وروى مسلم بسنده عن أبي ذر، قال: سألت رسول الله - ﷺ - هل رأيتَ ربك؟ قال: {نور أنى أراه}. (صحيح مسلم 161/1-ح78). أنظر (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين. و (تفسير ابن كثير). و (محاسن التأويل) - القاسمي. أنظر تفصيل قصة الإسراء والمعراج كما هي في الروايات الصحيحة في (السيرة النبوية الصحيحة) - أكرم ضياء العمري.

دون الله جلّ جلاله ليست آلهة على الحقيقة، بل هي مجرد ادعاءات وتسميات من غير حقيقة، جئتم بها من عند أنفسكم.. وإلّا فأروني دليلاً من الحس والعقل أو من الخبر الصادق، على صدق دعواكم !! بل هو الظن المبني على الوهم، واتباع الهوى.

ثم أكّد الله لهم أن الذي جاءهم من ربهم هو الهدى، بثلاثة مؤكدات: القَسَم المحذوف، و اللام، و قد، وتقديره: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى - أنّه لا إله إلا الله، وإليه المصير - وربّهم هو خالقهم ومالكهم ومدبّر أمرهم.. وهو الله جلّ جلاله.. فلا يجوز تلقّي الشريعة والعلم إلا من عند الله، فمنه وحده الهدى، لأنه سبحانه وتعالى هو الربّ الحق.. وفي هذا التأكيد، زيادةُ تقبيحٍ لحالِهم في اتباعِ الظنِّ وهوى النفسُ؛ فإنَّ اتباعهما من أيِّ شخصٍ، قبيحٌ، وممن بيّن الله تعالى لهم الهدى بإرسال الرسول وإنزالِ الكتابِ، أقبح..

وكذلك، بيّن - سبحانه وتعالى - فساد عقائدهم التي يعتقدونها، وتصوراتهم عن الله عزّ وجلّ (الشفاعة، الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى..) ببيان فساد أصلها، فمصدرها ليس العلم الذي دليله المشاهدة أو الخبر الصادق، وإنما هو اتباع الظن المبني على الوهم، وما تميل إليه أنفسهم (الهوى).. وأنّهم متناقضون مع أنفسهم ومنطقهم؛ فهم يكرهون ولادة البنات لهم، ومع هذا لم يستحوا أن يجعلوا الملائكة إناثا.. وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !.. فيسخر الله سبحانه، منهم بقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)﴾ [النجم]، إنها إذن قسمة غير عادلة؛ قسمتكم بين أنفسكم وبين الله جلّ وعلا.. فكيف تنسبون إليه ما لا تحبونه أنتم لأنفسكم !!..

ثم تحدّاهم أن يأتوا ببرهان من الحس والعقل أو من الخبر الصادق، على صدق ما يدّعون، وعلى صدق ما يطلقون من أسماء وتسميات على الأمور والأشياء، وهي غير مطابقة لواقعها (يُسمّون الأصنام آلهة.. ويُسمّون الملائكة إناثاً [1].. وينسبونها إلى الله جلّ وعلا).. "فلكل قول حقيقة.. فأين هي حقيقة قولكم ؟ ".. أَروني.

وبعد بيان فساد أصل تصورات المشركين وعقائدهم، يبيّن سوء مصيرهم إن بقوا على حالهم "سامدين" هكذا، سائرين بلا دليل متبعين لأهوائهم.. فيقرر حقيقة أنه "ليس للإنسان ما يتمنّى ويتخيّل"، وخاصة إذا كانت أمانيه مبنيّة على الوهم [2]..

---

1 - كما في قوله تعالى:{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} الزخرف19.

2 - ((والتَّمَنِّي: تقدير شيء في النّفس وتصويره فيها. وذلك قد يكون عن تخمين وظنّ، ويكون عن رويّة وبناء على أصل. لكن لمّا كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك. فأكثر التّمنّي تصوّر ما لا حقيقة له. قال تعالى: (أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) النجم)). (المفردات) - الراغب الأصفهاني. كما في قوله تعالى: { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)} النساء. وكما في حديث رسول الله الثابت: (الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعدَ المَوتِ، والعاجِزُ مَن أتبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ). رواه السيوطي في الجامع الصغير وصححه (6468). والترمذي في السنن وحسنه (2459). وغيرهما عن شداد ابن أوس.

فهُم يتمنّـون الأماني؛ أي يتصوّرون ما لا حقيقة له.. فهُم لا يزالون على كفرهم، ويتمنون أن تشفع لهم الملائكة أو أصنامهم، عند الله جلّ وعلا !!، ويتوقعون حصول الخير لهم !!..

"كلا، ليس الأمر أن ما يتمناه الإنسان يتحوّل إلى حقيقة ! وما يهواه ينقلب إلى واقع ! ليس كذلك. فإن الحق حقٌ، والواقع واقعٌ.. وهوى النفس ومُناها لا يغيّران ولا يبدّلان في الحقائق. إنما يَضلّ الإنسان بهواه، ويهلك بمُناه". وهو أضعف من أن يغيّر أو يبدل في طبائع الأشياء. وإنما الأمر كله لله - جلّ وعلا - يتصرف فيه كما يشاء وبتقديره وتدبيره، فهو الذي له مُلْك الآخرة والدنيا، وهو وحده المتصرّف فيهما، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.. وقد بيّن لهم ما أراده منهم: اتباع الهدى الذي جاءهم به رسوله.. فإن أَبَـوا، فإنّهم سيرجعون إليه وسيجازيهم على أعمالهم.

فالحقيقة اليقينية المقررة: أنّ الظنّ القائم على الوهم، لا يقوم مقام شيء من الحق المبني على المشاهدة والعلم.. لا في التصوّر والفهم، ولا في الأفعال والأعمال، ولا في المصير والمآل.. فلا يُفلح الإنسان - فرداً وأمة - إذا أسس حياته على الظن والوهم..

✓ (29-31)، وبعد هذا البيان للحقّ والكشف للباطل، فمَن رفض الحقّ وتولّى؛ أي أدبر وجعل الكفر موقفاً نهائياً له، فإن تولّيه ليس عن دليل وعِلْم، بل رغبة في الحياة الدنيا واتّباعاً للهوى.. "ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يُجدي هدى ولا يُقنعها دليل !، لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ولا ضعف الدليل.. إنما هي الهوى الجامح الذي يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد!.. وهي شر حالة تُصاب بها النفس".. فمن كان ذَلِكَ مَبْلَغه مِنَ الْعِلْمِ.. أي أدبر وهو يرفض أن يتعلّم ما جاءه من الهدى؛ فقَصَر دائرة علمه على الذي هو فيه من الشرك بالله والكفر برسول الله.. وقَصَر إرادته على الحياة الدُّنيا بحيثُ كانتْ هي مُنتهَى هِمّتِه وقُصارَى سعيِه.. فمن كانت تلك حاله، فعلى حاملي الرسالة **الإعراض** عنه؛ أي أن يَدَعَوه ويتركوه، فلا يهتموا به ولا ينشغلوا بدعوته أكثر مما فعلوا [1].. فأمْرُه إلى الله فهو العليم به وهو الذي يتولّى جزاؤه.. وليهتموا بمَن هو أولى منه؛ بمَن قد يستجيب.

1- (وحقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه. مشتق من العُرض- بضم العين- وهو الجانب، أي أن يُظهر جانبه لغيره، ولم يُظهر له وجهه. ثم استُعمل استعمالا شائعا في الترك والإمساك عن المخالطة والمحادثة. يقول تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (68)) الأنعام. لم يقل: وإذا رأيتهم يخوضون فأعرض عنهم، فبدل أن يأتي بالضمير أتى بالاسم الظاهر وهو اسم الموصول، ليدل على أن الذين يخوضون في الآيات فريق خاص من القوم الذين كذبوا بالقرآن.. فعموم القوم أنكروا وكذبوا دون خوض في آيات القرآن، فأولئك قسم، والذين يخوضون في الآيات قسم كان أبذى وأقذع، وأشد كفرا وأشنع، وهم المتصدّون للطعن في القرآن. وهؤلاء، أمر الله تعالى رسولَه بالإعراض عنهم بترك مجادلتهم ومجالسهم حتى يرعووا عن ذلك.. ومعنى (إذا رأيت الذين يخوضون) إذا رأيتهم في حال خوضهم. وجاء تعريف هؤلاء بالموصولية، دون أن يقال: الخائضين أو قوماً خائضين، لأن الموصول فيه إيماء إلى وجه (علة) الأمر بالإعراض لأنه أمر غريب، إذ شأن رسول الله أن يخالط الناس لعَرض دعوة الله، فأمَر الله إياه بالإعْراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه وقرينة. وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته، أي فأعرض عنهم لأنهم يخوضون في آياتنا). أنظر (التحريروالتنوير) - ابن عاشور نقول: والفهم السابق لآية الأنعام، ينطبق على آية سورة النجم وهي

هذا، وبعد أن أكّد الله تعالى حقيقة أنه العليم والخبير بمن خلق، أكّد بعدها حقيقة أخرى، وهي: أنّ الله هو وحده مالك السماوات والأرض [1]، وقد خلقها بالحقّ؛ وجعل الجزاء مُترتِّباً على اتّباع الحقّ (الهدى)، أو التوّلي عنه.. فالذي أساء، له العاقبة التي يستحقها. والذي أحسن فله العاقبة الحسنى؛ بما هو أحسن وأكثر من عملهم، سواء في الدنيا أم في الآخرة.

فبالتأكيد على أنه سبحانه **عالم** بالناس، **وقادر** عليهم.. يؤكّد حقيقة أنه يملك محاسبتهم ومصيرهم.. فبالعلم وبالقدرة، تحصل المحاسبة ويقع الجزاء..

✓ (32)، وبعد أن بيّن الله تعالى حقيقة الذين رفضوا الحقّ وتولّوا **(..مَنْ ضَلَّ)**، ممثلين بالمجتمع وملئه، وأن مصيرهم بيد الله عزّ وجلّ.. بيّن بعض خصائص وطبائع (أخلاق) الفريق الآخر؛ الذين أحسنوا **(..مَنْ اهتدَى)**، ممثلين بالمؤمنين حَمَلة الرسالة، فهُم:

- الذين يتحاشون الآثام الكبيرة والجرائم الشديدة، كقتل النفس بغير حق وأكل أموال الناس بالباطل.. ويبتعدون عن ما قَـبُح من الأقوال والأفعال، كالزنا وشرب الخمر.. ولا يقعون بشيء من الذنوب إلا لمَمَاً. واللّمم هو إتيان الذنب الكبير مرة ثم تركه بلا إقامة عليه [2]، أو

قوله تعالى: (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{29}) أي، أعرض فقط، عن الذي هذه صفاته، بمعنى تَـرْكه وعدم الاعتناءُ بشأنِه.

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلم بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى}النجم، فتكريرُ قولِه تعالى (هو أعلمُ) لزيادةِ التَّقريرِ والإيذانِ بكمالِ تباينِ المعلومَينِ، والمرادُ (بمَنْ ضَلَّ): مَنْ أصرَّ على الضلال ولم يرجعُ إلى الهُدَى أصلاً (تولّى) و (بمَنْ اهتدَى) مَن يقبل الاهتداءُ في الجملةِ. أي الله هو الذي يعلم ذلك تمام العلم ولا أحد غيرُه). أنظر (تفسير أبو السعود). والمراد من الإخبار بأن الله تعالى يعلم: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟ (14)) الملك، هو لازم العلم:

- حصول الثواب والعقاب، ثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين.. فهو عليم بهم وسيجازيهم.
- تسلية رسول الله. أي: أعرض عن هؤلاء المتولين المعاندين، بعد أن سلكت معهم كل وسيلة تهديهم إلى الحق. فلا تُتعبْ نفسَك في دعوتِهم، فالله يعلم أنهم من القبيلِ الأولِ ؛ الضالين. فاتركهم وامض في طريقك.
- تأكيد أن الله الربّ الخالق، هو القادر على بيان سنن الهداية والضلال.. وخصائص وطبائع المهتدين والضالين.. فمن كانت هذه صفاته فاتركه فهو من المصرّين على الضلال. =>

هذا، ويمكن أن يكون هذا النوع من الناس: (مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا)، هو الذي عاتب الله تعالى رسوله الكريم محمّد ﷺ، في سورة عبس على إصراره على التصدي له ودعوته رغم أنه مستغني عن الحق، وخاصّة أن رسول الله - بسبب ذلك - ترك الذي جاء يسعى مهتماً يريد التعلّم والتزكّي. أنظر (تبيان سورة عبس). وهذا يعني أن سورة عبس أتت بعد سورة النجم في تتابع الأحداث. هذا والله تعالى أعلم.

1 - "إيمانك بأن لله ملك السماوات والأرض، يفيد فائدة عظيمة وهي: أن تلتزم مقتضى كونه له المُلك، وهو الرضا بقضائه والرضا بشرعه؛ لأنك عبْده ومُلْكه يتصرّف فيك كما يشاء.. وهذه هي حقيقة المُلْك. فمقتضى إيمانك أنّك عبد لله ومُلْك له، أن تخضع راغباً لشرعه ودينه، كما أنك خاضع مُكْرهاً لقضائه وقَدره.. وتلك هي العبودية التامة. وهي الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وجعله مختاراً مريداً خليفة في الأرض، فأنزل له الرسالات، وبعث الرسل".

2 - وهذا المعنى ينطبق على المعاصي التي ليس عليها حدود. أو أنه كان هو الحكم الشرعي في حق المسلم مرتكب الكبيرة قبل نزول أحكام الحدود في المدينة المنورة. كما كان في حد الزنا: (وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ

هو صغائر الذنوب. واللّمم أصله: ما قل قَدْره [يعني كميّته (عدده) أو درجته] من كل شيء. يقال: ألمّ فلان بالمكان، إذا قلّ مكثه فيه. وألمّ بالطعام: إذا قلّ أكله منه. والمقصود هنا من الاستثناء (إِلَّا اللَّمَمَ):

- حث المخاطبين على ترك الأعمال السيئة وعدم مقارفتها. والتمسّك بالأعمال الحسنة. والحث على التوبة إلى الله جلّ وعلا، فالله واسع المغفرة.. والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه [1].
- وكذلك، أن لا يُعامَل مرتكب الصغائر أو الذي يقع في الفاحشة الفلتة والسقطة دون دوام، معاملة مرتكب الكبائر والفواحش الغارق فيها، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس: 42]، وقد يكون هذا بيان إضافي لمعرفة الذين أُمرنا بالإعراض عنهم، والذين نهتم بهم في الدعوة.. أي معرفة المصرّين على الضلالة من الذين يُمكن أن يهتدوا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) ﴾ [عبس: 3-4].

- والذين لا يَصِفون أنفسهم أو إخوتهم بالتزكّي.. وذلك:

- لأنّ الله وحده أعلم بمن اتقى على الحقيقة، فهو خالقهم وأعلم بذواتهم وأحوالهم منهم بأنفسهم. وما دام أن هذه هي طبيعة علم الله جلّ وعلا بنفس الإنسان، يكون من اللغو - بل من سوء الأدب - أن يُعَرِّف الله سبحانه إنسانٌ بنفسه !، وأن يُعلِمه – سبحانه - إنسانٌ بحقيقته !.
- لأن ثناء الإنسان على نفسه أمام الله - سبحانه- بقوله: أنا كذا وأنا كذا.. فيه مدح وتفاخر ونوع من إعجاب الإنسان بأعماله أو أعمال غيره، وكأنهم يَمُنّون على الله عزّ وجلّ !! ويجعلون لأنفسهم منصباً لم يجعله الله تعالى لهم !!.
- ولأن القول بالتزكّي، قول بلا دليل من الحس والعقل أو من الخبر الصادق. فالقول على حقيقة النفس المزكّاة، إنما هو حكمٌ على الظاهر منها الآن، مع الجهل بالعواقب [2]..

مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{15} وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً{16}) النساء. ويُستفاد من الآيتين ((أن الرجال إذا فعلوا الفاحشة يُؤْذَوْن، والنساء يُحْبَسْنَ ويُؤذَيْنَ، فالحبس غايتة الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والصلاح. وكان هذا في صدر الإسلام، ثم نُسخ بما شرع الله ورسوله، وهو الرجم للمحصن والمحصنة، وهما الحران البالغان العاقلان، اللذان جامعا في نكاح صحيح. والجلدُ مائة جلدة، وتغريب عام لغيرهما)). التفسير الميسر.

1 - من الثابت أن الله تبارك وتعالى يوم القيامة إذا خلا بعبده المؤمن وقرّره بذنوبه وأقرّ، قال: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ». أخرجه البخاري، كتاب الأدب (6070) ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول القاتل وإن كثر قتله (2768).

2 - ويدخل هذا تحت قوله تعالى في سورة الإسراء: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)). القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا اتبعه، واستعير هذا الفعل هنا للعمل. والمراد بـ (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)، أي الوهم الذي لا دليل عليه، ولا غلبة ظن به. يعنى: ولا تكن في اتّباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده، فهو ضال. والمراد: <u>النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم</u>.

✓ (33-55)، تتكلّم هذه الآيات عن نموذج عملي - يواجهه حَمَلة الرسالة - يُمثّل حال "سامدون" وتعجب منه.. فهي تتكلّم عن شخص قام **بعمل** يتوقف عليه مصيره في الدنيا والآخرة، بناء على أوهام وبدون علم متيقّن !.. والعمل هو: رفْضُه الحق (التولّي عن الحق) بعد أن قَبِله، وذلك بناء على توهّمه بأنه يمكن لأحد غيره أن يتحمّل عنه وزر رفضه للحق، عند الله تعالى [1] وبيان ذلك في النقاط التالية:

✓ التعجيب من سوء حال الذي تولى ولم يوفّ بوعده في طاعة أمر الله فأكدى، أي فانقطع وتراجع: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣)﴾ [النجم: 33].

✓ التعريض به من خلال ذكر مَنْ استمر في الإستجابة لأمر الله ولم يتراجع، وهو نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ [النجم: 37]، فإبراهيم عليه السلام، مَا أَمَرَهُ الله بِشَيْءٍ إِلَّا وَفَّى بِهِ، ومَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ طَّاعَةِ إلا وَفَّاها عَلَى وَجْهِهَا.. فهذا تعريض بـ (وَ ى) فبعد أن بدأ بالاستجابة لدعوة الله، ارتدّ وتراجع، والأصل فيه أن يوفّي ويستمر في الاستجابة لأمر الله، لذلك وَصَفه بـ (أَكْدَى) أي، قَطَع عمله فلم يستمر فيه حتى يبلغ آخره. ويأتي هذا الوصف مقابل {وَفَّى} أيضاً [2].

✓ الإنكار عليه لأنه بنى موقفه المصيري الخطير ذاك - ترك الحق - على مجرّد تمنّي حصول أمر معين في المستقبل – العفو عنه ومغفرة ذنبه - بدون دليل من الحس والعقل أو من الخبر الصادق !.. بل، على مجرّد التوهّم والرجم بالغيب!.. ومثل هذا لا يفعله عاقل بنفسه إلا

هذا، والنهي عن القول بتزكية النفس هنا في سورة النجم، نرجّح أن يكون بمناسبة ردة أُناس عن الإسلام، بعد إخبار رسول الله عن الإسراء به وبعض ما رأى فيهما من الآيات الكبرى. أنظر (نظم الدرر) - البقاعي**.** ففيه بيان أن الذي ارتدّ، لم يكن مؤمناً حقيقة بل أنتم ظننتم أنه كان مؤمناً، فقد كان يعبد الله على حرف فلما أصابته فتنة انقلب على عقبيه، فارتداده حجة عليه وعلى أمثاله، وليس حجة على أن ما جاء به رسول الله ليس حقاً. وإذا كان ذلك كذلك، فتكون مجموع الآيات التالية (33-55)، في نفس سياق الآية السابقة، في معالجة مثل هؤلاء الأشخاص وكشف حقيقة موقفهم من الحق.

ومثال عملي آخر على خطأ القول بالتزكي للأفراد، ما حصل -لاحقاً - مع المؤمنين في غزوة أحد من هزيمة بسبب مخالفة بعضهم أمر رسول الله، حيث قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ => الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ.. (152)} آل عمران. أنظر تخريج الرواية في (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بشير ياسين.

1 - معالجة حالة الردة لا تزال - حتى هذا الطور - معالجة فكرية سياسية، فلم ينزل فيها حكم شرعي (القتل) إلا في المدينة. فالمعالجة هنا تقوم على كشف فساد موقف المرتـدّ وتهافته، فليس له حجة، لإلغاء احتمال أن يكون له تأثير على غيره، وخاصة إذا استغل الملأ بعض الحوادث الفردية للردة لتعميمها على سائر المسلمين وجعلهم قدوة لهم لإبعادهم عن دين الله، وذلك في سياق العداء لله ولرسوله والمؤمنين.. وهو العداء للحق والإنسانية. هناك عدة سور مكيّة أخرى تعرضت لموضوع "الردة" من زوايا ومسافات مختلفة مثل سور: الأعراف (89، 152)، والنحل (106)، والعنكبوت (12).

2 - واختيار إبراهيم عليه السلام ووصفه بهذه الصفة:{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى }النجم37، كما فيه إقامة حجة على المشركين المتولّين عن طاعة الله.. وهم يدّعون انتسابهم إليه.. فيه أيضاً، أسوة حسنة لمن آمن بالله واليوم الآخر لحثّهم على الثبات على أمر الله جلّ وعلا.

عن بصيرة ويقين: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) ﴾ [النجم: 35]، أي، هل عنْد هذا الذي تولّى عن الحق، عِلْم الغَيْب في تحقُّق العفو الذي توقّعه وبنى عليه موقفه بترك الحق، فهو يَرى ذلك عيَاناً..؟!.

✓ تقرير أصل مُحْكم يتناقض تماماً مع ما توهّمه ذلك المُتولّي فلم يوفّ (أكدى) من أن إنساناً آخراً يمكنه أن يحمل عنه تبعات وجزاء تولّيه عن طاعة الله (كَـدْيِه)، بعد أن أقبل وأسلم لله جلّ ثناؤه [(1)] : ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩)﴾ [النجم: 38-39]، أي، لا أحد يحمل عن الإنسان الآثم إثمه إلا هو نفسه، وأن الإنسان لا ينفعه عملٌ - في الدنيا و الآخرة - إلا عمله هو، وسعيُه هو [(2)].. والإنكار عليه لجهله بهذا الأصل المُحْكم، فهو من الحقائق المعروفة والشائعة، فهو مقرر في كتب الله المنزّلة منذ فجر البشرية.. منذ رسول الله إبراهيم ومن بعده موسى، عليهما السلام.

وذلك الوهم - أن إنساناً آخراً غير المرتد يمكن أن يحمل عنه إثمه - يمكن أن يستغلّه الملأ الذين كفروا، في التلبيس على الناس لصرفهم عن اتباع دين الله أو في الـردّة عن دين الله؛ حيث يقولون للناس: ارتدّوا عن دين محمّد أو لا تتّبعوا محمّداً، ونحن كفلاء لكم، ونتحمّل عنكم الإثم والعذاب يوم القيامة.. في ما يشبه "صكوك الغفران".. وهم يقولون هذا استهزاءً لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة أصلاً [(3)]..

من أجل ذلك كانت هذه الحَمْلة - في هذه المجموعة من الآيات - على مَنْ يقوم بتَـرْكِ دين الله (لم يوف وأكْدَى) بناء على وَهْمٍ مفاده: أن أحداً غيره سيتحمّل عنه التَّبِعة والمسؤولية في حالة ترَكَ دينَ الله تبارك تعالى.

✓ (55)، وبعد بيان تلك الحقائق الدامغة، يأتي الإنكار - مرة أخرى - على الذي تَولّى عن الحق وأكدى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) ﴾ [النجم: 55]، فبأي أنعُم ربّك - وهي ظاهرة وشاملة ودالّة على وحدانيته وقدرته - تتشكك أو تُكذب أيها المتولّي ؟!! فكلها آيات بيّنات دالّة على أن الله هو وحده الإله الحق الذي له الخلق والأمر.. فلماذا لا تتبع أمر الله !!. فحبّ الدّنيا واتّباع الظّن والهوى.. يصرفان صاحبهما عن اتباع الحق.. وهذا عاقبتة الهلاك والدمار، في سُنن الله عزّ وجلّ.

---

1 - نشير هنا إلى أنه وردت بعض الروايات في سبب نزول الآيات السابقة، لكنها لم يثبت لها سند، إلا أن المعنى العام لمتنها يتوافق مع هذا التوجيه الذي أثبتناه للآيات.

2 - هذا تقرير لأصل عام مُحْكم في ميزان الله وهو: "المسؤولية الفردية". أي مسؤولية كل نفس بعينها عن أعمالها. وأي استثناء منه أو تخصيص له يحتاج إلى دليل شرعي.

3 - كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)}. مما يعني أن الملأ قد استغلوا فعلاً حالة ردة بعض أفراد المسلمين بعد حادثة الإسراء، ليجعلوها حالة عامة، بجعلهم قدوة لغيرهم وحافزاً لترك دين الله وعدم اتباع رسول الله. أنظر (السيرة النبوية الصحيحة) - أكرم ضياء العمري.

وهذا سرد لمجمل ما دلّت مجموعة الآيات السابقة (33-55) من معاني في معالجة موقف الذي تولّى وأكدى:

- (33-35)، الإنكارُ على الذي تولى عن الحق، وذمُّـه.. ومطالبته بالدليل والبرهان – من الحس والعقل أو من الخبر الصادق - على ما يقول وليس مجرّد إلقاء الشبهات. وتمنّي الأماني !!.
- (36-49)، تذكيره - وعامة الناس – بـ " المسؤولية الفردية " أمام الله عزّ وجلّ ، وبيان أن الله هو وحده الإله الحق، أي المستحق للعبادة، بتلميس آثار إلهيته في الآفاق والأنفس.. وأنه خلق الناس وسيبعثهم بعد الموت ليحاسبهم على أعمالهم، وأنه لا مفرّ من الله إلا إليه. وأن هذه من الحقائق المعروفة والشائعة، فهي مقررة في كتب الله المنزّلة منذ فجر البشرية.. منذ رسول الله إبراهيم ومن بعده موسى، عليهما السلام.
- (50-54)، وتذكيرهم بأن الله عزّ وجلّ أنزل العذاب على الأمم الظالمة الطاغية التي من قَبْلهم فعذّبها بكفرها، فعليهم أن يحذروا فلا يتّبعوا الجهات أو الأشخاص من الملأ الذين يسيرون على خطى تلك الأمم الطاغية، لأنه سيؤدي بهم إلى الدمار والزوال مثلهم.
- (55)، ثم الإنكار على الذي تولّى عن الحق وأكدى.. فالأولى به أن يستمر على طاعة الله تعالى وشكره !.. فنعمه - تبارك وتعالى - دائمة مستمرة لا تنقطع.

✓ (56-62) وبناء على ما تم بيانه وتقريره - في ما سبق من السورة – من الحق وكشف زيف الباطل وأهله.. في ختام السورة، يتوجّه الله تبارك وتعالى في الخطاب إلى الناس (قريش)، عامتهم وخاصتهم، وحثهم على الإسراع إلى طاعة الله والعبودية له وتصديق رسوله واتباعه.. وترْك ما هم فيه من الاستهزاء والتكبّر والسير بلا هدى ولا دليل (سامدون)، وأخذ الأمر بالجديّة اللائقة به.. قبل أن ينزل بهم عذاباً قريباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة - مثل الأمم السابقة - وقد أُنذروا به.. وهو المصيبة الكبيرة التي قرُب وقوعها: "الْآزِفَةُ"، والتي لا يكشفها ويرفعها عنهم إلا أن يؤمنوا بالله ورسوله، فالله وحده القادر على أن يرفعها عنهم: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾ [النجم:57-58]، "من كَشْف الضّر ودفعه، أي ليس مَنْ يكشف خطبها وهولها" إلا الله وحده عزّ وجلّ.. فـ "الآزفـة" التي لا يكشفها عنهم إلا الله، هي "العذاب الأكبر" في الدنيا، أي "البطشة الكبرى" التي في سورة الدّخَان، لأن الآخرة إذا جاءت - بعذابها ونعيمها - لا تُكْشَف أبداً.. كما في الرواية عن عبد الله بن مسعود:

(.. فقرأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾ - إلى قولِهِ - ﴿إِنَّا **<u>كَاشِفُو</u>** <u>الْعَذَابِ</u> <u>قَلِيلًا</u> <u>إِنَّكُمْ عَائِدُونَ</u> (١٥)﴾ الدّخَان. أَفَيُكْشَفُ عنهمْ عذابُ الآخرةِ إذا جاءَ، ثمَّ عادوا إلى كفرهِم ؟!، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ [الدخان]، يومَ بدرٍ..)) [1].

وحقيقة أنه لا يقدر على **كشف** تلك المصيبة التي أزفت إلا الله، حقيقة لا يستطيعون إنكارها، فقد خَبروها من قَبْلُ، منذ فترة وجيزة، عندما ابتلاهم الله جلّ وعلا بالقحط والدّخَان (العذاب الأدنى)، فلم تنفعهم آلهتم المزعومة.. ولم يكشفه عنهم إلا الله جلّ وعلا، ومن بعد أن جاءوا رسول الله

---

1 - البخاري - الصفحة أو الرقم 4774.

ووعدوه بالإيمان به واتباعه، فدعى لهم رسول الله. وقد أكّد الله تعالى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦)﴾ [الإسراء] [1].. فلا **يكشِف** عنهم هذه المصيبة القريبة (الآزِفَة: "العذاب الأكبر") إلا الله الذي كشف عنهم "العذاب الأدنى" في ما مضى.. والسبيل الوحيد لكَشْفها ورفْعها هو المسارعة إلى الإيمان بالله واتباع رسوله قبل نزولها.. كما ضرب الله تعالى مثلاً في قوم يونس:
﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس: 98]

وفي ختام السورة:

فالأولى بكم - أيها الناس - أن تتركوا الحال التي أنتم عليها (سامدون) خشيةً من سوء العذاب: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)﴾ [النجم: 59-61]

وأنْ تأخذوا الأمر على مَحمل الجدّ قبل فوات الأوان.. "فهَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ أَهْلًا لِأَنْ تُقَابِلُوهُ بِالضَّحِكِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ، وَلَا لِأَنْ لَا يَتُوبَ سَامِعُهُ.. فَلَا عُذْرَ لكم فِي ذلك".. ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢) ﴾ [النجم]، مخلصين له الدين.. فإنه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) ﴾ [النجم]

وفي ختام "تبيان" سورة النجم، نلاحظ أن: "آخر السورة نتيجة أولها، ومفصلها ثمرة موصلها.. والله الهادي" [2].

1 - (قال يحيى بن سلّام: قوله: {فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا} يملكون {تحويلا} لِما نزل بكم مِن الضر، أن يُحَوِّلوا ذلك الضرَّ إلى غيره أهون منه). (قال مقاتل بن سليمان: {قل} لكفار مكة: {ادعوا الذين زعمتم} أنهم آلهة{من دونه} من دون الله.. فليكشفوا الضر عنكم، يعني: الجوع سبع سنين [بل هي ثلاث؛سنوات الحصار] إذا نزل بكم). «موسوعة التفسير المأثور» (13/ 213). بتصرف يسير.
نقول: وردت أكثر من قرينة في تقارُب أجواء سورة النجم مع أجواء سورة الإسراء.

2 - أنظر تفسير (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) - البقاعي.. ولاحظ الفرق هنا في هذا "التبيان" كيف أن "المناسبة المنهاجيّة"، واعتبار أن السورة "حدة منهاجيّة"، أصلٌ عام يجمع سائر أنواع "المناسبة" بين الآيات في السورة. فاعتبار أن "محتوى السورة" قد جاء كمعالجات لـ "مناط السورة"، هو الأصل الجامع لآيات السورة والمُظهِر لوحدتها.
وبتعبير آخر: إن النظر إلى جميع ما ورد في السورة موضوعاً وأسلوباً، كمعالجات لموقف معين، في طور معين، في مرحلة معينة، من السير بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها، هو الخيط الناظم لآيات السورة والمُظهر لوحدتها. وهذه هي البصيرة، ومفاتيح الهدى للإقتباس من النور الذي في رسالة الله، لإنارة الطريق أمام مَنْ أراد السير على "منهاج النبوة" لتحقيق الغاية من الرسالة. والحمد لله ربّ العالمين.

24- (سورة عَبَس)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في في الطور الثالث، وذلك لورود خصائصه وسماته التالية فيها:

1- المواجهة المباشرة ووضوح المواقف من الحق وتميّزها، ووصف الرافضين للحق بـ "الكفر" و "الفجور" بعد بيانه لهم ومعرفتهم الكافية به.. يعني إقامة الحجّة الرساليّة.. ويكون هذا في أواخر المرحلة الأولى.

2- إن عتاب الله جلّ ثناؤه، لرسوله الكريم لمخالفته للأَوْلى، في قوله تعالى:
﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧)﴾ [عبس: 5-7]،
استمرار رسول الله على دعوة "المُسْتَـغني" ومخالفة الأَولى.. يقتضي أمرين:
أحدهما: أن يكون ذلك "الأَوْلى" كان معلوماً لرسول الله وثابتاً بالوحي - القرآن أو السنة - قبل نزول آيات العتاب.. وإلا كيف يكون العتاب على مخالفة أمر شرعي لم يسبق العلم به ولم يكن به تكليف ؟!.
والثاني: أن هذا التكليف السابق والذي كان العتاب بخصوصه، لا يكون إلا من درجة المندوب أو المكروه فقط، ولا يجاوزهما، ولا يمكن أن يكون من الأحكام الثلاثة الأخرى: فأمّا المباح، فهو على التخيير فلا عتاب عليه. وأما الفرْض و الحرام، فرسول الله لا يفعل حراماً ولا يترك فرضاً، مُتعمّداً.

وعليه، في تقديرنا، فإن الآية المُرشَّحة لأن يكون فيها بيان "الأَوْلى" في الموضوع الذي عُوتِب عليه رسول الله، ألا وهو: استمرار دعوة "المُسْتَـغني"، هي آية سورة النجم:
﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ﴾ [النجم: 29] [1]..

من هنا، يمكن اعتبار سورة عبس قريبة من سورة النجم، أي من السوَر المتعلقة بالطور الثالث.

3- ما خالف رسولُ الله الأَوْلى إلا لشدة حرصه على نصرة الحق وعلى إنقاذ مَنْ يدعوه مِن النار.. وقد ازدادت شدة الحرص وقَويت، عندما تأزمت الأمور بين الفريقين، المؤمنين والكافرين، وجَمُد المجتمع الجاهليّ في وجه دعوة الله ورسوله، وقد أُنذروا بالعذاب في الدنيا.. وهي الأجواءُ نفسها التي نزلت فيها الآيات التي يُخفف الله تعالى بها معاناة المؤمنين نتيجة رفض

---

1 - أنظر (تبيان سورة النجم). ومن الآيات القريبة أو المشابهة لها في موضوعها: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً{28}) الكهف. (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ{52}) الأنعام.
هذا، ومن الظاهر أن معرفة ما قررناه ؛ من أن العلم بما هو أَوْلى يسبق "العتاب" على مخالفته، له تأثير على دراسة وفهم "المنهاج"، من باب العلم بتتابع نزول الأحكام، والعلم بتتابع خطوات السير بالرسالة.. فهو يشبه العلم بالناسخ والمنسوخ، من هذه الزاوية.

المجتمع الجاهليّ ومَلَئه للإيمان.. كما بيّنا في "الطور الثالث" [(1)]. حيث أن بـيان **سُنن** الله تبارك وتعالى في الرسل والأمم، و بـيان **حقيقة مهمة** الرسول ومسؤولياته.. كانا حجر الزاوية في خطاب الله تعالى لرسوله الكريم في تخفيف شدة وقع تكذيب القوم على نفسه، وفي تثبيته ومن معه.. بأنه غير مسؤول عن هداية الناس، بمعنى أن يتحوّلوا إلى الإيمان.. و أن كل فرد وكل مجتمع (قرية) يتحمّل **المسؤولية** عن موقفه. كما جاء في آيات كثيرة، نذكر منها:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)﴾ [**يونس**]

﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [**الشعراء**]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ [**الأنعام**]

.. الخ

والسوَر التي ورد فيها مثل هذه الآيات هي من السوَر المرتبطة إما بأواخر الطور الثاني أو بالثالث.. فإضافة لسوَر: الأنعام ويونس والشعراء.. هنالك سوَر: الكهف/آية 6، فاطر/آية 8، وغيرها.. مما يشير إلى تقارب الأجواء بين "سورة عبس" وهذه السوَر المرتبطة بالطور الثالث وأواخر الطور الثاني.

مناط السورة:

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) ﴾ [عبس]، ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾ [عبس]..

حالة الإنسان الذي استغنى بالباطل عن الحق، وبقي مصرّاً على موقفه ذاك، برغم أنه قد بلغه الحق بيّناً واضحاً وأقيمت عليه "الحجة الرسالية". وعادة ما يكون ذلك المُسْتَـغني من الملأ، فهو لا بد أن يكون عنده ما يستغني به، من متاع وشهوات و أهواء..[(2)].

---

1 - (الطور الثالث) من خط السير ؛ النقطة أو البند (4). في "الجزء الأول".

2 - يقول تعالى: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) } آل عمران. { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ الله إِنَّ الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)} القصص. {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)} الجاثية.هذا وقد جاء في رواية سبب النزول عن عائشة، قالت: (أُنزِلتْ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} في ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى. قالت: أتى النَّبيَّ

المعالجة:

وقد سارت السورة في معالجة مناطها كالتالي:

1– (1-10)، بيان الموقف الشرعي من ذلك المُسْتَغني، وقد جاء في سياق عتابٍ للمصطفى ﷺ من ربّه. وفيه تذكير لحامل الرسالة، على أنّ مهمته - في هذا الطور - هي التذكير فقط، وحسب الطريقة الشرعية للخطاب. وأنه لا يملك أن يتحوّل الناس إلى الإيمان، وليس مسؤولاً عن عدم استجابتهم. فلا ينشغل المسلم بغير المطلوب منه وليس مسؤولا عنه (أن يتحول الناس إلى الإيمان)، عن المطلوب منه والداخل في مسؤوليته (بيان الحق وتعليمه)، فيُخرجه ذلك عن خط السير الذي أمر الله بالالتزام به في الدعوة إليه. وقد سمّى الله تعالى ذلك **تلهّياً**: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ [عبس] (1)..

وعليه، فالأَوْلى بحامل الرسالة، الاهتمام بمَن استجاب - أو يريد الاستجابة - لدعوة ربه عزّ وجلّ والحريص على الزيادة في التعلّم والتزكية. وأما من استغنى بالباطل عن الحق – وقد بلغه الحق بيناً واضحاً - فالأصل تركه وإهماله. وهذا هو الضابط في مدى الاهتمام بالشخص المدعو أو الإعراض عنه، سواء كان من الملأ والسادة أم من غيرهم. فوصف "اسْتَغنَى" ووصف "جَاءَكَ يَسْعَى" وصفان مفيدان للعلّية في مَنْ ندعوه ونهتم به، ومَنْ نتركه ونهمله.. وهما مناط العتاب (2).

ﷺ فجعَل يقولُ: يا نبيَّ الله أرشِدْني. قالت: وعندَ النَّبيِّ ﷺ رجُلٌ مِن عُظماءِ المشركينَ فجعَل النَّبيُّ ﷺ يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ، فقال النَّبيُّ ﷺ: { يا فلانُ ترى بما أقولُ بأسًا }. فيقولُ: لا. فنزَلت: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}). صحيح ابن حبان - الصفحة أو الرقم 535 . وصححه الألباني في صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم 3331 .

1 - ((اللهو: ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه. يقال: لَهَوْتُ بكذا، ولهيت عن كذا: اشتغلت عنه بِلَهْوٍ)) مفردات الراغب. فاللهو شُغْلٌ يَصْرِفُ عَنْ تَحْصِيلِ الأَمْرِ الأَوْلى والأُهِمّ.. نقول: فيجب الآلتزام بترتيب الأولويات بناء على ضوابط منهاج السير بالرسالة، وهو ما يُعرف بـ "فرض الوقت" أي الأمر الواجب الالتزام به في هذا الوقت وهذا الحال.

2 - عن عبدالله بن عمر أن رسول الله قال: ((اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب). قال: وكان أحبهما إليه عمر)). صحيح الترمذي - الصفحة أو الرقم 3681 . فرسول الله ﷺ كان يهتم بدعوة سادة قريش وقادتها (الملأ)، فهُم إن أسلموا تبعتهم قريش وأسلمت مثلهم. أمّا المأمور به هنا أمران: ترك المُستغني عن الحق، والاهتمام بالساعي أو المحتاج للتعليم والتزكية. بمعنى أن الاهتمام بدعوة الفرد - من الملأ أو من غيرهم - مطلوب، لكن بشرطين: أن لا يكون مستغنياً. وأن لا تُـلْهي دعوته عن تزكية طالب الهداية كائناً من كان. ((والاستغناء: أن يُعد الشخصُ نفسه غنياً في أمر ما، يدل عليه السياق، قول أو فعل أو علم، فالسين والتاء للحسبان، أي حسب نفسه غنياً. وأكثر ما يُستعمل الاستغناء في التكبّر والاعتزاز بالقوة. فالمراد بـ {مَنْ استغنى} هنا: من عَدّ نفسه غنيا عن هديك بأن أعرض عن قبوله. لأنه أجاب قول النبي ﷺ له: « هل ترى بما أقول بأسا»، بقوله: لا والدماء **[أي قرابين الآلهة]** كما في بعض الروايات.. كناية عن أنه لا بأس به.. ولكني غير محتاج إليه. فليس المراد بـ {من استغنى} من استغنى بالمال إذ ليس المقام في إيثار صاحب مال على فقير، ويدلُّ على ذلك أَنه لو كان من الثروة لكان الْمُقابل: وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ فَقِيرًا حَقِيرًا.. فاستغناءه استغناء المُمتعض مِن التصدّي

فالتفقّه والتبصّر بما أمر الله به والاستقامة عليه، هو الطريق الوحيد لنصرة دين الله. فلا يَصرف المسلم عن أمر الله تعالى ومراده صارف، ولا يشغله عنه شاغل.. مهما كانت وجاهة ذلك الصارف في نظره [1].

2- (11-16)، الإنكار على المُسْتَـغني تكبّره عن سماع آيات الله التي تلاها النبي ﷺ عليه في ذلك المجلس وغيره، بردعه وزجره: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ [عبس]، أي، إن تلك الآيات موعظة حق وخير، ومن شأنها أن تتعظ بها وتقبلها [2].. ثم وصف الله تعالى آيات القرآن بأوصاف تدل على عِظَم شأنها وعلو قدرها ورفعة ذكرها.. فلا يُضيرها أو يُنقِص من قيمتها أن يُعرِض عنها مثل هذا الكافر الفاجر.. بل إن مَا عَلَيْهِ الآيات مِنْ تَكْرِيمٍ وَرِفْعَةٍ وَطُهْرَةٍ وَصِيَانَةٍ.. أَحْرَى بِأَنْ يُسْعَى إِلَيْهَا.. كما فعل ذلك الأعمى، برغم ضعفه وعجزه، وكُبْر المشقة عليه [3]..

لدعوته.. فهو مقابل {مَنْ جاءك يسعى}، أي جاءك حريصاً على اللقاء بك، طلباً للتزكية لأنه يخشى الله من التقصير في الاسترشاد. واختير الفعل المضارع لإفادته التجدد)). أنظر (التحرير و التنوير) ابن عاشور. و (البحر المحيط) - أبو حيان.

1 - كما حصل مع خليفة رسول الله أبي بكر في موقفه من المرتدين، حيث أكّد على أن الموقف الشرعي منهم هو قتالهم بكل قوة، وأنه يجب الالتزام بأمر رسول الله بإنفاذ بعث أسامة، وبغض النظر عن الظروف والأحوال الصعبة والخطيرة التي تحصل، وقد تعذّر بها بعض الصحابة.. الأمر الذي عصم الله تعالى به الأمة من تلك المحنة القاصمة.

2 - {كلا إنها تذكرة} استئناف ابتدائي موجه إلى ذلك المُستَغني، {إنها تذكرة} إشارة للآيات التي كان رسول الله يتلوها عليه أثناء لقائه به. و{كلا} ردع وزجر له عن عدم إيمانه بها رغم أنها موعظة وهدى. فهذه الآية من سورة عبس وما بعدها لا تدخل في آيات عتاب المصطفى، وذلك:
- لأن (كلّا) لا تستعمل في اسلوب العتاب، كما هو أغلب استعمالها في الأداء القرآني. بل تأتي في سياق أشد من ذلك ؛ للردع والزجر والإبطال. وهذا ليس من العتاب.
- لأن الله تعالى قد استعملها مرة أخرى في سياق الكلام عن الكافر المستغني لردعه وزجره: (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)) عبس، فلا يستقيم أن يخاطب الله تعالى بها أيضاً رسوله الكريم في نفس السورة ونفس السياق.
- لأن (كلا) يمكن أن تأتي استئنافية في البداية، مع أن الأصل فيها أن تأتي بعد الكلام، وقد وردت في الأداء القرآني استئنافية، كما في سورة العلق: {كلا إن الإنسان ليطغى (6)} حيث نزلت مستقلّة عن الآيات الأولى من سورة العلق. أنظر (التحرير و التنوير) ابن عاشور، وقد فصّل في القول في بيان ورود (كلا) في لغة العرب، عند تفسير آية العلق وآية عبس:{كلا لما يقض ما أمره (23)}.

3 - { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12)} عبس، وهذا تعريض بالمُستغني، بأن موعظة القرآن بيّنة ظاهرة، فكل أحد تَجرّد عن العناد والمكابرة، يستطيع أن يتدبّرها، ويتفهّم معناها، ويتعظ بها، فمن لم يتعظ بها فلأنه لم يشأ ذلك عناداً واستكباراً. كقوله تعالى: { لمن شاء منكم أن يستقيم (28)} التكوير.. وهَذَا ليس من باب التَّخْيِيرِ بل من باب التَّهْدِيدِ، بِدَلِيلِ مَا بَعْدَهُ: { قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)} عبس، «قُتِلَ الْإِنْسَانُ»: دُعَاءُ عَلَيْهِ بأشنع الدعواتِ، وَالْإِنْسَانُ: لِلْجِنْسِ الْكَافِرِ ممثلاً بالمخاطَب، وَ «مَا أَكْفَرَهُ»: أَيْ مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ بالقرآن، بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ مِنْ عُلُوِّ مَنْزِلَة القرآن ونعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به. أنظر (أضواء البيان) - الشنقيطي. و(التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

3- (17-23)، التقريع الشديد لذلك الإنسان الكافر الذي يستغني عن الحق مُستكبراً – وقد علم أنّه الحق – بالدعاء عليه بالموت والهلاك.. والتعجيب من جحوده وغروره، برغم أصل خلقه البسيط المَهين، وحاجته وفقره المُطلق إلى الله تبارك وتعالى، وأنه عالة على الله جلّ ثناؤه، في خلقه وتسويته واستمراره.. وأن مصيره الموت والرجوع إلى الله، ثم الحساب.. فكيف يتكبّر عن العبودية لربّه وخالقه جلّ وعلا وطاعته؟!.. ثم زجْره وردْعه مرة أخرى، لاستمراره في طغيانه وتمرّده على ما أَمَره به الله؛ ربّـه ومولاه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)﴾ [عبس] [1].

4- (24-32)، ومرة أخرى، بيان طريق الهداية لذلك الكافر المُسْتَغني وإقامة الحجة عليه: بإنه إذا أراد تحصيل ما يُعينه على التوجّه إلى الله ربّه وخالقه ومولاه، وأن يَقْضي ويؤدّي ما أمره به من العبودية والطاعة في حياته الدنيا.. فلينظر إلى فعل الله جل وعلا وتقديره في خلق طعامه، وتهيئة الماء لإنمائه، وشق الأرض وإنباته، وإلى انتفاعه به وانتفاع أنعامه في بقاء حياتهم.. إلى حين ينتهي فيه هذا المتاع الذي قدّره الله حين قدر الحياة.. فلينظر إليه فهل له من يـدٍ فيه ؟ هل له من تدبيرٍ لأمره ؟ بل إن قدرة الله التي أخرجت الإنسان إلى الحياة وأبدعت قصة خلقه، هي التي أخرجت طعامه وأبدعت قصته، فهو عالة على الله ربّـه ومولاه في استمرار حياته، وفي وجوده بدايةً.. فإنه لو يعتبر بنِعَم الله تعالى عليه وآياته البينات، لتَـرَك كفره [2].. أمّا إن لم يعتبر ويتعظ - ذلك المُسْتَغي عن الحق، المتكبّر على طاعة ربه وخالقه - بعد كل ما سمعه من القول ولم يتبع أحسنه، فلينتظر ما يجيـؤه:

5- (33-42)، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) ﴾ [عبس]؛ إنها الصيحة الشديدة العظيمة التي تصخُّ الآذانَ أي تصمُّها لشدةِ وقعِها في بدء يوم القيامة.. ويأتي هنا هذا الوصف ليوم القيامة ليتناسب مع تكبّر الكافر عن سماع كلام الله واهتمامه به، فعندما تأتيه الصاخّة ستصُمّ أذنيه رغماً عنه.. عندها، فلن يغني عنه شيئاً - مما استغنى به عن الله وعن دعوة الله - لا ماله ولا أقرباؤه

---

1 - ((وَقَوْلُهُ: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} قِيلَ: «السَّبِيلُ» إِلَى خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، حَيْثُ أَدَارَ رَأْسَهُ إِلَى جِهَةِ الْخُرُوجِ... وَقِيلَ: «السَّبِيلُ»: أَيِ الدِّينُ فِي وُضُوحِهِ، وَيُسْرِ الْعَمَلِ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)}[الانسان].. وَلَعَلَّ هذا هُوَ الْأَرْجَحُ؛ لِأَنَّ تَيْسِيرَ الْوِلَادَةِ أَمْرٌ عَامٌّ فِي كُلِّ حَيَوَانٍ، وَهُوَ مُشَاهَدٌ مَلْمُوسٌ، فَلَا مَزِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ عَلَى غَيْرِهِ، كَمَا أَنَّ مَا قَبْلَهُ دَالٌّ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى مَدْلُولِهِ وَهُوَ الْقُدْرَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}. وَقَدْ يَكُون تَيْسِيرُ الْوِلَادَةِ دَاخِلًا تَحْتَ قَوْلِهِ: «فَقَدَّرَهُ». أَيْ: قَدَّرَ تَخَلُّقَهُ وَزَمَنَ وُجُودِهِ وَزَمَنَ خُرُوجِهِ، وَتَقْدِيرَاتِ جِسْمِهِ وَقَدْرَ حَيَاتِهِ، وَقَدْرَ مَمَاتِهِ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ. أَمَّا تَيْسِيرُ سَبِيلِ الدِّينِ، فَهُوَ الْخَاصُّ بِالْإِنْسَانِ. وَهُوَ الْمَطْلُوبُ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ. وَهُوَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بتغَيّره مَا بَيْنَ تَخَلُّقِهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَتَقْدِيرِهِ. وَبَيْنَ إِمَاتَتِهِ وَإِقْبَارِهِ. أَيْ: فَتْرَةُ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا. أَيْ: خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ وَقَدَّرَ مَجِيئَهُ إِلَى الدُّنْيَا وَيَسَّرَ لَهُ الدِّينَ فِي التَّكَالِيفِ. ثُمَّ أَمَاتَهُ لِيَرَى مَاذَا عَمِلَ: « ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ». وَلِذَا جَاءَ فِي النِّهَايَةِ بِقَوْلِهِ: «كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ». وَلَيْسَ هُنَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ إِلَّا « السَّبِيلَ يَسَّرَهُ». وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ)). أنظر (أضواء البيان) - الشنقيطي.

2 - {فلينظر الإنسان إلى طعامه (24)..} إذ التقدير: إن أراد الإنسان أن يقضي ما أمره الله، فلينظر إلى خلق الله لطعامه.. كما في قوله تعالى: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)..) الطارق، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ، فلينظر مم خُلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو.

ولا عشيرته، فماله سيذهب عنه.. وأمّا أقرباؤه فلكل واحد منهم يومئذ أمر جلل عظيم يُشغله لا يَدَع له فَضْلَةً من وعي أو جهد تكفي للاهتمام بأهله أو بأقرب الناس إليه، فكيف بسائر عشيرته !! [1]..

وبعد ذلك، يصبح الناس فريقين؛ كما كانوا في الدنيا فريقين: الذي خشي الله جلّ وعلا، فتزكّى. والذي تكبّر عن الهدى مستغنياً بمتاع الدنيا. ثم هذان هما في ميزان الله (جواب إذا):

الفريق الأول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾ [عبس]. أي وجوههم متهللة فرحاً وعليها أثر النعيم، فلا همّ ولا غمّ ولا عُبوس.. نتيجةً للرضى والنعيم..

والثاني: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس]، على النقيض تماماً.. نتيجةً للغضب والعذاب [2].. والعياذ بالله.. فالجزاء من جنس العمل.. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس]، أي، الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته. والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته.. " والإشارة إليهم {أُولَئِكَ}، زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين..

وأُتْــبع وصف "الكَفَرة" بوصف "الفَجَرة" مع أن وصف الكُفر أعظم من وصف الفُجور، لما في معنى الفجور من خساسة العمل، فذُكِر وَصْفاهم الدّالان على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل. وذِكْر وصف "الفجرة" بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور" [3]..

---

1 - ((والصّاخّة، لفظ ذو جِرْس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخّا ملحا! وهو يمهد بهذا الجِرْس العنيف للمشهد الذي يليه: مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ».. أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن هذه الصاخة تمزّق هذه الروابط تمزيقاً، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً). (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

2 - ((وقدّم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في سورة النازعات [37] {فأما من طغى} ثم قوله: {وأما من خاف مقام ربه} [النازعات: 40] إلى آخره، لأن هذه السورة [عبس] أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين، فكان حظ الفريقين مقصوداً مسوقاً إليه الكلام، وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك من قوله: {وما يدريك لعله يزكى} [عبس: 3] إلى آخره، ثم قوله: {أما من استغنى، فأنت له تصدى} [عبس: 5، 6]. وأما سورة النازعات فقد بُنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله: { يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة } [النازعات: 6- 8] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب)) (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

3 - ((فَجَرَ: أصل واحد هو انشقاق مع ظهور الشيء. ومن مصاديقه: انشقاق الظلمة وطلوع نور وضياء. وانشقاق في الجبل ونُبوع الماء. وانشقاق حالة الإعتدال وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً. وانشقاق حالة الإمساك بظهور الكرم)). أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) - حسن المصطفوي. و(معجم المقاييس) - ابن فارس. نقول: فالفجور ليس مطلق معصية بل هو خروجها بعد هتك الستر عنها، وإظهارها بعد أن كانت بالخفاء. وهذا فيه قدر من التحدّي. (أنظر تبيان سورة ص). هذا، ووَصْف الإنسان الكافر بالفجور، ورد في عدة آيات من سور مختلفة، وقد ورد في مقابل وصف التقوى للمؤمن. وفي هذا إشارة إلى تقارب أجواء تلك السور. والآيات هي:
{ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } الشمس 8،،،
{ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ص 28،،،

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)﴾ [عبس]

25- (سورة القَدْر)

ربط السورة بخط السير:

1- يأتي دور هذه السوَر منذ البداية؛ في "الطور الأول" في إطار الحث على اتّباع القرآن - تعليماً وتزكيةً ودعوة - ببيان عظمة القرآن وقَدْره.. وبالتالي أهميّته بالنسبة للإنسان، وأن مصيره منوط بموقفه منه، ليتّخذه وحده المنهاج لحياته، والهدى الذي يسير عليه وينبذ كلّ ما سواه..

2- وبعد الدخول في مواجهة الباطل - في الطور الثاني وما بعده - يكون دور السورة في إطار الرد على مَنْ رفض رسالة الله تعالى وكفر بها، مثل ما جاء في سور أخرى؛ عبس والدّخَان.. فالرسالة عظيمة من عَظمة مُرسِلها جلّ جلاله: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** (١)﴾ [القدر: 1] ؛ (بدلالة "ن" العظمة)، وتُشرِّف مَنْ صدّقها واتّبع الحق الذي جاء فيها، فلا يَغيضها ولا يُغيّر من حقيقتها أن يَكفر بها أولئك الجاحدون من أهل الباطل وعَبَدة الطاغوت.

مناط السورة:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر]، تقرير حقيقة: أن القرآن عظيم من عَظمة مُنزّله، الله جلّ جلاله.. في سياق الحث على اتخاذه وحده مصدراً للهدى، والنور الذي تُزال به الظلمات.

المعالجة:

جاءت المعالجة تتمحور حول إبراز أهميّة القرآن الكريم ومكانته العظيمة عند الله عزّ وجلّ، وذلك ببيان عظمة ومكانة الليلة المباركة التي شاء الله عزّ وجلّ أن ينزله فيها؛ ليلة القدر:

1- فهذه الليلة - إحدى ليالي رمضان - هي ليلة الشرف العظيم والفضل. ليلة وفيرة الخيرات، كثيرة البركات، فَضْلُها خير من فضل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. "والاستفهام (ما أدراك؟) فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا الله سبحانه".

2- يكثر فيها نزول الملائكة وجبريل عليه السلام إلى الأرض، بإذن ربهم، من أجل كل أمر أراده الله عزّ وجلّ، أي قضاه وحكم به..

3- هي أمن كُلها، لا شرَّ فيها إلى مطلع الفجر..

4- وفي هذه الليلة المباركة يُقضى ويُفصَل كل أمر مُحْكم وحكيم، والقرآن رأس الحكمة، وهو الفرقان بين الحق والباطل، والموضح لطريق الهداية للحق، ولذا كان إنزاله فيها:

{ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } الانفطار 14،،،
{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} المطففين 7،،،
{ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } عبس 42،،،
{ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً} نوح 27،،،
{ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } القيامة 5. (أنظر تبيان سورة القيامة).

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾ [الدخان: 1-8]

26- (سورة الشمس)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في الطور الثالث؛ حيث ورد فيها ذكر سُنّة الله تعالى في الأمم التي تطغى على أمره وتكذّب رسله.. وفي هذا إنذار لقريش بدُنوّ نزول "العذاب الأكبر" بهم في الدنيا – كما هي سنة الله – إن استمروا في اتباع الملأ منهم (أشقاهم) في طغيانهم على أمر الله وتكذيبهم رسول الله [1].

هذا، وقد استوفت قريش استحقاقات هذه السنّة الربّانية، فاستحقت " العذاب الأكبر" بتكذيبها، وكان آخر هذه الإستحقاقات يوم أن اتبعت أبا جهل - فرعون هذه الأمة – ومعه أئمة الكفر، في طغيانهم حين عزموا على قتال رسول الله في غزوة بدر [2]. رغم أن قافلة أبو سفيان قد نجت ولم تقع في أيدي المؤمنين.. فكان من المفروض أن يعودوا إلى مكة، إلا أن أبا جهل بطغيانه وتكبّره منعهم من ذلك واستفزّهم لقتال رسول الله والمؤمنين..
وقبل ذلك، كانوا قد تخلّوا عن الأمانَين من العذاب الذَّين أعطاهما الله تعالى لهم: عدم إخراج رسول الله من مكة، والإستغفار والتوبة إلى الله [3].

مناط السورة:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢)﴾ [الشمس]،، استحقاق القرية للعذاب حين وصولها إلى الغاية في تكذيب رسالة الله تعالى ووعيده (الطغيان)، وذلك حين اتّبعوا **أشقاهم** – من الملأ أو أعوانهم - في معاداة الله ورسول الله والحق الذي جاء به.

المعالجة:

السورة متميزة بأسلوبها، وهي من باب التنويع في "خطاب النذارة" وتصريف الآيات [4] :

1- (1-8)، التأكيد بالقَسَم بعظيم تقدير الله تعالى وجلال حكمته في الآفاق والأنفس.. في خلق السموات وبناءها، وبسط الأرض وتمهيدها وتهيئتها لحياة الإنسان.. وأن الله عزّ وجلّ كما أحسن خلق السموات والأرض وهيأها لأداء مهمتها، كذلك أحسن خلق الأنفس وأكمل خلقَها

---

1 - أنظر (تبيان سورة الفجر).

2 - كما وصف الله تعالى حال قريش عند خروجهم لقتال رسول الله: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّه وَاللّه بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {47}) الأنفال.

3 - (وَمَا كَانَ اللّه لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّه مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ{33}) الأنفال.

4 - انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول".

لأداء مهمتها؛ الخلافة في الأرض، وتحمّل المسؤولية عنها بضبط الخلافة وتسييرها بدين الله وهداه.. فَفَطر الأنفس على التمييز بين ما هو من الخير والمعروف، وما هو من الشر والمنكر. وجعل فيها القابليّة للهدى والصلاح، وللضلال والمعصية.. وكل ذلك من بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المتـفـرّد بالإلهية؛ فلا يستحق أحد غيره العبادة والطاعة [1].

2- (9-10)، و "جواب القَسَم"، أي الخبر المقصود تأكيده، هو: أن مسؤوليّة الإنسان أمام الله جلّ وعلا – في الدنيا قبل الآخرة - تتمثّل في **توجيه** نفسه، بما فيها من ملكات، للهدى أو للضلال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس]
والمعنى: يُقسم الله تبارك وتعالى بأمور عديدة من آثار قدرته في خلقه.. حتى وصل إلى رَفْعه السماء، وطَحْوه الأرض، وتَسْويته نفس الإنسان فجعلها متمكنة من معرفة الخير والشر.. على أنّه (جواب القسم) قد فاز وظفر بالمطلوب، ونجا من المكروه (أفلح)، كلّ مَنْ طَهّر نفسه وأصلَحَها بازدياده من الخير والأعمالِ الصالحة (زكّاها)، وباتّباعه ما ألهمه الله من التقوى، والهدى الذي جاء به رسوله..
وفي الجهة المقابلة، قد خسر نفسه وأوقعها في التهلكة (خاب)، كلّ مَنْ نَقَصها وأخفاها وأخملها بفعلِ المعاصي وحال بينها وبين فعل الخير (دسّاها)، بعد أن ألهمه الله تعالى التمييز بين الأمرين؛ بالفطرة، وبالوحي الذي أرسل به رسوله، هدىً للناس [2]..

---

1 - { ونفس وما سواها (7) فألهمها فجورها وتقواها (8)} أي: إن الله تعالى قد أحكم خلقَ النفسَ الإنسانية، وجعل من تمام تسويتها وإحكام خلقها أن ألقى فيها عِلْماً من غيرِ تعليمٍ ؛ بالإلهام. فقد ألقى فيها ما ينبغي لها أن تأتي من خيرٍ وما تَدَعَ من شرٍّ. والإلهامُ يُطلقُ إطلاقاً خاصاً على حدوثِ علمٍ في النفسِ بدونِ تعليمٍ ولا تجربةٍ ولا تفكير، فهو علمٌ يحصلُ من غيرِ دليل، قال الراغب: الإلهام ؛ إيقاعُ الشيء في الرُّوْعِ، ويختصُ ذلك بما كان من جهةِ الله تعالى وجِهَةِ الملأ الأعلى اهـ. ولذلك، فهذا اللفظ إنْ لم يكن من مبتكراتِ القرآن، فهو مما أحْيَاهُ القرآن؛ لأنه اسمٌ دقيقُ الدلالةِ على المعاني النفسية، وقليلٌ رواجُ أمثالِ ذلك في اللغة قبلَ الإسلام، لقلَّةِ خطورِ مثل تلك المعاني في مخاطَبات عامَّة العرب. (انظر: التحرير والتنوير). " وقد عبَّر علماء الصحابة والتابعين عن معاني الإلهام بمعانٍ متقاربةٍ، وهي: بيَّنَ، وأعلَمَ.. وفسَّروا الفجورَ والتقوى بالخير والشرِّ، أو المعصية والطاعة، وهما سواء، والله أعلم ". أنظر (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار.

2 - قال بعض المفسرين إن جواب القسم محذوف للعلم به، وتقديره: ليدمدمنّ الله عليهم، أى: على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ. ودليله، قوله تعالى بعد ذلك:{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها}. لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها تدل على أن الله تعالى قد اقتضت سنته أن يحاسب من فسق عن أمره، وأصرّ على تكذيب رسله. كما دمدم على قبيلة ثمود لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام. فكأنه- سبحانه- قد قال: وحق الشمس وضحاها، وحق القمر إذا تلاها.. لتحاسبن على أعمالكم. وأما قوله: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها..} فكلام تابع لقوله: {فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها}، على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء.أنظر (الكشاف) - الزمخشري. نقول: وفي المحصلة، ليس هنالك فارق مُعتَبر بين القولين ؛ فقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10})، يتضمّن معنى: "لتحاسبنّ على أعمالكم" وقصة ثمود مثال تطبيقي على سنة الله هذه، بقومٍ خابوا بتَدْسِيَتِهِم أنفسَهم بمعصية الله ورسوله واتباعهم أشقاهم. وقد جاءت الآية بصيغة المفرد للتأكيد على أن المسؤولية - في النهاية - مسؤولية فردية. فكل إنسان مسؤول عن نفسه أمام الله تعالى، ويتحمّل عاقبة اختياراته ومواقفه وأعماله. وفي هذا حث لكل فرد من عامة

وليس الخيبة والخسران للأفراد فقط، بل للقرية وللقوم أيضاً، إن هم اتبعوا أئمة الضلال منهم (أشقياءهم) في باطلهم ولم ينكروا عليهم.. وفي هذا تحميلُ كلِّ فرد في المجتمع "مسؤوليته الفردية" عن أعماله ومواقفه إن اتبع أئمة الضلال.. وأن هذه سنة لله تعالى دائمة الجريان [1]..

3- (11-15)، وقد ضرب الله جلّ وعلا، مثلاً لسنته تلك بـ ثمود وقد كذَّبت نبيّها صالحاً، حيث بلغت الغاية في العصيان والطغيان وقت اتّبعوا "أشقاهم"؛ والذي يكون عادة من الملأ الذين كفروا أو من أعوانهم وأدواتهم.. وقد برز في إضلال الناس، وفي التكذيب برسالة الله تعالى وبوعيده لهم بالعذاب.. فاتّبعوه على ذلك [2].

ومن هنا نُسِبَ التكذيبُ والعَقْـرُ إلى جميعهم، فاصبح ذنبهم جميعاً.. فاستحقوا كلهم؛ أتباعاً ومتبوعين، إنزال العقاب الشديد بهم بسبب ذنبهم ذاك:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)﴾ [الشمس]

ودون أن يحسب اللهُ - جلّ جلاله - حساباً لأحد من العالَمين في النتائج المترتّبة على ذلك العقاب:

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ [الشمس]

لأنّه لن يقدر أحد على أن ينصرهم من الله، فهو وحده صاحب الأمر، ومالك الملك، والعزيز الذي لا يُغالَب.. ذو الجلال.

27- (سورة البروج)

الناس على أن لا يتّبعوا "أشقياءهم " - أئمة الضلال - الذين يكذبون بالرسل وبالحق الذي جاؤوا به، فيهلكوا معهم.

1 - كما في قوله تعالى: (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ{116}وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ {117}) هود. وكما في حديث رسول الله الذي رواه البخاري: ((مثَلُ القائمِ على حدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمثَلِ قومٍ استَهموا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاَها وبعضُهم أسفلَها، فكانَ الَّذينَ في أسفلِها إذا استقوا منَ الماءِ مرُّوا على من فوقَهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبِنا خرقًا ولم نؤذِ مَن فوقنا. فإن يترُكوهم وما أرادوا هلَكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)). البخاري الصفحة أو الرقم 2493.

2 - (خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «{إذ انبعث أشقاها} انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، **مثل** أبي زَمعة») (أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما). قَوْلُهُ عَزِيزٌ أَيْ قَلِيلُ الْمِثْلِ. وعَارِمٌ أَيْ صَعْبٌ عَلَى مَنْ يَرُومُهُ كَثِيرُ الشَّرِّ. ومَنِيعٌ أَيْ قَوِيٌّ ذُو مَنَعَةٍ أَيْ رَهْطٍ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الضَّيْمِ. وأبو زمعة هو الْأَسْوَدُ وكان أَحَدُ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ بِمَكَّةَ، وَقُتِلَ ابْنُهُ زَمْعَةُ يَوْمَ بدر كَافِرًا أَيْضاً. أنظر فتح الباري لابن حجر.

نقول: وضَرْب رسول الله المثل لـ " أشقاها " بمَن يشبهه من ملأ قريش الكافرين، هو من باب تنزيل آيات القرآن على الواقع بقصد معالجته.. وبأسلوب القصص. هكذا كان رسول الله يأخذ العبرة من الآيات القرآنية ويعلّمها للمسلمين ويقيم بها الحجة على الناس من خلال تنزيلها على الواقع، وهذا هو " البيان العَمليّ " للقرآن أثناء السير لتحقيق الغاية منه، والذي عن طريقه فهم ذلك الجيل من الأمة القرآنَ ذلك الفهم الفريد، فكان جيلاً فريداً. انظر بند: التفسير التحليلي أو التجزيئي للسورة - في بداية البحث.

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في نهاية الطور الثاني؛ فالسورة تعالج تعرُّض المؤمنين للفتنة (الكيد) وبشكل شامل، حيث يَجمَع أهل الباطل - ممثلين بالملأ منهم - قواهم وكيدهم (الجنود) [1]، ويبالغون في استخدام القوة (حفر الأخدود، والنار الشديدة) ضد جميع المؤمنين بالله؛ أهل الحق وحَمَلة الرسالة، دون التفريق بين الكبير والصغير والقوي والضعيف.

وقد بدأ ما يشبه هذا مع رسولنا محمّد ﷺ ، والذين آمنوا معه، في الطور الثاني، واشتدّت الأحوال بعد ذلك.. يعني الأجواء التي أدت إلى هجرتهم إلى الحبشة، ثم اشتدت أكثر متمثلة في حصار رسول الله والذين آمنوا معه ومن ناصره من بني هاشم، في الشِّعب.. وهي أجواء ليست متباعدة.

مناط السورة:

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) ﴾ [البروج: 7] ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾ [البروج]
حالة تعدي المجتمع ومَلَئه، على من يعبد الله ويحمل دعوته بالإيذاء المادي والتعذيب (الفتنة) [2] بشكل شامل، مبالِغين في إظهار قوتهم وجبروتهم.

---

1 - حقيقة الجُند: هو التجمّع بقصد النصرة والتقوية. وهذا يقتضي القوة والغلظة. والجَنَد: الأرض الغليظة التي فيها حجارة. ويقال للعسكر الجُنْد باعتبار التجمّع والغلظة. ويقال هم جُنده، أي أعوانه ونُصّاره. ويقال لكلّ مجتمع على صفة من الخلق جُند، نحو: «الأرواح جُنُودٌ مُجَنَّدَة فما تعارف منها ائتلف» من حديث رسول الله. قال تعالى: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الفتح. وأما الجند: المدينة، والجمع أجناد، فإن كثيراً من المدن نشأت في الأصل معسكرات لجيوش الفاتحين كالفسطاط والكوفة. **أنظر(معجم المقاييس) - ابن فارس. و(المفردات) - الراغب الأصفهاني. و(المعجم الإشتقاقي المؤصل) – محمد حسن جبل. الحديث أخرجه ابن حبان برقم (1618) وصححه، والحاكم 2 / 81 ووافقه الذهبي، وصححه النووي أيضا في رياض الصالحين.**

2 - أصل الفَتْنِ: إدخال الذّهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار. قال تعالى: (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) [الذاريات/13]، (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) [الذاريات/14]، أي: عذابكم. وتارة يسمّون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه. نحو قوله: (أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) [التوبة / 49]، وتارة في الاختبار نحو: (وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً) [طه/40]، وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان في ما يُدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشدّة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد قال فيهما: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) [الأنبياء/35]. وقال في الشدّة: (فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) [يونس/83]، أي: يبتليهم ويعذّبهم، وقال: (وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ) [المائدة/49]، (وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) [الإسراء/73]، أي: يوقعونك في بليّة وشدّة في صرفهم إيّاك عمّا أوحي إليك، وقوله: (فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) [الحديد/14]، أي: أوقعتموها في بليّة وعذاب.. وقوله: (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت/1- 2]، أي: لا يُختبرون فيميّز خبيثهم من طيّبهم، كما قال: (لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) [الأنفال/37]، والْفِتْنَةُ من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد، كالبليّة والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله، يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله، يكون بضدّ ذلك. ولهذا يذمّ الله الإنسانَ بأنواع الفتنة في كلّ مكان نحو قوله: (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) [البقرة/191]، (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ) [البروج/10].. وقوله:

المعالجة:

السورة في مجملها: حَمْلة على الكفار، من قريش ومَلَئها، لاضطهادهم ضعاف المؤمنين والمؤمنات وفتنتهم إياهم عن عبادة الله. وتثبيتٌ للمؤمنين وتشجيع لهم على تحمّل أذى الكافرين من قومهم. وفيها إشارة إنذارية إلى حادث مماثل (أصحاب الأخدود)، وتذكير بسنة الله في مصائر الطغاة كفرعون وثمود. وفيها تنويه بقدر القرآن وحفظه، لكونه محور الصراع.

وقد سارت السورة في معالجة مناطها كالتالي :

1- (1-7)، التأكيد بأسلوب القَسَم على أن من يفتن المؤمنين - أصحاب الأخدود مثالاً – ملعونون، ولهم يوم سَيَرَوْن فيه العذاب الأليم والهلاك ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) ﴾ [البروج]، في الحياة الدنيا وفي اليوم الآخر[1]، وأن هذا اليوم آتٍ لا محالة، فالزمن يتقدّم و يسير حثيثاً، ليل نهار.. فهاهما الشمس والقمر يمران بمنازلهما في السماء، وينتقلان من منزلة إلى التي تليها (البروج).. وسوف يأتي هذا اليوم الموعود.. والعبرة الحقيقية ستكون بما يحدث هناك يومئذٍ - وليس بما يحدث الآن من فتنة للمؤمنين – فالعبرة بالعاقبة وبمن سيضحك في النهاية.. والعبرة بمن سيكون الشاهد وبمن سيكون المشهود في ذلك اليوم.. حيث سيكون المؤمنون هم الشاهدون على الكافرين وأعمالهم السيئة، وشهوداً لما سيلاقونه من عذاب أليم [2]، في مقابل ما كان يفعله الكافرون - ويفعلونه دائماً - يعذّبون المؤمنين، والملأ منهم يتابعون ذلك عن كثب، ويتشَفَّون بآلام المؤمنين.

2- (8-9)، كشف الدافع الحقيقي لموقف الكفّار من أهل الحق؛ فهم ما أخذوا أهل الإيمان بمثل هذا العذاب الشديد إلا لأنهم مؤمنون بالله الذي له أسماء الجلال والكمال [3]:

– فهو "العزيز" الذي لا يُغالَب، الذي ينبغي أن يُخشى عقابُه..

(وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ الله إِلَيْكَ) [المائدة/49]، فقد عدّي ذلك بـ (عن) يعني خدعوك، لمّا أشار بمعناه إليه. أنظر (مفردات ألفاظ القرآن) - الراغب الأصفهاني.

1 - { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)... هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) } إشارة إلى أن هنالك عذاب في الدنيا أيضاً قبل الآخرة. كما في قوله تعالى: (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُندا {75}) مريم. وقوله تعالى: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ{83}) الزخرف. أنظر الآيات التي جاءت فيها كلمة (يوعدون) في المعجم المفهرس.

2 - كما في قوله تعالى: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ{14}) التوبة. هذا في الحياة الدنيا. أما في الآخرة: (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{36}) المطففين. وكما جاء في آيات كثيرة تبيّن أن من أشكال نعيم أهل الجنة، رؤية الكفار وهم يتعذّبون ويعانون الحسرة والندم.

3 - وهذه هي قضية الصراع بين الفريقين ؛ "ربّنا الله"، من هو الربّ و الإله الذي لا تكون الطاعة إلا لأمره، ولا الاتباع إلا له.. ويجب على المؤمنين، حَمَلة الرسالة، الحفاظ على وضوح هذه القضية ونقائها، ويجب أن لا يسمحوا لأي فكرة أخرى أو أي أمر آخر أن يشوّش عليها أثناء سيرهم بالرسالة.. فـ لا إله إلا الله هي منطلقهم وغايتهم ومنهاجهم.

- وهو " الحميد"، أي المحمود في أقواله وأفعاله وأسمائه، في كل حال، الكريم الذي يُرجَى ثوابُه..
- والذي له ملك السماوات والأرض خلقًا وعبيدًا، يتصرّف فيهم تصرّف المالك بملكه..
- والذي هو على كل شيء شهيد علمًا وسمعًا وبصرًا، لا يخفى عليه شيء.. جلّ جلاله.

فهل الإيمان بالله الذي هذه أسماؤه، جريمة تستحق هذه العقوبة الشنيعة..؟!!

وذِكْر ما سبق من الأسماء الحسنى لله تعالى، وكشف الكافرين، تُفهم منه الدلالات التالية:

- ✓ وعدٌ أكيد للمؤمنين، ووعيدٌ شديدٌ لمعذبيهمْ، ذلك أنَّ قدرة الله عزّ وجلّ وقهره لخلقه، وعِلْمه تعالى بجميعِ الأشياءِ - ومن جُملتِها أعمال الفريقينِ - يقتضي توفيرَ جزاءِ كُلٍّ منهمَا حَتْماً.. فبالقدرة والعلم يحصل الجزاء.. أفلا خاف هؤلاء الطغاة من الله العزيز المقتدر، أن يبطش بهم. أوَ ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله، وليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك ؟! أَوَ خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مُجازٍ لهم على فعالهم ؟!..
- ✓ تأكيد على أن قضية الصراع بين أهل الحق؛ حَمَلة الرسالة.. وأهل الباطل؛ الملأ وأعوانهم، هي دائما: لمن تكون الطاعة والاتباع (العبودية) ؟ لله أم للطاغوت ؟ وإجابة هذا السؤال هي "فكرة الرسالة" التي جاء بها رسول الله من ربّه، وفحوى "خطاب النذارة".. فالمؤمنون في السابق - وكما هو الحال دائماً - مثل أصحاب الأخدود قد حُرّقوا وعُذّبوا من أجل أنهم تركوا عبادة الطاغوت ويعبدون الله وحده الإله الواحد الحق [(1)]..

3- (10-11)، ثم تقرير مَنْ هو الفائز على الحقيقة في هذا الصراع - والفوز هو: النجاةُ منَ الشرِّ والظفر بالخير - ومتى يكون ذلكَ الفوز الحقيقي.. الفوز العظيمُ الشأنِ، الذي تصغر عندَهُ الدُّنيا بكل مَا فِيْهَا من فنون الرغائب.. حيث يقرر الله تبارك وتعالى أن ذلك الفوز العظيم سيكون - فقط - للمؤمنين بالله والمتّبعين لرسوله.. برغم أنّهم المُستَضعفون الآن.. وأن العذاب سيكون على الكافرين المستكبرين الذين فتنوا وآذوا المؤمنين والمؤمنات ليصرفوهم عن دين

---

1 - وهذه هي تهمتهم دائماً، كما في موقف فرعون من السحرة: (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ{124} قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ{125} وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ{126}) الأعراف. وكما في موقف الرجل المؤمن: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ {28}) غافر.. فتهمة حَمَلة الرسالة الوحيدة هي أنهم يقولون: "ربّنا الله".

هذا، ومن أهم عوامل نجاح الدعوة إلى الله، بل العامل الأهم، هوالحرص الشديد من حَمَلة الرسالة - دائماً وخاصةً قبل التمكين - على بقاء تلك "التهمة" ؛ أنهم لا يطيعون إلا الله وحده، هي وحدها قضية الصراع مع الباطل وأهله، وعلى بقائها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا شيء يشوش عليها مهما حاول أهل الباطل التعمية عليها بقضايا أخرى وبمسائل جانبية، وتُهَم أخرى.. لصرف انتباه الناس عنها.

الله، ثم لم يتوبوا.. وإن لم يكن العذاب في هذه الحياة الدنيا ويشهده المؤمنون، فسيكون حتماً في يوم القيامة [1]..

فهذا إنذار للكافرين، وحث لهم على الإسراع في التوبة والدخول في العبودية لله واتباع الرسول مع المؤمنين قبل فوات الأوان.. " فانظروا إلى هذا الكرم والجود، هم يَقتلون أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! فما أعظم فضل الله !"..

وهو - أيضاً - طمأنة للمؤمنين وتعليم لهم، أنّهم في معيّة الله عزّ وجلّ ورعايته وكفالته، وحتى لو أدّت بهم الفتنة والابتلاء إلى درجة هلاكهم وموتهم كلهم، كأصحاب الأخدود.. فإنهم هم الفائزون المنتصرون في الدنيا والآخرة؛ إذ أنهم صبروا وثبتوا على الحق وطاعة الله جلّ وعزّ، وماتوا وهم على الإيمان، فلم يستطع الكفّار أن يغيروا فيهم شيئا.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)﴾ [البروج]،، (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)..

4- (12-18):

- ✓ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) ﴾ [البروج]، استئنافٌ خُوطب بهِ النبيُّ ﷺ؛ (رَبِّكَ)، مع التأكيد على الحقيقة المقررة في الآيتين السابقتين؛ من أن الله تعالى هو الذي حكم بها وهو الذي يتكفّل بتحقيقها، وهي من سُننه في خلقه..
والبطشُ؛ الأخذُ بعُنْفٍ وقسوة.. وحيثُ وُصفَ بالشدةِ فقدْ تضاعفَ وتفاقمَ. وهو بطشُه - سبحانه - بالطغاة الظلمةَ وَأخذُه إيَّاهُم بالعذابِ والانتقام، كقولِه تعالَى:
﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ [الدخان]، وكانت يوم بدر.. يوم الفرقان..
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود]
- ✓ ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣)﴾ [البروج]، وأنه يبدىءُ البطشَ بالكفرةِ في الدُّنيا وَيعيدُه فِي الآخرةِ.. وفيهِ مزيد تقرير لشدة بطشِهِ، أيْ هُو - سبحانه - يُبدؤه وهو يعيده من غيرِ دخلٍ لأحدٍ في شيءٍ منْهُمَا.. يعني لا ناصر لهم من الله جلّ جلاله [2]..

---

1 - كما في قوله تعالى:
(وَإِمَّا **نُرِيَنَّكَ** بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ **نَتَوَفَّيَنَّكَ** فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ{46}) يونس
(وَإِن مَّا **نُرِيَنَّكَ** بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ{40}) الرعد
(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا **نُرِيَنَّكَ** بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ{77}) غافر
(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ{41} أَوْ **نُرِيَنَّكَ** الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ{42} فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{43}) الزخرف
والآيات السابقة من السور المتلعقة بالطور الثالث، حيث أُنذر الكفار بالعذاب في الدنيا (الَّذِي نَعِدُهُمْ)، والله عزّ وجلّ يواسي رسوله والمؤمنين معه ويصبّرهم على ما يجدونه من عسر وضيق في حملهم رسالة الله. هذا، والتشابه الواضح في صياغة الآيات قرينة على أن تلك السور متعلقة بأجواء متقاربة.

2 - وهذا اختيار الطبري: ((وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، وأشبههما بظاهر ما دلّ عليه التنزيل القولُ الذي ذكرناه عن ابن عباس، وهو أنه يُبْدِئُ العذاب لأهل الكفر به ويعيد، كما قال جلّ ثناؤه: (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) في الدنيا، فأبدأ ذلك لهم في الدنيا، وهو يعيده لهم في الآخرة. وإنما

- ✓ ثم أضاف إلى الإستئناف والتأكيد، بيان خمسة من أسماء وأوصاف الرحمةِ والجَلال لله تبارك وتعالى.. وذلك من باب الزيادة في التأكيد بإيراد البينات والحيثيات، على صدق وقوع ما قرره الله جلّ وعلا، من أن العذاب واقع بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات إن لم يتوبوا، وأن الفوز الكبير للمؤمنين..

وأسماء الرحمة والجلال هي:

- ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ﴾ [البروج] ؛ (الغفور) كثير المغفرة، أي كثير ستر الذنوب مع التجاوز عنها، لمن تاب وآمن من عباده.. (الودود) أي كثير المَوَدّة والمحبة لمَنْ أطاعَ واتّبع.. والمَودّة هي المحبة الصافية المجرّدة.. وهو تعالى "الودود"، أي الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.. والتي هي أصل العبودية.. فهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وكلّها تبع لها.. كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾ [المائدة: 54]،

وإيراد اسم " الودود " مقروناً باسم "الغفور"، ليدل على أن الذين عصوا الله إن تابوا إليه وأنابوا، غَفر الله لهم ذنوبهم.. وليس ذلك فحسب، بل وأحبهم كذلك.. فليفرّوا إلى مغفرته ووُدّه من بطشه الشديد [1]..

وفي هذا توجيه للمؤمنين: بأن أعداء الله هم أعداؤكم ما داموا كافرين، فإن تابوا إلى الله أصبحوا إخوانكم وأحبّاءكم. فالعداء إنما هو في الله ولله، أي ليس للشخص نفسه، بل بوصفه عدواً لله عزّ وجلّ، فإن تاب وآمن فهو أخ لكم في الله، وإن كان عدواً لكم وآذاكم وعذبكم في ما مضى.. فلا حَظّ للنفس في هذا العداء والصراع [2].. وهذا فيه ما فيه من تزكيةٍ للنفوس..

قلت: هذا أولى التأويلين بالصواب؛ لأن الله أتبع ذلك قوله: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) فكان للبيان عن معنى شدّة بطشه الذي قد ذكره قبله، أشبه به بالبيان عما لم يَجْرِ له ذكر، ومما يؤيد ما قلنا من ذلك وضوحًا وصحة قوله: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) فبيَّن ذلك عن أن الذي قبله من ذكر خبره عن عذابه وشدّة عقابه)).

1 - يعني بشارة ونذارة، ترغيب وترهيب.. لدفع عباد الله المذنبين للجوء إلى رحمة الله فراراً من عذابه. ويأتي هذا حين اقتراب نزول العذاب بالكافرين. كما في أمثلة أخرى لاسمَيْن لله جلّ وعزّ، قُرنا معاً: (العزيز الرحيم) وقد وردا في سوَر: الروم، السجدة، يس، الدخان، والشعراء وقد تكررا فيها تسع مرات.. وأيضاً: (العزيز الغفّار) وقد وردا في سورة ص، الزمر، غافر.. و(العزيز الغفور) في سورة المُلك.. والسور السابقة من السور المكية المتعلقة إما بالطور الثاني أو الثالث.

2 - وهذا ينسجم مع ما قررناه في الآيات السابقة من وجوب جعل قضية الصراع واضحة لا لبس عليها، من أنها لله وفي الله. ومن جانب آخر، ينسجم أيضاً مع أحكام الولاء والبراء في هذه المرحلة (قبل التمكين)، بل ويؤيّدها، من أنها مُناطة بالطاغوت وبدينه وشريعته فقط - يعني بالأفكار والمُعتَقد (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) - وليس بالأشخاص، فالأشخاص هدف للدعوة الآن. أما بعد "التمكين" للمؤمنين، فالبراءة تكون من الأفكار والأشخاص معاً.. ومن المعالجات التي - أيضاً - تنسجم مع أحكام "الولاء والبراء" وتؤيدها في مرحلة "ما قبل التمكين": أن الأصل في الموقف ممن يستهزيء بآيات الله من الكافرين - خاصة في أواخر المرحلة - هو الإعراض عنهم، أي تركهم وعدم القعود معهم. أي

- ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)﴾ [البروج] ؛ صاحب العرش؛ أي المَلِك المتصرّف في مُلكه كما يشاء، لأن العرش يدل على أن صاحبه من الملوك.. أي أنه جلّ وعلا له المُلك والعَظَمة، والسُّلطان القاهر، وله الأَمْر الذي لا يُـرَدّ [1].

"الإنكار السلبي" على مواقفهم، وهو الحد الأدنى من الإنكار، كما في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {68}) الأنعام. ومفهوم (حتى) هنا، أن القعود معهم جائز ما لم يخوضوا في آيات الله عزّ وجلّ. وهو الحكم الشرعي نفسه الذي كان في بدايات مرحلة "التمكين"، كما في قوله تعالى في سورة النساء: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا=> فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً {140}). ثم نزل الأمر بالبراءة منهم.. حتى نزل حكم الله تعالى النهائي بحقهم..

هذا، والآيات السابقة - في الموقف من المستهزئين - حجة بيّـنة في عدم جواز المشاركة في جلسات ما يُسمّى بـ "السلطة التشريعية" (البرلمان)، وهي تمارس عملها في سن الأحكام والتشريعات من غير شريعة الله، نابذة لشريعة الله جلّ جلاله وراء ظهرها. فعملها هذا من أبـيَن أشكال الاستهزاء بآيات الله والكفر بها.

1 - هذا بالنظر في ما يحمله وصف (ذو العرش) من دلالات في السياق. فالعرش في اللغة: سرير المُلْك، وصاحب العرش هو المَلِك. كما في قوله: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ {23}) النمل. وقوله تعالى: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً..{100}) يوسف. والقول: أنه (جالس على العرش): يعني أنه مَلِك فعلاً. والقول: أنه (مستوٍ على العرش): يعني يتولّى المُلْك متمكّناً منه، فهو وحده الحاكم على المُلْكِ بلا منازع. ذلك أن (استوى على الشيء): يعني علاه وتمكّن منه. كما في قوله تعالى: (.. وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ..{44}) هود. أي ورست السفينة واستقرّت على جبل الجوديّ بعد أن كانت تتلاطمها أمواج كالجبال. وقوله تعالى: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ {12} **لِتَسْتَوُوا** عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا **نِعْمَةَ** رَبِّكُمْ **إِذَا اسْتَوَيْتُمْ** عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{13}) الزخرف. أي، فإذا (اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) يعني متمكّـنين منه، خاضع لإرادتكم، تذكّروا أن هذا من نعمة الله عليكم، فما كنتم بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذا المركوب الصعب - كالسفن والأنعام وغيرها - لولا أن الله تبارك وتعالى قد جعلها مُـنقادة لكم، ومُسخرة لخدمتكم. وعليه، فقوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{5}) طـه، يخبرنا الله تعالى أنه وحده الحاكم على المُلْكِ بلا منازع ولا شريك..هكذا. وهذا له نظائر كثيرة في معناه، مثل قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً{111}) الإسراء. وقوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{2} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ..{3}) الفرقان. وقوله تعالى: (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16}) البروج. وقوله: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ {3}) يونس. أي: إن ربّكم الحق هو الذي انفرد بخلق السماوات والأرض، ثم هو وحده يدبّـر أمور خلقه تدبير المَلِك أمور مملكته، وقاضيًا فيهم - على مقتضى الحكمة - بما يريد، وبغير شريك ولا ظهيرٍ ولا يضادُّه في قضائه أحدٌ. فإن خالق العوالم بغاية الإتقان والمَقْدِرة، ومالك أمرها ومدبّر شؤونها والمتصرّف المطلق فيها، هو وحده الربّ الحق والمستحق للعبادة.. كما في قوله تعالى: (إِنَّ **رَبَّكُمُ** اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ **يُغْشِي** اللَّيْلَ

{الْمَجِيدُ}، أي هو سبحانه المُمَجَّد، العالي على جميع الخلائق، الذي بلغ المنتهى في العظمة والكرم والفضل.. المتصف بجميع صفات الجلال والكمال.. فالمجدُ: سعة الأوصاف

النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ **مُسَخَّرَاتٍ** بِأَمْرِهِ **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** تَبَارَكَ اللّهُ **رَبُّ** الْعَالَمِينَ{54}) الأعراف (الحجة الرسالية).. إلخ. فقوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{5}) طـه، ومثلها من الآيات.. تُفهَم دلالته في معهود اللسان والقرآن، دون النظر - مطلقاً - في **حقيقة** إستواء الله تعالى أو تصوّر **كيفيته**، ولا الدخول - مطلقاً - في بحث هل هو **حقيقة أم مجاز**، ولا نفياً ولا إثباتاً.. إنما النظر والبحث يكون - فقط - محصوراً في دلالة جملة (على العرش استوى) في معهود اللسان => والقرآن. كما بيّنا، "فالأمر هنا يتعلق - فقط - بإدراك دلالة النص القرآني عن الخبر، ولا يتعلق بإدراك عين الحقيقة المُخْبَر بها أو محاولة تصوّرها". فذات الله وكيفيات أفعاله سبحانه وتعالى، من "الغيب المطلق" الذي لا سبيل لأحد من البشر العلم به عن طريق الحس، فلا **يمكن عقلاً** البحث في ذات الله تعالى أو كيفيات أفعاله، أو النظر في كيفية تعلقها بذات الله سبحانه..لأن ذلك بحث في ذات الله جلّ وعلا.. والله عزّ وجلّ (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{103}) الأنعام. و(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11}) الشورى.. فذات الله وكيفيات أفعاله سبحانه وتعالى، لا يصح البحث فيها بحثاً عقلياً. ومن ذلك القول أن ذلك الفعل لله أو تلك الصفة، على الحقيقة أو على المجاز..لأن القول بأي منهما يقتضي - قطعاً - أن تكون الذات الموصوفة أو الفاعلة مُحسّة مُدركة، ذلك أن القرائن المُثْبِتة للحقيقة أو الصارفة للمجاز مردّها جميعاً إلى الحسّ، أي إلى أمر يقع تحت الحسّ. فالدخول في بحث أسماء الله تعالى وأفعاله وصفاته، أنّها على الحقيقة أو على المجاز، إنما هو بحث في ذات الله، والعلم بذات الله تعالى أمر غير ممكن، فالنتيجة الحتمية لذلك البحث هي القول على الله بغير علم.. وهذا لا يجوز شرعاً، فهو يَدخل في النهي الوارد في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً{36}) الإسراء.

وعليه، فالبحث والنظر في الأمور التي من "الغيب المطلق"، لا يصح إلا من خلال البحث في دلالة الألفاظ والتراكيب في الآية التي فيها الخبر عن ذلك الأمر الغيبيّ، في سياقها، وكما هي في معهود كلام العرب وفي معهود القرآن.. "وإمرارها كما هي" دون الدخول في **تصوّر** حقيقة ما أُخبر عنه، ومنه البحث: هل هو على الحقيقة أم على المجاز؟. "فالأمر هنا يتعلق - فقط - بإدراك دلالة النص القرآني عن الخبر، ولا يتعلق بإدراك عين الحقيقة المُخْبَر بها أو محاولة تصوّرها".

هذا، وعرش الرحمن، من "الغيب المطلق"، فلا يجوز القول فيه إلا بنص شرعي. ومُجمل ما يُفهم من الروايات: أنه اسم لعالَم عظيم يُحيط بجميع السماوات وما فيهن. والعرش العظيم يدُلّ على عِظَم مُلك الله جلّ وعلا، وعلى عَظَمة الله المَلِك: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً **تَمْلِكُهُمْ** وَأُوتِيَتْ مِن **كُلِّ شَيْءٍ** وَلَهَا **عَرْشٌ عَظِيمٌ** {23}) النمل. والله جلّ وعلا، لا يُقاس على غيره، ولا يُقاس غيره عليه، فهو(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).. فهو - سبحانه - ليس كسائر الملوك بل هو خالق الملوك، ومالكهم وما يملكون وما لا يملكون، (مَالِكَ الْمُلْكِ) جلّ جلاله: (قُلِ اللهم مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {26}) آل عمران. هذا والله تعالى أعلم وأحكم. أنظر (تفسير الطبري). و(تفسير القرطبي). و(التحرير والتنوير) - ابن عاشور و (مفردات القرآن) - الفراهي. و(مفردات القرآن) - الراغب. و(معجم المقاييس) - ابن فارس و(المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل. (مذهب أهل السنة بالتفسير - أحمد بزوي الضاوي). وللتفصيل في تحقيق المنهج الحق في النظر إلى أسماء الله جلّ ثناؤه، والأمور التي من "الغيب"، أنظر بحث (وعنده مفاتح الغيب) - "مفاهيم ومصطلحات رسالية" (الجزء الثالث).

وعظمتها.. تنبيهاً للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله وعظمته، كما يعبدونه لاتقاء عقابه ورجاء نواله وعطائه..

- ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) ﴾ [البروج] [1]؛ لا مُكْرِه له سبحانه.. ولا يمتنع عليه شيء يريده ولا يعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب.. ولا معقّب لحُكمه ولا رادَّ لقضائه. وفي العموم والتنكير، من التفخيم ما لا يخفى.
- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) ﴾ [البروج]؛ استئناف آخر، فيه تحقيق لكونه تعالى ذا العرش وفعالاً لما يريد، وذلك بضرب مثال لشدة بطشه - سبحانه - بالظَّـلَمة العُصاة، والكفرة العتاة من الأمم السابقة. وفيه تسلية له ﷺ ومن معه من المؤمنين بالإشعار بأن الله ناصرهم، وأنه سيصيب كَـفَرة قومهم ما أصاب أولئك الجنود. أي: قد بَلَغك أيها الرسول، خبر الجموع (الجنود) الكافرة المكذبة لأنبيائها، فرعون وثمود، وما حلَّ بهم من العذاب والنِّكال.. فذكِّر قومكَ بشؤونِ الله تعالَى وشدة بطشه، وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم.. فلا ملجأ لهم من الله إلا إليه.. وأن هنالك فرصة للنجاة من البطش الشديد، ما تزال أمامهم؛ وهي التوبة إلى ربهم الغفور الودود.. وهو جلّ جلاله وحده ذو المُلك والسُّلطان، ولا يمنعه شيء عمّا يريد..

5- (19-22)، هذا، وبرغم بيان الحق والبشارة والنذارة.. ما يزال الذين كفروا من قريش، لا يتّعظون ولا يأخذون العبرة.. بل هم في تكذيب متواصل بالقرآن والحق الذي جاء به.. كدأب مَنْ قبلهم يكذبون بآيات الله البيّنات..
فإذا بقوا مصرّين على موقفهم، ألا فليعلموا أن الله تعالى قد أحاط بهم علماً وقدرة، ولا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم شيء.. فلا نجاة لهم ولا فوت منْ بطش الله تعالَى.. كما لا يفوت المُحاط المحيط: ﴿وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج]..
إنما هي سنته الدائمة في الذين كذبوا وطغوا من قبل، مثل: فرعون وثمود، أصحاب القوة والجنود..
فهذا تهديد شديد، وإنذار مؤكّد لمَن يفتن المؤمنين ويعذّبهم، في كل زمان ومكان، بأن مصيرهم الدّمار والهلاك، إن لم يتوبوا.. وإن لم يكن في الدنيا، فهو في الآخرة حتماً.
﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ [البروج]، هذا، ولا يضير القرآن تكذيبهم بما فيه وبأنه من عند الله.. لأنه كتابٌ مجيد؛ أي شريف كريم، وسيع المعاني عظيمها،

---

1 - ((يرى الزمخشري بأن حمل (فَعَّالٌ) على أنه خَبر لمبتدأ جديد محذوف أي "هو فعّال"، فيه إضافة جديدة للمعنى ؛ يجعل من قوله سبحانه (فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) تحقيق للصفتين البطش بالأعداء والغفر والوُدّ للأولياء، وحمْله على أنه خبر للمبتدأ السابق (هو) في قوله تعالى (هُوَ الْغَفُورُ) يُفوّت هذه النكتة. وهو تدقيق لطيف)). (تفسير الألوسي) بتصرّف.
نقول: إن وصفه تعالى (فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) إلى كونه (ذُو العَرْش) تعني: كما أن الله هو المَلِك صاحب السلطان في تدبير ملكه، فهو لا يُشرك في حكمه أحد، وله وحده الأمر النافذ الذي لا يُرَد ولا يُعارَض، وهو نفس المعنى المقصود من الخبر في قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{5}) طـه.

كثير الخير والعلم.. في لوح محفوظ، لا يناله تبديل ولا تحريف.. وهو حق وأُنزِل بالحق.. وما أخبر به هو الحق، وسوف يَرى المكذّبون تأويله [1].

28- (سورة التين)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في بداية الطور الثاني؛ فترة الحوار والمجادلة. ذلك أن أسلوب السورة فيه إجمال لتفصيل سبق بيانه في سوَر نزلت من قبل، فالأصل هو البيان والتفصيل [2].

مناط السورة:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) ﴾ [التين: 7]، حالة مَن لا يزال يُكذّب بالحق والجزاء.. وقد سبق أن بلغته الآيات البيّنات في هذا الأمر الواضح البيّن؛ (سؤال استنكاري).

المعالجة:

يأتي محتوى السورة - أفكاراً وأسلوباً - في إطار الحث على طاعة الله واتباع رسوله، من خلال التنويع في "خطاب النذارة"، وتصريف الآيات:

1- (1-3)، التأكيد، بالقَسَم بالتين الذي هو من أحسن الثمار، صورة وطعما وفائدة.. وبالزيتون الذي يكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.. وبهذا البلد الأمين، وهو مكة المكرمة. وبطور سنين الذي كلّم الله سبحانه وتعالى، عليه نبيّه موسى تكليما [3].

---

1 - تأويله: أي تحقُق ما أخبر به في الواقع، كما في قوله تعالى: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا **تَأْوِيلُ** رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً.. {100}) يوسف.. أنظر (مذهب أهل السنة في التفسير) - أحمد بزوي الضاوي. في تحقيق معنى التأويل.

2 - انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول".

3 - اتفق المفسرون على أن المراد بطور سينين: الجبل الذي كلم الله سبحانه تعالى، عليه موسى - عليه السلام - وسينين، وسيناء، وسينا، اسم للبقعة التي فيها هذا الجبل. وأن المراد بالبلد الأمين: مكة المكرمة، وسُمي بالأمين لأن من دخله كان آمنا، وقد حرّمها- تعالى- على جميع خلقه، وحرّم شجرها وحيوانها، كما في الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال بعد فتحها: «إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يُعضَد [يُـقطع] شجرها، ولا يُنفّر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد... » إلا أنهم اختلفوا في المراد بقوله تعالى: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)، وقد اختار الإمام القرطبي القول بأنهما: تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت، لأنه الحقيقة، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل. وهو اختيار الإمام ابن جرير أيضاً حيث قال: ((والصواب من القول في ذلك عندنا، قول من قال: التين: هو التين الذي يؤكل. والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت، لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يُسمى تينا، ولا جبل يُقال له زيتون. إلا أن يقول قائل: المراد من الكلام، القَسَم بمنابت التين ومنابت الزيتون، فيكون ذلك مذهباً، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك، دلالة في ظاهر التنزيل)).

2- (4-6)، جواب القسم (المقسم عليه)؛ عظيم حكمة الله الإله الحق، أحكم الحاكمين.. في خلق الإنسان في أبدع خِلقة وأحسن صورة، **ففضّله** على سائر المخلوقات وكرّمه عليها.. كما **فضّل** بعض الأماكن على غيرها أو بعض الثمار على بعضها، فالأمر إليه وحده تبارك وتعالى [1].

فقد كرّم الله تعالى الإنسانَ فجعله خليفةً في الأرض؛ أي السيّد على المخلوقات وقد سخّرها له.. وفي نفس الوقت، حمّله أمانة أن لا يطيع إلا الله وأن لا يتّبع إلا هداه ومنهاجه في ممارسته الخلافة في الأرض. في كل ما أعطاه الله إياه وفي جميع مناحي حياته، الفردية والمجتمعية.. فإن أخذ الإنسان - فرداً ومجتمعاً - الأمانة بحقها، كان متوافقاً مع الفطرة؛ باقياً في أحسن تقويم.. فلا يضلّ ولا يشقى.. فهو مُكرّم في القمة السامقة، وليس فوقه أحد إلا الله جلّ وعلا خالقه ومالكه.. هذا في الحياة الدنيا. أما في الحياة الآخرة فله الأجر المستمر غير المنقطع عند الله تبارك وتعالى. أما إذا اختار الطريق الأخرى: الإعراض عن منهاج الله تعالى، سقط بالضرورة في عبادة غير الله - فالإنسان إما أن يكون عبداً لله أو عبداً للطاغوت - فهبط عن تلك المكانة السامقة التي خلقه الله تعالى لها.. وانحطّ وتسفّل.. وحينئذ، فلا ينتظر إلا المعيشة الضنكى في الحياة الدنيا، والعذاب المهين الأليم المقيم في الحياة الآخرة [2].

فحَمْل الأمانة بحقها هي قضيّة الإنسان الكبرى والأولى في حياته، فلا يجعل أية قضية أخرى تشغله عنها، فمصيره - في الدنيا والآخرة - منوط بموقفه منها.

3- (7-8)، ثم الإلتفات في الخطاب إلى مَن لا يزال مصرّاً على التكذيب بالدّين والجزاء - بعد ما سبق من التأكيد والبيان - والإنكار عليه.. فالله عزّ وجلّ هو أحكم الحاكمين، فهو لم يخلق الإنسان بهذا المستوى الراقي الرفيع من الخلق والتكريم عبثاً، ولم يتركه هكذا هملاً.. بل خلقه لحكمة عظيمة جليلة؛ وهي أن يحقق العبودية لله تبارك وتعالى، باختياره ورضاه.. فخلْقُ الإنسان من نطفة من ماء مهين، ثم جَعْلُهُ في أجمل شكل وأبدع صورة.. لَمِن أوضح الدلائل على قدرة الله عزّ وجلّ وحكمته، وعلى الجديّة والقصد في خلقه للإنسان، فقد خلقه الله بالحق.. فيجب أن يكون هنالك عودة إلى الله للحساب والجزاء [3].

---

1 - أي، وحق هذه الأشياء.. لقد خلقنا الإنسان في أعدل قامة، وأجمل صورة، وأحسن هيئة، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره، من بيان فصيح، ومن عقل راجح، ومن علم واسع، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه في هذه الحياة، بإذننا ومشيئتنا. والتقويم في الأصل: تصيير الشيء على الصورة التي ينبغي أن يكون عليها في التعديل والتركيب. تقول: قوّمت الشيء تقويماً، إذا جعلته على أحسن الوجوه التي ينبغي أن يكون عليها، وذلك من منظور الغاية (الوظيفة) التي خُلق من أجلها.. وهذا الحُسْن يشمل الظاهر والباطن للإنسان. وهذا التقويم الحَسَن هو من مقومات أو مقتضيات كونه الخليفة في الأرض، أي السيّد المتصرّف فيها.

2 - للتفصيل أنظر: (العبودية) - ابن تيمية. و (استخلاف الإنسان في الأرض) - فاروق أحمد الدسوقي.

3 - كما في قوله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ{115} فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ{116} وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{117} وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ{118}) المؤمنون.. وآيات سورة القيامة (36- 40).. الخ. فالعظمة في الخلق، والتعقيد الشديد في الخلق.. يدلان يقيناً على الجديّة=>

29- (سورة قريش)

ربط السورة بخط السير:

السورة مرتبطة بنهاية الطور الثاني وبداية الثالث، وذلك:

1- ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش]، هذه اللام للتعجب. فمعنى الكلام: اعجبوا أيها الناس لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف [(1)]..

وأسلوب التعجّب في السورة يُشعر بأنها أتت بعد البيان والتذكير الصريح، وأن قريشاً ما تزال لم تستجب لرسول الله رغم ذلك البيان..

و يؤيد هذا ما أورده ابن كثير في تفسيره، من قول النبي ﷺ في خطابه لقريش، بما فيه من قوة:

والقصد والحكمة.. مثلما يلمس الإنسان الجديّـة والقصد حينما يُقارن بين المركبة (السيارة) الحقيقية الفارهة والمصنّعة من المواد غالية الثمن وذات التصميم الجذاب والمُعقّد.. وبين المركبة الّلعبة، التي يلعب بها الأطفال، والمصنوعة من مواد رخيصة وليس فيها من المركبة الحقيقية إلا شكلها.. فبمجرّد النظر، يدرك الإنسان يقينا أن صانع السيارة الحقيقية لم يكن ليقصد أن يلهو ويلعب حين صنعها. أو حينما تقارن بين البيت الحقيقي المُعد للسكن من حيث الحجم وجودة التصميم ومتانة المواد، ومن حيث التكلفة المالية والجهد المبذول.. وبين البيت من الرمل الذي يبـنيه الأطفال للّهو به على رمال شاطيء البحر. فالجديّـة والقصد والحكمة.. تلمسها وتدركها يقيناً عندما ترى العظمة والتعقيد الشديد في الخلق. وعندما ترى المركبة الفضائية وهي صاعدة تخترق الفضاء، أو تدور في فلكها حول الأرض أو تهبط على سطح القمر.. تدرك يقيناً أن ذلك ليس عبثاً، وأن صانعها لم يكن ليقصد بذلك اللهو واللّعب.. فهذه العظمة وهذا التعقيد الشديد، وتلك الجهود الجبارة التي بُذلت.. تدلّ قطعاً على الجديّـة والقصد، والحكمة والغاية.. فكيف بك في خلق وإيجاد هذا الكون الواسع الشاسع.. وتقديره وتنظيمه.. وما فيه من المجرات العظيمة والنجوم اللامعة والكواكب الرائعة التي لا تُعَـدّ ولا تُحصى!!.. وهذه الأرض التي نحيا عليها وما فيها من حياة متنوعة غاية في الجمال والروعة، وتوازن بيئي غاية في الدقـة واللطف والعظمة !!.. وخَلْق الإنسان، وما أدراك ما خَلْق الإنسان !!. ألا يدل ذلك كله على الجديّـة والقصد، والحكمة والغاية!!.. ولله المثل الأعلى، وتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين.. وأحسن القائلين: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ{190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{191}..) آل عمران. (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ {38} مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{39} إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ{40}..) الدخان. وصدق الله العظيم

انظر كتاب (الإيمان بالقدر)/ الباب الثالث. تجده على الرابط:

https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCzNrOc?usp=sharing

1 - يقول الإمام الطبري: ((والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن هذه اللام بمعنى التعجب. وأن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.. والعرب إذا جاءت بهذه اللام فأدخلوها في الكلام للتعجب، اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها)).

- ({ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف }. ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف") [1].
- عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((ويل أُمّكم قريش، { لإيلاف قريش })) [2].

2- السوَر التي ورد فيها تذكير مجموع قريش - أي "القرية" - بما في بيت الله الحرام من نعمة عليهم وبركة، والإنكار عليهم لعدم عبادة الله وشكره، وإنذارهم بعذابه.. من السوَر المرتبطة بنهاية الطور الثاني أو بالثالث. مما يعني أن خطاب الله تعالى قريشاً بوصفهم "قرية" (المجتمع)، كان بعد أن وحّدوا موقفهم وأجمعو أمرهم على محاربة الله ورسوله، وقد بدا ذلك واضحاً، حين إجماعهم على حصار رسول الله ومن آمن معه وناصره في شعب بني هاشم.. ومن ثم استمر وازداد بعد ذلك.

وهذه بعض الآيات التي تذكّر قريش بنعمة الله وبفضله عليهم:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) ﴾ [النحل]

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ﴾ [النمل]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت]

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

﴿* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) .. (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

2– وعند النظر في سياق الآيات السابقة في سوَرها التي وردت فيها، يتأكّد هذا التوجيه:

✓ سورة النحل آية (112-113):

جمهور المفسرين على أن هذا المثل مضروب في مكة وكفارها: فمكة بلدة قد أنعم الله عليها بالأمن والطمأنينة، ويسّر لها أسباب الرزق يأتيها من كلّ مكان بسهولة وسعة. ولمّا جاءهم رسول الله يدعوهم إلى عبادة الله وشكره، لم يرعَ أهلها حقّ الله تبارك وتعالى ولم يشكروا نعمه وأفضاله، ووقفوا منه موقف المكذّب الباغي. ولمّا أصرّوا على موقفهم أخذهم الله بـ "العذاب الأدنى" - مجاعة أدت إلى خوفهم واضطرابهم (الدّخَان) - بكفرهم وبغيهم، وبدّل أمنهم

1 - رواه ابن أبي حاتم. والإمام أحمد في المسند (460/6).
2 - رواه ابن أبي حاتم. والطبراني في المعجم الكبير (177،178/24).

بالخوف، وسِعة رزقهم بالتقتير والجوع، وجعلهم مثلاً يُتمثّل به وعبرة للمعتبرين. وهو ما تُذكّر به هذه الآيات وتُشير إليه في تعليل ما أصابهم بموقفهم الباغي الظالم. فتكون صلة هذه الآيات بسابقاتها – في سورة النحل - واضحة، حيث احتوت سابقاتها حَمْلة على الكفار، وزعمائهم بخاصة، لمواقفهم المناوئة لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وتشويشهم عليه وإكراه من استطاعوا على الارتداد عن الإسلام، فجاءت الآيات تُعْلمهم بأن ما هم فيه من بلاء – قحط ومجاعة - بعض جزائهم العاجل من الله، وتجعل أهل مكة في ذلك مضرب المثل والعبرة [1].

✓ سورة العنكبوت آية (67):

في الآية سؤال استنكاري في معرض التنديد، موجّه إلى الكفار عمّا إذا كانوا لا يَرون أن من نعمة الله عليهم أن جعل لهم حَرماً آمنا يتمتعون فيه بالأمن والسلامة، بينما الناس الذين حولهم والذين يقطنون خارجه معرضون للمهالك والأخطار.. فهل يُعقل أن يكفروا بنعمة الله ويشركوا معه غيره، ويؤمنوا بما هو باطل وضلال ؟!!. والآية متصلة بسابقاتها - في سورة العنكبوت - واستمرار على موقف الحِجاج أو بسبيله. وروحها يلهم أن مشركي قريش الذين يقوم الجدل بينهم وبين رسول الله، يعترفون أنهم في حرم الله وأن أمْنه المحترم من الناس جميعا هو متصل بدين إبراهيم عليه السلام وملّته، ومن جَعْل الله له مثابة للناس.. ومن هنا استحكم التنديد بهم [2].

3– وبنفس الخطاب خاطب أنبياءُ الله ورسلُه أقوامَهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم كـ "أمّة" أو "قرية"، فهو سنة جارية، كما في سورة الأعراف الآيات (69، 74، 86).. وهي من السوَر المرتبطة بأواخر المرحلة الأولى.

4– وعليه فسورة قريش متعلقة بالأجواء نفسها التي تكلّمت عنها السوَر الأخرى التي ذكرناها سابقاً، إلا أنها تميزت عن تلك السوَر بأن جعلها الله تعالى مقتصرة على ذكر تلكما النّعمتين العظيمتين على قريش اللتين خصهم الله بهما في جزيرة العرب: الأمن من الخوف، والإطعام من الجوع، مذكّراً لهم بهما، متعجباً منهم أو منكراً عليهم استمرارهم على كفرهم.

مناط السورة:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

بيان حيثيات دعوة المجتمع (القرية) إلى عبادة الله تعالى وحده، وإقامة "الحجة الرسالية" عليهم بأن يحقق "المجتمع" العبودية الكاملة لله تعالى وحده (إخلاص الدين لله)؛ بوصفه مجتمعاً (قريش).. أي، تحقيق "العبوديّة المجتمعيّة" أو "عبوديّة المجتمع".. والتي تقوم على الأصل التالي:

المرجعية الوحيدة لقيادة المجتمع في تنظيم العلاقات المجتمعية، هي دين الله وشريعته الخاتمة فقط. فلا يُطبّق على أفراد المجتمع إلا أوامر الله تعالى وحده وأحكامه وحده، في جميع مجالات

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. و(التفسير الحديث) - محمد دروزة. و(تفسير الجلالين).

2 - أنظر المرجعين السابقين. وحتى لا نُطيل على القارئ الكريم، نُحيله - إلى (تفسير ابن كثير)، أو غيره من كتب التفسير، في تفسير سائر الآيات الأخرى التي أشرنا إليها.

حياتهم، وفي جميع علاقاتهم وتعاملاتهم كلها؛ الفكرية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية. "فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".. فلا طاعة في المجتمع - أصالة - إلا لله وحده ولرسوله الكريم. وبذلك - فقط - يكون المجتمع مسلماً لله.. ويكون "مجتمعاً إسلامياً"، ويخرج عن كونه "مجتمعاً جاهليّاً" [1].

البيان:

الطلب المباشر إلى المجتمع (القرية) - قريش مثالاً - عبادة الله تعالى فهو وحده الإله الحق المستحق للعبادة.. يعني في سياق "خطاب النذارة".. من خلال التذكير بأبرز وأكبر نِعَم الله تبارك وتعالى عليهم، فما هم فيه - كمجتمع - من نعمة الأمن من عموم **الخوف**، ونعمة الإطعام من عموم **الجوع** .. وهما أساس لكل النعم للمجتمع والفرد .. إنما هو من الله وحده، فهو ربّـهم الحق، فليخلصوا له العبادة والطاعة لأمره وحده، في علاقاتهم المجتمعية وتنظيم شؤون حياتهم كلها، ويخلعوا ويكفروا بما دونه من الأنداد، وغير ذلك سيواجهون مصيرهم السيّئ في الدنيا قبل الآخرة.

وفي حالة قريش، إن ما هم فيه من غنى وعـزّ وأمان فمن بركة بيت الله الحرام، فقد جعله الله تعالى مثابة للناس، وحماه وجعله آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء.. الأمر الذي هيأ لهم رحلتَي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، بأمان ودون خوف على أرزاقهم وتجارتهم.. وتقدير

---

1 - المجتمع هو: " منظومة مكونة من الناس، والأفكار، والمشاعر، والقوانين، التي تتفاعل في ما بينها، وتوجّهها القيادة المجتمعية في ضوء وجهة النظر في الحياة، نحو غاية كلية تحددها وجهة النظر". والضابط الأساس في وصف أي مجموعة من الناس، بالمجتمع هو: العلاقات الدائمة بين أفراد تلك المجموعة. وعليه، فالعامل الرئيس الذي يُضفي على المجتمع المعيّن صبغته وصفته هو: القوانين والتشريعات التي تضبط تلك العلاقات بمجالاتها المختلفة، أي تنظّم حركة المجتمع وعلاقاته الداخلية والخارجية. فإن كانت القوانين من الدّين الإسلامي ومنبثقة عن لا إله إلا الله محمد رسول الله، كان المجتمع إسلامياً. وإن كانت من المصدر الآخر - الجاهلية - كان المجتمع جاهلياً، ويأخذ صبغته واسمه من ذلك المصدر، كالديمقراطية أو الرأسمالية أو الاشتراكية أو المَدَنيّة.. إلخ، من عقائد وشرائع الجاهلية المختلفة. أنظر "النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الإجتماعية والتربوية " د عبد القادر هاشم رمزي وللتفصيل أنظر " مفاهيم ومصطلحات رسالية " (الجزء الثالث) - (الأمة والمجتع والدولة).

ملاحظة: في الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة "الجاهلية" نرى أن الله تعالى جعلها في مقابل "الحق" و "دين الله": (({أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟!! وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} المائدة. أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية ؟! وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثَمّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتُلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم والعدل والقسط، والنور والهدى)) (تفسير السعدي).

فالإنسان في حركته في حياته لإشباع جوعاته وتحقيق غاياته، إما أن يكون عبداً لله باتباعه قانون (دين) الله في ضبط حركته وتنظيم علاقاته، أو عبداً لغير الله باتباعه قانون (دين) غير الله جلّ وعلا.. وفي الصحيحين عن رسول الله: (مَنْ أحدثَ في أمْرِنَا هذا ما ليسَ **منه** فهو رَدٌّ) أي مردود عليه مرفوض، لكونه **من** غير دين الله.

الكلام: لماذا أهْلُ مكة لا يخلصون العبادة والطاعة لله تعالى ؟! فالله هو ربّ البيت الذي هو أصل نِعَمهم.. من الرفاه والأمن [1].. ولم يتخلّف ذلك عنهم إلا حين دعا عليهم النبي ﷺ بدعوته: « اللهم أعنّي عليهم بسنين كسنين يوسف» فأصابتهم مجاعة وقحط شديدين [2]، وهو "العذاب الأدنى" (الدّخَان).

هذا، وتنكير كلمتي «جوع» و «خوف» يدل على التعظيم، أى: أطعَمَهم بدلاً من جوع شديدٍ، وآمنهم بدلاً من خوف عظيمٍ، كانوا مُعرَّضين لهما، إشارة إلى تلك الحال التي عرفوها، من الجوع الشديد عندما أصابهم الجفاف والقحط الذي أكلُوا فيه الجيف والعظام.. ومن الخوف العظيم، الذي أصابهم من توقّعهم الهلاك والموت بسبب تلك المجاعة.. (العذاب الأدنى).
ولا مانع من أن يشمل - تنكير كلمتي جوع و خوف - أيضاً، خوفهم من أصحاب الفيلِ وقد ردّ الله عزّ وجلّ، كيدهم إلى نحورهم، بقرينة ما ذكرناه في "تبيان سورة الفيل" أنها من السوَر المتعلقة بالطور الثالث، وهو نفس الطور الذي ترتبط به سورة قريش. وذكرنا أيضاً، أن في إيراد القصّة، تذكير لقريش بنعمة الله تبارك وتعالى عليهم في حماية هذا البيت وصيانته، بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ هُوَ الله رَبُّ الْبَيْتِ.. في الوقت الذي كانوا عاجزين خائفين، هم وْأَصْنَامهم الَّتِي نَصَبُوهَا حَوْلَهُ.. لعلهم بتذكيرهم بإنعام الله عليهم، يستحون من جحود نِعمة الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وخوفهم، فيبادروا إلى أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه.. فأجواء سوَرتي الفيل وقريش متقاربة. وقريبة كذلك من خطاب الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة - التي أوردناها في أول تبيان السورة - التي يذكّر الله تعالى فيها قريشاً بعظيم نعمة بيت الله الحرام عليهم، وينذرهم عاقبة كفرهم..

هذا، والتذكير بنعم الله، من حُجّة الله تعالى على خلقه (الحجة الرسالية)، فما يَنعُمون به - أفراداً ومجتمعاً (القرية) - من نِعَم وآلاء إنما هي من الله الخالق الرازق، الربّ الحق، فليعبدوه وحده بتنفيذ أحكامه وشريعته في جميع ما أنعمه عليهم، وفي جميع شؤون حياتهم ومعاشهم.. ولينبذوا كل ما سواه من الآلهة المدّعاة (الطاغوت) التي تُعبد وتُطاع من دون الله جلّ جلاله، ولم تَخْلق ولم تَرْزق !!.. فلا طاعة - أصالة - إلا لله الربّ الخالق الرّازق:
﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ [فاطر]

30- (سورة القارعة)

ربط السورة بخط السير:

1 - "وزيدت الفاء في قوله تعالى: (فليعبدوا)، لما في الكلام من معنى الشرط، فكأنه- سبحانه- يقول لهم: إن لَمْ تعبدونى من أجل نِعمي التي لا تُحصى، فاعبدوني من أجل هذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة، بأنى جعلتكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين في أمان واطمئنان".

2 - أنظر التحرير والتنوير - ابن عاشور. ودعاء النبي صح عند البخاري ومسلم في روايات عدة. انظر (الطور الثالث) من خط السير، في "الجزء الأول".

﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)..﴾ [القارعة]، تأتي السورة في إطار عموم "خطاب النذارة".. للناس، والتعليم والتزكية للمؤمنين.. منذ البداية في الطور الأول ويستمر إلى ما بعده.. فالسورة مثال لطريقة القرآن في تنويع الخطاب و "تصريف الآيات" بالتذكير بيوم القيامة وبيان أَهْوالِه وما يدور فيه من خطورة المصير..

البيان:

لفظ «القارعة» اسم فاعل من القرع، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد. والمراد بها هنا: القيامة، ومبدؤها النفخة الأولى، ونهايتها: قضاء الله تعالى بين خلقه بحُكْمه العادل، وجزائه لكل فريق بما يستحقه من جنة أو نار..

والاستفهام في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)﴾ [القارعة]، استفهام عن حقيقتها، والمقصود به التهويل من أمرها، والتفظيع من حالها، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من شدائد تَفزع لها القلوبُ فزَعاً لا تُحيط العبارة بتصويره، ولا تستطيع العقول أن تدرك كنهه، يجعل الولدان الصغار شيباً.

وسُمّيت القيامة بذلك، كما سميت بالطّامة، والصاخّة، والحاقّة، والغاشية، والساعة.. وسُمّي يوم القيامة، بيوم البعث، واليوم الآخر، واليوم الحق، ويوم الدّين، ويوم الفصل.. وذلك من باب أن يعيش المُخاطَبون يوم القيامة، وكأنهم يرونه رأي العين [1]، حتى يسارع الذين لا يؤمنون بالله إلى الاستجابة لدعوة الله وعبادته سبحانه وتعالى وحده، والكفر بما دونه من الأنداد.. وحتى يزداد الذين آمنوا إيماناً وثباتاً على الحق.. فالله عزّ وجلّ هو خالق الإنسان وهو وحده الذي يملك حياة الإنسان ومصيره.. فلا يحسبنّ أحد لمصيره حساباً عند غير الله عزّ وجلّ.. وأن مصيره عند الله سيكون على أساس موقفه من رسالة الله ورسوله ودعوته.. فليستعد ويُهيّء نفسه للقاء الله جلّ في علاه.

والمتأمل في آيات هذه السورة الكريمة، يراها قد اشتملت على أقوى الأساليب وأبلغها في التحذير من أهوال يوم القيامة، وفي الحَضّ على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.. لأنها قد ابتدأت بلفظ القارعة، المؤذِن بأمر عظيم، ثم ثَنّت بالاستفهام المستعمل في التهويل، ثم أعادت اللفظ بذاته بدون إضمار له زيادة في تعظيم أمره، ثم جعلت الخطاب لكل من يصلح له..
ثم شبّهت الناس فيه تشبيهاً تقشعرّ منه الجلود.. وهو انتــثار الناس وانتــشارهم في كل اتجاه لفزعهم ورعبهم الشديد من هول القارعة التي تقرعهم وتصكهم [2]..

---

1 - كما في رواية الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: { من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ)}. أنظر (التاج الجامع للأصول) - ج 4 ص 252.

2 - {كالفراش المبثوث}،الفراش ؛ جمع فراشة التي تطير وتتهافت على النار، وقال الفراءُ: وهو غوغاءُ الجراد، سُمي فراشًا لتفرشه وانتشاره. المبثوث ؛ أصل البثّ التفريق وإثارة الشيء. كبثّ الريح التراب. وسبب انتثار الناس وانتشارهم في كل اتجاه هو فزعهم ورعبهم الشديد من هول القارعة التي تقرعهم وتصكهم وتصخّ آذانهم. ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين - والحمد لله - أنهم آمنون يوم القيامة كما قال

ثم أشارت إلى تبدّل نظام الكون، بذكر حال الجبال - وهي المعروفة بصلابتها ورسوخها - بأنها ستكون في هذا اليوم كالصوف المندوف المتخلخل المتناثر الذي يسهل تطايره..
ثم انتقلت السورة إلى ذكر موقف الحساب والجزاء، فبيّنت أحوال السعداء والأشقياء في هذا اليوم: فالسعيد هو الذي **ثقلت** موازينه بحسناته ورجحت أعماله الصالحة على غيرها، فهو في عيشة مَرْضيّة هنيّة كَريمة..
والشقيّ هو الذي **خفت** موازينه بحسناته، **وثقلت** بسيئاته لكثْرَتها وعِظَمها [1]..

الله تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (103)} الأنبياء. وكما ثبت في الحديث الشريف، أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس.

1 - ورد تعبير الموازين وثقلها وخفتها في الآخرة، في سور أخرى منها: آيات سورة الأعراف هذه: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ **الْحَقُّ** فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)}. وآية سورة الأنبياء هذه: {وَنَضَعُ الْمَوازِينَ **الْقِسْطَ** لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (47)}. وآيات سورة المؤمنون هذه: {فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (103)}.
كما رُوي في صددها أحاديث عديدة. ومنها: حديث رواه الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرؤوا: {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا} [الكهف105] ». وحديث رواه الإمام أحمد جاء فيه: «إنّ ابن مسعود كان يجني سواكا من أراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ ممّ تضحكون ؟. قالوا يا نبيّ الله من دقة ساقيه. فقال: والذي نفسي بيده إنّهما أثقل في الميزان من أحد ».
وقد اختلف أهل التأويل في حقيقة "الميزان" وكيفية "وزن الأعمال". فبعضهم قال: إنه يُنصَب موازين بكفتين فتوضع الأعمال الحسنة في كفة والسيئة في كفة، أو إن الذي يوضع في الكفتين كتب الأعمال. ومنهم من قال: إن الأعمال ذاتها تتجسد. وبعضهم قال بالجمع بين هذه الآثار وبأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالّها، وتارة يوزن فاعلها، أنظر تفسير ابن كثير(سورة الأعراف، آية 8 -9). وهناك من قال إن الميزان في الجملة القرآنية تمثيلي - من باب المجاز - ويعني القضاء السوي والحكم العادل، وأن استعمال الميزان بهذا المعنى شائع في اللغة.. الخ.
نقول: إن المقصود الأصل من الإخبار بـ "وزن الأعمال"، كما دلت على ذلك النصوص السابقة وغيرها، هو:
- إعلام الناس أنهم محاسبون على أعمالهم مهما كانت صغيرة أو كبيرة.
- وأنه سوف يُقايَس ويوازَن بين الحسنات والسيئات منها، ولا ينجو إلّا من كانت حسناته غالبة على سيئاته. =>
- وأنه وزن بالحق فلا ظلم يوم القيامة ولو مثقال ذرة.
فهذا هو المعنى الحق واليقين الذي يجب الإيمان به: {إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (40)} النساء، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)} الزلزلة. وليس لنا أن نبحث في ما وراء ذلك من أوصافٍ للميزان أو كيفية وزن الأعمال.. ما لم يثبت بالوحي قرآناً أو سنّة. ذلك أن حقيقة "الميزان" و كيفية "وزن الأعمال" من "الغيب المطلق" الذي لا سبيل لأحد من البشر العلم به بدون نص أو خبر صحيح، وعليه: فإن محاولة قياس ما هو من "الغيب المطلق" على المُشَاهَد بدون دليل، بل لمجرّد التشابه بالاسم، فهذا من الرَّجم بالغيب، والتكلّم بما ليس لنا به علم والقَفْو له. وكل ذلك نُهينا عنه.

وذاك الشقي مرجعه ومأواه الذي يأوى إليه - جزاءً وفاقاً لكفره وعصيانه - نار سحيقة يهوى إليها.. وما أدراك ما تلك النار السحيقة، وأي شيءٍ تكون ؟! ولا أحد سيُخبرك بكنه تلك النار سوى الله خالقها وربّها.. هو وحده - سبحانه وتعالى - الذي يُخبرك بذلك.. فيقول لك: إنها نار حارّة شديدة الحرارة، قوية اللهب والسَّعير، قد بلغت النهاية في شدة حرارتها.. نعوذ بالله منها.. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

وكذلك القول بالحقيقة أو بالمجاز في طبيعة "الميزان" وكيفية "وزن الأعمال" فإنه لا يجوز، لأن القول به يقتضي - بالقطع - أن تكون ذات الميزان مما يقع تحت الحس، ذلك أن القرائن المُثبِتة للحقيقة أو الصارفة للمجاز مردّها جميعها إلى الحسّ، أي إلى أمر يقع تحت الحسّ.. وهذا غير وارد هنا.
لذلك اقتضت حكمة التنزيل - كما في آيات لا تكاد تحصى كثرة - أن تكون أوصاف الأمور التي من "الغيب المطلق"، مثل مشاهد الآخرة من وزن الأعمال ونعيم وعذاب وحساب.. مُستمَدة من مألوفات الناس في الحياة الدنيا ومتساوقة معها، فالله تعالى يُخاطب الناس بلسانهم، ويُخاطبهم على قدر ما يُطيقون فهمه، حتى يعقلوا عن الله مراده منهم <u>لأنه سيُحاسبهم بناء عليه</u>. ولذلك عندما يُرسل الله رسولاً فإنه يرسله بلسان قومه.. أي بمعهودهم من اللغة والكلام.. ومن ذلك أن الناس في الحياة الدنيا قد اعتادوا على وزن الأشياء لمعرفة مقاديرها وقيمتها واستيفاء حقوقهم فيها حسب نتيجة الوزن واعتبار ذلك هو مقتضى العدل: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)} الرحمن. واعتبار الشذوذ عنه ظلماً وغبناً وإجحافاً (التطفيف): {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ {1} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ {2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ {4} لِيَوْمٍ عَظِيمٍ {5}يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {6}} المطففين. للتفصيل أنظر أيضاً الآيات التي ورد فيها ألفاظ: موازين، ميزان، وزن.
ومن هنا، فإنه عند النظر في النصوص التي ذُكر فيها مثل هذه الأمور الغيبيّة، يكون النظر - فقط - في <u>معاني ودلالات الألفاظ أو التراكيب الدالّة عليها في سياقها</u>، لا غير، وكما هي في <u>معهود كلام العرب، و في معهود القرآن الكريم</u>، دون الدخول - مطلقاً - في النظر إلى حقيقتها أو صفتها أو تصوّر كيفيتها، أو في البحث في كونها على الحقيقة أم على المجاز، ما لم يكن هنالك خبر من الوحي صحيح.
وعليه فنحن نؤمن بوزن الأعمال وأنه من آثار عدل الله المطلق: {<u>وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ **الْحَقُّ**</u>..(8)} الأعراف، أما أداة الوزن (الميزان)، وكيفية وزن الأعمال.. فهذا من "الغيب المطلق" الذي لا سبيل لأحد العلم به إلا بالخبر الصحيح، فلا يجوز الخوض فيه بغير علم.
هذا، ومن جهة أخرى، <u>فإن البحث</u> في الكيفيات.. والقول بالحقيقة أو بالمجاز.. لا يقدّم جديداً في المسألة، بل على العكس، <u>يصرف اهتمام المُخَاطَب عن الحكمة المرادة</u> من إخبار الله تعالى لنا بحقيقة وزن الأعمال، وهي: الحثُّ والتشجيع على الإكثار من الأعمال الصالحة والإزدياد من الحسنات. والعلم بأن ميزان الله تبارك وتعالى هو التقييم الحق وأنه العدل المطلق. وأن مصير الإنسان متوقف على أن تكون أعماله مُتقبّلة عند الله تعالى، وحسناته راجحة على سيئاته. كما دلت النصوص السابقة وغيرها. وأيضاً، بدل الدخول في ذلك البحث، الأولى أن يهتم المكلّفون بمعرفة الشروط الواجب توفّرها في الأعمال حتى يكون لها وزن وقيمة عند الله تبارك وتعالى، وأيها أكثر وزناً وأعلى قيمة عند الله جلّ وعلا.. حتى لا يأتي الإنسان يوم القيامة فإذا بأعماله لا وزن لها عند الله ؛ هباءً منثوراً. نعوذ بالله الرحمن الرحيم من ذلك. هذا والله تعالى أعلم وأحكم.
للتفصيل في تحقيق مفهوم "الغيب"، وبيان المنهج الحق في النظر إلى قضاياه وأموره، أنظر بحث: الجزء الثالث (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - وعنده مفاتح الغيب.

وللتقريب، وحتى يستطيع الإنسان أن يتخيّل شدّتها، فقد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا..!!، فاحذر - أيّها الإنسان - من العمل الذي يؤدى إليها [1]..

31- (سورة القيامة)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في "الطور الثالث"، وذلك:

1- ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢)﴾ [القيامة]، "التولّي" هنا يعني أن تكذيب الملأ بالحق أصبح موقفاً نهائيّاً لهم [2].. أو على الأقل عندهم إصرار واضح على الكفر والتكذيب.

2- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة]،، والظاهر أن استعجال رسول الله في تحفّظ وقراءة ما يُلقى إليه من القرآن خشية تفلته منه ونسيانه، كان في فترة معينة من سيره بالرسالة، وليس حالة عامة. ونحن نرجّح أنها في فترة اشتداد المواجهة وتأزّم العلاقات مع المجتمع الجاهليّ (قريش)، حيث زاد الضغط النفسي على رسول الله ﷺ بسبب شفقته بقومه وخوفه من إنزال العذاب عليهم، بعد إصرارهم على البقاء على كفرهم. وقد بدأ يظهر هذا واضحاً في المنتصف الثاني من الطور الثاني.. يعني في أجواء الحصار والمقاطعة، الأمر الذي استدعى أن تُنزَّل الآيات والسوَر من القرآن بكثافة أعلى مما كانت عليه قبل ذلك، لمعالجة ما كان يواجهه رسول الله والمؤمنون من أحوال صعبة وعسيرة.. تثبيتاً لهم وبصيرة.

ويؤيد هذا أن السوَر الأخرى - طه و الأعلى - التي ورد فيها طمأنة رسول الله على حِفظه للقرآن، متعلّقة في نفس الأجواء والأحوال.

ونميل إلى أن آيات سورة الأعلى كانت أوّلها نزولاً نظراً لأنها جاءت بالبشرى والطمأنة فقط: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)﴾ [الأعلى]

وأن النهي جاء بعد أن حدث فعل الإستعجال من رسول الله مرة أخرى:

﴿..وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ [طه]

هذا، ونظراً لازدياد عدد الآيات والسوَر المنزّلة في أوقات متقاربة - بقصد معالجة تعسُّر أحوال السير بالرسالة - شَعَر رسول الله أنه سيحتاج إلى جهد أكبر في تَحفّظ ما يتنزّل من القرآن وضبطه.. فازدادت خشيته ﷺ من تفلّت القرآن منه، لذلك جاءت آيات سورة القيامة مؤكّدة له

---

1 - ((عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ". قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: " إِنَّها فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا")) رواه البخاري، وروى مثله مسلم مع المخالفة في بعض الالفاظ. أنظر (تفسير ابن كثير). اللهم أجرنا من النار.. ونعوذ بك اللهم، من كل عملٍ يُقرّبنا إليها.

2 - أنظر (تبيان سورة العلق).

ومطمْئنة بأن الله تعالى سيكفيه مشقة جمع القرآن الكريم في صدره الشريف، أي أن يحفظه ويضبطه، وسيكفيه مؤونة بيانه إذا أُشكل عليه شيء منه.. والحمد لله [1].

مناط السورة:

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة]،، إنكار الكفّار ليوم القيامة والبعث، بحجة أنه يستحيل - في مقياسهم - جمع عظام الإنسان مرة أخرى وقد أصبحت رميماً وتراباً. هذا، وقد تبنّى الملأ الذين كفروا من قريش هذا الأمر وأشاعوا به بين الناس للتلبيس عليهم لصرفهم عن الحق، ولمحاربة دعوة رسول الله إلى عبادة الله وحده، حفاظاً على مصالحهم وملذّاتهم؛ من نفوذ وأموال وترف [2].

المعالجة:

تعتبر هذه السورة، واحدة من جولات القرآن الكريم الكثيرة والمتنوعة لبيان الحق وإقامة الحجة على الكافرين في إنكارهم يوم القيامة، وإنذارهم بعذاب الله.. وخاصة الملأ منهم الذين تولّوا كِبَر الإنكار والتكذيب [3].

---

1 - أخرج البخاري ومسلم عن ابن عبَّاسٍ في قوله: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه، وكان يُعرف منه، فأنزل الله الآية التي في (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ): (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) فإن علينا أن نجمعه في صدرك (وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ): فإذا أنزلناه فاستمع. (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) قال: إن علينا أن نُبَيِنَه. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله. (المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية) - خالد بن سليمان المزيني. أنظر (تبيان سورة الأعلى).

2 - كما في قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{80} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{81} إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{82} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{83})) يس.
وقوله تعالى: ((انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً{48} وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{49} قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً{50} أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً{51})) الإسراء. وقوله تعالى: ((ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{98} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً{99})) االإسراء. وقوله تعالى:=> ((يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ{10} أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً{11} قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ{12} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ{13} فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ{14})) النازعات.

3 - وكما هو كتاب الله تعالى للنذارة فهو كذلك للذكرى: {.. لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(2)} الأعراف. فتصلح كذلك - هذه السورة ومثيلاتها - لمعالجة نفس المؤمن الذي يعصي الله عزّ وجل (النفس اللوامة)، فالمؤمن لحظة وقوعه في المعصية يكون قد نسي إيمانه بالله وباليوم الآخر وغفل عن مقام ربه، فهو

وهي متميزة بأسلوبها في استعمال وسائل البيان والتأثير المختلفة، مثل القَسَم كأسلوب توكيد، والسؤال الإنكاري، وإقامة الدليل الحسي اليقيني بتلميس آثار قدرة الله تعالى، والزجر والتوبيخ بـ (كلّا).. الخ [1].

هذا، والخط العام في معالجة السورة لمناطها، أن السورة تتكلّم عن ذلك الإنسان المُنكِر الذي يُجاهِر بالإنكار - وهو من المترفين في المجتمع أو من الملأ - لبيان الحق وإقامة الحجة عليه. وفي سياق تهديده بعذاب الله، يأتي الكلام على شكل خطاب مباشر له، تقبيحاً له وتهجيناً. ونُجمل الخط العام في النقاط التالية:

1- الآيات (1-25)، لها سياق واحد هو: كشف الدوافع الحقيقة للمكذّب في إصراره على إنكار يوم القيامة، من أنها رغبتة الشديدة في الولوغ في الملذّات المحرمة (الفجور) وليست نقص الدليل أو عدم صحته.. وذلك في عدة جولات. وكانت البداية بالقَسَم بقصد تقرير وتوكيد حصول البعث، ثم بالجُمَل التي تلت حرف (بل) الذي يُفيد الإضراب الانتقالى من أسلوب لآخر، أو من حجة لأخرى. مع استعراض صور مختلفة من أهوال يوم القيامة، بشكل مُجمل وإيقاع سريع.

2- الآيات (26-35)، تذكير المكذّب بلحظة احتضاره الموت، والتي ستدركه ويدركها حتماً، فلا محيد عنها.. والتي سيفارق بعدها مراداته ومحبوباته تلك، وأنه لن يجد مهرباً من الفراق، وأنه سيُحشَر إلى الله لمحاسبته على أعماله التي ليس فيها إلا التكذيب والإستهزاء بالحق.

عند اقترافه للمعصية يكون غير مؤمن، بمعنى أن إيمانه يكون ناقصاً، كما ثبت في حديث رسول الله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن..) أنظر (الموسوعة الحديثية) - موقع الدرر السنيّة. وصح في أحاديث أخرى: (إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان فوق رأسه كالظلّة، فإذا خرج من ذلك العمل ؛ رجع إليه الإيمان). أنظر المرجع السابق. فمثل هذه السورة عندما يتلوها المؤمن تهز كيانه وتذكّره بمقام ربه جلّ وعز وبالخشية من عذابه، وبوجوب الرجوع إليه.. فيتذكّر وتزول الغشاوة عن عينيه - غشاوة تزيين نفسه وشيطانه للمعصية - فيبصر الحق، فيعود باكياً تائباً لربه ومولاه.. (وخير الخطّائين التوّابون) كما قال نبينا محمّد ﷺ. للتفصيل أنظر (تبيان سور الإخلاص، الفلق، الناس).

1 - انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول". ((هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد، والإيقاعات واللمسات، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه.. تحشدها بقوة، في أسلوب خاص، يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا، سواء في أسلوب الأداء التعبيري، أو أسلوب الأداء الموسيقي، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوريّ قوي، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا!... وهكذا تُعالج السورة عِناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن، شأن القيامة، وشأن النفس، وشأن الحياة المقدّرة بحساب دقيق. ثم شأن هذا القرآن الذي لا يُخرَم منه حرف، لأنه من كلام العظيم الجليل، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته، وتثبت في سجل الكون الثابت، وفي صلب هذا الكتاب الكريم)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

3- الآيات (36-40)، إقامة الحجة عليه - مرة أخرى - بتذكيره بأن الله عزّ وجلّ هو الذي خلقه من نطفة وسَوّاه بشراً وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى.. ليؤدّي الوظيفة التي خُلق لها. فهذا دليل على أن الله جلّ وعلا عندما خلَق الإنسان بهذا النظام الدقيق، إنما خلقه لحكمة جليلة عظيمة وليس عبثاً ولا ليأكل ويتمتع كالأنعام.. بل سيعود إلى خالقه وربّـه ومولاه ليحاسبه على ما ائتمنه عليه واستخلفه فيه من نِعَم وملكات.. أأطاع الله فيها فحفظها.. أم عصى الله فيها فضيعها.. وطبيعة خلْق الإنسان دليل - أيضاً - على أن الذي خلقه أول مرة قادر على أن يحييه مرة أخرى بعد موته، فأنّى له التكذيب.

وبشيء من التفصيل نقول:

1- (1-4)، التأكيد بأسلوب القَسَم على حقيقة أن الله عزّ وجلّ قادر على بعث الناس مرة أخرى يوم القيامة ومحاسبتهم [1]..
ثم يأتي الاستفهام بقصد الإنكار والتوبيخ على منكِر البعث.. فالله جلّ وعلا قادر تمام القدرة على جمع عظام الإنسان وإعادته يوم القيامة بشراً سويّا كاملا كما كان، حتى أدق العظام وألطفها، كما خلقه وسوّاه بأحسن تقويم أول مرة:
﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]..
فالله عزّ وجلّ، الذي خلق الكون والحياة والإنسان، قادر على بعث الناس مرة أخرى.

2- (5-13)، ثم كَشَف حقيقة المترفين المكذّبين؛ عن طريق بيان سنّة من سُنن الله في الإنسان الذي يكذّب بالحق البيّن، وهي: أن حبّهم اللهو وإرادتهم الفجور في مستقبل أيامهم، هو سبب تكذيبهم، وليس عدم كفاية الأدلة والبيّـنات. فأحدهم عند **إرادته** الفجور [2] - أي ارتكاب

---

1 - يُقسِم الله تعالى بيوم القيامة و(بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ{2}) القيامة، وهي التي تؤمن بيوم القيامة وتؤمن بأنه لا بد من حساب وجزاء، فتُصبح لوّامة لصاحبها على تركه طاعة الله تعالى، وتندم على فعل المحرمات.. يُقسِم الله تعالى بهما على صدق وقوع يوم القيامة، وأنه حق (جواب القَسَم). وفي مقابل النفس المؤمنة اللّوامة، تأتي النفس الكافرة المستهترة التي تريد الفجور فتكذّب بيوم القيامة.. وليس ذلك فحسب، بل ويذهب صاحبها إلى أهله متبختراً متباهياً بإصراره على كفره وفجوره: (.. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى{33}) القيامة. هذا، والنفس المؤمنة اللّوامة تعتبر حُجة على النفس المكذّبة الفاجرة، وذلك بسبب إيمانها بالحق البيّن، وحرصها على البعد عن الشهوات المحرمة، مضحية برغباتها إحقاقاً للحق.. بينما النفس الأخرى ترفض الحق - رغم بيانه ووضوحه - بسبب رغبتها بالخنا والفجور، وحبها للنزوات العاجلة. لذلك أقسم الله تعالى بالنفس اللّوامة على أن يوم القيامة حق. فهي شاهدت الحق وآمنت به وضحّت من أجله بالملذات العاجلة.. فهي حجة على غيرها: (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{16}) الشورى.

2 - ((فَجَرَ: أصل واحد هو انشقاق مع ظهور الشيء. ومن مصاديقه: انشقاق الظلمة وطلوع نور وضياء. وانشقاق في الجبل ونُبوع الماء. وانشقاق حالة الإعتدال وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً. وانشقاق حالة الإمساك بظهور الكرم)). أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) - حسن المصطفوي. و(معجم المقاييس) - ابن فارس. نقول: فالفجور ليس مطلق معصية بل هو خروجها بعد هتك الستر عنها، وظهورها بعد أن كانت في الخفاء.. ففي إظهارها نوع من التحدّي لله تعالى.

المعاصي وأن يرتع في الملذّات المحرمة من الزنا وشرب الخمور.. - في حياته وأيامه القادمة، ورغبته الشديدة في ذلك وإعداده العدة له.. تجعله يستبعد كل ما يتعارض مع **رغبته وإرادته** في البقاء على الفجور، وينغّص عليه ولوغه في ملذّاته المحرّمة: مثل تذكيره بالموت.. وأنّ هناك بعث ومحاسبة وعذاب.. فهو يُنكر الحق لأنه يحول دون اتباعه الشهوات.

ثم، إنذارهم من خلال تعريفهم ببعض أهوال يوم القيامة.. حيث يُدَهش البَصَر ويتحيّر ويُبهَت فلا يَعُد يُبصر [1]، ويُخَسْف القمر، ويُجْمَع الشمس والقمر معاً.. حتى يقول الواحد منهم مستنجداً – من شدة الفزع - أين المفرّ ؟! عندها يُدرك أن لا مفر من قهر الله وأخذه، وأنّ المستقرّ عنده عزّ وجلّ، ليواجه نتيجة ما قدّمه، حاصداً ما زرع.

3- (14-15)، ثم التذكير ببدهيّة (مُسَلّمة) وهي: أن الإنسان - أي إنسان - هو أعلم بحقيقة نفسه ودوافعه ومشاعره، وأنها - أي حقيقة نفسه تلك - ستَظْهَر على سلوكه وجوارحه مهما حاول إخفاءها. وذلك في سياق التأكيد - مرة أخرى - على أن الإنسان المُنكِر للقيامة والبعث يعلم حقيقة دوافعه، والتي أثبتها الله سبحانه في الآيات السابقة، وأنه مهما حاول تغطيتها وسترها عن الناس بما يعلنه من شبهات وتلبيس، فهي ظاهرة في تصرفاته وأحواله (فجوره).. يعني، في مثل قول الشاعر زهير ابن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرئ من خَليقة وإن خالها تُخفى على الناس تُعلم [2]

4- (20-25)، ثم التأكيد مرة أخرى على حقيقة أنفسهم التي كشفها الله في الآيات السابقة، فخاطبتهم الآيات قائلة لهم - توبيخاً وتقريعاً -: ليس الأمر كما تدّعون من عدم إمكان البعث والجزاء، كلّا ارتدعوا عن هذه الأقوال، فأنتم أيها المنكِرون للبعث لم تُكذّبوا الوحي من باب أنه ليس حقاً.. بل أنتم قوم تعكفون على الحياة العاجلة الفانية وما فيها من ملذّات وشهوات زائلة، وتتخلّون عن الحياة الآخرة الباقية وما فيها من نعيم مقيم.. وسلوك هذا المسلك، يدل على قصر النظر، وضعف التفكير، فكيف يُقبِل العاقل على اللّذة القليلة الفانية التي عاقبتها العذاب الأليم الدائم المقيم [3].

1- (بَرِقَ الْبَصَرُ): بفتح الراءِ وكسرها: دُهش وتحيّر فزعًا من عظم ما يشاهده من أهوال يوم القيامة. فالأهوال العظيمة في يوم القيامة تأخذ شدتُها بسمع الإنسان فتصخّه وتَقرعه، فلا يعد يَسمع.. وببصره فتبرقه وتبهته، فلا يعد يَرى.. وبكيانه كله، فترى الناس (كالفراش المبثوث) و (ترى الناس سكارى وماهم بسكارى) ، (لكل امرء منهم يومئذ شأن يُغنيه).. نسأل الله العفو والعافية، ونسأله تبارك وتعالى الأمن من فزع يومئذ ومن كل فزع.

2 - أنظر (محاسن التأويل) - القاسمي. و(التحرير والتنوير) - ابن عاشور. و(فتح القدير) - الشوكاني. وقال السُّدِّي والضحاك: المعاذير الستور، بلُغة أهل اليمن واحدها مِعْذار، وحكى ذلك عن الزجاج. فيكون قوله تعالى: (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) أي: ولو أرخي ستوره فلن يستطيع إخفاء حقيقة نفسه.. فحبّه للملذّات المحرمة واتباعه للشهوات واضحان للعيان، يعني فجوره ظاهر عليه لا يمكنه إخفاؤه.. وأنه السبب الحقيقي لإنكاره ليوم القيامة.

3 - كما في قوله تعالى في سورة الأنعام: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{32}). وقد ورد هذا المعنى في آيات عديدة في سور مختلفة: [الأعراف: 169]، [يوسف:

ثم إنذارهم من خلال تعريفهم بأُمور أخرى من أمور يوم القيامة، على أساس أن الجزاء من جنس العمل: حيث أن الناس في الآخرة فريقان: الأول، هُم الذين كانت نفوسهم في الحياة الدنيا مشرقة بنور الإيمان بالله وباليوم الآخر ونور الأعمال الصالحة، وكانت وجوههم يظهر عليها أثار شظف العيش وقساوة الحياة.. فهؤلاء ستصبح وجوههم يومئذ حسنة مضيئة مشرقة بالنعيم في الجنة، جميلة بإكرام الله لها، وهي إلى ربها ناظرة سعيدة بلقاء ربها، مكرَّمة بالنظر إليه سبحانه وتعالى [1].

والفريق الآخر، هُم الذين كانت نفوسهم في الدنيا تعيش في ظلمة الكفر وعفن الذنوب ودخان المعاصي (الفجور)، فوجوههم – رغم أنها كانت في الدنيا نضرة وناعمة منبسطة – فهي يومئذ كالحة مُسودّة منقبضة عابسة، ويوقن أصحابها أنه لا بد أن ينزل بها مصيبة فادحة وداهية عظمى تقصم الظهر.. بسبب كفرهم وفجورهم في الدنيا.

5- (26-35)، ثم ردْعهم وزجْرهم عن الاستمرار في تكذيبهم بالحق البيّن وكذبهم وتلبيسهم على الناس، وتذكيرهم بحقيقة أنهم سيفارقون الدنيا وملذاتها عندما يدركهم الموتُ، هاذم اللذات، فلا يملكون له دفعاً ولا تأجيلاً.. وكيف أن الواحد منهم عندما يُحْتَضَر وتبدأ روحه بالخروج من جسده يُصبح لاحول له ولا قوة، وكل مَنْ حوله كذلك.. عندها يوقن أنه مفارق كل محبوباته وملذاته التي عاش حياته كلها من أجلها.. وأنه سيُساق ويُحشر إلى الله عزّ وجلّ ليوافي جزاءه.. في حين أنه كان كافراً بالله تعالى ورافضاً لطاعته، وكان يظن أن لا نهاية لحياته وكأنه خُلق ليتمتّع فقط.. بل وكان يذهب إلى أهله متبختراً متفاخراً، متباهياً بإصراره على كفره وفجوره.. فهلاك لك - أيها المكذِّب المنكِر – فهلاك، ثم هلاك دائم لك، فهلاك.

6- (36-40)، إن النظر والتفكّر في خلْق الإنسان من نطفة ثم من علقة.. إلى أن يكون في أحسن تقويم، يؤدي إلى حقيقـتـين يقينيـّـتـين:

109]، [الإسراء: 18]، [القصص: 60]، [الإنسان: 27]، [الأعلى: 16-17] وهي جميعها من السور المتعلقة إما بالطور الثالث أو بأوآخرالطور الثاني.

1 - الجمهور على إثبات الرؤية مستدلاً بقوله تعالى هنا: (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) وبالأحاديث عن رسول الله، مثل الرواية عن أبي هريرة: أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال: هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك}. (صحيح البخاري 341/2-342- ك الآذان، ب فضل السجود ح 806)، و(صحيح مسلم - الإيمان، ب إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه 136/1 -164 ح 182). قال ابن كثير: ((وهذا بحمد الله مُجمَع عليه من الصحابة والتابعين.. كما هو متفَق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام)). نقول: والأصل أن لا يحصل خلاف في مثل هذه الأمور، وإن حصل فيبقى في إطار الخلاف المحمود. ذلك أن أمور الآخرة من عالَم الغيب، من "الغيب المطلق"، وقد قدّر الله لها سننها الخاصة بها، والتي تختلف عن السنن التي جعلها لعالَم الشهادة في الحياة الدنيا، فلا يجوز أن نقيس إحداهما على الأخرى. ومن هنا، فنحن نقول بثبوت رؤية الله سبحانه في الآخرة لثبوتها بالآية وبالحديث الصحيح. أما كيفية حدوثها، فالله أعلم بها، ولا نخوض فيها بدون برهان. هذا والله تعالى أعلم وأحكم. للتفصيل في تحقيق مفهوم "الغيب"، وبيان المنهج الحق في النظر إلى قضاياه وأموره، أنظر بحث (وعنده مفاتح الغيب) - مفاهيم ومصطلحات رسالية (الجزء الثالث).

الأولى: إن الإنسان ما خُلق إلا لحكمة، فالدقة في الخَلْق والعظمة في الخَلْق يدلان بالقطع على أن الإنسان ـ وكل موجود ـ مخلوق لحكمة، وموجود ليؤدي مهمة ووظيفة، وليس هكذا سدى وعبثاً. كما في قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ [المؤمنون]

كما أكّد الله تعالى على هذه الحقيقة في سورة التين، أنظر(تبيان سورة التين).

الحقيقة الثانية: إن القادر على خلق الإنسان من عدم، ومن شيء لا قيمة له ولا وزن، ثم سوّاه فجعله إنساناً كاملاً في أحسن خِلْقة وتقويم، وفضّله على سائر المخلوقات.. قادر أيضاً على إعادة خلقه مرة أخرى. كما في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [الروم]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

وبالتالي فإن للإنسان مصير عند الله تبارك وتعالى، وهو وحده المسؤول أمام الله تعالى عن أعماله، وليس له عذر في تركه الحق واتباعه الباطل بعد البلاغ والبيان. وفي هذا تأكيد على "المسؤولية الفردية" أمام الله عزّ وجلّ، سواء كان ا لإنسان من الملأ أم من الاتباع:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة]،،، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾ [يونس: 4]

- استطراد في بيان مناسبة قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة].. مع سائر آيات السورة، وقد وردت هذه الآيات ـ في ما يبدو ـ كجملة معترضة في سياق كشف السورة لحقيقة دوافع المكذّب بيوم القيامة..

وهذه بعض الإضاءات:

الأولى: يُلحظ التناسق في التسمية بـ "العاجلة" في هذا الموضع: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة]،، لما يحبه الكافر ـ المكذّب بيوم القيامة وبالحساب والجزاء ـ وما تَحْرص عليه نفسه الخبيثة من فجور ونزوات، فيستعجلها في الساعة الحاضرة (العاجلة) ولا يؤجّلها، فالحياة قصيرة !!..

وبين استعجال رسول الله ﷺ في تحفّظ وقراءة ما يُلقى إليه من القرآن خشية تفلّته منه، ولحرصه الشديد على عدم نسيانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)﴾ [القيامة]،، مع

التناقض والتنافر بين الاستعجالين، في الموضوع والغاية [1]. فهو التناقض الواضح بين "النفس المؤمنة" وبين "النفس الكافرة"، في جميع خصائصها واهتماماتها وسلوكياتها..

الثانية: في الآيات **نَهْيٌ** لرسول الله ﷺ عن الانشغال بما **لم يُكلف** به، من **تعجُّل** حفظ القرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، مخافة أن يتفلَّت منه. وفيها **طمأنة** له أن الله تبارك وتعالى سيكفيه مؤونة جمْع القرآن الكريم وحفْظه في صدره الشريف، وسيكفيه بيانه إذا أُشكل عليه شيء منه.. ويترتّب عليهما؛ أي النهي والبشارة، أمور:

1- بالنسبة للكافرين: تأكيد وبيان للناس أن القرآن كلام الله تبارك وتعالى، وأن محمّداً ما هو إلا رسول الله ومبلّغ عن الله تعالى. فليس له من أمر القرآن شيء، حتى حِفْظه القرآن في صدره فمن الله تعالى وبقدرته، وكذلك قراءته وبيانه [2].. فالقرآن رسالة الله إليهم، وهو وحده المتكفّل بجمعه وحفظه وبيانه.. فلماذا لا يؤمنون به ويتبعون رسول الله ؟!.. يأتي الجواب من الله عالم الغيب والشهادة:

﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) ﴾ [القيامة]،، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة]

2- بالنسبة للمؤمنين: مع ملاحظة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان، لفت انتباه حَمَلة الرسالة إلى عدم التأثّر السلبي بالواقع السيّء الذي يتحركون فيه لتحقيق الغاية من الرسالة – كما ذكرنا عند ربط السورة بخط السير - حتى لا يؤدي بهم ذلك إلى الخروج عن المنهاج. ففي ظِلّ **أجواء** الإنكار وإصرار المجتمع ومَلَئِه على الكفر بدون حجة ولا دليل، واستخدام قوتهم وسلطانهم للتعدّي على أهل الحق وإيذائهم.. يجد المسلم نفسه أنّه بحاجة إلى نُصْرة دين الله ودعوته، **فيستعجل الأمر**. فيُقال له: لا تستعجل ! إنّما عليك الاتباع لأمر الله والاستقامة عليه، فالرسالة رسالته وهو الذي يتولاها، والنتائج بِيَدِ الله وحده.

---

1 - العجلة: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامة القرآن. {وعجلت إليك ربي لترضى} [طه/84]، فذكر أن عَجَلته - وإن كانت مذمومة - فالذي دعا إليها أمر محمود، وهو طلب رضا الله تعالى. أنظر (المفردات) - الراغب. والعاجل ضد الآجل، ويقال للدنيا العاجلة، فهي دار ممر وتنقضي سريعاً. وللآخرة الآجلة فهي الباقية الدائمة.

2 - كما في قوله تعالى: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً{86} إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً{87}) [الإسراء]. ((الحق سبحانه في هذه الآية يريد أنْ يُربِّي الكفار ويُؤنّبهم، ويريد أن يُبَرّئ ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية، فهو مجرد مُبلّغ عن الله، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْترٍ، أو أتى بشيء من عنده، بدليل أنني لو شِئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة... وسياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث؛ لأن الحق سبحانه يقول: {وَلَئِن شِئْنَا..}بمعنى: لو شِئْنا فعلنا ذلك، فالفعل لم يحدث، والمراد بيان إمكانية ذلك ليُبَرّئ موقف رسول الله، وأنه ليس له من الأمور شيء. والغريب أن يَفهم البعض من قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ..} [آل عمران: 128] أنها ضد رسول الله، وقَدْح في شخصه، وليس الأمر كذلك؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أنْ يتحمّل عنه ما يمكن أن يُفسِد العلاقة بينه وبين قومه، وكأنه يقول لهم: لا تغضبوا من محمد فالأمر عندي أنا. وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذي فعل شيئاً، فيأتي سيده ليدافع عنه، فيقول: أنا الذي أمرته... ونلاحظ في الآية جملة شرطية، أداة الشرط فيها «إنْ»،وهي تستخدم للأمر المشكوك في حدوثه، على خلاف «إذا» فتأتي للأمر المحقق)). تفسير الشعراوي باختصار

هذا والله تعالى أعلم وأحكم.

32- (سورة الهُمزة)

ربط السورة بخط السير:

قد ترتبط السورة بأكثر من طور أو مرحلة، وخاصة في فترات اشتداد المواجهة الفكرية، وازدياد قوة الصراع الفكري حول "خطاب النذارة" - أنه لا إله إلا الله فاعبدوه، والمصير - بين المؤمنين حَمَلَة الرسالة، وبين رؤوس الضلال والشرك والنفاق.. الملأ.. يعني من منتصف "الطور الثاني" وما بعده.

مناط السورة:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] [1]، أفراد في المجتمع، من الملأ والمترفين أو من أتباعهم وأدواتهم، الذين يبالغون بالاستهزاء بعبادة الله عزّ وجلّ، وبمَنْ يعبد الله عزّ وجلّ ويحمل رسالته [2].

المعالجة:

وسنقتبس هنا مما جاء في كتاب (في ظلال القرآن)، وبشيء من التصرّف والاختصار: "تعكس هذه السورة **صورة** من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول.. وتُعتبر نموذج يتكرر في كل بيئة.. صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يؤتَى المال فتستطير نفسه به، حتى ما يطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار الناس، وأقدار المعاني، وأقدار الحقائق، وأنه - وقد ملك المال - فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب!. كما يروح يحسب أن هذا المال إلهٌ قادرٌ على كل شيء لا يَعْجز عن فعل شيء!، حتى دَفْع الموت وتخليد الحياة [3]، ودفْع قضاء الله وحسابه وجزائه إن

---

1 - ((والهَمْز: هو عيبُ الناس بالإشارة، سواءٌ أكانت باليد، أم بغيرها، وسواءٌ أكان بحضرة المهْموز، أم بغَيْبته، واللَّمْز: الطعنُ على الناس؛ كقوله تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: 79]؛ أي: يَعيبون عليهم صَدَقَتُهم، والله أعلم)) . (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار. وَهُمَزَةٌ وَلُمَزَةٌ: بِوَزْنِ فُعَلَةٍ، وهي صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ صُدُورِ الْفِعْلِ الْمُصَاغِ مِنْهُ. وَأَنَّهُ صَارَ عَادَةً لِصَاحِبِه كَقَوْلِهِمْ: ضُحَكَةٌ لِكَثِيرِ الضَّحِكِ، وَلُعَنَةٌ لِكَثِيرِ اللَّعْنِ... فالصِيغَة دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ عادة لِصَاحِبِهِ. ومن الجدير ملاحظة أن اسم النار التي سيُلقى فيها هذا الهُمَزة اللمَزة هو الحُطَمَة، وهي على نفس صيغة الإشتقاق، فهي مُعدّة له.. فهي من شأنها ومن طبيعتها أن تُحطّم كل ما يُلقى فيها من أمثال ذلك المستهزيء المتكبّر.. فالجزاء من جنس العمل.

2 - أنظر (تبيان سورة الكوثر).

3 - ((وجملة: (يحسب أن ماله أخلده) يجوز أن تكون حالاً من (هُمَزة) فيكون مستعمَلاً في التهكّم عليه في حرصه على جمع المال وتعديده، <u>لأنه لا يوجد من يحسب أن ماله يخلده، فيكون الكلام من قبيل التمثيل</u>. أو تكون الحال مراداً بها التشبيه وهو تشبيه بليغ. ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والخبر مستعملا في الإنكار، أو على تقدير هَمْزة استفهام محذوفة [أيحسب] مستعملاً في التهكم أو التعجيب. وجيء بصيغة

كان هناك في نظره حساب وجزاء!.. فينطلق في هَوَسٍ بهذا المال يَعُدّه ويستلذّ تَعداده، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولمزهم وهمزهم.. يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته [1].. سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم.. بالقول والإشارة، باللفتة الساخرة والحركة الهازئة!، وهي صورة لئيمة حقيرة من صوَر النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتَعرى من الإيمان.

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسيّة ومعنويّة. وقد لوحظ فيها التقابل بين الجُرم وطريقة الجزاء وجَو العقاب.. فالجزاء من جنس العمل.. فصورة الهُمزة اللُّمزة، الذي يدأب على الهزء بالحق وأهله، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة « المنبوذ » المُهْمَل المُتردّي في ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)﴾ [الهمزة]، التي من شأنها أن تُحطّم كل ما يُلقى إليها، فتُحطّم كيانه وكبرياءه. وهي ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦)﴾ [الهمزة]، وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة، غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة. وهي ﴿تَطَّلِعُ﴾ على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور..

وتكملةً لصورة المحطم المنبوذ المهمل.. هذه النار مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يَسأل عنه فيها أحد!، وهو مُوثَق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام!.

وفي جرس الألفاظ تشديد: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ ﴿كَلَّا ، لَيُنْبَذَنَّ﴾ ﴿تَطَّلِعُ﴾ ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾، وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦)﴾ [الهمزة]، فهذا الإجمال والإبهام، ثم سؤال الاستهوال، ثم الإجابة والبيان.. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم.

الماضي في (أخلده) لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لتحققه عنده، وذلك زيادة في التهكم به بأنه موقن بأن ماله يخلده حتى كأنه حصل إخلاده وثبت)). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

1 - (الذي جمع مالا وعدده). "هذا الوصف يُشعر بالعِليّة، إذ الموصول هنا بدل من (كل) المتقدمة. بمعنى أن سبب هَمزه ولَمزه هو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل، وأنه لا عزّ إلا به، ولا شرف بغيره، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه". أنظر (فتح القدير) - الشوكاني و(أضواء البيان) - الشنقيطي. نقول: من الواضح أن ذلك المستهزيء لا بد وأن يكون من المترفين في المجتمع، أو من الملأ وقد دفعه حبه لأمواله وكثرتها وشعوره بالإستغناء بها، إلى الإستهزاء بالحق وأهله.. برسالة الله ورسول الله والمؤمنين.. (ويؤيّد ذلك، ذِكْره هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد، والرد عليه في صورة الردع الشديد، والتهديد الرعيب. فسياق السورة ليس في النهي عن عموم السخرية واللمز والعيب، فقد ورد النهي عنها في مواضع شتى غير هذه السورة. بل إن ذِكْره هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد، يوحي بأن السورة تواجه حالة واقعية من بعض الملأ من المشركين مارسوا سخريتهم تجاه الحق وأهله - رسول الله و المؤمنين معه - وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات، ولكنها ليست وثيقة، فنكتفي نحن بما قررناه عنها). أنظر (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

وفي التعبير تهديد: ﴿وَيْلٌ﴾ ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ ﴿الْحُطَمَةِ﴾ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾.. وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فِعلة ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾!..

إن الله جلّ وعلا يتابع أحداث حَمْل الرسالة والدعوة، ويقودها ويوجهها بالوحي وبالقرآن، وكان القرآن – كلام الله وآياته - هو السلاح البتّار الصاعق الذي يُدمّر كيد الكائدين، ويُزلزل قلوب الأعداء، ويُثبّت أرواح المؤمنين. كما في هذه السورة، فالقرآن إضافة إلى ما واجه به موقف ذلك المستهزيء بالتشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد، فهو في الوقت ذاته ينافح عن المؤمنين ويحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه.. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) ﴾ [طه].. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم".

33 - (سورة المرسلات)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في الطور الثالث، وذلك:
﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦)﴾ [المرسلات]، حيث جاء تهديد الملأ ومن اتبعهم على الضلال والكفر بعذاب الله القريب، حيث دخلوا - حسب سنة الله تعالى - في حالة انتظار "العذاب الأكبر" في الدنيا (التمتّع قليلاً)، ويكون ذلك بعد أن ذاقوا العذاب الأدنى [1]..
وما استحق الكافرون المكذبون العذاب إلا لأنهم أصبحوا "**مجرمين**"، وذلك بسب إصرارهم على التكذيب بالحق والتكبّر على طاعة الله تعالى وعبادته، ومحاربتهم للإيمان وأهله.. رغم وضوح الآيات والدلائل والبينات. فالمجرم هو الذي لا يزال مصرّاً على الذنب الكبير (الشرك بالله) فاستحق نزول العذاب به من الله جلّ وعلا. كما في قوله تعالى عندما جاءت الملائكة بالبشرى لإبراهيم عليه السلام:
﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨)﴾ [الحجر]

---

[1] - أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

أي أُرسِلنا بالعذاب.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم]

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ [التوبة] [1]

مناط السورة:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) ﴾ [المرسلات]

إصرار الملأ ومن تبعهم على **التكذيب** بالحق: بأن الله عزّ وجلّ هو وحده الإله الحق، وبيوم الحساب والجزاء، وإصرارهم على **الرفض** لعبادة الله تبارك وتعالى، رغم البلاغ المبين ومشاهدة آيات الله البينات، واقتراب نزول "العذاب الأكبر" بهم.

المعالجة:

السورة متميزة بأسلوبها. وقد عالجت موقف أولئك المكذبين من خلال جولات عدة، جاءت مختومة بتعقيب تكرر عشر مرات في السورة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾..

أي، هلاك عظيم يوم يقع العذاب بالمكذبين بالحق وقد بلغهم بلاغاً مبيناً.. وعيد وتهديد لهم لعلهم يرتدعون أو يتعظون، وباستعمال أساليب تأثير وبيان مختلفة.. وذلك من باب "تصريف الآيات": بداية بالقسم، ثم بالسؤال الإنكاري مرات عديدة [2].. وتخلل ذلك عرض مشاهد من أهوال يوم القيامة، وذكر إهلاك الله تعالى المجرمين في الدنيا وأنها سنة ثابتة لله تبارك وتعالى، إلى تلميسهم آثار قدرة الله تعالى وحكمته في الكون.. كدليل على تحقق ما يوعدون به من العذاب: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾..

بداية بإهلاكهم في الدنيا بوصفهم مجرمين استحقوا العذاب، ثم العذاب الأليم الدائم في يوم الفصل، مع التركيز على مشاهد من يوم الفصل.

وبشيء من التفصيل، نقول:

---

1 - انظر (تبيان سورة القلم).

2 - ((بعد القَسَم، كل مقطع من مقاطع السورة هو هزة، كالذي يمسك بخناق أحد فيهزه هزاً، وهو يستجوبه عن ذنب، أو عن آية ظاهرة ينكرها، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».. وهو دعاء بالهلاك، ووعيد بالثبور)) أنظر في ظلال القرآن - سيد قطب. انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول".

1- الآيات(1-7)، التأكيد بأسلوب القسم على وقوع وعيد الله تعالى للكافرين، لا محالة بإذن الله تعالى، وذلك: بالقَسَم بأنواع من الرياح أو الملائكة: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) ﴾، كمثال لبيان عظيم قدرة الله وحكمته في تقديره وتدبيره لمخلوقاته - جلّ وعلا - وسرعة نفاذ أمره فيهم: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾.. و بالقَسَم بطوائف من الملائكة: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)..﴾، وهي مثال لبيان قدرة الله عزّ وجلّ في تقديره وتدبيره لدينه وشريعته، فهو الإله الحق صاحب الأمر؛ قدراً وشرعاً [1]..

و(جواب القسم) تأكيد صدق ما يوعدون من العذاب في الدنيا ثم في الآخرة، فهو متحتم وقوعه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) ﴾.. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾، هلاك عظيم للمكذبين يوم يقع العذاب بهم..

2- (8-15)، ثم مواجهتهم مباشرة مع أحداث يوم الفصل، بالبيان بشكل قوي وملفت للإنتباه للإنقلاب الكوني الهائل العظيم الذي سيحدث يوم القيامة، ليعلموا أن ما يتمتّعون فيه من عيش مُتْرف لن يستمر.. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

3- (16-19)، إنذار المُكذِّبين المجرمين - ويمثّلهم قريش حينئذٍ - ومَن اتّبعهم على ضلالهم، بتذكيرهم بسُنَّة الله عزّ وجلّ في مَنْ كذّب وأجرم من الأمم التي سبقتهم، وقد حلّ بهم وبدارهم الدمار.. فحياتهم قصيرة ومتاعهم قليل، فسيتركونها ويواجهون مصيرهم الأبدي عند الله عزّ وجلّ.. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾..

---

1 - قال ابن جرير الطبري: ((والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أقسم بالمرسلات عُرفاً، وقد ترسل عرفاً الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عمّ - جلّ ثناؤه - بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كانت صفته كذلك، فداخل في قَسمه ذلك، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً)). نقول: ويؤيّد هذا ما ذكره ابن عرفة في تفسيره: ((من أن الله سبحانه أقسم بصفات خمسة، موصوفها محذوف، مما يعني أن الصفة هي المقصودة، فلذلك اعتنى بذكرها دون الموصوف)).. وأضاف أنه: ((لا يصح حذف الموصوف وإبقاء صفته إلا بدليل، إما اشتهارالأسماء أو معلومية الموصوف، أو نحو ذلك)). هذا، والواقع أن بين كل قَسَم ومُقسَم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالباً.. فاختيار ما يُقسِم به الله تعالى هنا أو هناك يكون متعلق بمعالجة مناط السورة. والمقسم عليه هنا: وجوب تحقق وعيد الله تعالى للكافرين في الدنيا والآخرة، وهُم مكذّبون به ؛ فأقسم سبحانه لهم بما فيه إثبات صدق وعده وتحقق أمره. فكان الإقسام بالصفة دون الموصوف، لأن تلك "الصفات" هي في الحقيقة أعمال وأحداث نفذت في => الواقع والوجود لأن الله تعالى أمر بها، فهي نتيجة لأمر الله تعالى، فما يأمر الله تعالى به ينفذ ويقع.. بغض النظر عن المخلوق (العبد) الذي من خلاله أو به نفذ أمر الله.. من الإرسال والعصف والنشر والفرق أو التفريق وإلقاء الذكر.. فهكذا، كل ما **يأمر** الله به واقع وحاصل حتماً، سواء ما تعلّق بتدبير شؤون خلقه وقيّوميّته عليهم.. أم بتدبير شؤون شرعه ودينه ؛ إنزال الذِّكر وبعْث الرسل.. وكذلك، فإن وعد الله ووعيده.. حاصل حتماً، من غير شك ولا ارتياب.. سواء في الدنيا أم في الآخرة: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)} المرسلات.

4- (20-28)، إقامة الحجة الدامغة والبرهان الساطع على قدرة الله عزّ وجلّ على إحداث اليوم الآخر وإيقاعه، وذلك من خلال تلميسهم آثار قدرة الله جلّ وعلا في أنفسهم وفي الكون الذي يعيشون فيه، فالله تعالى كما خلقهم أوّل مرّة قادر أن يخلقهم مرّة أُخرى، وأنّه خلقهم لحكمة.

5- (29-45)، ذِكْر مشاهد من يوم الفصل وأحوال العذاب الذي ينتظر المُكذِّبين الرافضين لطاعة الله عزّ وجلّ، حيث لا حُجَّة لأحد منهم حتى يعتذر، وقد جاءهم النذير. وفي المُقابل بيان جزاء المُحسنين العابدين الراكعين، بأن لهم الظلال والنعيم والجنان عند الله عزّ وجلّ.

6- (46-49)، تهديدهم بعذاب الله القريب لهم بإهلاكهم لأنهم مجرمون، فهم مصرّون على التكبّر على طاعة الله والخضوع لأمره - سبحانه:
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾

7- (50)، وما سبق ذكره هو من **حُجّة** الله على الإنسان التي بيّنها في القرآن الكريم، رسالة الله إليهم، فبأيِّ حديث بعد القرآن يُؤمنون ؟! وكيف يكفرون بهذه الحُجَّة البيّنة ويتّبعون أهواءَهم وأواهمَهم ؟!: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴾ [المرسلات]
أي: (فبأي كتاب وكلام بعد القرآن الكريم يؤمنون؟!! وهو المبيِّن لكل شيء، الواضح في حُكمه وأحكامه وأخباره، المعجِز في ألفاظه ومعانيه).

فآيات الرسالة هي **الأصل** في خطاب الناس ودعوتهم.

34- (سورة ق)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في الطور الثالث، وذلك:

1- إنذار الكفار بالعذاب الأكبر في الدنيا، وقد استحقوه حسب سُنن الله، مثل الأمم السابقة:
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾ [ق]
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾ [ق]

2- وصف الرافضين للرسالة والدعوة بالكافرين ، ويكون هذا متأخراً:
﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) ﴾ [ق] [1]
ووصف الملأ منهم الذين تولوا كِبَر التكذيب، بالكَفّار العنيد:

---

1 - أنظر تبيان سورة الكافرون.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ﴾ [ق]،،

وهو المُصرّ على التكذيب بالقرآن وما فيه من الحق البيّن الواضح - أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير - وعدم اتباعه، بالرغم من تكرار البلاغ المبين ورؤية الآيات البيّنات. ((فالعنيد هو الذي يرُدّ الحق مع العلم به)) [1]. و كفّار، عنيد.. من صيغ المبالغة، فهي ليست المرة الأولى التي يكفر فيها بالحق، ويُعاند الحق.. فهو مُصرّ على الكفر عناداً في كل مرة يَبْلغه الحق المبين [2].

3- اغترارهم بقوتهم وبقدرتهم على البطش:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) ﴾ [ق]،، وكان هذا بعد أن فتح الله عليهم الدنيا، قُبيل إنزال العذاب بهم. إشارة إلى بطش قريش بالمسلمين.

مناط السورة:

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق]،،

إصرار الكافرين على كفرهم بالقرآن وما فيه من الحق عن يوم القيامة، إلى درجة العناد أو المعاندة - رغم وضوح البيّنات - يعني أصبح الإنكار موقفاً نهائياً لهم:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ﴾ [ق: 24]

وصيغة المفرد للإشارة إلى بعض الملأ الذين تولّوا كبر هذا التكذيب والعناد.

المعالجة:

والسورة متميزة بأسلوبها [3].

---

1 - (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن حسن جبل.

2 - في الآيات الأخرى التي ورد فيها وصف بعض الملأ بـ "العنيد"، جاء هذا الوصف لبيان أن كفرهم هو موقف نهائي، وأنهم استحقوا العذاب. وهي:=>

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ {59})هود

(وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ {15}) إبراهيم

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً {16}) المدثر.

3 - انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول". ((إنها سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري.. تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها.. تتعقبها برقابة الله، التي لا تدعها لحظة واحدة من المَولد إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب. وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة. تُطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقا كاملا شاملا.. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة،

أولاً: بالنسبة لموقف الكافرين:

1- (1-11)، الكافرون يكذبون بلقاء الله ويَعجَبون استعجاب استخفاف وإنكار [1].. فأنزل الله عزّ وجلّ الآيات لكشف واقعهم وأقام الحجة عليهم بأن الله هو الإله الحق وأنه سيبعث الناس ليحاسبهم، على أساس الحقيقة التالية: إنه **بالعلم وبالقدرة يحصل الجزاء**. بمعنى أن محاسبة الله تعالى لهم ومجازاتهم بما يستحقون حقيقة واقعة، ذلك ان الله عليم تمام العلم بهم وبأحوالهم، وقادر على بعثهم مرة أخرى كما خلقهم أول مرة:

- (1-3)، التأكيد بالقَسَم بالقرآن ذي المجد؛ أي ذي الشرف والسعة والكرم، لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأُخروية.. وجواب القسم مُقدّر يدل عليه المقام، وتقديره: أن القرآن – بوصفه المجيد - هو الحق من الله عزّ وجلّ، وقد نـزّله على رسوله لينذر به الناس: أن الله تعالى سيحاسبهم يوم القيامة على كفرهم.. إلا أنهم لم يؤمنوا، بل جعلوا الرسول وما أنذروا به عرضة للتنكير والتعجب، مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والقبول [2].

- (4-5)، التأكيد على حقيقة أن الله تبارك وتعالى يعلم العلم التام بهم وبما تُنقص الأرض من أجسامهم بعد موتهم وتحوّلهم إلى تراب، وأن كل تغيير وتبديل مكتوب ومحفوظ.. ثم كشَف حقيقة

في كل وقت وفي كل حال. وكل هذه حقائق معلومة، ولكنها تُعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة، تروع الحس روعة المفاجأة)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب، باختصار.

1 - إنكار المشركين للبعث كان أغلبه من باب عدم الإمكان والقدرة، فهو مستحيل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ{13}) الممتحنة.. وليس من باب لماذا يكون حساب وعقاب، فلا مبرر للبعث والحساب.. إلا أن الله تعالى أجابهم على كلا الشبهتين مع التركيز الواضح في القرآن على الشبهة الأولى، وأساس الجواب عليها من جانبين ؛ <= القدرة والعلم: بيان آثار قدرة الله تعالى المطلقة - في الآفاق والأنفس - على الخلق والإيجاد والتقدير، فهو على كل شيء قدير.. وأنه قد خلقهم أول مرة فهو قادر على خلقهم مرة أخرى وهي ستكون أهون عليه من الأولى. وأنه عليم بهم لطيف خبير، وكل شيء فعلوه صغيره وكبيره مدون وموثق وسيحاسبون عليه. فبالقدرة والعلم يحصل الجزاء، فهو - جلّ وعلا - قادر عليهم وعليم بكل ما فعلوه، فهو سيُميتهم ثم سيبعثهم ثم سيحاسبهم فإما إلى جنة الخلد أو إلى النار والعذاب المقيم.

وأما الجواب على الشبهة الثانية: فأساسه تقرير حقيقة أن الله تعالى هو الحق وخلق كل شيء بالحق: أي بنظام دقيق ولحكمة وليحقق غاية، فلا عبث ولا لعب ولا لهو في الوجود.. فالإنسان لم يخلقه الله تعالى عبثاً هكذا.. بل خلقه ليؤدي وظيفة وليحقق حكمة، الوظيفة هي: الخلافة في الأرض، أي أن يكون سيداً متصرفاً فيها. والحكمة هي: عبادة الله تعالى باختياره بأن يضبط شؤون تلك الخلافة وينظمها حسب دين الله تعالى وشرعه.. وهي نفسها الأمانة التي حمّله الله تعالى إيّاها، وأنه سيسأله عنها وسيحاسبه عليها أحفظها أم ضيعها.. فلا بد أن يكون بعث وحساب وجزاء.. فهذا من لوازم رحمة الله تعالى ومقتضيات عدله، وأنه أحكم الحاكمين. انظر (تبيان سورة القيامة) و (تبيان سورة التين).

2 - (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ{1} بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ {2}) ق ،، ومثله قوله تعالى: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ{1} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ{2}) ص.

موقفهم أنه الإصرار على التكذيب بالقرآن وما فيه من الحق البيّن الواضح، لذلك فهم مضطربون تائهون لاتّباعهم الظن والهوى وتركهم الحق الذي عليه الدلائل الواضحة [1].

- (6-11)، ثم ذكّرهم ببعض تلك الدلائل والآيات، بذكر بعض آثار قدرة الله تعالى في خلق السماء وقوة بنيانها.. وإنزال المطر وكيف أن الله تعالى يحي به الأرض بعد موتها.. وفي ذلك نور وبصيرة لمن أراد الإنابة إلى الله - تبارك وتعالى - واتباع الحق..

2- (12-15)، بيان سنة الله تعالى الثابتة في استحقاق الأمم السابقة العذاب وقد كذّبت الرسل وما جاؤوا به من الحق. وذلك بقصد إنذار قريش – ومن هو على شاكلتهم - بأنه سيصيبهم ما أصاب الله به الأمم التي سبقتهم إذا أصروا على التكذيب مثلهم.

3- (16-35):

- (16-18): ثم التأكيد مرة أخرى على حقيقة أنه بالعلم وبالقدرة يحصل الجزاء، وذلك: بالتذكير بحقيقة أن الله هو خالق الإنسان، وعليه فهو - جلّ وعلا - عليم بمن خلق، حتى خواطر العبد وهواجسه التي في نفسه يعلمها، بل وكل أقواله وأفعاله يعلمها الله تعالى، وهي مكتوبة ومحفوظة في صحيفته - لإقامة الحجة عليه يوم القيامة. وهو تعالى أيضاً القادر على خلقه مرة أخرى كما خلقه أول مرة (باسلوب الإنكار عليهم والتوبيخ لهم) [2].

- (19-30): ثم سَرَد - بشكل مجمل وسريع - رحلة العودة إلى الله تبارك وتعالى للحساب، في محطات بارزة: من بداية مواجهة الإنسان لغمرات الموت وشدته.. ثم نفخة البعث الثانية، مؤذنة ببدء اليوم الذي سيقع فيه ما توعَّد الله به الكافرون.. وبعد ذلك، مواجهة موقف القضاء العادل للحساب، حيث يُساق الكافر ومعه صحيفة أعماله مكتوب فيها كل صغيرة وكبيرة، ومعه الشهود عليه.. ثم موقف الجزاء، وسيكون الكفّار العنيد - الذي هو﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)﴾ [ق] - وجهاً لوجه أمام مصيره، حيث سيشاهد الآن بأم عينه كل ما كان ينكره في الدنيا من الحساب والجزاء، بحجة أنه غيب لا يراه !!.. ثم يُلقى في جهنّم إلقاءاً لينغمس في العذاب الشديد، كإلقاء الحطب في النار وقوداً لها: ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ﴾، وبهذا يتحقق وعيد الله تعالى بالكافرين، وبالحق والعدل.. فلا عذر لهم وقد أُقيمت الحُجة عليهم.

- (31-35): وفي الجهة المقابلة هنالك الفريق الآخر وهم المتقون - والذين هم على النقيض من الكفّار العنيد سواء محياهم أم مماتهم ومصيرهم - وقد قُرّبت إليهم الجنة فيرَوْنها، وقد آمنو بها

---

1 - (.. بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)..) ق.. التوصيف الوارد لحقيقة موقفهم في هذه الآية، يشبه ما ورد في سورة الذاريات: (.. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ{8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{9} قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ{10} الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ{11} يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ{12} يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ{13}..).

2 - كما في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {33}) الأحقاف. وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {27}) الروم.

ولم يروها، وآمنوا بالله ولم يروه سبحانه، بل لمجرّد أنهم شاهدوا الدلائل والبيّنات الواضحات التي ذُكر بعضها في أول السورة:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق: 11-6]

وكانوا يَخشون الله تبارك وتعالى، ومجتهدين في الحفاظ على حدود الله، وإذا أخطأوا كانوا سريعي العودة والأوب إلى الله ربهم ومولاهم - وفي هذا تعريضٌ بالكافرين وحثٌ لهم على التصديق بالحق والإنابة إلى الله - ثم يُقال للمتقين بتكريم وتشريف: ادخلوا الجنة مصحوبين بالسلامة خالدين فيها.. و﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق].. في مقابل أن الكَفّار العنيد المكذّب بالغيب، يُلقى في النار إلقاءً كما يُلقى الحطب.. والعياذ بالله الرحمن الرحيم.

4- (36-38)، وبعد ذلك الإستعراض المجمل لمصير كِلا الفريقين في اليوم في الآخر، ومافيه من إنذار للكَفّار العنيد، وحثّ له ليكون من المتقين.. يأتي التأكيد مرة أخرى على سنّة الله الدائمة الجارية في الحياة الدنيا، والتي لا تتخلّف أبداً، في إهلاك القرى المكذّبة بالحق البيّن، مع إضافة ملحظ جديد هو القوة. فتلك الأمم المكذّبة التي أهلكها الله تعالى من قَبل في الدنيا، كانت أشد قوة وسطوة من قريش، فطوّفوا في البلاد وعمّروا ودمّروا فيها.. فلم تُغنِ عنهم قوتهم وسطوتهم شيئاً من عذاب الله حين جاءهم. حتى تعلم قريش - ومن هم على شاكلتها - أن مصيرهم، في الدنيا والآخرة، عذاب وهلاك لا مهرب منه إن اتبعوا أمر كل كفّار عنيد، وأنهم لن يُعجزوا الله عزّ وجلّ [1].. وفي ما سبق ذكره، ذِكرى لِمَنْ له قلب حيّ يقظ يتدبّر الحقائق ويُريد الهداية:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق: 37]

ثم استئناف جديد - في ختام هذه المجموعة، آية(38) - للتأكيد مرة أخرى على حقيقة قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى، فقد خلق جميع الخلق من عدم: السموات السبع والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات.. في ستة أطوار مختلفة، وما أصاب الله – جلّ وعلا - من ذلك الخَلْق تَعب ولا نَصَب، فهو جلّ وعلا لا يثقله حفظ السموات السبع والأرض، بدليل أنها لا تزال محفوظة وتسير بنظام دقيق.. بل في منتهى الدقة، وستبقى كذلك حتى يشاء الله غير ذلك:

---

1 - كما في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44)) فاطر. وقد ورد هذا المعنى في آيات أخرى في سور عدة: القصص78، الروم9، غافر21، فصلت15، الزخرف8، محمد13. وتكرار معالجة اغترار قريش بقوتها يُشير إلى أنه كان يُشغل حيزاً كبيراً في عقليتهم وتفكيرهم، ويشكّل مانعاً قوياً يحول دون إيمانهم بالحق، فالاغترار بالقوة من طبائع الكَفّار العنيد.. مثل فرعون.

﴿..وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة]،،

وهذه القدرة العظيمة على إيجاد جميع الخلق من عَدم؛ السموات والأرض وما فيهم.. والمحافظة على استمرار وجودهم وسيرهم، والقيوميّة عليهم.. دليل قاطع على قدرته سبحانه وتعالى على إحياء الموتى [1].

ومن جهة أخرى، فهُم بعد موتهم أصبحوا تراباً، فإعادة إحيائهم أهون من خلقهم من عدم أول مرة:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]؟!!

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧) ﴾ [الروم]

ثانياً: بالنسبة للذين آمنوا بالحق واتبعوا رسول الله (المتقين):

(39-45)، تثبيت الجماعة المؤمنة وتسليتهم لما يجدونه في المجتمع من كفر ومعاندة للحق البيّن:

وبناء على ما جاء في السورة من حقائق وبيّنات على عمق علم الله تعالى بالإنسان وسعته وإحاطته به، وعلى عظيم قدرة الله تعالى في إيجاد الخلق، وقدرته على بعث الناس ومجازاتهم على أعمالهم.. ومن بشارةٍ للمؤمنين المتقين بالجنة والسلام والخلود فيها، بل وبالمزيد من الله تبارك وتعالى.. ووعيد الله عزّ وجلّ للكافرين بإهلاكهم وتعذيبهم.. فبناء على ما سبق ذكره من السورة من حقائق وبيّنات، أمَر الله تبارك وتعالى رسوله والمؤمنين – في خاتمة السورة - بالصبر على ما يقوله المكذّبون المعاندون من الأباطيل، وتسبيح الله جلّ وعلا وتنزيهه عن كلّ ما يدّعيه هؤلاء من العجز عن وقوع وعده ووعيده.. حامدًا له ما أنعم به عليه من إصابة الحق، آناء الليل وأطراف النهار [2].. فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور، وسُمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ فى الصور، وتشققت الأرض سراعا وخرج الناس من القبور، وما ذلك بالصعب على ربّ العالمين، خالق السموات والأرضين، المُحيي المُميت.

1- هذه المجموعة من الآيات تشبه قوله تعالى: (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا {29} وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{30} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{31} وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{32} مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{33}) النازعات.. فهذه السور: **ق، القيامة، الذاريات، النازعات، البلد**.. أجواؤها متقاربة، وتعالج مناطات متشابهة، فهي مثال على "تصريف الآيات"، أي التنويع في تقليب الآيات والحجج، لعل الكافرين يؤمنون بالحق ويعودون إلى الله، و تثبيتاً للمؤمنين على الحق.

2 - التسبيح هنا ليس المقصود به الصلاة، بل هو على الحقيقة، أي ذكر الله تعالى وتسبيحه وحمده، كالقول: (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). بقرينة أن الله تعالى أمر به بعد السجود أي بعد الصلاة، فهو غير الصلاة. ((وأمْره له بالتسبيح بعد أمْره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به)) أنظر (أضواء البيان) - الشنقيطي. ((فإن ذِكْر الله تعالى، مسلٍّ للنفس، مؤنسٍ لها، مهوّنٍ للصبر)). أنظر (تفسير السعدي).

ثم يؤكّد الله تعالى لنبيّه الكريم، مواساةً له في ما يلقى من أذى قومه: إنا لنعلم ما يقول المشركون فى البعث والنشور فدعهم فى غيّهم يعمهون، فما أنت بمسلّط عليهم لتقسرهم على الإيمان بالحق، إن أنت إلا نذير.. وأَمَره بالاستمرار بجعل القرآن هو **مادة** الذّكر وإعادة التذكير بالحق، فهو الأصل في خطاب الناس ودعوتهم: ﴿..فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ [ق]، فمن سنة الله تعالى أن يتذكّر بالقرآن مَن يخاف وعيد الله ويخشى عقابه.. فلا تبتئس يا رسول الله إن لم يؤمنوا[1].

كان قتادة يقول: " اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا برّ يا رحيم ".

قال ابن كثير في تفسيره: ((وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ:.. عَنِ ابْنَةِ الْحَارِثِ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ: مَا حَفِظْتُ " ق" إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ الله ﷺ يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ. قَالَتْ: وَكَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ الله ﷺ وَاحِدًا. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ. وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهَذِهِ السورة فِي الْمَجَامِعِ الْكِبَارِ، كَالْعِيدِ وَالْجُمَعِ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْمَعَادِ وَالْقِيَامِ، وَالْحِسَابِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ)).

35- (سورة البلد)

ربط السورة بخط السير:

قد تأتي السورة في نهاية " الطور الثاني"، وذلك:

1- المواجهة المباشرة لبعض الملأ الذين يجادلون بآيات الله تعالى بالباطل، ويتصدّون لدعوة الله تعالى (كشف الطاغوت)، مع إنذارهم بعذاب الله في اليوم الآخر، دون العذاب في الدنيا.

2- تقرير وتأكيد حقيقة أن "الكَبَد" وهو: المعاناة والشدة والنصب.. ملازم لسير الإنسان في حياته، تفسيراً لِمَا كان يجده رسول الله ﷺ من خصومة شديدة ومشقة وعنت من الملأ من قريش. وجاءت مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات، وهي: **القَسَم** و **اللام** و **قد**.

3- الآيات: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾ [البلد،

---

1 - حجة القرآن كما هي قائمة في أفكاره وحقائقه، فهي قائمة أيضاً في أسلوب عرضها الربانيّ البديع الفريد. والتنويع في أسلوب عرض الحقائق ودلائلها هو معنى " تصريف الآيات ". فما جعل الله تعالى القرآن هكذا في أوجهه المختلفة - فكرة وأسلوباً - إلا بقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنساني. ومن هنا، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات، وما الرسول إلا مبلّغ ومبيّن لآيات الله كما يريد الله تعالى، بمعنى أنه المفعّل للآيات البيّنات في واقع الناس، وهو المعلّم لنا لكيفية تفعيّلها لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس. وهذا هو حقيقة معنى " تلاوة الآيات " أي قراءتها بقصد تنزيلها على الواقع كمعالجات له، لجعله كما يحب الله ويرضى. وعليه، فلا يُجْزِء أن تُعرض أفكار القرآن وحقائقه بأسلوبنا، بل لا بد من جعل كلمات القرآن وآياته وسوره تصل إلى مسامع الناس، فهي كلام الله تعالى وهي الأصل في خطاب الناس، مع ما يلزم من "التبيان".

يبدو فيها إشارة إلى ظلم قريش لقرابتهم من بني هاشم ولمن آمن واتبع رسول الله، وعدم رحمتهم يوم حصارهم وتجويعهم في الشِعب، ((يوم تقاسموا على الكفر)).

مناط السورة:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)﴾ [البلد]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)﴾ [البلد]،،

حالة بروز أفراد في المجتمع من الملأ أصحاب الأموال، **يجاهرون بالتكذيب** بآيات الله تعالى؛ في القرآن وفي الأنفس والآفاق.. الدالة على أن الله تعالى هو الإله الحق وأن البعث والجزاء حق.. وقد وصل الأمر بين أهل الحق وأهل الباطل إلى "المكابدة" بسبب الخصومة الشديدة بين الفريقين [1].

المعالجة:

يُخاطب الله تعالى رسوله خطاباً مباشراً في السورة تثبيتاً له وللمؤمنين معه. وعند ذكره لذلك المتكبّر المجادل بالباطل، يكون بصيغة الغائب دون الالتفات إليه تحقيراً لشأنه. وكانت المعالجة على النحو التالي:

(1-4)، أقسم الله سبحانه قسماً مؤكَّداً بالبلد الحرام. وبالوالد والولد، فبهما يكون حفظ النوع الإنساني وبقاء العمران.. (جواب القَسَم) على أن الإنسان خُلِق مغموراً في المشاق ومعالجة الشدائد (**في** كَبَد) منذ نشأته إلى منتهى أمره.. فهو يتحمّل المشاق والمتاعب في جميع مراحل حياته الدنيا، من مولده حتى وفاته، فهي دار ابتلاء.. وأشد ما تكون المكابدة، عندما تكون الغاية التي يسعى إليها الإنسان مصيريّة، ويكون السير لتحقيقها في جو من الصراع.. كما كان عليه حال رسول الله ﷺ والمؤمنين، مع الملأ من قريش في البلد الحرام، مكابدة كل منهما الآخر.. وهو ما يمكن أن يُفهم من الجملة المعترضة: ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) ﴾ [البلد]، يعنى: ومن المكابدة أن مثلك - على عِظم حُرمَتك - يُستحل بهذا البلد الحرام أي قد جعلوك حلالاً مُستَحل الأذى والإخراج، والقتل لك لو قدروا.. فقريش وملؤها يُحرّمون أن يَقتلوا بها صيداً ويَعضدوا بها شجرةً، ويَستحلّون إخراجك وقتلك [2].. وهذا تقريع وتوبيخ لهم.

---

1 - كما في قوله تعالى: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ **قَوْماً لُدّاً** {97}) مريم. (**لُدّاً**) جمع ألدّ أي جَدِلٌ بالباطل وهم كفار مكة (الجلالين). وأصل الألدّ: الشّديد اللَّدَدُ، أي: صفحة العنق، وذلك إذا لم يُمكن صرفه عمّا يريده، وفلان يَتَلَدَّدُ، أي: يتلفّت. (المفردات) - الراغب.

2 - الأصل في "المقسم عليه" (جواب القسم) أن يُلقي ظلاله على "المقسم به" فلا بد من مناسبة بينهما.. فـ "المقسم عليه": بيان أن من سنة الله في خلْق الإنسان، أن جَعَله مغموراً في تعب ومشقّة ؛ في كَبَد.. فما مناسبة ذلك للمقسم به ؟ الجواب: (البلد) هي مكة، وأهم خصائصها أنها حرام. و (حِلّ) بمعنى حلال، وعلاقته الظاهرة والمباشرة بكلٍ من: البلد الحرام، ورسول الله، وخلْق الإنسان في كبد. أن قريشاً وملأها يُحرّمون أن يَقتلوا بالبلد الحرام صيداً ويقطعوا بها شجرةً، بينما هم يَستحلّون رسول الله ﷺ .. => سبَّه وشتمَه، وأطلقوا ألسنتهم بكل قالة سوء فيه، بل وتجاوزوا هذا إلى التعرّض له بالأذى المادي حتى لكادوا يرجمونه.. فالمشركون لم يرعوا فيه حرمة القرابة، ولا حرمة البلد الحرام الذي يأوى إليه. (وَوَالِدٍ

فجاء تقرير سنة "المكابدة" بهذا الشكل الجازم من ناحية - تفسيراً لحقيقة ما كان يجده رسول الله ﷺ من مشقة وعناء (مكابدة) في حمل رسالة الله للناس، تسليةً لرسول الله وطمأنةً لنفسه وحثاً له على الصبر وتثبيتاً لقلبه، فالأمور بيد الله عزّ وجلّ وحده، وحسب تقديره وسُننه.. يصرّفها كيف يشاء.

ومن ناحية أخرى، تعجيباً من حال أهل البلد الحرام - الملأ وأئمة الكفر منهم - في عداوتهم للحق وأهله، وكشفاً لحقيقة موقفهم من الرسالة وحَمَلتها، وبياناً لفساد حججهم في تكذيبهم بالحق. والآيات التالية (5-20)، تتضمّن مُحاججة لواحد منهم. وسنتناولها بشيء من التفصيل:

(5-7)، والاستفهام هنا، للإنكار والتوبيخ لأولئك الملأ من المشركين الذين اغترّوا بقوتهم، فآذوا حَمَلة الرسالة؛ نبي الله ﷺ وأصحابه إيذاء شديداً.. أي، كيف يظن ذلك الإنسان المغرور بسلطانه وأمواله.. أن الله عزّ وجلّ لن يقدر عليه وعلى حسابه؟! والله هو الذي خلقه ابتداء وقدّر عليه المشقة - سنّة المكابدة – في شؤون حياته كلها، وقهَره عليها.. ويقول مُشكّكاً: أنفقتُ أموالاً كثيرةً في ما أهوى وأشتهي فمن يستطيع أن يحصيها عليّ ويحاسبني؟..
فكيف يظن أن أعماله وإنفاقه الأموال كانت بلا رقيب، ولم يحصها عليه أحد ؟!.. ألا فليعلم أن الله تبارك وتعالى الذي خلقه وركبّه على هذه الصورة البديعة اللطيفة.. لم يخلقه هكذا عبثاً، وأيضاً إنه – سبحانه - قادر على كل شيء وعليم بما خلق، وعِلْمه محيط بجميع خلقه.. فسيحاسبه على الصغيرة والكبيرة، فبالقدرة والعلم يحصل الجزاء.

(8-10)، وهذه بعض الدلائل أو الآيات على علم الله المحيط بهذا الإنسان، وآثار قدرته عزّ وجلّ، الغالبة، وحكمته في خلقه لذلك الإنسان، فخالقه عليم به وقادر عليه. وقد وردت باسلوب الإستفهام التقريري زيادة في إلزامه الحجة:

- ✓ ألم نخلقه ونجعل له عينين ينظر بهما ويبصر؟..
- ✓ ألم نخلقه ونجعل له لساناً ليقدر على الكلام والإبانة عما في نفسه.. وشفتين يستعين بهما على أكل الطعام، وجمالا لوجهه وفمه ؟

وَمَا وَلَدَ{3}) البلد، من المناسب لـ "جواب القسم" أن يبقى الوالد وما ولد على عمومه - وهو اختيار ابن جرير - أي هذا التوالد الذي يقع بين الناس.. فكل والد، هو مولود، وكل مولود، سيكون والداً، وبهذا، يتصل النسل، وتكثر المخلوقات، وتُعمّر الأرض.. وهذا كله مصبوغ بصبغة المكابدة، من نزول آدم وحواء عليهما السلام.. حتى نهاية الحياة الدنيا. وفي الحياة الآخرة يواجه كل إنسان ثمرة مكابدته.. إن خيراً فخير، وإنْ غير ذلك فعكسه.
وفي المحصّلة، فإن أهل الحق وأهل الباطل يكابد كلٍ منهما الآخر. فالأول يكابد في سبيل الله الإله الحق (طريق الخير)، والآخر في سبيل "الطاغوت" بأشكاله وأنواعه؛ هوى النفس وشهواتها، والملأ، وسدنة الأوثان..(طريق الشر). فالكل يجاهد ويكابد ويتعب، من أجل بلوغ الغاية التي يبتغيها. كما في قوله تعالى: {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (104)}النساء، وقوله تعالى: {.. إن سعيكم لشتّى (4)} الليل.

- ✓ ألم نخلقه ونجعل له **هداية،** أي قدرة على التمييز بين طريقي الخير والشر، بين ما ينفعه وما يضرّه ؟ [1].

فهذه النّعم التي يتمتّع بها ذلك المُنكِر لقدرة الله عزّ وجلّ على الحساب والجزاء، إنما هي من جعل الله وخلقه.. فكيف يكون خالق الناس وواهبهم جميع ملكاتهم الفطريّة.. من حواس وعقل وعلم وغرائز (الهداية).. غير قادر عليهم وغير عالم بأحوالهم ؟!! [2]

(11-18)، وبناء على ما سبق من التذكير والبيان، جاء الحثّ المباشر لذلك الإنسان المنكر للحساب، على فعل الخير بدل الشر. فالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) ﴾ [البلد]، للتفريع (للبناء) على ما تَـقدّم. والمقصود بهذه الآية الحض على اقتحام العقبة التي في نفسه، والتي تحول بينه وبين أن يكون من أصحاب الميمنة.. أي، فهلّا انتفع بما هيَّأناه له، دون تأخير أو تردد - وقد سمع آيات الله ورسالته تُتلى عليه - وهلّا تخطّى من غير رَويّة أو تردد (اقتَحَم)

1 - والهداية هنا عامة: الخَلْقيّة والشَرعيّة، أي هداية الفطرة والعقل، وهداية الوحي والشرع. وبمجموع أنواع الهداية يستطيع الإنسان التفريق بين طريقي الخير والشر، وبوضوح تام كتبيّن الطريقين العاليتين، لا لبس بينهما، وقد هيَّأ الله جلّ وعلا الإنسان للاختيار.. كما في قوله تعالى في سورة الإنسان: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً{1} إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً{2} إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{3}..). ((أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (وهديناه النجدين) قال: الهدى والضلالة. قال الحافظ ابن حجر: أخرج الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: (النجدين) سبيل الخير والشر. وصححه الحاكم، (فتح الباري 704/8))). أنظر (موسوعة الصحيح المسبور) - حكمت ياسين.

((النَّجدُ: ما خالف الغور.. وكل شرفٍ من الأرضِ استوى ظهره فهو نجدٌ، ويُجمع على أنجاد،.. ويقال: هاهنا الطريقُ الواضحُ، والطريقُ الواضح يُسمى نجداً، وقوله تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد/10] أي طريق الخير وطريق الشرّ. وأمر نجدٌ: واضحٌ، وطريقٌ نَجدٌ هادٍ، ونَجَدَ الأمرُ ينجُدُ نجودا، أي استبان ووضح فهو ناجِدٌ)). (كتاب العين) - الخليل الفراهيدي. ((وإنما سماهما الله نجدين، للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار، وأنّ فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها. وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تُقطع إلى النهاية وتوصّل إلى الغاية)). أنظر (تفسير جزء عم) للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . نقول: وهذا يتوافق مع قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{4}) البلد.

2 - كما في قوله تعالى في سورة الملك:(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{14}). وسورة فصلت: (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ... وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{21} وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ{22} وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ{23}). وهذا التكريم للإنسان بالخلق وبالعقل دليل على أن الله - جلّ ثناؤه - لم يخلقه عبثاً. لذلك أنزل الله الكتب وبعث الرسل، هداية للناس. أنظر (تبيان سورة التين).

العقبة التي تحول بينه وبين اتباع الحق والنجاة من النار ؟!.. والمعنى، أفلا يكون نَجْد (طريق) الخير أحبّ إليه من نَجْد الشر [1]..
ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢)﴾ [البلد]، والاستفهام لتفخيم شأنها، والتهويل من أمرها، والتشويق إلى معرفتها.. ثم بينها بأنها الإيمان والعمل الصالح، فالعقبة بالنسبة للكافر هي النجد الأخرى؛ نجْد الخير، أي الإيمان والعمل الصالح، لأنه سالك لنجْد الشر، بل جادٌّ في السير فيها.. وقد استمرأ المعاصي والآثام، وزيّنت له نفسُه - ومعها شيطانُه - مكابدة سلوكها فلم تعد عقبة في نفسه وقد انتكست فطرته [2]..
فالحثّ هنا، حثّ على اقتحام نجد الخير التي أصبحت صعبة على نفسه، صعوبة صعود العقبة في الجبل. أي فليكن نجد الخير ومكابدتها أحب إليه من الأخرى، فليقـتحمها وليبادر إلى الدخول فيها بقوة وبدون رويّة أو تردد، ودون تأثر بهوى النفس وشهواتها: فليكن ممن يعتقوا الرقاب، ويطعموا الطعام لليتامى والمساكين.. ثم ليكن - قبل كل ذلك - من الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله،

---

1 - قال الجَمل في حاشيته على الجلالين: (({فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} أى: فهلا اقتحم العقبة، فلا بمعنى هلّا التي للتحضيض. أي: الذي أنفق ماله في معصية الله تعالى وفي عداوة النبي ﷺ، هلا أنفقه في اقتحام العقبة فيأمن)). نقول: هذا هو الراجح في معنى (فلا) فهي ليست لنفي قيامهم بتلك الأعمال، بل هي للحث على العمل الصالح، بقرينة عطف قوله: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا..) على ما سبق، حثاً على الإيمان. وكذلك اسم الإشارة في قوله: (أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18}) البلد، فهو يشير إلى الذين استجابوا وقاموا بتلك الأعمال الصالحة أنهم من أهل اليمين، لا إلى الذين لم يقوموا بها.
واقتحام الشيء: دخوله بشدة وبدون رويّة. يقال: اقتحم الجنود أرض العدو، إذا دخلوها بقوة وسرعة، وبدون مبالاة بارتكاب المخاطر. والعقبة في الأصل: الطريق الوعر في الجبل يُرْتَقَى بمَشقةٍ.

2 - فالعقبة في حسّهم هي **طبائع الخير** والتي تكرهها نفوسهم المكذّبة بالجنة والنار وتستثـقل القيام بها، وقد بيّنتها آيات سورة الفجر هذه: {..كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)}. فالتساؤل {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)} يأتي هنا في سياق المبالغة في التعجب من نفسية هذا المكذّب المنكوس الفطرة المتبع لهواه، فلا يأتي بخير أبداً. ومن جهة أخرى فيه تحقير له من أن يكون سيداً مطاعاً، فكيف يقبل الناس بمثله سيداً عليهم، كما في آيات سورة الماعون:{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(3)}. وفي آيات سورة الليل: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)}. وفي سورة القيامة:{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ(4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)}.. الخ، وكل ذلك في سياق كشف واقع الملأ (كشف الطاغوت) من حيث فسادهم وإفسادهم، وامتناعهم عن رحمة الضعاف من الناس، وبيان سبب رفضهم للهداية واتباع الحق فكيف يُتّبعون ويُطاع أمرهم!! ويُترك رسول الله، ودين الله !!.
هذا، وكثيراً ما وصف الله تعالى الملأ الكافرين بأنهم غلاظ القلوب قساتها، ولا يرحمون الضعفاء ويقسون عليهم، بل ولا يحثّون الناس على فعل الخير إليهم كما في الآيات السابقة.

وممن أوصى بعضهم بعضاً بفضيلة الصبر على مكابدة طاعة الله وحمل رسالته، وبفضيلة التراحم بعباد الله ومواساتهم [1].

وهؤلاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وقاموا بأعمال الخير تلك طاعة لله، اي الذين اختاروا أن يكابدوا صعود طريق الخير وسلكوها.. أولئك هم السعداء أصحاب الكرامة عند الله.. الذين يُؤخذ بهم يوم الحساب ذات اليمين إلى الجنة.. فلا مكابدة ولا شقاء بعد ذلك أبداً.

(19-20)، أما الذين كفروا بآيات الله البيّنات، سواء التي في القرآن أم في الأنفس والآفاق - وقد نصبها الله تعالى دليلاً على الحق؛ على نجْد الخير؛ العبودية لله جلّ وعلا - أي الذين أصرّوا على مكابدة صعود نجد الشر وسلوكها.. أولئك هم الأشقياء أهل الإهانة والغضب والعذاب، الذين يُؤخذ بهم يوم الحساب ذات الشمال إلى النار، والتي ستكون عليهم مُطبَقة مُغلَّقة أبوابها، فلا محيد لهم عنها ولا فرج، ولا خروج لهم منها آخر الأبد..

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ [البلد]

فكما كابدوا سلوك نجْد الشر في الدنيا.. فهم أيضاً، سيكابدون العذاب الأليم في النار يوم القيامة..

أوَ بعد كل هذا:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥)﴾ [البلد]؟!!!..

36- (سورة الطارق)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في "الطور الثالث"، في إطار التهيئة للفصل بين الفريقين وإنزال العذاب الأكبر بالكافرين. وذلك لورود بعض خصائص الطور الثالث فيها، ومنها:

إنذار المُصرّين على الكفر بالعذاب: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]،، (يقول: أمهلهم آنًا قليلا غَيْرَ مُسْتَعْجِلٍ لَهُمُ الْعَذَابَ. وأنظرهم للموعد الذي هو وقت حلول النقمة بهم. كَمَا قَالَ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان]) [2]..

فقد استحقت قريش وملؤها العذاب لكنّه آتيهم في موعده المقرر..

---

1 - و « ثم » هنا للتراخي الرُتَبيّ، للدلالة على أن ما بعدها (الإيمان) أصل لقبول ما قبلها (الأعمال الصالحة). وإنما اشترط الإيمان مع فعل أعمال الخير لأن مَن فَعَلها دون أن يكون مؤمنا لم ينتفع بها، ولم يكن له ثواب عليها، إذ لا ينفع مع الكفر بِـرّ، فأعمال البرّ إنما تنفع مع الإيمان، ولا يقوم بها إلا أهل الإيمان.. فالإحسان إلى ضعاف الناس وإتباع الحق، أمران ثقيلان جداً على نفس الكافر المنكر ليوم الحساب، كالذي يتكلف صعود العقبة، لأنه منكوس الفطرة متّبع لهواه، فلا يأتي بخير.. كما بيّن - سبحانه - صعوبة وشدة الإيمان على من لم يرد الدخول فيه، فكرهه. في قوله تعالى: {فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (125)} الأنعام.

2 - أنظر تفسير الطبري، وابن كثير.

((كأنما يقول له ربه: إنك مأذون فيهم. ولكن أمهلهم، أمهلهم رويدا.. فهو الوُد العَطوف، والإيناس اللطيف، يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد، فتنمحي كلها وتذوب.. ويبقى العطف الودود..)) [1].

مناط السورة:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥)﴾ [الطارق]، ما يقوم به الكفر من أعمال وترتيبات (كيد) لصدّ الناس عن العبودية لله جلّ وعلا، كإثارة الشبهات والتلبيس بين الحق والباطل، وإيذاء من يعبد الله تبارك وتعالى ويحمل دعوته [2].

المعالجة:

(1-3)، القَسَم بآيات الله عزّ وجلّ في الكون - تنبيهاً إلى القُدْرة والعلم - على أنه ما من نفس إلا وقد أوكل الله عزّ وجلّ بها مَلَكاً رقيباً يحفظ عليها أعمالها لتُحاسَب عليها يوم القيامة.. ذلك أن الإنسان لم يُخلق عبثاً.. فله مصير عند الله تعالى.. فبالقدرة والعلم يكون الجزاء.

(4-10)، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥)..﴾ [الطارق]، الفاء تفيد الترتيب على ما سبق.. أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ، فلينظر ممَّ خُلِق، ليهتدي بالنظر في آيات الله فيؤمن، فينجو [3]. وخَلْق الإنسان وتقدير خلقه.. أمر عجيب، فيه آية وحجة على منكِر البعث بأن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من خلقه أوّل مرة، فالله الذي خلق الإنسان من هذا الماء البسيط.. وجعله في قرار مكين؛ جنيناً في بطن أمه، ما بين صلبها (ظهرها) و ترائبها (ضلوعها).. ثم يُخرِجه من بينهما إلى الحياة الدنيا، طفلاً.. فالله الذي فعل ذلك، لَقادر على رجع الإنسان إلى الحياة بعد الموت، لأن مَنْ قدِر على البداءة والإنشاء، قادر على الإعادة والإحياء مرة أخرى.. وذلك يوم القيامة، يوم تُكشف خبايا الصدور فتظهر وتبدو، ويصبح السر علانية والمكنون مشهورا.. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾ [الحاقة].. كالذي كان يُخفيه أئمة الكفر ويُسرّونه من علمهم بأن رسالة الله هي الحق، ويُظهرون ويُعلنون الكفر بها.

وأنه لن يكون للإنسان يومئذ من قوة يمتنع بها من دون الله جلّ وعلا، أو يَدفع بها عذابه، لا قوة في ذاته ولا من ناصرٍ خارج ذاته.. ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ [مريم]

---

1 - في ظلال القرآن - سيد قطب.

2 - "الكيد" هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك. أنظر (تبيان سورة الفيل) و (تبيان سور الإخلاص والفلق والناس، وسورة القلم). وأنظر الجزء الثالث (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - المكر والكيد في القرآن.

3 - كما في قوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فلينظر الإنسان إلى طعامه (24)..} عبس، إذ التقدير: إن أراد الإنسان أن يقضي ما أمره الله، فلينظر إلى خلق الله لطعامه.

(11-14)، التأكيد بالقَسَم [1]، على أن القرآن أنزله الله تبارك وتعالى إلى الناس بالحق وأن ما فيه هو الحق، وما هو باللعب.. بل هو قول فصل بَيْنَ الحق والباطل، ومصير الإنسان عند الله عزّ وجلّ سيكون حسب موقفه منه، فهو منهج العبادة الذي يجب أن يُتّبع، وعليه يكون السؤال والحساب.

(15-17)، إن المكذبين بالرسول ﷺ وبالقرآن، رغم أن الحُجّة بلغتهم بيّنة واضحة، يُدبّرون بكل ما أوتوا من قدرة (يكيدون) ليدفعوا الحق ويؤيدوا الباطل، والله تبارك وتعالى يُدبّر (يكيد) لنصرة الحق وإظهاره ولو كره الكافرون، وإنزال العذاب والهلاك القريب بهم وقد أصرّوا على الكفر.

وهكذا، فخطاب السورة (المعالجة) فيه تسلية وتثبيت لرسول الله ﷺ والجماعة المؤمنة معه، من خلال التأكيد على أن "كيد" الكفر سوف يُهزم، ذلك أن كل ما يقومون به، الله يعلمه وتحت سمعه وبصره جلّ وعلا.. فمعركتهم مع الله عزّ وجلّ وليس مع أهل الرسالة وحَمَلتها، فكيد الله جلّ جلاله ضد كيدهم؛ فمن الذي سينتصر؟!!. وكما أن النجم الثاقب - أي المضيء المتوهج - يأتي به الله طارقاً في الليل مبدداً ظلمته ووحشته، كذلك سيأتي الحق والنور من الله ليضيء حياة الناس مزيلاً ظلمة الكفر والشرك. وهذه بشارة لأهل الإيمان بقرب النصر وإعلاء كلمة الله جلّ وعلا، ونذارة للكافرين بالعذاب.
وقد حقّق الله عزّ وجلّ وعده، حيث مكّن للمؤمنين في المدينة المنورة.. وأخذ الكافرين يومَ بدر، يوم الفرقان.. قتلاً وأسراً.. والحمد لله.

37- (سورة القمر)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في "الطور الثالث"، في إطار التهيئة للفصل بين الفريقين وإنزال العذاب الأكبر بالكافرين. وذلك لورود ذكر بعض خصائص "الطور الثالث" فيها، ومنها:

1- الإنذار النهائي للمُصرّين على التكذيب بالحق، حيث شبّه كفار قريش بالمكذبين من الأمم السابقة وقد دخلوا في سنة العذاب مثلهم:

---

1 - (وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ {11} وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ {12}) أي، أُقسم بالسماء ذات المطر المتكرر، وبالأرض ذات الشق عن النبات.. تنبيهاً إلى قدرة الله تعالى على بعث الحياة، ثم بعث الناس يوم القيامة لمحاسبتهم على موقفهم من رسالته لهم. كما في قوله تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن **نُّطْفَةٍ** ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ **وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ** مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ **نُخْرِجُكُمْ** طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {6} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ {7}) الحج.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١)﴾ [القمر]
﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)﴾ [القمر]
﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ القمر [16، 18، 21، 30]
﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ القمر [37، 39]،

وأن العذاب آتيهم في زمانه ومكانه الذي يقدّره الله جلّ وعلا له، وقد أصبح قريباً:
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) ﴾ [القمر]

2- أمَر اللهُ تعالى رسوله بتركهم والإبتعاد عنهم وقد اصبح الكفر موقفاً نهائياً لهم، وهم يكذّبون بالعذاب: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦)﴾ [القمر] [1].. أي، إنهم لن يؤمنوا مهما سمعوا من الآيات.. فاتركهم حتى يأتيهم العذاب.

1- من المهم أن نذكّر هنا أنه في عرف القرآن الكريم: "الإعراض عن" أمر ما،، يختلف عن "التولّي عن" ذلك الأمر. ((فعدم الإستجابة لدعوة الداعي لها مراتب، يُعبّر عنها بالكلمات التالية في الآيات القرآنية ؛ وهي مرتبة تصاعدياً - من الأدنى إلى الأعلى - في درجة (مستوى) شدة الرفض للدعوة: (اللّيّ - الإعراض - النأي بالجانب أو (ثَني العِطْف) - الإدبار - التولّي - العداء - الغيبة والنميمة - مواقف الهزء والسخرية والشتائم - المكر في الخفاء - الكيد - المواجهة بالقتال). وتفسير بعض هذه المستويات ببعض، فيه تسامحٌ ونقصٌ في التدبّر لكلام الله عزّ وجلّ، ولدلالات الكلمات في أوضاعها اللّغوية والإصطلاحية)). أنظر كتاب (قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ) (ص439) - الميداني.
وقد جاء استعمال بعض هذه الكلمات (المصطلحات) في نص واحد إشارة إلى اختلاف مفهومها. ويمكن أيضاً ملاحظة ورودها في سياقات مختلفة في القرآن الكريم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ... فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن **تَلْوُواْ** أَوْ **تُعْرِضُواْ** فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً {135}} النساء. {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ **أَعْرَضَ** وَ **نَأَى بِجَانِبِهِ** وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً {83}} الإسراء. { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ **يَتَوَلَّى** فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم **مُّعْرِضُونَ**{23}} آل عمران. وفي المقابل، أمر الله رسوله باتخاذ مواقف من المشركين المكذّبين، كمعالجات لمواقفهم من الحق الذي بلغهم، حيث أمره بـ: الانتظار، أو الصبر الجميل، أو الهجر الجميل لهم، أو الإعرض عنهم، أو التولّي عنهم.. هذا، وحقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه. مشتق من العُرض - بضم العين - وهو الجانب، أي أن يُظهر جانبه لغيره، ولم يُظهر له وجهه.. ثم استعمل استعمالا شائعا في الترك (عدم الإهتمام)، والإمساك عن المخالطة والمحادثة.
بينما "التولّي عن" هو أن يجعل ظهره أو وراءه أو دبره جهة الشيء الذي يتولّى عنه، أي يذهب عنه و يبتعد وقد جعل وجهه للجهة المقابلة (ولّى مدبرا). فـ "التولّي" درجة تأتي بعد "الإعراض"، ففيها معنى الانفصال والبعد، وتحول الذات عن مكانها. وكما يُفهم من ظاهر استعمال لفظة (**تولّى أو تولّوا**) في أغلب ورودها في الآيات القرآنية حيث ترد بمعنى: انصرف الشخص على الحال التي هو عليها - حسب السياق - ولم يرجع. يعني أنه موقف نهائي. كما في قوله تعالى: (هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي => سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن **تَتَوَلَّوْا** يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {38}) محمّد.
(.. وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ **تَوَلَّواْ** وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ {92}) التوبة.(.. فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن **تَوَلَّوْاْ**

مناط السورة :

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)﴾ [القمر]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر]، استمرار تكذيب المجتمع ومَلَئه اتّباعاً لأهوائهم، وهم معرضون عن **الآيات** الكثيرة المتواترة، في القرآن والآفاق - ومنها سنة الله تعالى في إهلاك الكافرين في الدنيا وعذابهم في الآخرة - الدالّة على أن الرسول صادق وأن الرسالة حق من ربّ العالمين (1).

فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً {89}) النساء. (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا **وَلاَّهُمْ عَن** قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا.. {142}) البقرة. انظر تبيان سورة العلق. وأنظر (الإعراض عن، والتولّي عن، في القرآن الكريم) - مفاهيم ومصطلحات رسالية (الجزء الثالث).

1 - (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ {1} وَإِن يَرَوْا **آيَةً** يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ {2})، ((إن وقوع كلمة آية - وهي نكرة - في سياق الشرط يفيد العموم. وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم)) (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

هذا، ونحن نقول بثبوت آية انشقاق القمر، لدلالة النص القرآني وللروايات الثابتة. ونتوقف في تعليلها الذي ذكَرَته بعض الروايات أنها جاءت في سياق التحدّي للمشركين لإثبات نبوة محمد ﷺ، وذلك:

- ✓ من المعلوم أن القرآن هو الآية المادية (المعجزة) الوحيدة التي كان بها التحدي لعموم قريش، بل ولعموم البشرية، بأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وفي سبيل إثبات نبوة محمد ﷺ. أما سائر الآيات المادية (المعجزات) التي ثبتت لرسول الله وحصلت معه - ومن أكبرها الإسراء والمعراج - فكانت إكراما من الله لعبده ورسوله، وتثبيتاً لقلبه ومن معه من المؤمنين.. لا على سبيل التحدي بناء على طلب المشركين..
- ✓ من سنة الله تعالى في الآيات المادية أنه إذا طلبها الكافرون دليلاً على صدق الرسول، وكذّبوا بها، أهلكهم الله لا محالة. لذلك لم يرسل الله تعالى رسوله الخاتم محمد بآيات من نوع الآيات التي جاءت مع الرسل قبله بناء على طلب الكافرين، كما بيّنه قوله تعالى:{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59)} الإسراء. فحكمة الله اقتضت منع تحقيق الآيات المادية التي كانوا يطلبونها، لِما كان من تكذيب الأولين بها حتى لا يُهلك القرى. لهذا في كل مناسبة طلب المشركون آية من رسول الله على سبيل التحدي واثبات صدقه، كان الرد القرآني يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشراً رسولاً.. وكان يردّهم إلى القرآن نفسه يتحداهم به بوصفه الآية المادية (المعجزة) الوحيدة لهذا الدين: {قُلْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً. وَقالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ- كَما زَعَمْتَ- عَلَيْنا كِسَفاً، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ. قُلْ: سُبْحانَ رَبِّي! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا؟}[الإسراء\88-93]
ومن هنا، كان اتجاه هذه الرسالة الأخيرة هو مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده وما فيه من إعجاز=>
ظاهر ثم توجيه هذا القلب - عن طريق القرآن - إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق، وفي أحداث التاريخ سواء.
- ✓ هذا، والرواية التي تقول: إن المشركين سألوا نبي الله آية، فانشق القمر.. تتعارض مع ما بيّناه في ما سبق، مما هو ثابت بالقطع من سنة الله في الرسالة الخاتمة والرسول الخاتم في ما يتعلّق بمنع الآيات

المعالجة :

السورة متميزة بأسلوبها، ويعتبر " التميّز بالأسلوب" من خصائص السوَر التي تعالج الطور الثالث إجمالاً وخاصة قبيل نزول العذاب، حيث المفاهيم هي نفسها.. "خطاب النذارة".. إلا أن أسلوب عرضها يأتي قوياً مؤثراً جداً، وكأنها تُسمع لأول مرة (تصريف الآيات)..
﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ [القمر] [1] :

1- التأكيد في مختلف مناسبات السورة وفقراتها، على أن القرآن الكريم فيه الكفاية والدلالة الواضحة والحجة القاطعة على الحق، لمن أراد الهداية، وقد يسّره الله تعالى للعظة والإعتبار: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾ القمر[17، 22، 32، 40].

2- (3-5)، كشف حقيقة موقف المكذبين من الملأ ومن تبعهم، ببيان أن الدافع للتكذيب هو اتباع الهوى لا عدم وجود الأدلة الواضحة: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ..(٣)﴾ [القمر] [2]، لذلك فإن السؤال عن أدلة وآيات غير القرآن الكريم وآياته، إنما هي محاولة لصرف حَمَلة الرسالة عن الاستمرار في طرح الحق (خطاب النذارة) في المجتمع.. ولصرف عامة الناس عن سماع آيات الرسالة حتى لا يتأثرون بها فيتبعون الرسول.

وتقريع المكذبين على عدم ارعوائهم، بينما جاءهم القرآن بالحكمة البالغة المقنعة لمن يريد أن يقتنع وينجو من المصير الرهيب.. وبأنباء الأولين ومصائر المكذبين، ما فيه العبرة التي تحمل

المادية. مع العلم أن روايات أخرى ثابتة ليس فيها إشارة إلى أن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين على سبيل التحدي.

✓ ومن ثَم، نثبت آية انشقاق القمر.. ونتوقف في تعليلها الذي ذكرته بعض الروايات. ونكتفي بإشارة القرآن إليها مع الإشارة إلى اقتراب الساعة. باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب.. فانشقاق القمر إذاً كان آية كونية يوجه القرآنُ القلوبَ والأنظار إليها، كما يوجهها دائما إلى الآيات الكونية الأخرى ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى. أنظر في ما سبق، تفاسير: ابن كثير، الألوسي، الشوكاني، القاسمي، ابن عاشور، سيد قطب، رحمهم الله.

✓ وعلى العموم، آية شق القمر هي آية مادية حصلت، فهي حجة على من رآها فقط، كما هي طبيعة الآيات المادية (المعجزات). فهي بالنسبة للمؤمنين الآن خبر يصدّقون به بالغيب، ولا حجة فيها على الكافرين، إلا في حالة توفّر الآن دليل حسي على القمر نفسه، كأن يوجد لذلك الإنقسام أثر على سطح القمر، عندها تعود لتلك الآية حجيتها لثبوت أثرها. مع التأكيد على أن القرآن الكريم هو آية الله الخالدة وحجته القاطعة على كل الناس في كل العصور، والحمد لله.

1- انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول".

2- ((وعطْف "اتبعوا أهواءهم" عطف العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه. وجمع الأهواء دون أن يقول: واتبعوا الهوى كما قال: {إن يتبعون إلا الظن} [الأنعام:116]، حيث إن الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أن لهم أصنافا متعددة من الأهواء: من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حب اتباع ملة آبائهم، ومن محبة أصنامهم، وإلف لعوائدهم، وحفاظ على أنفتهم)). (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

على الازدجار والارعواء.. فإن هم لم يزدجروا بتلك الحكمة؛ بأدلتها وبيّناتها.. فلن يزدجروا بالإنذار والتخويف.. لأنه بالنسبة لهم، مجرّد خبر [1].

3– (6-8)، بيان أنهم لن يؤمنوا بالحق مهما سمعوا من الآيات.. وتكليف رسول الله بتركهم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) ﴾ [القمر].. فقد اقترب عذاب يوم القيامة، الذي سيكون يوماً عسيراً عليهم.. وأنهم سيواجهون - قبل ذلك - عذاب الله لهم في الدنيا، كما بيّن ذلك في المجموعة التالية من الآيات.

4– (9-42)، حيث ضرب لهم أمثلة - بشكل موجز ومكثّف - على سُنّة الله تعالى في الأمم المصرّة على التكذيب بالنُّذر - مثلهم - وقد وقع عليهم عذاب الله جلّ وعلا.. كقوم نوح، عاد، ثمود، قوم لوط، وفرعون.. الذين كذّبوا بما أنذرهم به رسلهم من العذاب والخزي في الدنيا والآخرة.. وكان التعقيب على كل مَثَل، بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر]،، للتأكيد على الحقيقتين البارزتين في معالجة السورة لمناطها، وهما:

- ✓ أن سُنّة الله تعالى في تعذيب المكذّبين بالنُّذر.. مستمرة، وستطول المكذّبين في كل زمان ومكان.. وقريش منهم.
- ✓ أن النجاة لا تكون إلا بالعودة إلى القرآن والاعتبار بما فيه من البيّنات الدالّة على الحكمة والهُدى.

5– (43-53)، إعادة تحذيرهم وإنذارهم مرة تلو المرة.. بأسلوب مؤثر وقوي - أسلوب السورة - بمصيرهم في الدنيا بالتأكيد على سنة الله في عذاب المكذبين، وأنها واحدة لا تتبدل ولا تتغير (43-45)، وأنها ستطولهم حتماً، ولن يفلتوا من عذاب الله عزّ وجلّ، وذلك:

- ✓ أنهم ليسوا بأفضل مِمَّنْ سبقوهم بالكفر.. فملة الكفر واحدة وسنة الله تعالى لا تتغيّر..
- ✓ وليس لديهم عهد من الله تعالى أن لا يعذّبهم..
- ✓ وقوتهم وجمعهم لن يُغنيان عنهم من الله شيئاً.. (إشارة إلى ما فتح الله عليهم من الدنيا)
- ✓ أنّهم تحت رقابة الله عزّ وجلّ وعلمه وهيمنته، وكل أعمالهم مَحْصيّة عليهم.. فسَيُحاسبهم عليها.. فبالعلم والقدرة يكون الجزاء..
- ✓ وقد أهلك الله تعالى مِن قبلهم الأمم السابقة الشبيه بهم، وهي التي جعلت موقف التكذيب بالحق البيّن موقفاً أخيراً لها..

---

1 - مثل قوله تعالى في سورة يونس: (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ{101} فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{102} ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ{103}).. وهذا يشير إلى " تقارب أجواء السورتين ".

✓ وكذلك إنذارهم بمصيرهم عند الله جلّ وعلا في اليوم الآخر، والذي هو أعظم بلية وأشدّ مرارة من عذاب الدنيا.

6– بالنسبة لحَمَلة الرسالة؛ طمأنتهم وتثبيتهم في مواجهة هذا الإصرار على التكذيب، حيث:

✓ إضافة لما سلف من بيان سُنّة الله، والجزاء للمكذبين.. طمأنتهم وتبشيرهم بمصيرهم عند الله تعالى؛ بجنة ونَـهَـر في مكانةٍ عُليا عند مليك مقتدر تبارك وتعالى (54-55)..

✓ أَمَرهم بأنْ يستمرّوا في سيرهم ويتركوا أمر الكافرين إلى الله عزّ وجلّ، فمن لم يُرِد الهداية منهم فليتركوه ولا يعودوا إليه مرة خرى، فعذاب يوم القيامة آتيهم: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) ﴾ [القمر].. وقد قرُب - أيضاً - نزول عذاب الدنيا بهم (23-53).

✓ توجيه المؤمنين لجعل القرآن الكريم هو مادة الخطاب دائماً؛ تذكيراً و إنذاراً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ القمر [17، 22، 32، 40].

38- (سورة ص)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في "الطور الثالث"، حيث ورد ذكر بعض خصائصه في السورة، وأحداث وقعت فيه، ومنها:

✓ نزول الآيات (4-8) في مرض موت أبو طالب [1]، وكان بُعيد انتهاء الحصار والمقاطعة في الشِّعب في السنة العاشرة للبعثة، وبعد السنين والدخان (العذاب الأدنى)، أي في نهاية الطور الثاني.

---

1 - كما عند الإمام أحمد: ((لمّا مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبو جهل فقالوا: يا أبا طالب ابن أخيك يشتم آلهتنا يقول ويقول ويفعل ويفعل فأرسل إليه فانهه. قال: فأرسل إليه أبو طالب وكان قرب أبي طالب موضع رجل فخشي إن دخل النبي ﷺ على عمه أن يكون أرقّ له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس فلما دخل النبي ﷺ لم يجد مجلسا إلا عند الباب فجلس فقال أبو طالب: يا ابن أخي إن قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل فقال: (يا عم إني إنما أريدهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية) قالوا: وما هي ؟ نعم، وأبيك عشراً، قال: => (لا إله إلا الله) قال: فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون: { أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} قال: ثم قرأ حتى بلغ { لمّا يذوقوا عذاب})). أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. فهذا نص في أن نزولها في آخر حياة أبي طالب وهذا المرض مرض موته، كما في ابن عطية. فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة ثلاث قبل الهجرة. أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. وقول رسول الله لهم: (تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية) يشبه قوله تعالى في وصف القرآن: (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ **ذِكْرُكُمْ** أَفَلَا تَعْقِلُونَ{10}) الأنبياء. (وَإِنَّهُ **لَذِكْرٌ** لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ{44}) الزخرف.. (ص وَالْقُرْآنِ ذِي **الذِّكْرِ** (1)) ص، ((ووصف بـ ذي الذكر لأن ذي تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجري على مُـتّـصف مقصود التنويه به. والذكر: التذكير، أي تذكير الناس بما هم عنه غافلون...

✓ دخول قريش في حالة التحزّب وجمع القوة (الجند)، في إشارة إلى إجتماعهم وتحالفهم (تقاسمهم) على مواجهة دعوة الله، والذي تجلّى في حصار المؤمنين في الشِّعب ومقاطعتهم.

✓ وصف قريش بالكافرين بشكل صريح ومباشر، وبالمفسدين، والفجّار.. وهذا نتيجة تطور مواقفهم في الزيادة في الكفر.. ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ [ص]، فإطلاق وصف **الفجور** على الكفار يأتي في طور متأخّر، لتماديهم واستمرارهم على معاصيهم [1].

✓ الإشارة إلى "العذاب الأكبر" في الدنيا، في أكثر من موضع في السورة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص]، أي (ولتعلمن - أيها المشركون- خبر هذا القرآن وصدقه، حين يَغْلب الإسلام، ويدخل الناس فيه أفواجًا، وكذلك حين يقع عليكم العذاب، وتنقطع عنكم الأسباب).

✓ اقتراب الفصل بين الفريقين - حسب سُنن الله في المكذّبين - بإنزال العذاب بقريش ونصر المؤمنين.. بإمارة استعجالهم العذاب في الدنيا إستهزاءً: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) ﴾ [ص]، ويكون هذا بعد إنذارهم بالعذاب في بداية "الطور الثالث".. كما في سورة الشعراء وغيرها..

أو { فيه ذكركم} [الأنبياء: 10] أي شرفكم)) أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. نقول: والمعنيان متلازمان لا ينفصلان البتة، فبتذكّرهم بالقرآن وأخذهم له بقوة، يحصل لهم الشرف والرفعة، في الدنيا والآخرة.. كما قال لهم رسول الله ﷺ.

1 - ((فَجَرَ: أصل واحد هو انشقاق مع ظهور الشيء. ومن مصاديقه: انشقاق الظلمة وطلوع نور وضياء. وانشقاق في الجبل ونُبوع الماء. وانشقاق حالة الإعتدال وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً. وانشقاق حالة الإمساك بظهور الكرم)). أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) - حسن المصطفوي. و(معجم المقاييس) - ابن فارس. نقول: فالفجور ليس مطلق معصية بل هو خروجها بعد هتك الستر عنها. وظهورها بعد أن كانت بالخفاء، وهذا فيه قدر من التحدّي. وأيضاً، أن يَرِد الفجور في مقابل التقوى، التي هي أن تجعل وقاية وستر بينك وبين غضب الله، وهي فعل إرادي وعن وعي.. يعني أن الفجور هو إظهار للمعصية عن إرادة وقصد وفيه تحدي لله عزّ وجلّ.. ومن هنا كان استعجالهم لعذاب الله: (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ {16}) ص. وأساس فجورهم واستعجالهم هو التكذيب بوعيد الله جلّ وعلا، والذي أصله اتباع الهوى. هذا، وقد جاءت سور عديدة تعالج موقف التكذيب: بأن ما يوعدون لواقع.. وأنه لصادق.. وويل للمكذبين.. وكيف كان عذابي ونُذر.. إلخ.

ووَصْف الإنسان الكافر بالفجور، ورد في عدة آيات من سور مختلفة غير سورة ص، و يُعد هذا إشارة إلى تقارب أجواء تلك السور. والآيات هي:

{ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } عبس 42

{ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } الانفطار 14

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ } المطففين 7

{ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً } نوح 27

{ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } القيامة 5. (أنظر تبيان سورة القيامة)

{ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس 8.

✓ ورود اسمَي الله تبارك وتعالى **{الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}** في سياق النذارة والبشارة، الترهيب والترغيب.. لدفع عباد الله المذنبين للجوء إلى رحمة الله الغفّار فراراً من عذاب الله العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا **مُنْذِرٌ** وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا **الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** (٦٦)﴾ [ص]،
ويأتي هذا حين دُنـوّ نزول العذاب الأكبر بالكافرين لإعطائهم فرصة أخيرة قبل نزول العذاب بهم ليدمّرهم.. كما في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) ﴾ [طه]،

هذا، وفي نفس السياق - النذارة والبشارة - ورد الاسمان الأحسنان نفسُهما (العزيز الغفار) أيضاً في سوَرتي الزمر وغافر.. وكذلك أتى اسمان آخران لله عزّ و جلّ، قُرِنا معاً لنفس الغرض هما: (العزيز الرحيم) وقد وردا في سوَر: الروم، السجدة، يس، الدّخَان، وسورة الشعراء وقد تكررا فيها تسع مرات.. وأيضاً، ورد (العزيز الغفور) في سورة المُلك.. والسوَر السابقة من السوَر المكية المتعلقة إما بنهاية الطور الثاني أو بالثالث [1].

✓ إن الإشارة إلى بعض الأنبياء والرسل - عليهم السلام - وذكر قصص بعضهم بشكل مجمل ومكثّف، تذكيراً بما سبق ذكره مُفصّلا عنهم في سور أخرى، يشير إلى تأخر نزول السورة [2].

مناط السورة :

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾ [ص] [3]،
﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾ [ص]
﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص] [4].

---

1 - أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول. وانظر (تبيان سورة البروج) في هذا الجزء.

2 - انظر (السمات العامة للسور في المرحلة الأولى) - "الجزء الأول".

3 - أَصل الشِّقاق: إظهار المخالفة على وجه المساواة للمُخالِف، أو على وجه الفضيلة عليه، وهو مأخوذ من الشِّق أَي: كأَنه في شِق غير شِق صاحبه، فهو يترفَّع عليه بأَن يكون معه في شِق واحد، ومثله المعاداة، وهو أَن يكون أَحدهما في عُدْوَة والآخر في عُدْوَة. أنظر (المفردات - الراغب). والتعبير بـ (فِي) في قوله تعالى: {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} للدلالة على استغراقهم فيهما، كما يحيط الظرف بالمظروف. والتنكير في (عزة وشقاق) لشدتهما. نقول: "في شقاق" تعني أن الكافرين تجمعوا كفريق (حزب) واحد في شق، مخالفين للمؤمنين، متبعين للباطل. وفي الشق الآخر أو الجهة المقابلة الفريق الآخر؛ رسول الله والذين آمنوا معه، المتبعين للحق. فالحق وأهله هم الأصل الثابت، وإن كانوا هم القلة، والباطل وأهله هم الخارجون المخالفون المنشقون، وإن كانوا هم الكثرة.

4 - {(جند ما هنالك) أي جند حقير في تكذيبهم لك (مهزوم) صفة جند (من الأحزاب) صفة جند أيضا كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك واولئك قد قُهروا وأُهلكوا فكذلك نُهلك هؤلاء} (تفسير الجلالين). حقيقة الجند: هو التجمّع بقصد النصرة والتقوية. وهذا يقتضي القوة والغلظة. والجَنَد:

حالة استكبار الملأ عن اتباع الحق (عِــزة)، ومخالفتهم ومنازعتهم (شقاق) لأهل الحق الذين لا يتفقون معهم في ما هم عليه من عبادة للأصنام، وعادات باطلة.. فأخذوا بجمع الناس وحشدهم خلفهم (الأحزاب)، وحَثّهم على الاستمرار في التكذيب والبقاء على دينهم ونظام حياتهم (العبودية لطاغوتهم) والصبر على ذلك. وعلى هذا الأساس أخذوا بإثارة الشبهات إستهزاءً بالحق وأهله لصرف الناس عنهم.

المعالجة :

1- (1-3)، كشف واقع الملأ وبيان حقيقة الدافع لتكذيبهم، وذلك: بالتأكيد بأسلوب القسم على أَن القرآن حقٌّ، وفيه الهداية للخير والشرف والرفعة لمن أخذ به [1] . وليس كما يدّعي الكفار.. بل هم في موقف تكبّر وأنفة عن اتباع الحق ومخالفة ومنازعة لأهله.. وما ذلك إلا لاتّباعهم أهوائهم ورفضهم الحجج الدالة على الحق، وأن رسول الله ﷺ حق. أي تقرير أن الدافع الوحيد لرفضهم للحق، هو إرادتهم المخالفة والمشاقّة لرسول الله.. فكل ما يأتي به رسول الله مرفوض مردود بالنسبة لهم.. برغم أن ما جاء به رسول الله فيه هدايتهم للخير وشرفهم وعزهم. ثم، إنذارهم - إن لم يتركوا المشاقّة (المخالفة) ويعودوا إلى الحق وأهله - بعذاب الله في الدنيا كما حصل مع الأمم السابقة، حسب سنة الله في الأمم المكذّبة. فعليهم أن يتداركوا أنفسم فيتوبوا ويدخلوا في صف المؤمنين قبل نزول العذاب بهم، لأنه إذا نزل بهم فاتتهم فرصة أن يقبل الله تعالى توبتهم، فلا ينفعهم حينئذ إيمانهم، فيكون مصيرهم كمصير المكذبين السابقين؛ الدمار والهلاك [2].

الأرض الغليظة التي فيها حجارة. ويقال للعسكر الجُنْد باعتبار التجمّع والغلظة. ويقال هم جُنده، أي أعوانه ونُصّاره.

1 - (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ{1}): جواب القسم محذوف يدل عليه ما بعده ؛ الإضراب الذي في الآية الثانية. والمعنى: وحق القرآن ذي الشرف العظيم، وذي التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم..إنه لحق يجب الإيمان به وأخذه بقوة، (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ{2}) لكن الكافرين لم يؤمنوا به، لا لخَلَل وجدوه فيه، بل لأنَّهم في استكبار شديد عن أتباع الحق، ومخالفة لله ومنازعة لرسوله، ولذلك كفروا به. فحرْف (بل) حرف إضراب وهو هنا، بمنزلة حرف الإستدراك، والمقصود منه تحقيق أن في القرآن الهداية والشرف لمن آمن به، وإزالة الشبهة التي قد تعرض في ذلك. ومثله قوله تعالى: {ق والقرآن المجيد، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم} ق. أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

2 - {فَنادَوْا، وَلاتَ حِينَ مَناصٍ}، أي جأروا إلى الله لينجيهم في وقت أو ظرف ليس فيه مهرب ولا خلاص. كما في قوله تعالى: { حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ. لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ } [المؤمنون \ 64- 65]. وقوله تعالى:{ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا، سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[غافر \84-85]. كما حصل مع فرعون: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{90}آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{91} فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ{92}) يونس.

2- (4-10)، حكايةٌ لأباطيلِ الملأ المتفرعةِ عَلى ما حُكي من استكبارِهم وشقاقِهم؛ فهم لفقدانهم الحجة والبيّـنة على باطلهم، وإفحامهم ببيّـنات الحق وصدق رسول الله.. فلا يستطيعون مقارعة الحجة بالحجة.. لجأوا إلى أساليب التهويل والإثارة النفسية من التعجّب والإنكار والتحذير والتخويف، ورد الأمور إلى اعتبارات غيبية غير مفهومة، كالقول: بأن ما يصيبنا من دعوة محمّد، لِشَيء من نوائب الدهر يُراد بنا، فلا حيلة معه إلا الصبر والمثابرة عليه حتى يزول.. كل ذلك ليُحافظوا على انقياد عامة الناس لهم، وليَحُولوا بينهم وبين اتّباع رسول الله وما جاء به من الحق:
﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾ [ص]
فكشف الله تعالى دوافعهم الحقيقية لكونهم في "عزة وشقاق": بأنه التشكيك في البيّـنات اتباعاً للهوى.. فلن يؤمنوا - إذاً - حتى يعاينوا عذاب الله تعالى ويذوقوه [1].
ثم، وفي سياق الإنكار عليهم، يقرر الله تبارك وتعالى لهم حقيقة أن اختيار مَن يستحق النبوّة إنما هو من شأن الله وحده؛ فهو الذي له مُلك السموات والأرض وما بينهما، والذي يتصرّف في ملكه كيف يشاء، فهو **العزيز**؛ أي القوي المنيع الذي لا يُقهر. **الوهّاب**؛ الذي يَهَب ما يشاء لمَنْ يريد، وكما يشاء هو وحده عزّ وجلّ، ولا معقّب لحكمه.. كما وهب الأنبياء من قبل؛ داود وسليمان وأيوب.. وغيرهم.. فالرسالة من شأن الله رب العالمين، وهو يختار مَنْ يشاء من عباده رسولاً ليبلغ رسالته: ﴿..اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ..(١٢٤) ﴾ [الأنعام: 124] [2]..

---

1 - وهذا الوصف لقريش: بأنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، تناوله الله تعالى في سورة يونس بشكل مفصّل في الآيات (88- 98) وضرب الله تعالى لهم مثلاً بفرعون، ومثلاً آخراً مقابلاً له في قوم يونس عليه السلام. وهذا يّعد من القرائن على تقارب أجواء السورتين.

2 - قوله تعالى: (وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ{4}) ص. تناول القرآن الكريم في سور أخرى هذه الشبهة والردّ عليها، كما في قوله تعالى:

- (وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ{30} وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{31} أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{32}) الزخرف.
- (فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ{24} أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ{25} سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ{26}) القمر.. (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ{42}أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ{43} أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ{44} سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ{45} بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ{46}) القمر
- (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ{1} بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ {2}) ق
- (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ {2}) يونس
- (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{63}) الأعراف (قوم نوح)
- (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{69}) الأعراف (عاد قوم هود).

فإذا أراد الملأ من قريش أن يختاروا واحداً منهم للنبوّة، فعليهم بداية أن يملكوا السموات والأرض!!.. ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فإن زعموا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)﴾ [ص]، الموصلة إلى السماء وَلْيَمْنَعُوا الْمَلَائِكَةَ مِنْ إِنْزَالِ الْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ، ويخصّوا به من شاؤوا.

3– (11-16)، وبعد ذلك، إنذار الملأ المكذّبين وأتباعهم - مرة أخرى - بالعذاب والهزيمة المُرّة، كما هي سنّة الله تعالى في إهلاك الأمم (القرى) الْمَوْصُوفَة بِالْقُوَّةِ وَالْكَثْرَةِ، والتي كذّبت رسله والحق الذي جاؤا به، وقد تجمّعت (الأحزاب) وجمعت قوتها (الجند) في عداء رسل الله وتعذيبهم وإيذائهم.. ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) ﴾ [ص]، وأن قريشاً قد تحزّبوا أيضاً ضد رسول الله (إشارة إلى تحالفهم على حصار بني هاشم والمؤمنين في الشِّعب) فدخلوا في تلك السُنّة، وأن عقابهم سيكون شديداً مدمراً، وفي ضربة واحدة فقط .. {مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ} .. وقد تحقق ذلك في غزوة بدر.

هذا، وبرغم مما سبق، فقد أصرّوا على تكذيبهم، وقالوا بكل استهزاء وفجور: ربّنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب في الدينا قبل يوم القيامة.

4– (17-48)، وفي سياق معالجة أثر موقف قريش - التكذيب والأذى والتضييق.. (عزة وشقاق) - على رسول الله والمؤمنين معه، أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يصبروا ويعتبروا بمن سبقهم من أهل الإيمان وعباد الله الصالحين الأخيار، فجاءت هذه المجموعة من الآيات على شكل قَصص مع التعقيب عليها، فيها بيان لسنة الله لأخذ العبرة: تذكيراً ونذارة للكافرين، وبشرى وتثبيتاً للمؤمنين.. أما الجانب المتعلق بالمؤمنين سنؤجله للفقرة المخصَّصة له.
وتتلخص الذكرى للكافرين - المُتضمَّنة في القَصَص:

✓ بدعوتهم ليعودوا إلى الله ويُسْلموا له تبارك وتعالى ويتّـبعوا رسوله، وأن يتراجعوا عن موقفهم - العزّة بالإثم والشقاق للحق وأهله - وحينها سيعطيهم ربهم، العزيز الوهّاب، أكثر مما عندهم، فقد أعطى عباده داود وسليمان وأيوب.. عليهم السلام.. عندما استغفروا وأنابوا إلى الله عزّ وجلّ - على النقيض من "عزة وشقاق" - أضعاف ما كان عندهم، فهذا هو موقف عِباد الله الأخيار المُخلَصين.. فليكونوا مثلهم، ففي مواقفهم عبرة وعظة لأولي الألباب.. وهذا فيه تأكيد لدعوتهم لِأَن يأخذوا القرآن بقوة، ففيه ذِكْرُهم، أي: هدايتهم للحق، وشرفهم وعزّهم.

✓ وفي الآيات (27–29)، في التعقيب على قصة داود عليه السلام، يأتي تقرير حقيقة أن الله جلّ وعلا قد خلق السموات والأرض بالحق، فلا بد من الحساب والجزاء للمحسنين وللمسيئين على السواء، لأن الله تعالى – كما هو مُستقِر في نفوس ذوي الألباب والبصيرة والفِطَر السليمة – لا يمكن أن يُساوي في الجزاء بين الصالح والطالح، أو المحسن والمسيئ، أو المتقين والفجّار..

وهذا فيه تعريض بمشركي قريش، وردّ على تكذيبهم بيوم الحساب.

5– (55-64)، إنذار الكفّار المكذبين - أتباعاً ومتبوعين - بمصيرهم عند الله عزّ وجلّ يوم القيامة إنْ استمروا بالطغيان، فالجميع مسؤولون عن مواقفهم من الرسالة، ومصيرهم نفسه. فعلى الأتباع عدم طاعة سادتهم (الملأ) في حشدهم ضد الحق وأهله، لأنهم سيواجهون نفس مصيرهم [1]..

6– (65-68)، تلخيص وإجمال لخطاب رسول الله لهم، وإبراز لأهمية وخطورة الرسالة التي جاء بها من الله جلّ وعلا: قُلْ يا محمّد لمشركي مكة: ما أنا إلا رسول الله وأنذركم عذابه، وأقول لكم: إنّ الدين الحق هو الطاعة والعبوديّة لله وحده، فلا إله إلا الله الْواحِدُ بلا ندّ ولا شريك، الْقَهَّارُ لكل شيء، وهو الْعَزِيزُ الذي لا يُغلب حين عاقب العصاة، وأيضاً هو الْغَفَّارُ لذنوب من التجأ إليه.. فأنا أنذركم عقوبة الله الذي هذه أسماؤه، فهو الحقيق بأن يُخاف عقابه والحقيق بأن يُرجى ثوابه..
وهذا الذي جئتكم به من الرسالة والنذارة من الله تعالى، أمر شديد الأهمية والنفع لكم، وعظيم الخطورة عليكم؛ فهو نبأ عظيم.. **(ذِي الذِّكْرِ)**، لا يُعرِض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة..

7– (69-85)، ثم عزز ذلك بذكر بعض الأنباء عن الملأ الأعلى والمتعلقة بعصيان إبليس لأمر الله تعالى، وعدائه لآدم وجميع ذريته، وإرادته إغواءهم..
ففي ذكرها حجة ودليل على صحة نبوّة محمّد ﷺ ؛ ذلك أنّ ما يُنبّئ به عن الملأ الأعلى واختصامهم، أمر ما كان لبَشَر العلم به إلا بالوحي من الله.. فـ محمّد رسول الله، وهو صادق في ما يبلّغ عن الله تعالى، ولا يفرّط في بلاغ ما يُوحَى إليه.

وأيضاً، في ذكر قصة عداوة إبليس لآدم وذريته:

- ✓ تحذيرٌ لقريش - ولجميع ذرية آدم - من اتّباع إبليس فهو عدوهم اللّدود وعدو أبيهم من قبل، وهدفه إغواءهم ليتركوا صراط الله المستقيم فيضلوا ويَشْقوا في الدنيا، ويكون مصيرهم النار في الآخرة.
- ✓ و إنذارٌ لقريش لئلا يكونوا مثل إبليس في تعاليه عن طاعة أمر الله تعالى وتكبّره عن العبودية له جلّ وعلا لأنهم سيلاقون نفس مصيره؛ اللعن والطرد من رحمة الله تبارك وتعالى. حيث عصى إبليس أمر الله عزّ وجلّ بتكريم آدم - عليه السلام - بالسجود له، تكبّراً وتعالياً (عزة)، ومخالفة ومنازعة (شقاق) لـ آدم بدافع الحسد له، كيف يُكرّمه الله عليه..

---

1 - وقد يكون في الآية إشارة إلى تجاذب الرأي والمواقف بين القيادات (الملأ) أنفسهم، وليس بين الأتباع والمتبوعين، فمن اتخذ منهم موقف (عزة وشقاق) ومن وافقه سيكون مصيرهم واحد. وذلك، كما حصل عند اختلاف الملأ في غزوة بدر، في موقفهم من المسلمين: قتالهم أم العودة إلى مكة وقد نجت قافلة أبي سفيان. ولما رجح رأي من يريد القتال - رأسهم أبوجهل - جاءهم العذاب (القتل) جميعهم، المؤيدين والمعارضين - ورأسهم عتبة بن ربيعة - من الملأ.. بل إن الذين كانوا معارضين - ثم وافقوا - كانوا هم أول القتلى.. عتبة وأخيه وابنه.

فناصبه العداء هو وذريته.. تماماً كما هو موقف قريش من رسول الله (عزة وشقاق) حسداً له كيف يكرّمه الله عليهم بالنبوة، فناصبوه العداء.

ولم يكتف إبليس بذلك بل تمادى في تكبّره وتعاليه، فرفض - نهائياً - التوبة إلى الله تبارك وتعالى والعبودية له، فقطع على نفسه خط الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وضيّع على نفسه فرصة التوبة - { وَلاتَ حِينَ مَناصٍ } - نتيجة موقفه ذاك.. فكان جزاؤه اللعن والطرد أبداً من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة.. وهم سيواجهون نفس المصير إن بقوا مصرّين على موقفهم (عزة وشقاق)..

وقد واجه الملأ الذين كفروا من قريش - فعلاً - نفس المصير يوم بدر، يوم الفرقان.. يوم "البطشة الكبرى".. حيث بقوا مصرين على موقفهم (عزة وشقاق).

8- (86-88)، قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك، كإنذار نهائي لهم - مرة بعد مرة، حرصاً على هدايتهم وعدم تعرضهم لغضب الله وعذابه - قل لهم: "لا أطلب منكم أجرًا أو جزاءً على دعوتي لكم وهدايتكم، ولا أدَّعي أمرًا ليس لي، بل أتبع ما يوحى إليَّ فقط، ولا أتكلف تخرُّصًا وافتراءً.. وما هذا القرآن إلا تذكير للعالمين بما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم.. ولتعلمُنّ - أيها المشركون - خبر هذا القرآن وصدقه، حين يُظهر الله دينه، ويوقع بكم العذاب وتنقطع عنكم الأسباب".. وقد علموا ذلك في غزوة بدر، ولكن، بعد فوات الأوان.. { وَلاتَ حِينَ مَناصٍ }.

<u>بالنسبة **لحَمَلة الرسالة:**</u>

<u>إضافة لما سبق</u>؛ وفي سياق معالجة أثر موقف قريش - التكذيب والأذى والمنازعة والاستضعاف.. (عزة وشقاق) - على رسول الله والمؤمنين معه.. ورد ذِكْر ما يلي:

1. ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص]، (وعد الله تعالى نبيّه ﷺ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: "جُنْدٌ مَا هُنالِكَ" "مَا" صِلَةٌ وَتَقْدِيرُهُ هُمْ جُنْدٌ، فَـ "جُنْدٌ" خَبَرُ ابتدا مَحْذُوفٍ. "مَهْزُومٌ" أَيْ مَقْمُوعٌ ذَلِيلٌ قَدِ انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا هذا لنا. ويقال: هُزمت الْقِرْبَةُ إِذَا انْكَسَرَتْ، وَهَزَمْتُ الْجَيْشَ كَسَرْتُهُ. وَالْكَلَامُ مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلَ، أَيْ {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)} وَهُمْ جُنْدٌ مِنَ الْأَحْزَابِ مَهْزُومُونَ، فَلَا تَغُمَّكَ عِزَّتُهُمْ وَشِقَاقُهُمْ، فَإِنِّي أَهْزِمُ جَمْعَهُمْ وَأَسْلُبُ عِزَّهُمْ. وَهَذَا تَأْنِيسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا فِي يَوْمِ بَدْرٍ. قَالَ قَتَادَةُ: وَعَدَ اللَّهُ أنه سيهزمهم فَجَاءَ تَأْوِيلُهَا يَوْمَ بَدْرٍ) [1].

2. بيان مصير المؤمنين عند الله عزّ وجلّ - تثبيتاً وطمأنة لهم -: في الدنيا عزة وشرف، وفي الآخرة رضوان من الله وجنات النعيم جزاءاً لهم على موقفهم من الرسالة؛ الإيمان والاتباع. وتذكيرهم بحقيقة أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض إلا بالحق، فلا بد من

---

1 - انظر تفسير القرطبي.

الحساب والجزاء.. وعليه، فليس هناك مساواة بين المتقين وبين الفجّار، سواء في محياهم في الحياة الدنيا أم في المصير والجزاء في الحياة الآخرة: (26-28)،(49-64) [1].

3. وفي قصص الأنبياء أيضاً ذكرى لرسول الله وللمؤمنين، وهي المقصد الأصل للقصص [2] :

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) ﴾ [ص]
﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ .. (٤١) ﴾ [ص]
﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)﴾ [ص]
﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)﴾ [ص]

✓ حيث ضرب الله تعالى لهم أمثلة وقُدوات من عباده المتقين المخلصين على الاستقامة على أمر الله تعالى، والصبر على ما يترتّب عليها من ابتلاء أو فتنة (اختبار).. مع الإنتباه إلى خصوصية مقام النبوة وعموم مقام الإيمان.. كـ عدم الاستعجال بسب التأثر بالواقع (قصة داود عليه السلام) [3] وعدم الإنشغال بالأمور المهمة عن الأمور الأهم (قصة سليمان عليه السلام). والصبر الجميل على نقصٍ في العافية أو الأموال والأولاد (قصة أيوب عليه السلام).. فقد يؤدي بهم ذلك إلى "مخالفة" أمر الله تعالى، كما حصل مع أنبياء الله الكرام.. ولكنهم بعد تلك "الفتنة" والإختبار عادوا وآبوا إلى الله ربهم، فجازاهم بسبب ذلك خيراً كثيراً وعميماً. وأشار إلى الاعتبار بصبر إبراهيم، وصبر يعقوب، وصبر إسماعيل.. عليهم السلام.

✓ وأيضاً، بقصد الاقتداء بهؤلاء الأنبياء الكرام، عليهم السلام، ورد ذِكْر أوصاف: {أوّاب} [4]، {كان صابراً}، {نعم العبد}.. كذلك، وصف بعض الأنبياء بـ {ذي الأيد}، {أُوْلِي

---

1 - وفي التعقيب على قصص الأنبياء قال الله تعالى: (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ{49}) ص، أي هذا القرآن ذكر جميل في الدنيا لمن أخذه، وشرف يُذكر فيه أبداً بالثناء والتكريم، وإن لكل من اتقى ربّـه وأطاع رسله، حُسن جزاء ومرجع في الآخرة.. ثم فسّر الله تعالى هذا الجزاء في الآيات التي تلت. نقول: وهذا يذكّرنا بقوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ{44}) الزخرف. وقول رسول الله: {إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين} صحيح مسلم.

2 - من الملاحظ على القصص في السورة أنها لم تأتِ في سياق ما يواجهه الرسل من أقوامهم أثناء تبليغهم الرسالة، بل جاءت في سياق علاقة النبيّ مع ربه، وتحديداً في أن الله تعالى قد يبتلي عباده الأنبياء - وللمؤمنين نصيب كلٍ بحسب إيمانه، تزكية لهم وتطهيراً - مثل الفتنة في الغنى والنعيم، أو في الضر والاحتياج، أو في الحكم والسلطان.. بمعنى أنه مهما كان نوع الفتنة (الإختبار، الابتلاء) من الله، فموقف عباد الله المصطفين الأخيار هو الصبر والأوب إلى الله: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ **أَوَّابٌ** {44}) ص،، ومع الصبر يأتي الفرج والنصر. وكل ذلك في سياق حث رسول الله والمؤمنين معه على الصبر على ما يواجهونه من قومهم حتى يحكم الله بأمره.

3 - أنظر التعقيب على قصة داوود عليه السلام، في ما يلي من تبيان سورة ص.

4 - "الأوّاب: الكثير الأوب، أي الرجوع. والمراد: الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عند حدوده وتدارك ما فرّط فيه (على العكس من عزة شقاق). والتائب يُطلق عليه الأوّاب، وهو غالب استعمال القرآن، وهو مجاز ولا تسمى التوبة أوباً ". أنظر (التحرير والتنوير- ابن عاشور).

الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}، أي أولو البصيرة والقوة والأعمال العظيمة في طاعة الله.. ليقتدي النبي ﷺ بهم، ومعه المؤمنون، في القوة في إقامة الدين والبصيرة في حقائق الأمور.

✓ وجملة { إنّـا أخلصناهم } علة للأمر بذكرهم، لأن ذكرهم يُكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير. و{أخلصناهم} جعلناهم خالصين، أي طهرناهم من درن النفوس فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر، وهذا **الإخلاص** هو معنى **العصمة** اللازمة للنبوّة [1].

والباء في { بخالصة } للسببية تنبيها على سبب عصمتهم.. ثم بُيّـنت هذه الخالصة – الخصلة الحميدة - بأقصى ما تُعبِّر عنه اللغة وهي أنها { ذكرى الدار }.. والذّكرى: اسم مصدر يدل على قوة معنى المصدر (التذكّر) مثل الرُجعى والبُقيا.. والدار المعهودة لأمثالهم هي الدار الآخرة، أي تلك الخصلة هي أنهم يتذكّرون الآخرة بحيث لا ينسونها ولا يُقبِلون على الدنيا، فالدار التي هي محل عنايتهم هي الدار الآخرة.. قال النبي ﷺ : « ما لي وللدنيا » [2].

✓ وفي القصص بشارة بتغيير الله لحال رسول الله، إلى العزّ والتمكين وسعة المُلك والخلافة في الأرض [3]..

---

1 - ((وإسناد الإخلاص إلى الله تعالى لأنه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لدُنيّة بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال وتصرف النفس إلى الخير المحض فلا تبقى في النفس إلا نزعات خفيفة تقلع النفس عنها سريعا بمجرد خطورها. قال النبي ﷺ: « إني ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » صحيح مسلم (2702)... وأشار قوله تعالى: (بخالصة ذكرى الدار) إلى أن مبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير مما لا يُرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها فتُحدِث في نفس النبي ﷺ، شدة الحذر من المعصية وحب الطاعة، ثم لا يزال الوحي يتعهده ويوقظه ويجنبه الوقوع في ما نُهي عنه، فلا يلبث أن تصير العصمة ملكة للنبي يكره بها المعاصي. فأصل العصمة هي منتهى التقوى التي هي ثمرة التكليف، وبهذا يمكن الجمع بين قول أصحابنا: العصمة عدم خلق المعصية مع بقاء القدرة على المعصية، وقول المعتزلة: إنها ملكة تمنع عن إرادة المعاصي. فالأولون نظروا إلى المبدأ والأخيرون نظروا إلى الغاية، وبه يظهر أيضا أن العصمة لا تنافي التكليف وترتّب المدح على الطاعات)). أنظر (التحرير والتنوير- ابن عاشور).

2 - حسن صحيح، رواه الترمذي. والحاكم على شرط البخاري. قالها رسول الله لعمر ابن الخطاب عندما دعاه لاتخاذ فراش أَوْثَـر من ذلك الحصير الذي علّم بجنبه الشريف.

3 - ((وابتُدِئ بذكر داود لأن الله أعطاه مُلكا وسلطانا لم يكن لآبائه، ففي ذكره إيماء إلى أن شأن محمد ﷺ سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند، فقد كان حال النبي ﷺ أشبه بحال داودعليه السلام. وأدمج في خلال ذلك الإيماء إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى [يعني بسبب موقف المشركين، وتكبّرهم ومنازعتهم (عزة وشقاق)]، واتقاء مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة، **إبعادا** لرسوله ﷺ عن مهاوي الخطأ والزلل، **وتأديبا** له في أول أمره وآخره مما أن يُتلقى بالعذل)) [نقول: يقصد أنه تذكيراً له - عليه الصلاة والسلام - حتى لا يقع بما وقع به الأنبياء السابقين، مما اضطرهم للتوبة والإستغفار. وهذا يشبه ما ذكره الله تعالى عن يونس عليه السلام في سورة القلم: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ{48})].

(({ واذكر عبدنا داود }.. أي التذكّر، وليس هو ذكر اللسان، لأنه إنما أُمر النبي ﷺ بذلك لتسليته وحفظ كماله، لا ليَعْلمه المشركين ولا ليَعْلمه المسلمين، على أن كلا الأمرين حاصل تبعا حين إبلاغ المنزل

✓ ذَكَر اسمَيْ الله: الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ.. العزيز الذي لا يُغالَب، والوهّاب، الكثير العطاء بغير حساب.. وضَرَب أمثلة لعطاء الله الجزيل بغير حساب لأنبيائه الذين ورد خبرهم في السورة.. وضَرَب أمثلة لرحمة الله تعالى بعباده الأنبياء وفَضْله عليهم، وذلك تنبيها لذوى العقول الرشيدة والبصائر النافذة والقلوب السليمة، على أن مَنْ صبر ظفر ونال الجزاء الحسن.. وما بعد العسر إلا اليسر.. قدراً وشرعاً.. إذ سلّط الله عليهم البلاءَ فتنةً واختباراً فصبروا، ثم أزال عنهم ما نزل بهم ووَصَلَهم بالآلاء والنعماء، وليس ذلك فحسب، بل جعَل الله تبارك وتعالى "مخرجاً شرعياً" لعبده الصابر أيوب عليه السلام من قَسَمه، بأن يتحلل منه بضرب زوجه بأهون شيءٍ عليه وعليها، بأن يعمد إلى حزمة من مائة عود طرية، فيضربها بها ضربة واحدة. كما قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ [ص]. فالجملة الاسمية: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا} علة لجملة: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص]، وجملة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)﴾ [ص]، وجملة: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤)﴾ [ص]، (إنّ ، في "إِنَّا") مُغنية عن فاء التفريع (السببية).. أي أنعمنا عليه بجَبْر حاله قَـدَراً، وبالتخفيف عنه شرعاً.. لأنه لم يكن إلا صابراً على ما أصابه.

فلا بد من الصبر أولاً، ثم يأتي الفرج والتخفيف.. قدراً وشرعاً.. فهُما كانا مكافأة على الصبر على البلاء احتساباً لله تعالى [1]..

استطراد في فهم قصة نبي الله داوود عليه السلام:

نقول، بحول الله:

أولاً: رَفض الحافظ ابن كثير الروايات التي قيلت في القصة جملة. لذا، فتناوُل هذا الموقف من حياة سيدنا داود ينبغي أن يكون بعيداً عن هذه الروايات التي لم يصح منها شيء، ولم يرد عن المعصوم ﷺ منها شيء. فإننا سُننظر في هذه الآيات في ضوء التعبير القرآني وفي ضوء سياقها من السورة الكريمة.

في شأن داود إليهم وقراءته عليهم. ومعنى الأمر بتذكّر ذلك، تذكّر ما سبق إعلام النبي ﷺ به من فضائله، وتذكير ما عسى أن يكون لم يعلمه مما يُعلم به في هذه الآية)) أنظر (التحرير والتنوير- ابن عاشور).
هذا، وقد وصف الله تعالى داود - في هذه السورة وغيرها - بأوصاف كاملة فاضلة.. بينما في التوراة الموجودة الآن فقد وصفته - عليه السلام - بأقبح النعوت ؛ كالظلم والفسق والغدر واغتصاب النساء من الأزواج.. حتى قال المُسهمون في وضع قاموس الكتاب المقدّس صفحة 365 طبعة 15 آذار 1967 ما نصّه بالحرف الواحد: (ارتكب داود في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلاً). وقد برّأ الله تعالى داود، وجميع أنبيائه - عليهم السلام - مما ألصق بهم أولئك الكذبة الفجرة. والحمد لله رب العالمين.

1 - نقول: هذا المَخرَج الشرعي، الأصل أن لا يُقاس عليه إلا في سياقه، ودون تعميم. فهو بمثابة تصريح أو سماح بالأخذ بالرُّخص الشرعية وبالتخفيف في تنفيذ الأحكام الشرعية في مثل هذه الظروف الصعبة على حَمَلة الرسالة، وعدم تَحْميلهم فوق طاقتهم، رحمة بهم. ويؤيد هذا قول رسول الله: (إن عادوا فَـعُدْ) لـ عمّار بن ياسر **رضي الله عنه** بعد أن أظهر الكفر بسبب شدة تعذيب الكفار له وقتل أبويه أمامه.. للتفصيل أنظر مثلاً (التحرير والتنوير- ابن عاشور).

ثانياً: ((وَاعْلَمْ أَنَّ سَوْقَ هَذَا النَّبَأِ عَقِبَ التَّنْوِيهِ بِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ إِلَّا تَتْمِيمًا لِلتَّنْوِيهِ بِهِ لِدَفْعِ مَا قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَنْقُضُ مَا ذُكِرَ مِنْ فَضَائِلِهِ، مِمَّا جَاءَ من روايات لم تثبت، وتُنَافِي مَقَامَ النُّبُوةِ فَأُرِيدَ بَيَانُ الْمِقْدَارِ الصَّادِقِ مِنْهَا، وَتَذْيِيلُهُ بِأَنَّ مَا صَدَرَ عَنْ دَاوُدَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يَسْتَوْجِبُ الْعِتَابَ وَلَا يَقْتَضِي الْعِقَابَ وَلِذَلِكَ خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)} [ص])) [1]

ثالثاً: نلاحظ من ذكر نبأ مجلس القضاء ذاك، أن السياق فيه إجمال شديد للظروف التي حصل فيها المجلس، أما عند الكلام عن طريقة سير الجلسة وسرد موضوع الخصومة وذكر حيثيات الحكم، نلاحظ شيئاً من التفصيل. مما يشير إلى أن هذا هو المقصود من سرد القصة كلها، وأن محل الخطأ كان في مجلس القضاء نفسه.
فلنراجع منطوق الآيات (ظاهرها) دون التعمّق الزائد في مفهوم ألفاظها أو افتراض وجود قول محذوف:

1. داوود عليه السلام داخل المحراب في خلوة [2].
2. دخل عليه الخصمان بطريقة غير معتادة، من فوق السوَر [3].
3. فزع منهم داوود **عليه السلام**. أي ارتاع واضطرب نفسا وذُعر منهم؛ وهو الخوف الشديد، فقد كان في غفلة عنهم ولا يعلم بحاجتهم إليه [4].
4. طمأنه الخصمان، وبأسلوب فيه شيء من الحدة وقالا له أن يحكم بينهم بالعدل وأن لا يحيد عن العدل.
5. وشرع الخصم الأول - وهو الذي ادّعى أنه مظلوم - بسرد موضوع الخصومة بشيء من التفصيل.
6. فما كان من داوود عليه السلام، أن نطق بالحكم لصالح الأول، مبيّـناً حيثيات حكمه [5]..
7. وبعدما نطَقَ بالحكم، تنبّه داوود عليه السلام بأن مجلس القضاء هذا كان فتنة له، وأنه أخطأ [6].

ومما سبق نلاحظ أن محل الفتنة (الخطأ) ليس بسبب الخلوة التي فرضها على نفسه - عليه السلام - فذلك مما أغفل تفصيله منطوق الآيات. والظاهر أن محله في مجلس القضاء نفسه فقد ذكرت الآيات عنه شيء من التفصيل. والأمر بالنسبة لداوود عليه السلام كان: " فَزَعٌ أعقبه

---

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

2 - ما السبب، وماذا كان يعمل ؟..أغفله السياق.

3 - ما دافعهم الحقيقي لتجرّئهم بالدخول على داوود القاضي الملك.. بهذا الشكل المفاجئ ؟.. أغفله السياق.

4 - الفَزَعُ: انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع. ولا يقال: فَزِعْتُ من الله، كما يقال: خفت منه. وقوله تعالى: (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) [الأنبياء / 103]، فهو الفزع من دخول النار. (المفردات). الآن، لماذا فزع منهم وهو النبي الملك.. أغفله السياق.. أم أنه شأن النفس البشرية أن تفزع عند ما تفاجأ بحالة كهذه الحالة.

5 - هل سمع من الآخر، أو لم يسمع ؟..أغفله السياق

6 - هل كان تنبّهه وأوبته في نفس المجلس أم بعده ؟ وهل أعاد النظر في القضية مرة أخرى؟ إلى آخره.. كل ذلك التفصيل أغفله السياق.. كما أغفل في ما سبق.

قولٌ أعقبه توبةٌ، وكأن الفزع سببٌ في القول والخطأ، والقول كان سبباً في التوبة " [1]. فكأنه عليه السلام بسبب فزعه منهم - وهي الحالة النفسية التي غلبت عليه أثناء مجلس القضاء - وبعد سماعه كلام الخصم الأول، استعجل ونطق بالحكم له مباشرة ونسي أن يسمع من الآخر.. ثم انتبه عليه السلام أنه أخطأ في إصداره الحكم وهو في حالة نفسية غير مناسبة للقضاء مما دفعه للاستعجال بإصدار الحكم، فأناب إلى الله راكعاً ساجداً..

وبناء عليه نقول: بما أن هذا "الخطأ" من داود عليه السلام، لم تُصرِّح به الآيات لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من التكلّف، وإنما الفائدة في ما قصّه الله تعالى علينا من لطفه بداوود عليه السلام، وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها [2]..

وكأن المقصود هو الإعلاء من التوبة والأوْب إلى الله تعالى بغض النظر عن نوع الذنب أو موضوع الفتنة والابتلاء. فقد كان سليمان **عليه السلام** أوّابا لله من فتنة الغنى والنعيم، وأيّوب **عليه السلام** أوّاباً لله من فتنة الضر والاحتياج، وكان الثناء عليهما متماثلا لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدواعي. قال سفيان: أثنى الله على عبدين ابتُليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناءً واحداً. فقال لأيوب ولسليمان: { نعم العبد إنه أوّاب }.

39- (سورة الأعراف)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في الطور الثالث، وقد أَنذر رسولُ الله قريشاً بالعذاب الأكبر، حيث أصروا على الكفر بعد أن أصابهم العذاب الأدنى (الدّخَان) ولم يرجعوا إلى الله تعالى، وبقوا مصرين على معاداة رسول الله والذين آمنوا معه. وبدأ رسول الله ﷺ في الاتصال بالقبائل لطلب الحماية له - بدل حماية عمه أبو طالب بعد وفاته - ليستمر في بلاغ رسالة ربه.

وذلك لِما ورد ذكره في السورة من خصائص الطور الثالث.. وقد وردت إما بشكل غير مباشر؛ من خلال ذكر قصص أقوام رسل الله السابقين وضرب المثل بهم لقريش، وبيان سُنن الله تعالى، أو بشكل مباشر وصريح:

1- إنذار قريش بالعذاب المدمر (العذاب الأكبر) عن قريب، وقد وقع عليهم " العذاب الأدنى" (الأخذ بالبأساء والضراء) ولم يرجعوا إلى الله ولم يضرّعوا إليه، وقد أبدلهم الله الحسنة مكان السيئة، وهم الآن قد دخلوا في سنة الإستدراج والإمهال.. كما هي سنة الله تعالى في المكذبين الجاحدين [3] :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ

---

1 - المعتز بالله محمد - (ولي نعجة واحدة). مقالة في ملتقى أهل التفسير.

2 - أنظر تفسير السعدي.

3 - أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) ﴾ [الأعراف]

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]،،، **[أنظر تبيان سورة ن والقلم]**

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾ [الأعراف]

كما ضرب الله تعالى مثلاً عملياً لهذه السنة بفرعون وآله في الآيات (130 – 136).

2- التهديد بإخراج المؤمنين من المجتمع (القرية) إن لم يعودوا في ملة الكفر، وطلب المؤمنين من الله تعالى الفتح والفصل بين الفريقين:

﴿* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

3- انقسام المجتمع (القرية) إلى قسمين أو فريقين: كفار مستكبرون، ومؤمنون مستضعفون:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥)﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأعراف]

4- الصبر على استفزاز الجاهلين من المجتمع الجاهليّ ونزغ شياطينه - من الجن والإنس - فالجو العام بين الفريقين في قمة التوتر، فأي خلاف قد يتحوّل إلى اقتتال بينهما (حرب أهلية):

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾ [الأعراف] [1] .

5- مناقشة التشريعات الجاهليّة لبيان فسادها على أساس أنها تُخالف ما جاء في رسالة الله الخاتمة من شريعة الله تعالى، وخاصة المتعلقة بالمسجد الحرام ومنها: الشرك بالله بعبادة الأصنام، ولجوء بعض المشركين إلى التعرّي أثناء أداء مناسك حجهم، بسبب بعض التشريعات التي فرضها الملأ من قريش. **(أنظر تبيان سورة الجن).**

1 - أنظر " تبيان سور الناس والفلق والإخلاص " - في ما سبق - هناك تفصيل في بيان هذه الخاصيّة.

ومن مناسبة مناقشة التشريعات في هذا الطور من السير بالرسالة أنها تأتي في إطار بيان حقيقة الصراع بين رسول الله ﷺ والملأ من قريش، وذلك كتقدمة بين يدي اتصال رسول الله بالقبائل.. لبيان حقيقة ما يدعو إليه من الحكمة ومحاسن الأخلاق.. للتصدي للدعاية السيئة التي أطلقتها قريش ضد رسول الله ورسالته، من ادعائهم أنه ساحر ومجنون.. ومن السوَر التي تعرضت لموضوع التشريع في هذا السياق: الأنعام، الإسراء، المؤمنون. أنظر الآيات: (26-33) الأعراف

6- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)﴾ [الأعراف]، اتهام الملأ من كفار قريش لرسول الله ﷺ بأنه مجنون، وحسب سُنن الله تعالى، فهذا يكون في وقت متأخر من " المرحلة الأولى " من السير بالرسالة.. وقُبيل انزال العذاب بالكافرين [1]

7- التحدي السافر للمجتمع وملئه، وتحدي آلهتهم (طاغوتهم)، فهم لا يضرّون ولا ينفعون إلا بإذن الله **(أنظر تبيان سورة العلق):**
﴿..قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)﴾ [الأعراف]

8- طلبُ المشركين الآيات المادية (المعجزات)، وردُّ الله لهم إلى القرآن، فهو آية الله الخالدة على صدق رسول الله، وفيه بصائر وآيات بيّنات:
﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾ [الأعراف]

9- تحدي القرية رسولهم وطلب نزول العذاب (استعجال العذاب) تكذيباً:
﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]
﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)﴾ [الأعراف]

مناط السورة:

1 -.. كما في السور الأخرى التي ورد فيها وصف الكفار لرسول الله إليهم بأنه مجنون، وهي من السور المتعلقة في وقت متأخر من المرحلة الأولى في السير بالرسالة.. فأجواؤها متقاربة. وهي اثنتي عشرة سورة: الأعراف(184)، الحجر(6)، المؤمنون(25، 70)، الشعراء(27)، الصافات(36)، الدخان(14)، سبأ(8،46)، الذاريات(39، 52)، الطور(29)، القمر(9)، القلم (2، 52)، التكوير(22). هذا، مع العلم أن السور السابقة جميعها قد ورد فيها وصف المشركين بالمجرمين، ما عدا سورتي الطور والتكوير. أنظر (تبيان سورة القلم).

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾ [الأعراف] [1]

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾ [الأعراف]،،

أي بآياتنا يجحدون.. وهي حالة الوقوف من آيات الله جل ّوعلا - التي أنزلها إليهم - موقف التعدي والبغي. فهم لا يريدون سماعها، وإن سمعوها لا يؤمنون بها، جحوداً وعلوّاً، كموقف نهائي من آيات الله.. كما في قوله تعالى:

﴿.. الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾ [الأعراف]

أي: أنهم ينكرون أدلة الله وبراهينه على أنه لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، واليوم الآخر.. مع علمهم بأنها حق.

فالظلم وضع الشيء في غير موضعه، تعدياً وبغياً.. ولمّا كانت الآيات - لوضوحها - من حقها الايمان بها وبما تدل عليه من الحق، إلا أنهم هم قد كفروا بها عناداً، قال الله تعالى:

﴿..كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ(٩)﴾ [الأعراف]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى **بِآيَاتِنَا** إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ **الْمُفْسِدِينَ** (١٠٣)﴾ [الأعراف]، {فَظَلَمُوا بِهَا} للدلالة على أنهم جحدوا بآيات الله رغم علمهم أنها تدل على الحق.

ومن الأمثلة التي وردت في السورة على "الظلم بآيات الله" والجحود بها (المناط):

- ✓ المعصية الأولى، والتي اقترفها إبليس، فقد كانت بسبب التكبّر عن اتباع أمر الله تعالى المباشر بالسجود لآدم، وهو يعلم أن الله تعالى هو الحق وأن أمره هو الحق.. الآيات (13-17).
- ✓ الملأ من قريش ومن تبعهم على باطلهم وقد ساروا على خُطى إبليس، واتخذوه ولياً من دون الله:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [الأعراف]، (افترى: كذّب واختلق).

---

1 - ((بيّن تعالى هنا أن فرعون وملأه ظلموا بالآيات التي جاءهم بها موسى، وصرّح في النمل بأنهم فعلوا ذلك جاحدين لها، مع أنهم مستيقنون أنها حق لأجل ظلمهم وعلوهم ؛ وذلك في قوله: (فلما جاءتهم => آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا [13، 14])). أضواء البيان - الشنقيطي.

- ✓ الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل بعد أن عرفوا الحق، آية (152)، وصفهم الله تعالى بأنهم " مفترين" و "كانوا ظالمين" . والافتراء على الله هنا؛ قولٌ على الله بغير دليل.. وهو كفرهم بالله بعد أن علموا أنه الحق.. أي ادعاءهم كذباً أن الله تعالى ليس هو الإله المستحق أن يعبدوه.. بعد أن علموا أنه الحق (ظلموا بآيات الله).. فـ (المفترين) هم الذين تركوا الحق بعد أن علموا به (الردة) واتخذوا الباطل منهجاً وهم يعلمون، كما في قوله تعالى عن شعيب والمؤمنين معه:
﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف]
- ✓ الذي كذّب بآيات الله بعد أن علم أنها الحق، وانسلخ من آيات الله بعد أن أتاه الله تعالى إياها:
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف]

المعالجة:

مضت السورة في معالجة مناطها في أربع جولات رئيسة مع خاتمة، ولكل جولة تفاصيلها وتنوّعها في حشد المؤثرات والأدلة والشواهد لمعالجة مناط السورة.. سواء في ما يتعلّق بالمؤمنين حَمَلة الرسالة أم المكذّبين بآيات الله: ﴿المص (١) **كِتَابٌ** أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [الأعراف]. وهي كما يلي:

الجولة الأولى (1 – 9):

يمكن النظر إلى آيات هذه الجولة، كإطار عام جامع لأفكار السورة ومواضيعها (محتوى السورة)، سواء من حيث بيان المناط: ﴿..بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾ [الأعراف].. أم بيان خط المعالجات بمجاليه الأثنين: معالجة موقف فريق المشركين المكذّبين بآيات الله: الآيات (3-9)، ومعالجة أثر مواقفهم على الفريق المؤمن بقيادة رسول الله، بعدم التأثّر بالواقع وأخذ الكتاب بقوة: الآية (2).. حيث أن:

1. الآية (2)، جاءت خطاباً مباشراً لرسول الله بعدم الحرج من بلاغ رسالة الله تعالى، بمعنى، أن لا يضق صدره بتلاوة آيات الله وتبليغها للناس وإنذارهم بها، بسبب إصرارهم على تكذيبه رغم علمهم أنه الصادق الأمين [1].

1 - ((وجمهور العلماء: على أن المراد بالحرج في الآية الضيق. أي لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك، لأن تحمّل عداوة الكفار، والتعرّض لبطشهم مما يضيق به الصدر، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر... فالحرج في لغة العرب:

2. الآيات (3-9)، خطاب مباشر لعموم الناس - ويدخل فيه المشركين الذين يكذبون بآيات الله دخولاً أولياً -.. خطاب نذارة: بدعوتهم لاتباع ما أُنزل إليهم (آيات الله) وأن لا يتّبعوا من دون الله تعالى أولياء - (الطاغوت) أي رؤساءهم في الشرك أو الشيطان - فيكونوا قد عَدَلوا عن حكم الله إلى حكم غيره. وإنذارهم بعذاب الله في الدنيا إن لم يفعلوا، كما هي سنة الله تعالى في الأمم الذين سبقوا.. وإنذارهم كذلك بمصيرهم عند الله يوم القيامة، يوم يَسأل الله تعالى جميع الناس عن أعمالهم [1].. ويوم تُوزَن تلك الأعمال بالوزن الحق [2]..

الجولة الثانية (10-58):

وهي جولة متنوعة.. وتأتي آياتها الأخيرة (52-58) بمثابة خاتمة وتعقيب، وإعادة إنذار للمشركين لعلهم يرجعون، وتذكير لهم بالحق مرة أخرى. يعني من باب تصريف الآيات. وهي كالتالي:

الضيق. وذلك معروف في كلامهم)). (أضواء البيان) - الشنقيطي. وهو اختيار الطبري أنظر (تفسير الطبري) ((أصل الحَرَج والحراج مجتمع الشيئين، وتُصوّر منه ضيق ما بينهما، فقيل للضيّق: حَرَج، وللإثم حَرَج، قال تعالى: (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً) [النساء/65]، وقال عزّ وجلّ: (وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج/78]، وقد حرج صدره، قال تعالى: (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) [الأنعام/125])). (المفردات) - الراغب..

هذا، وقد تكرر في القرآن نهي النبي ﷺ عن الاستشعار بضيق الصدر من تبليغ آيات الله كما في قوله تعالى: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) [هود \ 12]، وقوله: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) [الحجر\97]... (وأما قوله: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)[الكهف\6] وقوله: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) [الشعراء\3] ومثلها من الآيات، فسياقها حول ما كان يعتلج في نفس رسول الله من همّ وحزن دائمين بسبب وقوف الزعماء موقف العناد والمناوأة والصدّ، وانكماش أكثرية الناس عن دعوته نتيجة لذلك - وقد قَرُب نزول العذاب بهم - على شدّة حرصه على هدايتهم، فكانت حكمة التنزيل تقتضي موالاته بالتثبيت والتهوين). انظر (التفسير الحديث) - محمد دروزة.

1 - أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ {6}[الأعراف]) قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا. (الصحيح المسبور) - حكمت ياسين.

2 - ((ولا ندخل هنا في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر «الإسلامي»! - فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل مذ كان الله سبحانه، ليس كمثله شيء.. وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق.. من أن الحساب يومئذ بالحق، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة، وأن عملاً لا يُبخس ولا يُغفل ولا يَضيع)). (في ظلال القرآن). أنظر (تبيان سورة القارعة). وللتفصيل في تحقيق مفهوم "الغيب"، وبيان المنهج الحق في النظر إلى قضاياه وأموره، أنظر "الجزء الثالث" (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - (وعنده مفاتح الغيب).

1. (10-25)، بيان حيثيات وجوب اتباع آيات الله، فهو الولي (المعبود المطاع أمره) الحق الذي يجب اتباعه لأنه صاحب النعم العظيمة على الإنسان، المستحقة للشكر.. وكذلك بيان عدو الإنسان اللئيم اللدود الذي يريد أن يُبعد الإنسان عن طريق العبودية لله - وليهم الحق - وعن الشكر على نعمه الجليلة، ومنها:

- (10)، نعمة التمكين في الأرض [1]..
- (11) ونعمة التكريم، فالإنسان هو المخلوق الأهم والأخطر في الوجود.. حيث أعطاه الله جلّ ثناؤه، صلاحيات واسعة في الكون.. وأسجد له الملائكة والجن؛ أهم مخلوقَين بعد الإنسان.
- (11-18) إلا أن إبليس تكبّر على أمر الله وعصاه فلم يسجد لآدم.. ثم حسد آدم على منزلته وتكريمه فاصبح العدو اللدود لآدم وذريته جميعهم - حتى قيام الساعة - وغايته إبعادهم عن صراط الله المستقيم (عبادة الله تعالى وشكره)، لبيان السبب في قلة الشكر: « قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ».. ليستيقظ البشر جميعهم للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدى، وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي تجعل أكثرهم غير شاكرين!.
- (19-25) تجربة حقيقية للإنسان (آدم) عندما نسي أمرَ الله تعالى وتنبيهَه، ووَثِـق بالشيطان عدوه اللئيم، فكانت النتيجة هي الخروج من الجنة والنعيم، والنزول إلى الأرض.. وإعادة التأكيد على عداوة الشيطان الشديدة واللئيمة للإنسان.. فيجب الحذر منه.. وأن طريق التوبة إلى الله دائماً مفتوحة وميسّرة.

2. (26-51)، ثم، وفي تعقيب مباشر على تجربة آدم تلك لأخذ العبرة منها: ﴿..**لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى** لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [الأعراف]، يوجّه الله تبارك وتعالى أربعة نداءات لبني آدم (جنس الإنسان)، للتأكيد على الأمر بوجوب اتباع آيات الله تعالى، بعد ما سبق من ذِكْر نِعَم الله العظيمة والجليلة عليهم - التمكين والتكريم - المستوجبة للشكر، وبعد بيان مدى خبث الشيطان وعمق وشدة عدائه لهم.. فهو يريد إبعادهم عن اتباع آيات الله لما تدل عليه من عبادة الله؛ وليّهم وربّهم الحق.. بدليل ما فعله مع أبيهم آدم عليه السلام:

- النداء الأول (26): أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قول الله: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)﴾ [الأعراف]، عن مجاهد قال: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة..عن مَعْبدٍ الجُهَنيّ - من طريق عوف - في قوله: {ولباسُ التَّقوى} قال: هو

---

1 - ((إن «الإنسان» هو ابن هذه الأرض وهو ابن هذا الكون. لقد أنشأه الله من هذه الأرض، ومكّنه فيها، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان، تساعده- حين يتعرف إليها على بصيرة- وتُيسّر حياته.. ولكن الناس قليلاً ما يشكرون..)) (في ظلال القرآن). أنظر سورة النحل.

إن التنديد بقلّة شكر بني آدم لله عزّ وجلّ في الآية (10) له علاقة بقول إبليس من أنه سوف يوسوس لبني آدم حتى يمنع أكثرهم عن شكر الله في الآية (17). وأيضاً، باعتبار عدم الشكر جحودا لله وفضله، وعنوانا للكفر به.. والشكر لله عنواناً للإيمان بأن الله تعالى هو الربّ الحق.

الحياءُ، ألم تَرَ أن الله قال: {يا بني آدم قد أنزلْنا عليكُم لباسًا يُوارِي سوءاتكُم وريشًا ولباسُ التَّقوى}؟! فاللِّباس الذي يُواري سوآتكم: هو لبُوسكم. والرِّياش: المعاشُ. ولباس التقوى: الحياءُ» [1].. فهذا تعريض بقريش على موافقتهم أو دورهم في طواف بعض الحجيج بالمسجد الحرام وهم عراة.. وهم يدّعون أنهم يعبدون الله تعالى.

- النداء الثاني (27): قال مقاتل بن سليمان: "{لا يفتننكم الشيطان} في دينكم؛ أمر الثياب، فيدعها عنكم، فتبدي عوراتكم، {كما أخرج أبويكم} يعني: كما فعل بأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما من الجنة، وبدت عورتهما، فذلك قوله: {ينزع عنهما لباسهما} يعني ثيابهما؛ {ليريهما سوآتهما} يعني: عوراتهما". فالعُرِي وعدم الحياء من كشف العورات من خط الشيطان وفتنته.

- النداء الثالث (28-30): التحذير من أسلوب الخديعة والتغرير الذي اصطنعه إبليس مع آدم وحواء، وتقرير لسنة ربانية: أن مَنْ لم يتخذ الله تعالى ولياً (إلهاً) كان الشيطان له ولياً.. فالإنسان إما أن يكون عبداً لله أو عبداً لغير الله. وأن هذا العُري من خطِّ الشيطان - عدوكم اللئيم - وأَمْرِه بمعصية الله جلّ وعلا، فلا تتخذوه ولياً - فلا تطيعوا أمره - من دون الله.. كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [الأعراف].. أي لا تتبعوا من دون الله عزّ وجلّ أحداً تلجؤون إليه وتنتصرون به.. فتعلّموا من تجربة أبيكم آدم عليه السلام السابقة.. والخطاب عام للملأ والأتباع.. ثم تنزيل الخطاب على واقع قريش وشِرْكهم في المسجد الحرام، وتشريعهم القوانين الفاسدة والمُنْكَرة ونسبتها إلى الله تعالى، افتراءً عليه جلّ وعلا.

- النداء الرابع (31-34): بيان ما أمر الله به - شريعته وقانونه - من الحق في اللباس وستر العورات والزينة عند الصلاة والطواف.. حيث كانوا يطوفون بالبيت عراة، وبيان أن ما حرّم الله تعالى إنما هو من أمهات الخبائث والشرور.. والتي كانت قريش غارقة فيها.. وأمرهم بالابتعاد عنها وأن لا يقولوا على الله ما لا يعلمون: مثل التشريعات والفاحشة التي ادّعوا أن الله أمرهم بها.. ثم دعاهم إلى أمهات محاسن الأخلاق.. وبعد ذلك، أنذر قريشاً - ومن هم على شاكلتهم - بلقاء الله وأنه سيجازيهم على أعمالهم، إن تركوا ما أمرهم الله تعالى به وقد جاء به رسوله، واتبعوا خط الشيطان.. فاتخذوه ولياً من دون الله.

- النداء الخامس (35-51): والمحور الذي تدور حوله أفكاره؛ هو الدعوة إلى اتباع آيات الله تعالى التي جاء بها رسله إليهم.. وقد اختارهم من بينهم.. وبيان موقف الناس من آيات الله ورسله، وبيان مصير كل فريق [2]، وهم فرقاء ثلاثة:

---

1 - (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين. (تفسير الطبري).

2 - يشبه قوله تعالى، عندما أهبط آدم عليه السلام وحواء إلى الأرض، ومعهما عدوهما إبليس اللعين:
{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة38
{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)...}طه

✔ المكذّبون بآيات الله:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا .. (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ..(٣٧)﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.. وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾، ﴿..لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) ﴾، ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾،،

سواء كان - أولئك المكذّبون - من الجن أم الإنس، أم من السادة والزعماء والآباء أم من الأتباع.. مع إبراز الدور الكبير للملأ في إضلال الأتباع والتلبيس على عامة الناس حتى لا يتبعوا آيات الله.. مِثْل إبليس عندما عصى الله تعالى في السجود لآدم، ومَنْ تبعه من ذريته من شياطين الجن.. ومَنْ اتخذهم أولياء من الملأ المشركين (شياطين الإنس) ومن اتّبعهم وأطاع أمرهم من الأتباع.. وكذلك، الذين كذبوا وارتدّوا بعد آمنوا بالحق.. كبني إسرائيل. ومصيرهم جميعاً الخلود في النار.. ما لم يتوبوا.. ما عدا إبليس اللعين فلا توبة له فقد عماه كبره حتى أضاع الفرصة على نفسه.

✔ المؤمنون بآيات الله واتبعوها:

﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي **فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ** فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)﴾،،

ومصيرهم، النعيم الدائم في جنة الله تعالى ورضوانه. ويمثّلهم في مكة: رسول الله والذين آمنوا معه.

✔ مؤمنون ولكن..

المؤمنون الذين استوت حسناتهم مع سيئاتهم وهم "أصحاب الأعراف" وقد أخّر الله تعالى الحكم فيهم وبيان مصيرهم.. ثم في نهاية الأمر رحمهم الله تعالى وأدخلهم الجنة [1].

مِثْل الذين لم يأخذوا الكتاب (آيات الله) بقوة وحزم، من بني إسرائيل.. ويُشبِهون من أهل القرية الذين اعتدوا في السبت، يُشبهون الفريق الثالث الذين لم يتخذوا موقفاً من المعتدين فلم يبين الله تعالى مصيرهم، فجعله مجهولاً؛ "حيث نص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل":

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ **يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ** وَأَخَذْنَا الَّذِينَ **ظَلَمُوا** بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) ﴾ [الأعراف]

1 - انظر (تفسير ابن كثير).. ونادى أهل الأعراف (وفي كل زمان يوجد أهل أعراف) رجالاً من الملأ من أغنياء الكفار وقادتهم الذين في النار(من زمانهم، يعرفونهم بعلامات خاصة تميزهم)، قالوا مُقَرّعين لهم: ما نفعكم ما كنتم تجمعون من الأموال والرجال في الدنيا، وما نفعكم الجحود بآيات الله واستعلاؤكم عن الإيمان بالله وقَبول الحق.

3. (52-58)، وفي نهاية الجولة الثانية تأتي هذه الآيات وفيها تقرير لـ "خطاب النذارة" بشكل قوي ومركّز: أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير:

- (52-53)، وكانت البداية بالتعجب بل والإنكار لموقف قريش، فقد "استبطأ الحق تعالى إيمان أهل مكة الذين جاءهم بالكتاب المفصّل المبيَّن فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ **بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ** عَلَى **عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً** لِقَوْمٍ **يُؤْمِنُونَ** (٥٢) **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ... قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾ [الأعراف]، أي ما ينظرون ؟!! إلا عاقبة ما أخبر به القرآن من عذابٍ في الدنيا أو القيامة وأهوالها والنار وعذابها، وعندئذ يؤمنون !!، وهل ينفع يومئذٍ الإيمان ؟ "..

- (54)، ثم (خِطَابٌ مُوَجَّهٌ إِلَى الْمُشْرِكِينَ المنكرين ابْتِدَاءً، وَلِذَلِكَ كَانَ لِلتَّأْكِيدِ بِحَرْفِ (إِنَّ) مَوْقِعُهُ لِرَدِّ إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ انْفِرَادَ الله بِالرُّبُوبِيَّةِ. وهو اسْتِئْنَاف ابْتِدَائِيّ عَادَ بِهِ التَّذْكِيرُ إِلَى صَدْرِ السورة فِي قَوْلِهِ: (وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ) [الْأَعْرَاف:3].. فيقول تعالى لأولئك المتباطئين في إيمانهم { إنَّ ربّكم } الحق ومالك أمركم، ومتولى شئونكم، وإلهكم الذي لا إله لكم غيره، ولا ربَّ لكم سواه، الذي يجب أن تَعبدوه وتَدْعوه وتَتقرّبوا إليه وتطيعوه هو {الله} الذي له الخلق كلّه إيجاداً وتقديراً ومُلكاً.. وله وحده الأمر يتصرف كيف يشاء في الملكوت كله.. ويحكم بما يشاء.. فتبارك الله رب العالمين [(1)].

---

1 - (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) هذه الجملة الكريمة كالتذليل للكلام السابق، وجملة: (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) تدل على أنه استقرّ له وحده المُلك بلا شريك وليس له منافس ولا معارض، فهو وحده صاحب المُلْك يتصرّف في ملكه كما يشاء: إيجاداً (الْخَلْقُ) وتدبيراً وتصريفاً (الأَمْرُ)، بلا شريك ولا معين. بمعنى أن كلّ ما في الكون هو ملك لله وحده وفي سلطان الله وحده، ولا مُلْك ولا سلطان لأحد سواه.. تعالى الله ربّ => العالمين وتعظّم وارتفع وتنزّه عن كل نقص. (لاحظ أن رسل الله عندما خاطبوا أقوامهم، خاطبوهم بوصفهم رسلاً لله "ربّ العالمين").

هذا، وَقَدْ دَلَّتْ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ: (ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ) عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ، أَيْ وَأَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اسْتِوَاءُهُ عَلَى الْعَرْشِ، أي كونه له المُلْك وحده بلا شريك ولا مُعين، يدبّر شؤونها ويتصرّف فيها تصرّف المَلِك في مُلْكه، وأنه وحده القيوم عليها في استمرار وجودها.. <u>وَلِذَلِكَ ذُكِرَ الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ</u>..

وَلَعَلَّ في ذَلِكَ إشارة إلى إِبْطَالُ مَا يَقُولُهُ الْيَهُودُ: إِنَّ الله اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، كما بيّن ذلك في قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ) [ق:38]. أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.

[في بيان معنى الاستواء على العرش أنظر (تبيان سورة البروج). وللتفصيل في تحقيق المنهج الحق في النظر إلى أسماء الله جلّ ثناؤه، والأمور التي من "الغيب"، أنظر بحث (وعنده مفاتح الغيب) - مفاهيم ومصطلحات رسالية (الجزء الثالث)].

وَقَوْلُهُ: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ) أُطْلِقَ التَّسْخِيرُ فِيهِ مَجَازًا عَلَى جَعْلِهَا خَاضِعَةً لِلنِّظَامِ الَّذِي خَلَقَهَا الله عَلَيْهِ بِدُونِ تَغْيِيرٍ، مَعَ أَنَّ شَأْنَ عِظَمِهَا أَنْ لَا يَسْتَطِيعَ غَيْرُهُ تَعَالَى وَضْعَهَا عَلَى نِظَامٍ مَحْدُودٍ مُنْضَبِطٍ. وَلَفْظُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: (بِأَمْرِهِ) أي يُصرّف نِظَامِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا وفق إرادته. أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

- (55-56)، ثم أمَرَهم بالعودة إلى الله تعالى متذللين إليه.. ونهاهم عن الشِّرك والمعاصي وسفك الدِّماء (الفساد) فِي الأَرْضِ بَعْدَ إصلاح الله إياها ببعث الرَّسول.. ومن ذلك الفساد، معاداتهم للحق وإيذاؤهم لأهله وتعذيبهم وفتنتهم عن دينهم.
- (57-58)، ثم تقرير سنة الله تعالى في أن الذي يؤمن بالحق هو من تجرّدت نفسه لمعرفة الحق وصَفَت سريرته من كدر الهوى (الطَّيِّبُ)، ومن كانت نفسه خبيثة ولا يتبع إلا هواه (الَّذِي خَبُثَ) فهو لن يؤمن مهما رأى من الآيات لأنها لا توافق هواه [1].. فالأمر إذاً، منوط بكم وبموقفكم من رسالة الله، فكونوا مثل البلد الطيب وليس مثل البلد الآخر.

الجولة الثالثة (59 – 103):

وقوامها قصص بعض رسل الله تعالى مع أقوامهم، وهم على التوالي: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب عليهم السلام. أما قصة موسى عليه السلام، فهي بمثابة جولة مستقلة، فلها خصوصية، وقد خصها سياق السورة ببعض التفاصيل، زيادة على قصص الأنبياء الآخرين [2].

---

1 - (الآيات تقرر أن كتاب الله هو رحمة وهدى للمؤمنين وتقرر ضمنا أن الاستكبار عن دعوة الله وجحودها إنما يأتيان من أناس خبثت نواياهم وساءت طواياهم، وتَغلّب الهوى والعناد عليهم فأعميا بصائرهم، وأن هؤلاء هم الذين لا يرون في كتاب الله الهدى وطريق الحق، في حين أن الذين طابت سرائرهم ورغبوا في الحق وبرئوا من الهوى والعناد يؤمنون ويرون في كتاب الله رحمة وهدى (مثل سحرة فرعون آمنوا لما رأوا الآيات). وفي هذا وذاك تنديد بالكافرين من جهة وتنويه بالمؤمنين من جهة، وعزو الاهتداء والضلال لحسن النية وصدق الرغبة وخبث الطوية وتغلّب الهوى، وكونهما مظهراً لذلك من جهة أخرى). (فالأرض النقية إذا نزل عليها المطر تُخْرج نباتًا - بإذن الله ومشيئته - طَيبًا مُيسراً، وكذلك المؤمن إذا نزلت عليه آيات الله انتفع بها، وأثمرت فيه حياة صالحة، أما الأرض السَّبِخة الرديئة فإنها لا تُخرج النبات إلا عسرًا رديئا لا نفع فيه، ولا تُخرج نباتًا طيبًا، وكذلك الكافر لا ينتفع بآيات الله - كالذي انسلخ من آيات الله (175-176)، وإبليس، والملأ من قريش - مثل ذلك التنويع البديع في البيان نُنوّع الحجج والبراهين لإثبات الحق لمن صفت نيته وأراد أن يكون من الذين يشكرون نِعَم الله، ويطيعونه).

2 - تمهيد بين يدي القصص في السورة: ((ولا بد أن نلحظ - في قصة آدم عليه السلام - أن مشهد العُري بعد ارتكاب المحظور، والخصف من ورق الجنة ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم.. لا بد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا، ويُحَرّمون أنواعا من الثياب، وأنواعا من الطعام في فترة الحج. ويزعمون أن هذا من شرع الله، وأن الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم.. [قولٌ على الله بغير علم، افتراء على الله الكذب "المناط"].. ومن ثَمّ، يجيء في استعراض قصة البشرية وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية.. وفي كل جاهلية - في الحقيقة [سنة ثابتة].. أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى؟.. وهذا يدلنا على

هذا، وبعد آخر نداء لبني آدم (آية 35) الذي دعاهم الله تعالى فيه إلى اتباع رسله عندما يأتونهم بالبينات.. بيّن - سبحانه - مصير كلا الفريقين: الذين صدّقوا بالحق واتبعوا الرسل بعد أن جاءتهم البينات.. والفريق الآخر الذين جحدوا بالحق وكذبوا بالآيات. ثم في الآيات التي تلتها (من آية 55) يؤكّد الله تعالى على الحقيقة اليقينية الكبرى: أن الله جلّ وعلا هو الربّ الحق

سمة من سمات المنهج القرآني جديرة بالتأمل: إنه حتى القصص في القرآن لا يُسرد إلا لمواجهة [معالجة] حالة واقعة بالفعل. ولأنه يواجه - في كل مرة - حالة معينة، فإن الحقيقة التي تُذكر منه والحلقة التي تُعرض في موضع من المواضع، تُعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوّها. وهذا ينسجم مع ما قلناه سابقاً.. في مقدمة سورة الأنعام: من أن المنهج القرآني لا يعرض شيئا لا تستدعيه حالة واقعة.. إنه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام ولا حتى القصص.. إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها [البيان عند وجوبه]..)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب، باختصار..

نقول: ولهذا كانت حكمة الله تعالى أن يكون تنزيل آيات القرآن على قلب رسول الله، مرتلة وعلى مكث وليس جملة واحدة. [أنظر (الجزء الأول) - بيان الحكمة أو الغاية من الترتيل في تنزيل الآيات].
هذا، ويَلحظ المتـتبّع لسياق القصص كلها في السورة أن أهم سمة في القصص هي الاختصار والتكثيف.. وخاصة قصص الأنبياء، فكل قصة أبرزت موقفاً لقوم كل رسول يختلف عن القصة الأخرى.. مما يشبه ما كان يواجهه رسول الله من قريش (حالة واقعة فعلاً).. وأغفلت ذكر الكثير من التفاصيل والأحداث.. (ولكن، ولأمر مقصود ذُكر في القصص نقاط مشتركة عدة منها: تصوير حقيقة العقيدة الواحدة التي أرسل الله [رب العالمين] بها رسله جميعا لأبناء آدم.. كل في قومه.. « يا قَوْمِ اعْبُدُوا الله ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ». وفي تلقي الملأ المستكبرين والأتباع المستضعفين لهذه الحقيقة.. وفي وضوح هذه العقيدة وحسمها في نفوس الرسل وأتباعهم.. وفي روح النصح والرغبة في هداية قومهم.. ثم في مفاصلتهم لأقوامهم عند ما يتبين لهم عنادهم وإصرارهم الأخير. ثم في إدارة الله - سبحانه - للمعركة، وأخَذ المكذّبين بالعذاب بعد مفاصلة رسلهم لهم [أصبحوا فريقين أو فسطاطين] والانتهاء من إنذارهم وتذكيرهم. وعُتو المكذبين وإصرارهم على ما هم فيه..). أنظر (في ظلال القرآن) - سيد قطب..
هذا، والاختصار والتكثيف للقصص.. قرينة على تأخّر السورة في خط السير.. ذلك أن التفصيل ورد في سور سبقت.. فالآيات في السورة تقرر السنن الربانية ثم تأتي القصص لتؤكدها.. لكن هنا بشكل مختصر ومكثّف، لأن التفصيل قد ورد في سور سابقة. كما في الآيات (94-95) حيث يقرر الله تعالى سنة الأخذ بالبأساء والضراء (العذاب الأدنى) وأنها عامة أصابت أقوام كل الأنبياء، لكنه - سبحانه - لم يذكرها أو يشر إليها عند ذكر قصة كل نبي في الآيات السابقة.. بل اكتفى بذكرها في قصة موسى عليه السلام، كما اختصها بذكر بعض التفاصيل، مثل بيان طبيعة العلاقة بين الرسول وأتباعه بعد أن ينجيهم الله => تعالى من ظلم الطاغوت وقد أهلكه الله بعذابٍ من عنده.. وفي إطار الاستعداد لاستخلاف المؤمنين في الأرض.. وذِكر العقبات في الطريق التي تحول دون تحقيقه أو تأخّر تحقيقه..
ومن أشد ما كان الاختصار والتكثيف للقصص - في السور المرتبطة بفترة ما قبل التمكين للمؤمنين - كان في سورة الأنعام عند تقرير سنة الله تعالى في نصر أنبيائه بعد أن كذّبهم أقوامهم، في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله <u>وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ</u>{34}) الأنعام.. فقد اكتفى بالإشارة إلى ما جاء في السور السابقة من نبأ المرسلين.. وكذلك في سورة البروج: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ{17} فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ{18})، وسورة المزمل: (.إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{15} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{16}).. وذلك من باب وضع القانون والسنة في بؤرة الاهتمام، وأنها أصبحت واضحة وبدهيّة، وأنها حقيقة مقررة.. فمجرّد ذكرها يكفي.. دون الحاجة للتدليل عليها.

الذي يجب أن يعبده الناس ويطيعوا أمره وحده.. أي أنه لا إله إلا الله.. لأنه تعالى هو وحده "ربّ العالمين" الذي انقاد له الكون كله وأسلم لأمره.. وأنه وحده المالك المتصرّف في الوجود تصرُّف المَلِك العزيز في ملكه.. بلا شريك ولا مُنازع..
نقول، بعد أن ساق الله تعالى ما سبق، بدأ بذكر قصص رسله الكرام الذي قادوا موكب الإيمان بالله والإسلام له، تبارك وتعالى، في الحياة الواقعية للبشرية.. مبيناً - سبحانه - سُننه الجارية والحاكمة لسير رسل الله في بلاغ رسالات الله، ومواقف أقوامهم منهم ومن الحق الذي جاؤوا به.. ولكن، بشكل مختصر ومكثّف، فأورد في كل قصة جانباً يختلف عن الأخرى، مما يشابه حالة مماثلة لما يواجهه الرسول الخاتم في واقعه، واختص قصة موسى عليه السلام، بشيء من التفصيل.. ﴿..**لِتُنْذِرَ** بِهِ **وَذِكْرَى** لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [الأعراف]

والآن لنشاهد القصص ونلاحظ مواضع العبرة، في سياق معالجة مناط السورة:

– (59-64)، حيث أول ما خاطب **نوح** عليه السلام، قومه هو "خطاب النذارة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير.. وكان موقف القوم بقيادة الملأ، في بداية الأمر.. التكذيب. ثم أزال رسول الله الشبهات.. إلا أنهم بقوا مصرّين على التكذيب.. { فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ }..هكذا مباشرة ودون إمهال - بدلالة حرف الـ فاء - مع أن هذا كان بعد فترة طويلة وسنوات عديدة، لأن الإجمال والتكثيف في القصص مقصود هنا لتركيز النظر إلى عاقبة المفسدين (معالجة المناط).. والتوجيه إلى عاقبة تكذيب رسل الله. وفي النهاية حَكَم الله تعالى بينهم، وواجه كل فريق من الفريقين مصيره المحتوم كما هي سنة الله تعالى:
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾ [الأعراف]
فالاسم الموصول، للدلالة على أن هذا قانون عام يجري على كل مَنْ تلك صفاته (صلة الموصول).

– (65 -72)، حيث كان - أيضاً - خطاب **هود** عليه السلام، لقومه "خطاب النذارة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير.... وكان التكذيب - أيضاً - هو موقف القوم بقيادة الملأ، في بداية الأمر.. ثم رد الرسول على شبهات القوم التي تمنعهم عن الإيمان [1]، والتذكير بنعم الله عليهم بوصفهم قرية (مجتمع) [2].
إلا أن الملأ استمروا في إصرارهم على التكذيب، لأنهم يريدون البقاء على ما هم عليه من اتّباع دين آبائهم، والمحافظة على الواقع الذي ينتفعون منه.. فأخذوا - كِبراً وعُلواً - في استعجال العذاب في الدنيا (العذاب الأكبر) بعد إنذارهم به وأنه قريب أكيد. ثم انتظار الفصل بين الفريقين في وقته الموعود.. حتى حان موعده ووقع، وتحقق مصير كل فريق من الفريقين، من وعد ووعيد:

1 - (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ 1 لِيُنذِرَكُمْ..{69}) الأعراف.. وقد وردت هذه الشبهة في سور أخرى مثل: سورة ص. أنظر (تبيان سورة ص).
2 - أنظر (تبيان سورة قريش).

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾ [الأعراف]

والاسم الموصول للدلالة على أن الأمر قانون عام وسنة جارية.

– (73-79)، بداية - وكما هي دعوة الأنبياء - خاطب **صالح** عليه السلام، قومه "خطاب النذارة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير.. ومثل سائر رسل الله، كذّبه قومه أوّل الأمر.. ثم لاحقاً، حقق لهم طلبهم لآية مادية (المعجزة) دليلاً على صدقه، وهي الناقة، وأنذرهم بعذاب الله المدمّر والفوري إذا مسّوها بسوء.. كما هي سنة الله تعالى في المكذّبين بآياته المادية، وقد أنزلها بناء على طلبهم.. وذكّرهم بنعم الله عليهم بوصفهم قرية (مجتمع) ودعاهم إلى شكر الله تعالى على نعمه تلك، باستخدامها في الإصلاح وليس بأن يعيثوا في الأرض الفساد. وفي النهاية أصبح الناس فريقين: كافرين مستكبرين، ومؤمنين مستضعفين. والملأ بقوا مصرّين على كفرهم وتكذيبهم وازدادوا كفراً وتحدياً لله جل وعلا.. حتى عقروا الناقة، واستعجلوا العذاب.. ولم يمهلهم الله تعالى، فأنزل الله تعالى العذاب (الرَّجْفَةُ) بهم، وأنجى المؤمنين:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف]،،

– (81-84)، بدأت الآيات بنهي رسول الله **لوط** عليه السلام، قومَه عن إتيان الفاحشة، ووصْفهم بأنهم مسرفون. وهذا فيه اختصار وغض نظر عن أنه خاطبهم بداية بـ "خطاب النذارة"، وأنهم كذّبوه.. يعني كما خاطب كل رسول قومه.. ثم، ما كان من موقف قومه إلا أمروا بإخراج المؤمنين المستضعفين من القرية (الإخراج)، وهو آخر موقف يتخذه الملأ - وقد أصرّوا على الكفر - ضد المؤمنين وقد ثبتوا على الحق، ويكون بعده مباشرة الفصل بين الفريقين بإنزال العذاب على الكافرين، ونجاة فريق المؤمنين.. كما هي سنة الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا **أَخْرِجُوهُمْ** مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾ [الأعراف] [1].. فأنزل الله العذاب بالكافرين المجرمين، وأنجى المؤمنين.

– (86-93)، خاطب **شعيب** عليه السلام، قومه ومجتمعه بـ "خطاب النذارة" (لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير)، ثم نهى المجتمع (القرية) عن أعمال (أشكال) الفساد السائدة عندهم، والصد عن سبيل الله.. وتذكيرهم بنعم الله عليهم - بوصفهم قرية أو مجتمع - وأبرزها تكثيرهم بعد أن كانوا أقلّاء.. ثم ما لبثوا حتى أصبحوا فريقين، وكل فريق مُصرّ على موقفه.. خصمان. ولم يصبر الملأ المستكبرون على دعوة المؤمنين إلى عبادة الله.. فازدادوا كفراً وتحدياً.. فأخذوا في تهديد المؤمنين المستضعفين بالإخراج من القرية أو أن يعودوا في ملة قومهم الكافرين.. يعني "الإخراج" أو "الرِدّة"..

1 - كما في قوله تعالى سورة الإسراء: (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً{76} سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً{77}). وكما قال أبو بكر الصدّيق عن قريش: (أخرجوا نبيّهم، ليَهْلُكنّ). أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

ورغم ذلك ثبت المؤمنون على الحق، فازداد الموقف شدة وصعوبة عليهم.. هنالك دعوا الله تعالى الفتح (الحكم بالفصل) بينهم وبين قومهم.. و"الفتح بالحق" هو أن يأخذ كل فريق جزاؤه الذي يستحق، ألا وهو النصر للمؤمنين وإنزال العذاب على الكافرين [1]..

وبقي الملأ مُصرّين على الكفر، وعلى تهديد من يتّـبع رسول الله بالخسران.. فما كان من الله جلّ وعلا إلا أن جاء بالفتح من عنده، فأنجى المؤمنين.. وأنزل العذاب بالكافرين فكانوا هم الخاسرين.. والحمد لله رب العالمين..

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام]

ونؤكد هنا، على أن الصراع الذي دارت رحاه بين الفريقين الخصمين - رسل الله وأتباعهم من جهة، والملأ الذين كفروا من الجهة الأخرى - كان على لا إله إلا الله، وفي إطار "خطاب النذارة" ولمن يكون الإتباع :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠)﴾ [الأعراف]

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الأعراف]،، وكذلك الآيات:(35، 157-158، 203)

- (94-102)، تأتي هذه المجموعة من الآيات في سياق التعقيب على القصص السابقة، حيث يقرر الله تعالى أن تلك الأخبار والقصص فيها ذكرى للمؤمنين وتثبيت لهم، ونذارة للكافرين (الآية 2)؛ ليتعظ بذلك قريش - ومن هم على شاكلتهم - وليعلموا أنهم إن بقوا على كفرهم؛ فسيكون حالهم مثل حال من سبقهم على الكفر من القرى والمجتمعات.. وبدأ التعقيب ببيان سنة مهمة وخطيرة من سُنن الله تعالى في خط السير برسالات الله - بلاغاً وتطبيقاً - وهي سنة عامة شاملة لم يخرج عنها قرية جاءها رسول، بدلالة أسلوب النفي والاستثناء، وتنكير لفظتي: قرية، نبي.. الأمر الذي يدل على العموم والاستغراق:

﴿**وَمَا** أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ **إِلَّا** أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف]

وذلك في القرى التي بقيت مصرّة على تكذيب رسل الله، لأن قوله: { إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها } لا يترتب على الإرسال، وإنما يترتب على التكذيب والعصيان. فيكون المعنى: وما أرسلنا في قوم أو مجتمع من نبي فكذّبوه إلاَّ أخذناهم بالفقر والجوع والسنين (العذاب الأدنى) كي يستكينوا ويرجعوا. ثمَّ بدلنا بدل البؤسِ والمرضِ، الغنى والصحَّة حتى كثروا وسمنوا وسمنت أموالهم، وقالوا تكبّراً على الحق وجحوداً به: قد أصاب آباءنا في الدَّهر مثل ما أصابنا وتلك عادة الدَّهر،

---

1 - (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ{89}) الأعراف،، والافتراء على الله هنا.. هو "الردة" أي كفرهم بالله بعد أن علموا أنه الحق.. ذلك أن تركهم عبادة الله (الردة) وممارسة عبادة غير الله جلّ وعلا، بعد أن علموا أنه الحق.. هو ادّعاء بأن لله تعالى ليس هو الإله المستحق أن يعبدوه !!. وهذا ادعاء كاذب وافتراء على الله عزّ وجلّ. فهم بذلك قد (ظلموا بآيات الله) (المناط). مثل الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل، وصَفَهم الله تعالى بأنهم "مفترين".

ولم يكن ما مسَّنا عقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه. فأخذهم الله بغتة وهم لا يشعرون بنزول عذاب الاستئصال [1].

ونشير هنا، إلى أن الله تعالى لا يبدّل مكان السيئة الحسنة إلا بعد أن يَعِد أهل القرية رسولَهم ويتعهّدوا له أنهم سيؤمنون به إن رفع الله تعالى عنهم السيئة.. إلا أنهم ينكثون عهدهم بعد أن يرفعها الله تعالى عنهم، ويعودون إلى كفرهم بل بأشد وأعتى.. عندها يفتح الله تعالى عليهم الدنيا استدراجاً لهم.. حتى يأتيهم عذاب الاستئصال (العذاب الأكبر) [2]. وهذا إنذار لمشركي قريش لأنهم سائرون على خطى أسلافهم من الأمم المكذّبة، وسيصيبهم ما أصابهم.

وفي السياق السابق نفهم الآيات الباقية (96-102) من هذه المجموعة، حيث:

في الآيات (96-100)، يقرر الله تعالى حقيقة أن أهل القرى لو أنهم آمنوا لَمَا أصابهم العذاب بل لَفَتح عليهم بركات من السماء والأرض، ثم ينكر على أهل مكة ويوبّخهم على شعورهم بالأمن بعد أن فتح الله عليهم الدنيا استدراجاً، فلا يجوز لهم أن يأمنوا ليلاً ولا نهاراً بعد إصرارهم على تكذيب محمّد ﷺ ، فعذاب الله يمكن أن يأتيهم في أي لحظة من ليل أو نهار، فيُهلكهم [3].. فهم سائرون على سَنن المكذّبين من قبلهم.

وفي الآية (101)، بيان لسنّة أخرى من سُنن الله تعالى وهي: الطبع على القلب، وذلك كعقوبة من الله تعالى للذي يرفض دلالة آيات الله تعالى على الحق ظلماً وجحوداً اتباعاً للهوى (مناط السورة): ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾ [الأعراف]

فلن يؤمنوا الآن بالذي جاءت به الرسل من الآيات مهما كانت، فقد كذبوا بها من قبل، أوّل ما جاءتهم وسمعوا بها.. فقد اتخذوا التكذيب موقفاً مسبقاً وأصروا عليه، فجعلوه موقفاً نهائياً لهم.. فهم لا يريدون أن يؤمنوا بالآيات الآن كما لم يؤمنوا بها سابقاً..

---

1 - مع أن صياغة الآية تؤكد أنها أصابتهم جميعاً، إلا أن القرآن لم يُشر في القصص السابقة إلى كيفية وقوع هذه السنة على أقوام الرسل وذلك تماشياً مع أسلوب الاختصار والتكثيف للقصص.. مكتفياً بقصة نبي الله موسى عليه السلام، فقد بيّن وقوعها على فرعون وقومه بالتفصيل.

2 - وقد بيّن الله تعالى ذلك كله في قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون وقومه. وقد بينته كذلك سنة رسول الله وسيرته في هذا الطور. للتفصيل في بيان هذه السنة انظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

3 - (({أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى..} الْهَمْزَةُ دَخَلَتْ عَلَى (أَمِنَ) لِلِاسْتِفْهَامِ عَلَى جِهَةِ التَّوْقِيفِ وَالتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ وَالْوَعِيدِ لِلْكَافِرِينَ الْمُعَاصِرِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ أن يَنْزِلَ بِهِمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ. وَالْفَاءُ لِعَطْفِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا. يقول: أفأمن - يا محمد - هؤلاء الذين يكذّبون الله ورسوله، ويجحدون آياته، استدراجَ الله إيّاهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحّة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإنّ مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك [بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ] أن يكون استدراجًا، مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم (إلا القوم الخاسرون) وهم الهالكون)).
أنظر (البحر المحيط) - أبو حيّان، تفسير الطبري.
نقول: كما بيّنه تعالى لاحقاً بقوله: (وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ {182} وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ {183}) الأعراف

كما في الآيات (146–147). يقول ابن كثير: ((وقوله تعالى: { فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل } الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ [الأنعام])) [1].

ويؤكد حالهم ذاك قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾ [الأعراف].. يَرْجِع ضمير الغائب إلى الأمم المذكورة في الآيات السابقة، وقد نكثوا وعدهم بأن يؤمنوا إن رفع الله تعالى عنهم البأساء والضراء، فلم يؤمنوا بل ازدادوا كفراً.. حيث بيّن الله تعالى تفصيل ذلك في قصة نبي الله موسى مع فرعون وقومه. وهنا قال: { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم..} لأن بعضهم قد آمن مثل قوم يونس عليه السلام.

وما سبق تحذير للمكذبين المعاصرين لرسول الله - وفي كل زمن - إن لم يرجعوا ويتوبوا إلى الله قبل أن يقعوا في سنة "الختم على القلب"، لأن الله جلّ وعلا إن خَتَم على قلوبهم فلن يؤمنوا بعدها أبداً ولو رأوا الآيات البينات الواضحات:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾ [الأعراف]،،

فلم يطيعوا الله ولم يعتبروا، فوقع بهم ما أُنذروا به [2].

الجولة الرابعة (103 - 179):

يأتي الكلام عن قصة موسى عليه السلام، بشكل مستقل.. ((والقصة تبدأ هنا بمجمل عن بدئها ونهايتها، يوحي بالغرض الذي جاءت من أجله في سياق هذه السورة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا [المناط] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾ [الأعراف] [3].. فيصرّح النص بالغرض من سياقة القصة في هذا الموضع.. إنه

---

1 - نقول: وهذه إشارة أخرى إلى تقارب أجواء سورتي الأعراف والأنعام، إضافة إلى ذكر "العذاب الأدنى" في السورتين [الأنعام:44،45]. وكذلك سورة يونس حيث قوله تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ [أي نوح] رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ {74}) يونس

2 - وقد وصف الله تعالى الذين كفروا من قريش بقيادة الملأ، بأنهم لا يريدون أن يؤمنوا وأنهم استحقوا العذاب، أي الأكبر في سور أخرى: كما في الآيات الأولى سورة يس (7-12)، وآيات سورة البقرة (6-7).. أو السور التي ورد فيها تقرير أن الكافرين لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم: يونس والشعراء. وكان هذا في نهاية الطور الثالث من خط السير في سياق التهيئة للفصل بين الفريقين.

3 - ((بيّن تعالى هنا أن فرعون وملأه ظلموا بالآيات التي جاءهم بها موسى، وصرّح في سورة النمل بأنهم فعلوا ذلك جاحدين لها، مع أنهم مستيقنون أنها حق لأجل ظلمهم وعلوهم ؛ وذلك في قوله: (فلما جاءتهم

النظر إلى عاقبة المفسدين [معالجة المناط].. وبعد ذلك الإجمال المُوحي بالغاية، تُعرَض الحلقات التي تفي بهذه الغاية، وتُصوِّرها تفصيلاً... فعَرْض القصة متناسق مع جو السورة وأهدافها على طريقة القرآن في سياقة القصص كله، بالتوجيه إلى عاقبة تكذيب فرعون وملئه. وذلك منذ اللحظة الأولى في عرضها)) [1].

وترد قصة رسول الله موسى عليه السلام، بداية مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل، وذلك في وقفات ثلاث:

الوقفة الأولى: (103 - 137): قصة رسول الله موسى وقومه، مع الطاغوت فرعون.

الآية (103)، (ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذِكْرهم موسى بن عمران مؤيداً بحججنا الواضحة – العقلية منها والمادية - إلى فرعون وقومه، فجحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، فانظر متبصرًا - أيها الرسول - كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ؟ وتلك هي نهاية المفسدين.. وكونهم مفسدين هو ثمرة طبيعية للجحود بآيات الله والظلم بها). كما قال الأنبياء السابقون: (لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) (56، 85).

(104-105)، خطاب النذارة (لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير) وأن يطلق فرعون بني إسرائيل مع موسى..

(106-119)، المواجهة المباشرة والتحدّي العلني بين الحق ممثلاً بموسى وهارون، وبين الباطل ممثلاً بفرعون وملائه.. وكيف أن الحق أبلج ثابت وأهله ظاهرين، وأن الباطل لجلج زائل وأهله صاغرين أذلاء..

(120-126)، إيمان السحرة بعد أن رأوا الآيات، ثم صبرهم على تعذيب فرعون.. وذلك على النقيض من موقف أقوام رسل الله - بما فيهم قريش والآيات خطاب لهم -.. الآيات (101-103): { فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ(101)} و { كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ{9}} وفي هذا حجة على الكافرين ومنهم قريش، وتأييد وتثبيت للمؤمنين..

(127)، التحريض على المؤمنين من قِبَل الملأ من قوم فرعون - شبيه بقول قريش عن رسول الله والمؤمنين - وزيادة شدة الإيذاء والتعذيب (الكيد) ضد الإيمان وأهله.. بعد زيادة خوف الملأ من انتشاره وانتصاره.

آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا [13، 14])). أضواء البيان - الشنقيطي.

والظلم وضع الشيء في غير موضعه، تعدياً وبغياً. ولما كانت الآيات لوضوحها من حقها الايمان بها، وهم كفروا بها عناداً، قال الله تعالى:"ظلموا بها" للدلالة على أنهم جحدوا بها رغم علمهم أنها الحق (مناط السورة). للتوسع في معنى الظلم أنظر (معجم المقاييس) و (المفردات).

1 - (في ظلال القرآن) - سيد قطب

(128-129)، تثبيت المؤمنين من قوم موسى - وقد أبدوا تذمراً من شدة الإيذاء - من خلال حثهم على الصبر، والوعد بالنصر والتمكين، وأنه وعد من الله مُحقق فلا يقلقوا [1].. ولكن فليحذروا.. أنهم بعد التمكين والاستخلاف سيكونون تحت نظر الله تعالى ليرى هل يثبتون على الحق ويتحملون مسؤولية رسالة الله تطبيقاً وحملاً للناس.. يعني، هل يأخذون الكتاب بقوة أم لا ؟ هذا هو الأمر الذي يجب أن يقلقوا بشأنه [2].

(130-137)، بيان لسنة الله في المكذبين بآيات الله الغافلين عنها.. فقد أنزل الله "العذاب الأدنى" (البأساء والضراء) على القرية الكافرة، بعد رفضهم البيّنات وبعد زيادة أذاهم على المؤمنين، لعلّهم يعتبرون..

---

1 - ومما يشبه هذا السياق، الحوار الذي دار بين رسول الله وبعض أصحابه، فيما يرويه البخاري وغيره عن خباب بن الأرت: ((شكونا إلى رسولِ الله ﷺ، وهو متوسّدٌ بُردةً له في ظلّ الكعبةِ، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنا ؟ فقال: (قد كان مَن قبلكم، يؤخذ الرجلُ فيحفرُ له في الأرضِ، فيُجْعَل فيها، فيُجَاء بالمنشارِ فيُوضع على رأسِه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاطِ الحديدِ ما دون لحمه وعظمه، فما يَصدُّه ذلك عن دينه، والله لَيُتمَّنَّ هذا الأمرَ، حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرمَوت، لا يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمِه، ولكنكم تستعجِلون).وعند أبي داود زيادة: (فجلس محمراً وجهه فقال: (قد كان مَن قبلكم..الخ) مما يشير إلى أن رسول الله قد غضب من شكواهم وأنكر عليهم عدم تحمّلهم. => وهو ما يشير إليه قوله: (ولكنكم تستعجِلون).. ويؤيد ذلك المثل الذي ضربه رسول الله بالمؤمنين السابقين في شدة العذاب الذي كانوا يواجهونه ومع ذلك صبروا.. وكأنه يقول لهم، معاتباً وحاثّاً لهم: أفلا تصبرون أنتم على أقل من ذلك..!

ومما يشير أيضاً إلى حالة الاستعجال تلك، ما ورد في بعض السور مثل قوله تعالى في سورة العنكبوت: (الم{1} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ{2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{3}) فهذا استفهام إنكاري على عدم صبر بعض المسلمين وتحمّلهم إيذاء الكفار لهم في سبيل الله.. لشحذ عزائم المسلمين وتقوية إرادتهم.. فقد كانت صدورهم تضيق بذلك وربما استنكر بعض الناس أن يُمكّن الله الكفار من المؤمنين!. وخاصة أن الله تعالى قد فتح عليهم الدنيا (الإستدراج والإمهال). أنظر (تفسير ابن كثير، وغيره)

ومن القرائن الواضحة على شدة ما كان يواجهه المؤمنون في هذه الفترة، هو ما كان يشعر به رسولُ الله نفسُه من ضيق وحرج في بلاغ آيات القرآن وتلاوتها على الناس (آية 2)، فكيف بمن هو دونه من المؤمنين..

وهذه الفترة - من السير بالرسالة - هي التي ينطبق عليها وصف القرآن بـ "البلاء المبين": (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ {106}) الصافات: أي (إن الأمر بذبح ابنك - يا إبراهيم - هو الابتلاء الشاق الذي أبان عن صدق إيمانك). وكأن الله تعالى يقول للمؤمنين: إن الأمر لم يصل بكم بَعدُ إلى هذا المستوى من الشدة التي أوصلها الله تعالى مع خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عندما أمره بذبح ابنه البِكر بيده، وقد بلغ معه السعي. وكذلك وَصْف (الكرب العظيم).. أنظر (الطور الثالث) من خط السير، في الجزء الأول.

2 - ((وهو يُعْلِمهم - منذ البدء - أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم، ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه - كما زعموا - فلا يعذبهم بذنوبهم! وليس جزافاً بلا غاية. وليس خلوداً بلا توقيت. إنه استخلاف للامتحان: « فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »..). (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

ولمّا نزل "العذاب الأدنى" بالذين كفروا، تشاءموا من المؤمنين (التطيّر) فقالوا: أنتم سبب هذا البلاء الذي أصابنا [1].

ثم رفعه الله تعالى عنهم بعد أن وعدوا بالإيمان.. إلا أنهم نكثوا عهدهم (أنظر آية 102).. وبقوا مصرّين على كفرهم استكباراً وجحوداً.. ثم فتح الله تعالى عليهم أبواب الدنيا استدراجاً لهم وإملاءاً - حسب سنة الله تعالى في المكذبين كما في آية (99) و (182-183) - حتى يأتي موعد العذاب المدمّر (العذاب الأكبر)، إن لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة.

وهي نفس الحالة التي مرّت فيها قريش في موقفهم من رسالة الله: فبعد أن أصابهم القحط والدّخَان، وعدوا بالإيمان إن رفعه الله عنهم، فلما رفعه الله تعالى نكثوا بوعدهم، فلم يؤمنوا بل ازدادوا كفراً، والآن قد فتح الله تعالى عليهم الدنيا إملاء واستدراجاً.. (آية 182-183). وهذا وعيد وتهديد لقريش، أنه سيعذبهم كما عذب فرعون وقومه، إن لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة.. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)﴾ [المزمل]

أما وقد أصرّ فرعون وملاؤه على الكفر بآيات الله وترْكها وإهْمالها (الغفلة عنها).. فما كان من الله عزّ وجلّ إلا أن حقق وعده بالنصر والتمكين للمؤمنين بعد أن صبروا.. فوعد الله حق.. فهو سنة جارية:

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [الأعراف] [2]

---

1 - وعلى هذا يُفهم ما ورد في سورة يس:{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)}، وقوله في سورة النمل: {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)}

2 - ((والسياق يختصر هنا في حادث الإغراق (آية 136)، ولا يفصّل أحداثه كما يفصّلها في مواضع أخرى من السور. ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل فلا يعرض لشيء من التفصيل.. إن الحسم السريع هنا أوقع في النفس وأرهب للحس! « فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ ».. ضربة واحدة، فإذا هم هالكون. ومن التعالي والتطاول والاستكبار، إلى الهوِيّ في الأعماق والأغوار، جزاء وفاقاً: «بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ».. فيربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها [المناط]، وبين هذا المصير المقدور..

وتنسيقاً للجو الحاسم يُعجّل السياق كذلك بعرض الصفحة الأخرى - صفحة استخلاف المستضعفين (آية 137) - ذلك أن استخلاف بني إسرائيل في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح وقبل أن يزيغوا فيُكَتب عليهم الذل والتشرد، لم يكن في مصر، ولم يكن في مكان فرعون وآله. إنما كان في أرض الشام، وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون - بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة كما جاء في السور الأخرى - ولكن السياق يطوي الزمان والأحداث، ويُعجّل بعرض الاستخلاف هنا تنسيقاً لصفحتي المشهد المتقابلتين: « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها »...

وهذا كما فيه نذارة لقريش، فيه كذلك بشرى للمؤمنين: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [الأعراف]

الوقفة الثانية: (138 - 158): ما واجهه موسى عليه السلام من قومه بعد أن حقق الله تعالى وعده ووعيده، بنجاتهم من فرعون وإهلاكه:

حيث أن قوم موسى **عليه السلام** - الآن، في مرحلة التهيؤ والاستعداد للتمكين والاستخلاف في الأرض المقدسة:

﴿..قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ **وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي** الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ **تَعْمَلُونَ** (١٢٩)﴾ [الأعراف] [1] :

وهكذا يُسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار في جانب، وعلى مشهد الاستخلاف والعمار في الجانب الآخر.. وإذا فرعون الطاغية المتجبّر وقومه مغرقون، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عمد وأركان، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار.. إذا هذا كله حطام، في ومضة عين، أو في بضع كلمات قصار! مَثَلٌ يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة، المطارَدة من الشرك وأهله. ورؤيا في الأفق لكل عصبة مسلمة [تسير على منهاج رسول الله] تلقى من مثل فرعون وطاغوته، ما لقيه الذين كانوا يُستضعَفون في الأرض، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة - بما صبروا - لينظر كيف يعملون!)) (في ظلال القرآن) - سيد قطب..

1 - ((في هذا الدرس تمضي قصة موسى - عليه السلام - في حلقة أخرى.. مع قومه بني إسرائيل بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم وأغرق فرعون وملأه ودمر ما كانوا يعرشون.. إن موسى - عليه السلام - لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه فقد انتهت المعركة مع الطاغوت.. ولكنه يواجه معركة أخرى - لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً - إنه يواجه المعركة مع « النفس البشرية! » يواجهها مع رواسب الجاهلية في هذه النفس ويواجهها مع رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل وملأها بالالتواء من ناحية وبالقسوة من ناحية وبالجبن من ناحية وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية. وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً..

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني، هي التي سيواجهها موسى عليه السلام في هذه الحلقة - بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزه بهم البحر- وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس، وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية، وتواجه موسى - عليه السلام - بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل! وسنرى متاعب موسى - عليه السلام - في المحاولة الضخمة التي يحاولها وثقلة الجِبِلّات التي أخلدت إلى الأرض طويلاً، حتى ما تريد أن تنهض من الوحل الذي تمرّغت فيه طويلاً، وقد حسبته الأمر العادي الذي ليس غيره!. وسنرى من خلال متاعب موسى - عليه السلام - متاعب كل صاحب دعوة، يواجه نفوساً طال عليها الأمد، وهي تستمرئ حياة الذل تحت قهر الطاغوت وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها، ثم طال عليها الأمد، فبهتت صورتها، وعادت شكلاً لا روح فيه!، إن جهد صاحب الدعوة - في مثل هذه الحال - لهو جهد مضاعف. ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك.. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات، ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة!. ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة، في هذه الصورة المفصلة المكررة. لترى فيها هذه التجربة. كما قلنا من قبل. ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب، باختصار.

(138-141)، (طلبهم عبادة الأصنام):

وأوّل مشكلة واجهها موسى عليه السلام، من قومه أنهم ما إن جاوزوا البحر - الذي غرق فيه عدوهم اللدود، ورماله الرطبة ما زالت عالقة بنعالهم - وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام، فما كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام - الذي جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم - أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التي يعبدها أولئك القوم.. وهنا غضب عليهم موسى غضباً شديداً، غضبة رسول ربّ العالمين، لربّ العالمين.. يغضب لربّه - سبحانه - ويغار على ألوهيته أن يُشرِك بها قومه! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب.. فوصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق، وبيّن لهم فساد ما عليه المشركون، ثم ذكّرهم بأكبر نعم الله عليهم.. والتي كانت حاضرة في أذهانهم وأعصابهم - ولقد كانت هذه المنّة وحدها كفيلة بأن تُذْكر وتُشْكر - فكيف يُشركون بالله غيره ؟ !!.. (1)

نقول: من الظاهر أن أمة الرسالة الخاتمة هي المعنية بأخذ العبرة من قصص موسى مع قومه، وقد كانت البداية مع الرعيل الأول الذين شهدوا نزول هذه الآيات الكريمة، لأن الفكرة الرئيسة التي تدور حولها هذه القصص هي علاقة رسول الله مع أتباعه من المؤمنين، من حيث سهولة الانقياد لأمر الله ورسوله، والصبر على طاعة الله وأخذ رسالته بعزيمة وجِد، والصبر على البلاء والفتن، والتضحية في سبيل الله.. وذلك في سياق تهيئتهم وإعدادهم للاستخلاف في الأرض وحمل أمانة المسؤولية عن رسالة الله=> ودينه ؛ تطبيقاً على أنفسهم وحملاً للناس.. وأن **طول فترة** الإعداد تلك أو **قصرها** يعتمد على مدى قابلية الفئة المؤمنة للتعلّم والتزكية، ودرجة أخذهم الأمر بما يلزمه من الحَزم والجِد.. فقوم موسى - عليه السلام - استغرقوا أكثر من أربعين سنة، وقد فَني معظم الجيل الأول وجاء الجيل الثاني، حتى استحقوا عطاء الله لهم واستخلافهم في الأرض الموعودة..

هذا، وبناء على ما اعتمدناه في فهم القصص: "إنه حتى القصص في القرآن لا يُسرد إلا لمواجهة [معالجة] حالة واقعة بالفعل".. وقد شاهدنا مصداق ذلك في ما سبق من قصص هذه السورة.. فلا بد - إذاً - وأن المناسَبَة لذكر هذه القصص هنا هي أن الفئة المؤمنة كانت تمر في نفس هذه الفترة من الإعداد قبيل الهجرة والتمكين في المدينة المنورة.. يعني، بعد الطائف وما واجهه رسول الله من شدة وإيذاء من أهلها (الكرب العظيم).. ولم يستطع دخول مكة إلا بجوار المطعم بن عدي وحمايته له.. وفي أجواء اتصال رسول الله بالقبائل خارج مكة للبحث عمن يحميه وينصره - بدل أبي طالب - ليستمر في بلاغ رسالة ربه وقد منعه قومه من ذلك.. فأنزل الله تعالى هذه القصص ليبين للفئة المؤمنة ويحذّرهم من الوقوع فيما وقعت به الأمم حَمَلَة الرسالات قبلهم.. وأن الأمر منوط بمدى قابليتهم للتعلّم والتزكية وبعلوّ همّتهم.. فلا يكونوا مثل قوم موسى في تلكئهم وتباطئهم في الاستجابة لأمر الله واتباع رسوله. كما أشرنا في الرواية السابقة عن خباب بن الأرت. وآيات سورة الإسراء الأولى عن الإفسادين لبني إسرائيل وعلوّهم في الأرض، وأن الله سيدمرهم في كل مرة (وإن عدتم عدنا) .. نتناولها أيضا في نفس هذا السياق؛ معرفة أمة الرسالة الخاتمة سنن الله في الأمم حملة الرسالات، حتى تعمل ما فيه الخير حيث رضوان الله؛ عزّ وتمكين في الأرض، وتتجنّب ما يؤدي إلى غضب الله وعذابه؛ ذلاً في الدنيا وجهنّم في الآخرة.

1 - وقد تحوّل الخطاب من موسى إلى مخاطبة الله تعالى لهم. ((وعلى طريقة القرآن الكريم في وصل ما يحكيه عن أولياء الله بما يحكيه عن الله - سبحانه - يستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى - عليه السلام - موجَّـه كذلك لقومه.. وفي مثل هذا الوصل في القرآن الكريم، تكريم لهؤلاء الأولياء، ولا ريب !) أنظر (في ظلال القرآن) - سيد قطب. نقول: وفيه أيضاً: أن حكاية الله تعالى لقوم

(142-145)، (مواعدة الله تعالى لموسى لإعطائه منهاج العبودية لله):

وبما أنهم الآن في مرحلة التحضير والتهيؤ والاستعداد للاستخلاف في الأرض المقدسة، وقد أصبحوا أمة حرة سيدة نفسها.. أنزل الله تعالى شريعته وأحكامه المفصّلة لتنظيم شؤون حياتهم بحسب ما يحب الله تعالى ويرضى، وكان ذلك بعد ما رأوا وعاينوا من عظمة الله وجلاله في تسوية الجبل بالأرض.. فأمَرَ المؤمنين بالمباشرة بتطبيقها وبأخذها بقوة (على خلاف أصحاب الأعراف المترددين)، أي: بعزمٍ على الطاعة وبجدٍ واجتهاد على إقامتها، فتعظيم **الأمر** مبني على تعظيم **الآمر** جلّ وعلا.. فـ ((الْكِتَابَ الْإِلَهِيَّ يَجِبُ أَخْذُهُ بِقُوَّةٍ وَإِرَادَةٍ وَجِدٍّ وَعَزِيمَةٍ؛ لِتَنْفِيذِ مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ، وَتَكْوِينِ الْأُمَّةِ تَكْوِينًا جَدِيدًا صَالِحاً، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لَهُ، وَالدَّاعِي إِلَيْهِ وَالْمُنَفِّذِ لَهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، لِيَكُونَ لِقَوْمِهِ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ - تَعَالَى - فِي سَائِرِ الِانْقِلَابَاتِ وَالتَّجْدِيدَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِدَايَةِ الدِّينِ، وَالدِّينُ أَحْوَجُ إِلَى الْقُوَّةِ وَالْعَزِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ إِصْلَاحٌ لِلظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ جَمِيعًا، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولَهُمْ ﷺ مِنْ أَخْذِ الْكِتَابِ أَوْ مِيثَاقِ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ، أَمْرًا مَقْرُونًا بِتَهْدِيدِهِمْ وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ وُقُوعِ جَبَلِ الطُّورِ بِهِمْ)) [1]..

موسى مباشرة أبلغ في إقامة الحجة عليهم وعلى الأجيال القادمة منهم، فلا يجرؤون على إنكار تلك المنّة أو نسبتها لغير الله جلّ وعلا.

1 - (تفسير المنار) - محمد رشيد رضا، باختصار. وقوله تعالى: { سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } ((في هذه الجملة المختصرة بشارة بإتمام الوعد بنصرتهم على الفاسقين بطاعتهم، ونذارة على تقدير معصيتهم. فكأنه قيل: إن أخذوا بالأحسن أريتهم دار الفاسقين الذين في زمانهم، وأتممت عليهم النعمة ما دامو على الشكر، وإن لم يأخذوا أهلكتهم كما أهلكت الفاسقين من بين أيديهم. فحذّرهم لئلا يفعلوا أفعال الفاسقين إذا استقرت بهم الدار، وزالت عنهم الأكدار)) (نظم الدرر - البقاعي) بتصرف يسير. وهي بشارة موسى لهم من قبل: (قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{129}).
((قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّمَا قَالَ: { سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِمَنْ يُخَاطِبُهُ: سأريك غداً إلى ما يَصِيرُ إِلَيْهِ حَالُ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، عَلَى وجه التهدد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره)) (تفسير ابن كثير).
{سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} ((والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت- في ذلك الزمان- في قبضة الوثنيين، وأنها بشارة لهم بدخولها.. وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى عليه السلام، لأن تربيتهم لم تكن قد استكْملت، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قُوّمت، فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم: « يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ. وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ! ».. ثم لمّا ألحّ عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله، في الدخول والاقتحام! أجابوا موسى بتوقح الجبان- كالدابة التي ترفس سائقها! -، قالوا: « إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا، إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ! ».. مما يصوّر تلك الطبيعة الخائرة المفككة الملتوية التي كانت تعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام، وأمر هذا الأمر الإلهي الجليل أن يأخذها بقوة، وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة..)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب، باختصار.
نقول:

- ✓ قوم موسى لم يحققوا شرط الله تعالى - حسب سنن الله - حتى يحقق لهم ما وعدهم به من إسكانهم مكان الذين فسقوا كما بيّنه في سورة إبراهيم:(وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

(146-147) (بيان سُنّة الله في مَن غفلوا عن آيات الله بعد أن علموا بها):

هذا بيان لسنّة الله في الهدى والضلال: فقد قضت مشيئة الله أن يجازي ذلك العبد المتكبّر [1]، على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها [2]، بصرفه عن هذه الآيات فلا يؤمن بها أبداً!.. فَهُوَ الَّذِي أَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ سَبِيلٌ مِنْ أَسْبَابِ الْحَقِّ وَالرُّشْدِ يَسْلُكُهَا [3]، وهذه السنة عامة تنطبق على كل من اتصف وتلبّس بمقدماتها، فكل من كذّب بآيات الله وهو يعلم أنها الحق فكان عنها من الغافلين.. (ظلموا بآيات الله) (المناط).. سواء كان كافراً أصلياً مثل قريش، أم كان مؤمناً ثم ارتد وانتكس مثل مَنْ فعل ذلك من بني إسرائيل.. لذلك جاء بيان هذه السنة معترضاً بين خبرين عن بني إسرائيل: بعد إنذارهم إن لم يتمسّكوا بشريعة الله التي أوحاها لموسى، بقوله تعالى: ﴿..سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾ [الأعراف] ،، وكأنها تعقيب على النذارة وتأكيد لها، وبين يدي قصة ترْكِهم عبادة الله - جلّ وعلا - وعبادتهم العجل (الردة)، وكأنها تطبيق عملي لهذه السنة، فوقعوا في الغفلة ولم يرعووا.

وَعِيدِ{14}). أي: (وإسكان المؤمنين أرضهم أمر مؤكد لمن استحضر عظمتي ومراقبتي له، وخاف إنذاري له بالعذاب). =>

- ✓ والجيل الأول، جيل القدوة، من هذه الأمة الخاتمة المباركة.. قد وعى - والحمد لله - الدرس وفقهوا العبرة، فلم يقعوا بما وقع فيه بنو إسرائيل.. فنراهم - رضي الله عنهم وأرضاهم - في أوّل مواجهة عسكرية كبيرة ضد الكفر.. في غزوة بدر الفاصلة، يقولون لرسول الله: (امضِ يا رسولَ الله لما أمرك الله. فوالَّذي بعثك بالحقِّ، إن استعرضتَ بنا هذا البحرّ فخضتَه لخضناه معك، ما يتخلَّفُ منَّا رجلٌ واحدٌ).. وهذا المقداد ابن عمرو أيضاً يقول: (يا رسولَ الله إنا لا نقولُ لك كما قال بنو إسرائيلَ لموسى: { اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[المائدة24]، ولكنِ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلَا إنا معكم مقاتِلون). أنظر(صحيح السيرة) - إبراهيم العلي، (جامع المسانيد والسن) - ابن كثير.

1 - ((وَالتَّكَبُّرُ صِيغَةُ تَكَلُّفٍ أَوْ تَكَثُّرٍ مِنَ الْكِبْرِ الَّذِي هُوَ غَمْطُ الْحَقِّ بِعَدَمِ الْخُضُوعِ لَهُ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ، فَهُوَ شَأْنُ مَنْ يَرَى أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَخْضَعَ لِحَقٍّ، أَوْ يُسَاوِيَ نَفْسَهُ بِشَخْصٍ)). (تفسير المنار - محمد رشيد رضا).

2 - الغَفْلَةُ: سهو يعتري الإنسان من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ، يقال: غَفَلَ فهو غَافِلٌ. قال تعالى: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا) [ق/22]، (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) [الأنبياء/1]. وأرض غُفْلٌ: لا منار بها، ورجل غُفْلٌ: لم تسمه التّجارب. وقوله: (مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا) [الكهف/28]، أي: تركناه غير مكتوب فيه الإيمان، كما قال: (أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ) [المجادلة/22]، وقيل: معناه من جعلناه غَافِلًا عن الحقائق. (المفردات).

((وَكَانُوا غَافِلِينَ عَنْهَا [آيات الله] دُونَ أَهْوَائِهِمْ، لَا يُعْطُونَهَا حَقَّهَا مِنَ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّفْكِيرِ وَالتَّدَبُّرِ، لِاشْتِغَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ بِأَهْوَائِهِمْ وَعُصْبَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِآبَائِهِمْ، وَبِذَلِكَ قَطَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَرِيقَ الْهُدَى، فَالْغَفْلَةُ هُنَا: هِيَ الْغَفْلَةُ الْمَانِعَةُ مِنْ أَسْبَابِ الْعِلْمِ وَالْفِطْنَةِ، لَا أَيُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْغَفْلَةِ، بَلْ هِيَ الْمُبَيَّنَةُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - مِنْ أَوَاخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {179})) (تفسير المنار) - محمد رشيد رضا.

3 - أنظر الآيات (101-102) (الطبع على القلب)، مثل موقف فرعون وملائه آية (132).. الآية 37، 40.

ويؤيد ذلك؛ التعقيب على قصة عبادة العجل ببيان **سنّة الله** تعالى بـ "المفترين" وهم الذين اتبعوا الباطل وتركوا الحق وهم يعلمون.
وبيان سنة الهدى والضلال، فيه إنذار لكل مَن كذّب بآيات الله تكبّراً وعلّواً واتباعاً للهوى.. فإن بقوا على تلك الحال فإن الله تعالى سيعاقبهم.. وهذا تعريض بقريش. وفيه كذلك تعليم للمؤمنين - حَمَلة الرسالة الخاتمة - ليأخذوا العبرة ببني إسرائيل بوصفهم أمة مسؤولة عن رسالة الله تعالى تطبيقاً وحملاً، وقد قَرُب تمكين الله تعالى لهم في المدينة (أنظر ربط السورة بخط السير).

(148-153)، (اتخاذهم العجل):

وَإِنَّمَا نُسِبَ اتخاذ العجل هُنَا إِلَى قوم موسى - مع أن السامري هو الذي صنعه - لِأَنَّ السامري عَمِلَ رَأْيَ جُمْهُورِهِمُ الَّذِينَ طَلَبُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ آلِهَةٌ.. فكانوا بذلك ظالمين [1].. (ظلموا بآيات الله) (المناط).. بل ومفترين أيضاً.. ثم بيّن سنة الله في (المفترين) وهم الذين علموا الحق فتركوه واتخذوا الباطل منهجاً (الردة) وهم يعلمون: ﴿إِنَّ **الَّذِينَ** اتَّخَذُوا **الْعِجْلَ** سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ **فِي** الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي **الْمُفْتَرِينَ** (١٥٢)﴾ [الأعراف]

وهي سنة تجري على كل المفترين إلى يوم الدين [2].. فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله عزّ وجلّ: أنظر الآيات (37، 42).. إلا أن طريق التوبة والعودة إلى الله مفتوح دائماً.. والحمد لله.
فقد حصل من قوم موسى خطأ وانحراف شديد (ضلال، ردة) عن خط العبودية لله تعالى.. ثم توبة واستغفار عن ذلك.. ثم جاء بيان وتقرير لقانون عام (سنة جارية).

(154-158)، (اختيار موسى خيرة قومه للقاء الله والتوبة):

بيّن الله تعالى أن رحمته سيكتبها للذين هذه صفاتهم:
﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾ [الأعراف]
وهم على النقيض من الذين (كذبوا بآياتنا) و (ظلموا بها) و (المفترين)..

---

1 - ((وإنها لصورة زريّة للبشرية تلك التي كان يمثلها القوم [بني إسرائيل]. صورة يعجب منها القرآن الكريم وهو يعرضها على المشركين في مكة وهم يعبدون الأصنام!)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب

2 - كما في قوله تعالى عن شعيب والمؤمنين معه: (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا..{89}) الأعراف. وكقاعدة عامة: { وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً } [النساء/48].. فهذا شكل من أشكال " الظلم بآيات الله " (فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ{9}) الأعراف.. (المناط). و العجل يمثل كل ما يمكن أن تتخذه أمة من آلهة (طاغوت) من دون الله؛ مثل الجاهلية الحديثة، وقد اتخذت "آلهة عصرية" متناسبة مع "التقدم" الذي تعيشه؛ مثل "العلم"، العقل، رأي الأكثرية، الوطن، العالمانية، الموضة، الأمم المتحدة وتشريعاتها.. (ظلمات بعضها فوق بعض).

ثم دعوة بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله - النبيّ الأميّ - إلى اتّباعه والإيمان بالحق الذي جاء به من عند الله. فالآية (157) تتكلّم عن بني اسرائيل (يهوداً ونصارى) زمن الرسول، وتحثهم - وغيرهم - على اتباع الرسول الأميّ.. فلا يخطئوا ويضلوا بترك اتباعه - وهم يعلمون أنه رسول الله - فيكونوا من "المفترين".. كما ضل أجدادهم - قوم موسى - بعبادة العجل من دون الله.. فإن كانوا صادقين في طلب رحمة الله ورضوانه فما عليهم إلا اتّباع الرسول الأمي المنتظر ونَصْره وتأييده، وقد عرّفه لهم .

ثم تكليف رسول الله الخاتم بتوسيع دائرة الخطاب إلى الناس جميعاً - قريش وبني إسرائيل يهوداً ونصارى ولمن جاء بعدهم - لتقرير حقيقة أنه رسول الله إليهم وإلى الناس جميعاً، ودعوتهم إلى الإيمان بالله واتباع الرسول الأميّ [1]..

الوقفة الثالثة: (159 - 179): دعوة بني إسرائيل المعاصرين للرسول الخاتم.

وذلك من خلال تقديم تقرير (عرض حال) عن واقع بني إسرائيل وطبيعتهم المعوجة والصعبة [2]، ليتعلّم المؤمنون من الأمة الخاتمة، كيفية دعوتهم ومخاطبتهم والتعامل معهم. فجاءت آيات هذه المجموعة في سياق واحد وهو: بيان مقدّم للأمّة الخاتمة ممثلة بقائدها الأعلى وإمامها محمّد - عليه وآله الصلاة والسلام - عن حال بني إسرائيل وبيان لطبيعتهم وواقعهم [3]، وذلك بمناسبة توجيه الدعوة لهم وللناس أجمعين - في الآيتين السابقتين لهذه المجموعة (157-158) - للإيمان بالله وبالرسول الأمي. وهذه المجموعة من الآيات قد تكون نزلت قُبيل الهجرة أو في أثنائها، بين يدي تمكين المؤمنين في المدينة.

وإليك شيء من التفصيل:

---

1 - ((« قُلْ: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ».. إنها الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل.. جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجاءت للبشر جميعاً، لأنه ليست هنالك رسالات بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان. وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً. وَمن ثَمّ حملها النبيّ الأميّ الذي لم يدخل على فطرته الصافية - كما خرجت من يد الله - إلا تعليم الله. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً..)) (في ظلال القرآن) - سيد قطب. أقول: هذه لفتة مهمة من صاحب "الظلال" رحمه الله، في بيان أبرز صفات من يصلح لحَمْل رسالة الله وحسب منهاج النبوة، وصفات مَن توَجَّه له الدعوة بداية ويكون في مركز الاهتمام ليكون من الصف الأول، إنهم الذين أخلصوا نفوسهم وعقولهم وقلوبهم لله، فلا يتلقّون إلا منه ولا يشربون إلا من هديه؛ قرآناً وسنة.

2 - وقد نسبهم الله تعالى في هذه السورة إلى نبيهم موسى فقال عنهم: (قوم موسى). ((وطبيعة بني إسرائيل - كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات - طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس.. ذلك إلى غلظ في الكبد، وتصلّب عن الحق، وقساوة في الحس والشعور!)) (في ظلال القرآن) - سيد قطب.

3 - شبيه بما جاء في سورة البقرة من بيان لحقيقة بني إسرائيل، خاصة الآيات (40-100).

– (159-162)، بيان أن قوم موسى - عليه السلام - ليسوا سواء، فمنهم صالحون متبعون للحق وبه يحكمون.. ثم تعداد لنعم الله على بني إسرائيل، ومنها أن الله تعالى قطّعهم أَسْبَاطاً أُمَماً، وأعطى كل سبط ما يناسبه حتى لا تقع بينهم الشحناء والبغضاء.. وذكر غيرها من نعم الله تعالى عليهم العظيمة الخاصة الجليلة.. إلا أنهم لم يقابلوا إكرام الله تعالى لهم وإنعامه عليهم، لم يقابلوه إلا بالكفران والسخط والتذمّر.. فظلموا أنفسهم بكفرهم بتلك النعم فعاد عليهم ضرر ذلك وعقوبته، وما رجع إلى الله ضرر ظلمهم، ولكنه كان مقصورا عليهم (بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ).. تذكيراً لهم بعذاب الله الأليم الذي يضطرب له كل قلب (الرّجز)، عندما عصوا الله تعالى وبدلوا أمره وتركوا شريعته.. فلماذا لا يشكرون الله تبارك وتعالى، فيؤمنون بالنبي الأمي ويتبعونه؟!! [1].

– (163-166) - واسأل أيها الرسول بني إسرائيل - استنكارًا لما فعل أسلافهم - عن حال أهل القرية التي اعتدى بعضهم يوم السبت ووقف بعضهم موقف الواعظ ووقف فريق آخر موقف السكوت [2].. وهكذا الحال في كل أمة شاع فيها الفساد..
فلما تركوا ما وُعِظوا به، أخذ الله تعالى الذين ظلموا فاعتدوا وخالفوا بعذاب شديد، هو البؤس والشقاء. بسبب خروجهم عن طاعة الله ربهم، وأنجى الذين ينهون عن العمل السيء من العذاب. وسكت عن الفريق الثالث.. فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين.
إلا أنهم لمّا قسوا وتكبّروا أبَوْا أن يرجعوا عن المعصية، ولم يردعهم العذاب الشديد السابق، مسخهم الله تعالى قردة، مبعدين عن كل خير [3]..

فإنزال العذاب بالعتاة المتكبّرين سنة ربانية جارية لا تتخلف، تنطبق على بني إسرائيل - بوصفهم أمة تحمل رسالة الله تعالى - وقد بغوا وتمردوا وتكبروا.. وعلى قريش ومن هم مثلهم.

وفي بيان ما سبق حثٌّ للعقلاء من أهل القرى على نهي سفهائهم - ومنهم الملأ - عن عمل المنكر ومحاربة أهل الحق.. وفيه أيضاً، إشارة بالبشرى للمسلمين بقرب النصر والتمكين.. ودعوة إلى الاعتبار ببني إسرائيل.. كون أن الله تعالى قد تفضّل عليهم لما صبروا واستقاموا على أمر الله، وغضب عليهم لما انحرفوا وبدّلوا..

---

1 - شبيه بخطاب الله تعالى لهم في سورة البقرة إلا أن الله تعالى قال للمسلمين عنهم هناك: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {75} البقرة،،، وهنا في الأعراف لم يقل الله تعالى عنهم ذلك. مما يشير إلى أن خطاب الأعراف سابق لخطاب البقرة.

2 - ((وتلك قصة أخرى ما كان يعرفها النبي ﷺ ولا قومه ولكنه علمها عن طريق الوحى، وهذا سؤال تقرير، أي: قِرّوا بهذا، والمراد التقريع والتوبيخ على أعمالهم السابقة، وبيان أن كفر المعاصرين للنبي ﷺ ليس بدعا بل هو موروث)) (التفسير الواضح - الحجازي). وانظر (التحرير والتنوير - ابن عاشور).

3 - ((أخرج مسلم بسنده عن ابن مسعود - رضي الله عنه – مرفوعاً: إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ولا عقبا. وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك. (الصحيح رقم 2663 - القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها). وهذا الشاهد في الحديث حيث ورد أطول من هذا اللفظ)). (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين.

– (167-171)، واذكر يا محمّد وقت أن أعلم الله- تعالى- هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم، ليسلطن عليهم - بكل تأكيد - إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب، إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر وجانب طريق الحق، وإنه لغفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحا [1].

و أمة محمّد النبيّ الأميّ سيكونون من أولئك الذين سيبعثهم الله ليسوموا بني إسرائيل سوء العذاب إن لم يؤمنوا به ويتبعوه.

وفِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ إلا أن الصفة الغالبة عليهم الهروب من الله والتفلّت من أوامر الله، فكلّما تهرّبوا أعادهم الله تعالى إليه بابتلائهم بالرخاء والشدة، والعافية والبلاء.. لعلهم يرجعون..
وخَلَفَ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِينَ فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ خَلْفٌ آخَرُ لَا خير فيهم، ومنهم المعاصرون لرسول الله وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، ويعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوّفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه وأخذوه حلالاً كان أو حراما !! ويتمنون المغفرة!!

يقول تعالى منكرا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه، يقول: أفليس لهؤلاء - الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عمّا عندي - عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير. ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمّد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فاعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره..

هذا، ونتيجة لطبيعتهم الملتوية تلك والمتفلّتة من أوامر الله، صار من الطبيعي أنهم لا يستقيمون على أمر الله إلا بالتخويف وتحت التهديد.. لهذا نجد أنه أول ما وصل رسول الله المدينة المنورة ألزمهم بالوثيقة "وثيقة المدينة" ببنود محددة ورتّب الجزاء على المخالفة، وهو ما حصل فعلاً.. فمقابل كل خيانة لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين، قاموا بها، كان يصيبهم مباشرة عذاب من الله تعالى بأيدي المؤمنين.. كما أصاب بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وأخيراً أهل خيبر.. ومن بقي منهم ضُربت عليهم الجزية عن يد وهم صاغرون.
فهذا تذكير لبني إسرائيل - زمن الرسول الأميّ - بأيام الله وعذابه لهم حينما عصوا وعتوا وفسقوا وظلموا.. إنذاراً لهم لحثّهم على الإيمان بالحق واتباع النبي الأميّ (شبيه بخطاب سورة البقرة).. وفيها دعوة للمسلمين إلى الاعتبار ببني إسرائيل.

– (172-174)، تذكير بميثاق الفطرة، كتعقيب على الآية السابقة أن لا حجة للخلف الضالين بأن سلفهم ضلوا قبلهم، بعد نصب الأدلة، ووجود العقل والفطرة. ويدخل في الخطاب

---

1 - ((وهذا الإطلاق في هذا الوعيد الشديد يقيد بأحد أمرين، الأول: بتوبة من تاب منهم ويدل على هذا القيد قوله تعالى في آخر هذه الآية:{إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} أي لمن تاب. والثاني بجوار دولة قوية لهم وحمايتها وهذا مفهوم قوله تعالى من سورة آل عمران: {ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله} وهو الإسلام {وحبل من الناس}، وهو ما ذكرناه آنفاً)). (أيسر التفاسير) - أبو بكر الجزائري.

دخولاً أولياً بني إسرائيل وقريش، أنظر الآية (38-39) والقصد من الآية الاحتجاج عليهم بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفةً فطريّـةً لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة. قال تعالى:
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم]
والفطرة - باختصار - هي معرفة ربوبيته، وأنه وحده الإله المستحق للعبادة.. بالإلهام النفسي دون تعليم خارجي.

– (175-177)، هذا مَثَلٌ عام ضربه الله تعالى للذين عَلِموا بآيات الله تعالى المنزلة على رسله وأدركوا مراد الله تعالى منها ثم كذّبوا بها واستكبروا عنها، فلم يتعظوا بما جاء فيها. فأشبهوا - في التباين بين علمهم وعملهم - الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض، حتى لا تبقى له به صلة [1].

---

1 - (فالتعبير بالانسلاخ المُنبئ عن اتصال المحيط بالمُحاط خِلقةً، وعن عدم الملاقاة بينهما أبداً، للإيذان بكمال مباينتِه للآيات بعد أن كان بينهما كمالُ الاتصال).. فهو لم يتبع سنن الله تعالى في الهداية.. فالعلم بالحق أمر، واتباعه وإيثاره عما سواه أمر آخر.. وهو كالفرق بين "الضالين" الذين لم يعلموا الحق فضلوا.. و "المغضوب عليهم" الذين علموا به ثم تركوه وتخلوا عنه.. ثم بيّن الله تعالى كيف حدث ذلك، ولماذا: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} أي: أنه لو فعل ما يقتضي الرفعة - حسب سنن الله - فعمِل بما علِم، وآثر الحق عمّا سواه لارتفع في الدنيا والآخرة، وتحصّن من أعدائه. {وَلَكِنَّهُ} فعل ما يقتضي الخذلان، حيث ترك الحق وكره الرفعة في طاعة الله والتقرّب إليه فـ {أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ}، أي: ركن إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية. {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} وترك طاعة مولاه. {فَمَثَلُهُ} في حرصه على اتباع هواه وعدم انتفاعه بآيات الله، {كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}.. وجملتا الشرط حال، أي: لا يزال لاهثا ذليلاً بكل حال.. وذاك لا يزال متبعاً لهواه، سواء عند علمه بآيات الله أم بعد أن انسلخ منها، فهذا هو واقعه وهذا هو حاله الدائم: الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى، لذلك لم ينتفع بالآيات.
وإيثارُ الجملة الاسميةِ على الفعلية بأن يقال فصار مثلُه كمثل الكلب.. الخ، للإيذان بدوام اتصافه لتلك الحالة الخسيسة وكمال استقراره واستمراره عليها.
وهذا مثله كمثل إبليس عندما ابتلاه الله تعالى بالسجود لآدم، فعصى الله جلّ وعلا واتّبع هواه وتكبُّره.. فانكشفت حقيقته وبان سوء سريرته، أي لهاثه وراء شهواته واتباع هواه. ثم أعلن عداءه الشديد لآدم وذريته حتى قيام الساعة (في أول السورة).
{ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردّوها، اتباعاً لأهوائهم، وتركوا هدى الله. (المناط).. {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ} على اليهود وقريش وأضرابهم {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.
{سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ} أي: قَبُح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بترك هدى الله وطاعته، فإن مثلهم مثل السوء. أنظر تفاسير: أبو السعود، محاسن التأويل، الطبري، السعدي، التفسير الميسر، الجلالين.
نقول: أمَا وقد جعل الله تعالى هذا الرجل مثل سوء - حتى قيام الساعة - لكل من علم آيات الله فكذّب بها.. وعليه فلا طائل من الانشغال في تعيينه، وقد عرّفه الله تعالى بطبائعه وميّزه بصفاته وبيّن أحواله. وفيه معالَجة مباشِرة لـ (مناط السورة). =>

والمعنى: ذلك المثل الذي ضربناه، مثلٌ للقوم الذين كذبوا بآياتنا بعد أن علموا بها وفقهوها، فاقصص هذا القصص ونحوه على بني إسرائيل أصالة، وعلى كل من كذّب بآيات الله بعد أن علم أنها الحق، ومنهم قريش رجاء أن يثوبوا إلى رشدهم، ويتفكروا في أنفسهم [(1)].

فهذا إنذار لهم عن طريق ضرب المثل، حتى لا يتركوا الحق ويتخلوا عن رسول الله بعد أن علموا أنه الحق من ربهم.. ثم:

- (178)، وبمثابة خاتمة عامة لما سبق ذكره من أحوال الذين وصلتهم دعوة الله تعالى وبلغتهم رسالته بيّن الله تعالى سنته العامة في الهدى والضلال وهي: إن الهدى من الله جلّ وعلا، فمن أخذ به فقد اهتدى وهو من المفلحين، ومن رفضه فقد ضل وهذا هو الخاسر حقيقة. وبعد ذلك بين الله تعالى صفات الذين استحقوا عذاب النار (الْخَاسِرُونَ):

- (179)، وهم الذين يرفضون آيات الله الدالّة على الحق بعد أن سمعوها وعلموا أنها الحق، مثل أهل الكتاب وقريش وغيرهم.. فتركوا الحق بعد أن جاءهم..

هذا، وقد شبّه الله تعالى بني إسرائيل في عدم انتفاعهم بالعلم الذي عندهم، بمثل قبيح آخر قريب من مثل الكلب، وذلك في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {5}) الجمعة.. فهم كشَبه الحمار الذي يحمل كتبًا ولا ينتفع بما فيها من علم، قَبُحَ مَثَلُ القوم الذين أوتوا آيات الله ثم كذَّبوا بها ولم يهتدوا بها، والله لا يوفِّق القوم الظالمين الذين يتجاوزون حدوده، ويخرجون عن طاعته. فهم لم يرفعهم الله تعالى بالعلم الذي آتاهم، لأنهم قوم ظالمون.. والعياذ بالله. وفي ذلك عبرة للمسلمين بوصفهم حملة الرسالة الخاتمة.

1 - الكلام عن بني إسرائيل بهذا التفصيل في الآيات السابقة من السورة قد يكون قرينة على أن هذه الآيات نزلت في المدينة، فهي تشبه إلى حد كبير مخاطبتهم في أوائل سورة البقرة. أما إذا كانت الآيات مكية (نزلت قبل الهجرة)، فهي قرينة على اتصال قريش بيهود المدينة - في أواخر الفترة المكية - لطلب مساعدتهم وقوفهم معهم ضد رسول الله ودعوة الله.. فتأتي الآيات في سياق كشف حقيقة يهود وبيان فساد طبعهم وسوء سريرتهم.. وبالتالي اسقاط حجتهم كأهل كتاب، وإلغاء تأثيرها السلبي على عامة الناس.

هذا، وقد تدخل الآيات الأولى من سورة الكهف في نفس هذا السياق.. فقد وردت في سورة الكهف رواية ثابتة عن ابن مسعود - رضي الله عنه - يبيّن فيها أن السورة بالكامل مكية فهي "من العِتاق الأُوَل"، وعليه فهي تندرج تحت الاحتمال الثاني في مناسبة ذكر أهل الكتاب، أي اتصال قريش بيهود المدينة.

وعلى كلٍ، فمن منظور "الفهم المنهاجيّ" للسورة فذلك لا يؤثر على فهم السورة بشكل عام، بل إن الفهم المنهاجيّ للسورة هو الذي من خلاله تُشاهد السورة كوحدة واحدة. فقصص بني إسرائيل الواردة في السورة تعتبر حالة نموذجية لمناط السورة، أي الذين ظلموا بآيات الله، وكذبوا بها بعد أن علموا أنها الحق، وهم من المفترين.. فهم يشبهون قريشاً من هذا الجانب في الإصرار على تكذيبهم برسول الله رغم علمهم أنه رسول الله.

وهنالك ميزة لتلك القصص، عن سائر قصص رسل الله.. أنها تناولت بعض شؤون المؤمنين "أثناء الإعداد والتهيؤ لطَوْر النصر والتمكين"، فيها دروس وعبر للمسلمين من هذه الأمة أتباع الرسول الخاتم..

ومن أهم تلك الأمور: المسؤولية عن تطبيق شريعة الله وأخذها بقوة.. وكذلك الأخطاء أو الانحرافات عن المنهاج التي يمكن أن تحدث مع المؤمنين لأسباب مختلفة، والتي قد تكون خطيرة تستنزل عذاب الله تعالى عليهم.. وتؤخّر نصر الله لهم وتحقيق وعده بتمكينهم في الأرض.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]، أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾ [البقرة]،، أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول ولهذا قال في أولئك: {**بَلْ هُمْ أَضَلُّ**} أي من الدّواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء؛ ولأنها لم تفعل خلاف ما خُلقت له؛ إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر؛ فإنه إنما خُلق ليعبد الله ويوحده، فكَفَر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه..

فهم استحقوا جهنم بسبب غفلتهم وإهمالهم لعقولهم وحواسهم فلا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية [1].

الخاتمة (180 – 206):

من هنا حتى آخر السورة الخطاب متعلق بالمؤمنين حَمَلة الرسالة بقيادة رسول الله تعليما وتوجيهاً لهم في بيان معالجات علاقتهم مع المشركين ومواجهة مواقفهم:

1– (180)، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [أيها المؤمنون] وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف] [2].

2– (181-186)، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) [أي محمّد والذين آمنوا معه، وهم أمة بهذا الوصف الجامع لهم.. وأما الفريق الآخر، أو الأمة الأخرى: قريش بقيادة الملأ] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ

---

1 - أنظر تفسير ابن كثير ،، كما قال تعالى: (.. وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ.. 26}) الأحقاف

وقد وصفهم الله تعالى بالأنعام في سور أخرى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً {44}) الفرقان. (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ {12}) محمد

2 - (وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ) أي، يميلون عن القصد، وهم المشركون عدلوا بأسماء الله عمّا هي عليه فسمُّوا بها أوثانهم وزادوا فيها ونقصوا، واشتقوا اللاَّت من الله والعُزَّى من العزيز ومناة من المنَّان. (الوجيز) - الواحدي. وهو كلام خرج مخرج الأمر بمعنى الوعيد والتهديد، ومعناه: أنْ مَهِّل الذين يلحدون، يا محمد، في أسماء الله إلى أجل هم بالغوه، فسوف يُجزون، إذا جاءهم أجل الله الذي أجلهم إليه، جزاءَ أعمالهم التي كانوا يعملونها قبل ذلك من الكفر بالله، والإلحاد في أسمائه، وتكذيب رسوله. (الطبري)، يعني مثل قوله تعالى: (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً{17}) الطارق.. وانظر أيضاً الآيات التالية: (182-183). وآيات سورة ن والقلم: (فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ{44} وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ{45}).

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [1] (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ [2] إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾ [الأعراف]
قال مقاتل بن سليمان: "{وأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ} يعني: يكون قد دنا هلاكهم ببدرٍ (البطشة الكبرى)، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ} أي: بعد هذا القرآن {يُؤْمِنُونَ} يعني: يُصَدِّقون".

سنة ربّانية جارية وقانون دائم، وورودها هنا إشارة إلى أنهم لا يزالون مصرّين على عدم الإيمان بالحق كما كذّبوا به من قبل.

3- (187-188)، كانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعادا لوقوعها، وتكذيبا بوجودها [3].

الجواب: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾ [الأعراف]،،

---

1 - (ومعناه: وأمهل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون، وأثناء ذلك يفتح الله لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، يعني بعد البأساء والضراء(العذاب الأدنى)، حتى يغترّوا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ{44} فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{45} [الأنعام] ؛ ولهذا قال تعالى: {وأملي لهم} أي: وسأملي لهم، أطوّل لهم ما هم فيه {إن كيدي متين} أي: تدبيري قوي شديد. فلن يفلتوا منه، فهو مدركهم لا محالة) أنظر تفسير (ابن كثير)(الميسر). (وأصل "الاستدراج" اغترارُ المستدرَج بلطف من استدرجه، حيث يرى [يظن] المستدرَج أن المستدرِج محسنٌ إليه، حتى يورّطه مكروهًا) (تفسير الطبري)

2 - اتهم الملأ من كفار قريش رسول الله ﷺ بأنه مجنون، ويحدث هذا - حسب سنن الله تعالى - في وقت متأخر من "المرحلة الأولى" من السير بالرسالة.. وقبيل انزال العذاب بالكافرين.. كما في السور الأخرى التي ورد فيها وصف الكفار لرسول الله إليهم بأنه مجنون، وهي من السور المتعلقة في وقت متأخر من المرحلة الأولى في السير بالرسالة.. فأجواؤها متقاربة. وهي اثنتي عشر سورة: الأعراف(184)، الحجر(6)، المؤمنون(25، 70)، الشعراء(27)، الصافات(36)، الدخان(14)، سبأ(8،46)، الذاريات(39، 52)، الطور(29)، القمر(9)، القلم (2، 52)، التكوير(22). هذا، مع العلم أن السور السابقة جميعها قد ورد فيها وصف المشركين بالمجرمين، ما عدا سورتي الطور والتكوير. أنظر (تبيان سورة القلم).

3 - كما قال تعالى: (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين{38}) الأنبياء، وقال تعالى: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد{18}) الشورى. وقوله: {أيان مرساها} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "منتهاها" أي: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ؟. أنظر (تفسير ابن كثير).

قال مقاتل بن سليمان: "قل لهم، يا محمد: {لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا ولا ضَرًّا}. يقول: لا أقدر على أن أسوق إليها خيرًا، ولا أدفع عنها ضرًا - يعني: سوءًا - حين ينزل بي، فكيف أملك علم الساعة؟! ثم قال: {إلّا ما شاءَ اللَّهُ} فيصيبني ذلك".

(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، أي يؤمنون في أيّ وقتٍ كان، ففيه ترغيبٌ للكَفَرة في إحداث الإيمانِ وتحذيرٌ عن الإصرار على الكفر والطغيان، (تفسير أبو السعود).

4- (189-190)، هو الله ذَلِكَ العظيمُ الشأنِ الذي وحدَه خلقكم جميعاً أيها الناس، من غير أن يكون لغيره مدخلٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوه.. فالمراد ذرية أدم وحواء الذين يشركون بالله تعالى - والمقصود حينها قريش - فينسبون الأولاد إلى غير الله تعالى كالكواكب وإلى الأصنام.. وقد ذُكر آدم وحواء توطئة لما بعدهما من شرك بعض ذريتهما. فهاتين الآيتين سيقتا توبيخاً للمشركين - ومنهم قريش - في جنايتهم، ونقضهم ميثاقهم، في جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه.. ففيهما تمثيل لطبع الإنسان المشرك وكيف انه: إذا نزل به ما يكره، أو أراد الحصول على ما يُحب، التجأ الى الله يتضرّع، ويقطع على نفسه العهود والمواثيق ان يشكر الله ويطيعه اذا حقق له ما يريد.. فكان يقرّ ان بأنه المعطي وحده، فاذا تمّ له ما طلب تولى مُعرِضا ولم يوفِ بالعهود والمواثيق [1].

---

1 -.. كما في قوله تعالى في سورة يونس: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس: 22 و23]. وهذا يتناسب مع قوله تعالى: (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ..{102}) الأعراف (انظر التعليق على الآية في ما سبق).

((وفي سياق مواجهة المشركين يجيء بيان عن طبيعة الشرك وقصة الانحراف عن عهد الفطرة بتوحيد الله، وكيف يقع في النفس هذا الانحراف.. وكأنما هو تصوير لانحراف جيل المشركين بعد أن كان أسلافهم الأولون على دين إبراهيم الحنيف: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها، فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ...».. إنه تمثيل للأجيال المتلاحقة بصورة الحالات المتتابعة في النفس الواحدة.. وهو تصوير ذو دلالات عجيبة في صدقها وفي جمالها جميعا.. ولأن المقصود هو تمثيل حالة المشركين الذين كان هذا القرآن يواجههم فإن السياق ينتقل مباشرة من المثل إلى مخاطبتهم مواجهةً، ويوجّه الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى تحدّيهم هم وآلهتهم: «وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّه عِبادٌ أَمْثالُكُمْ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها؟ أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها؟ قُلِ: ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ. إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّه الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ=> يَنْصُرُونَ. وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا. وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ»..)). (في ظلال القرآن) - سيد قطب

(هذا، وقد ذكر بعض المفسرين هاهنا بعض الروايات والآثار يُفهم منها أن الزوجين هما آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى ذكرها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسيره). (وذكر ابن العربي في أحكام القرآن: (2/ 819، 820) الحديث الذي أخرجه الترمذي ثم قال: « وذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره. وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، ولا يعوّل عليها من له

(191-193)، ثم، الإنكار على المشركين سفاهة عقولهم في شركهم.. ببيان سفاهة عقولهم ومناقضتهم للبراهين الحسية والعقلية، وبيان شدة جهلهم في إصرارهم على التمسك بالباطل بدون دليل.. ذلك، بعد ما أعطاهما ما طلبا جعلا شركاء لله تعالى في عطيته الكريمة، كالأصنام مثلاً.. وتقربا إليها، كأنهما يشكرانها، والله - وحده - هو المستحق للشكر، فتعالى الله وتسامى عن أن يكون له شريك في ذلك الولد الذي انفرد بخلقه.. ليس ذلك فحسب، بل هم أيضاً مصرّون على شركهم وجهلهم: حيث، خاطب الله تعالى المؤمنين فقال: { وإن تدعوهم } يعني: المشركين { إلى الهدى } طاعة الله تعالى واتباع الرسول { لا يتبعوكم } [1].. فهنا تقرير لحقيقة أن الذي جعل التكذيب بآيات الله تعالى موقفاً نهائياً – قريش وأهل الكتاب – لن يؤمنوا مهما سمعوا من الآيات [2].

5- (194-198)، كشف طاغوتهم (وهي هنا: الأصنام) التي يشركونها مع الله - جلّ وعلا عن الشريك - وبيان تمام عجزها.. وأنهم أكمل منها خِلقة وأحسن تقويماً.. ثم الإنكار عليهم لإشراكهم إياها - في تدبير شؤون الخلق وفي العبادة - بالله رب العالمين الخالق العظيم جلّ جلاله، الذي له وحده الخلق والأمر، بلا شريك ولا ممانع (استوى على العرش) (الآية 54).. ومواجهتهم بحقيقة أصنامهم بأنها في منتهى العجز وأنهم بوصفهم بشراً أكثر قوة منها وفاعلية في الوجود، والتحدي الصارخ لهم إمعاناً في إثبات عجز آلهتهم.. فإن استنصرتموهم لا ينصرونكم.. وإن دعوتوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحُصّلون به مقاصدَكم على الإطلاقِ أو في خصوص الكيدِ المعهود.. فهم لا يَسمعون ولا يُبصرون.. هنا وصل القمة في تبكيتهم وبيان مستوى جهلهم.. وذلك عن طريق التحدي العلني الصارخ لتلك الأصنام بل ولهم أيضاً.. يشبه موقف نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما حطّم الأصنام وأبقى كبيرهم [3].

قلب، فإن آدم وحواء وإن كان غَرّهما بالله الغَرور- فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وما كان بعد ذلك ليقبلا له نصحاً ولا يسمعا منه قولاً »). فالتأويل المقبول، هو كما ورد في تحفة الأحوذي: (8/ 465) وعند ابن جرير عن الحسن البصري رحمه الله قال: عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم. فتفسير الآية محمول على جنس الإنسان، ولم يُشرك آدم ولا حواء، وآدم معصوم لأنه نبي. (قال ابن كثير: والأسانيد إلى الحسن، في تفسير هذا، صحيحة، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حُملت عليه الآية. قال: ولو كان الحديث في أنها في آدم وحواء، محفوظاً عنده من رواية رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه وورعه. فهذا يدل على أنه - إن صح - موقوف على الصحابي، لا مرفوع).

نقول: وعليه، فإن المراد من الآيتين هو جنس الذرية الذين أشركوا بالله ونقضوا ميثاقهم وما عاهدوا الله تعالى عليه - والمعنِي حينها مشركي قريش - ويؤيد ذلك الآيات التالية لهما فهي مسوقة لتوبيخ المشركين واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاق وإبطالِه بالكلية، وهو ما يتطابق مع سياق السورة في معالجتها لمناطها. انظر (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) حكمت بشير ياسين. و (محاسن التأويل) للقاسمي. وتفسير ابن كثير. و(الكشاف) للزمخشري. والتفسير الميسر. والمنتَخَب.

1 - أنظر (الوجيز الواحدي).. أما الآية (198) فهي تتكلم عن الأصنام.

2 - أنظر الآيات (146-147) بيان لسنة الله في الهدى والضلال، أنظر الآيات (101-102) (الطبع على القلب)، مثل موقف فرعون وملائه آية (132).

3 - سورة هود، والعلق في قوله تعالى: (فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19}) العلق.

فظاهر الآيات أنها في سياق الكلام عن الأصنام، بينما الآية (193) السابقة، في سياق الكلام عن المشركين، يعني أنهم لا يريدون أن يهتدوا ولا أن يتبعوكم.

6- (199-206)، وبعد تكليف رسول الله - والمؤمنين معه - بالتحدي الصريح السابق، في سياق كشف طاغوتهم.. جاءت هذه الآيات؛ في ختام السورة فيها تكاليف أخرى: حيث يتجه السياق إلى خطاب رسول الله ﷺ كما كان افتتاحها خطابا له - كيف يعامل الناس ؟ كيف يمضي بهذه الدعوة ؟ كيف يستعين على متاعب الطريق ؟ كيف يكظم غضبه وهو يعاني من نفوس الناس وكيدهم ؟ كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن ؟ كيف يذكر ربّه ويبقى موصولا به ؟ كما يذكره مَنْ عنده - سبحانه - في الملأ الأعلى:

(199-202):

- أعرض - أيها النبي - عن الجاهلين، وسر في سبيل الدعوة، وخذ الناس بما يسهل، وأمرهم بكل أمر مستحسن تعرفه العقول وتدركه.
- وإن عَرَض لك من الشيطان وسوسة لصرفك عما أُمرت، كأن تغضب من لجاجتهم بالشر، فاستجر بالله يصرفه عنك، لأنه سميع لكل ما يقع عليم به.
- إن الذين خافوا ربهم، وجعلوا بينهم وبين المعاصي وقاية، إذا طافت بهم وسوسة من الشيطان لصرفهم عما يجب عليهم، تذكروا عداوة الشيطان وكيده، فإذا هم مبصرون الحق فيرجعون [1].
- وإخوان الشياطين من الكفار، تزيدهم الشياطين بالوسوسة ضلالا، ثم هؤلاء الكفار لا يكفون عن ضلالهم بالتبصر [2].

(203) - وإذا لم تأت الكفار بآية مما يطلبون عناداً وكفراً، قالوا: هلا طلبتها ؟ قل لهم: ما أتَّبع إلا القرآن الذى يُوحَى إلى من ربى، وهذا القرآن الذي يوحى إلي بصائر؛ من حجج وبراهين على صدق دعواي وإثبات رسالتي، وصحة ما أدعوكم إليه من الإيمان والطاعة لله وترك الشرك والمعاصي، فهلا آمنتم واتبعتم.. أم الآية الواحدة تؤمنون عليها والآيات الكثيرة لا تؤمنون عليها أين يذهب بعقولكم ؟

(204) - وإذ تُلِيَ عليكم - أيها المؤمنون - القرآن فاصغوا إليه بأسماعكم. لتتدبَّروا مواعظه، وأحسنوا الاستماع لتفوزوا بالرحمة.

---

1 - هو الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه، يعني: استعاذ فأبصر عظمة الله تعالى. وهذه من سمات المتقين، إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر، وعرف أنها معصية فأبصرها ففزع من مخافة الله. اللهم اجعلنا منهم.

2 - أنظر تبيان سور الناس والفلق والإخلاص، لملاحظة الأحوال التي جاءت بمناسبتها هذه الآيات.. وهي متناسبة أيضاً مع مناط هذه السورة (الأعراف) وموضعها في خط السير بالرسالة. انظر (ربط السورة بخط السير).

(205) - واذكر - أيها الرسول - الله ربك متذللًا متواضعًا خائفًا، واجعل دعاءك وسطًا بين رفع الصوت وخفضه في أول النهار وآخره لفضل هذين الوقتين، ولا تكن من الغافلين عن ذكر الله تعالى.

(206) - إن الذين عند ربك من الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل ينقادون لأوامره، ويسبحونه بالليل والنهار، وينزهونه عما لا يليق به، وله وحده - جلّ وعلا - يسجدون.

40 - (سورة الجن)

ربط السورة بخط السير:

بداية، نُـنَـوّه إلى أن هذه السورة تُعتبر من الشواهد الواضحة جداً على أنه حتى نفهم السورة من القرآن الفهم الأقرب إلى مراد الله تعالى، لا بد - بداية - من ربطها بسياقها السُنَنيّ في خط سير رسول الله بالرسالة.. لأن فهمها هكذا في فضاء مفتوح، يُدخلنا في تأويلات لا حصر لها [1].. ونظرة في بعض التفاسير تُشاهَد هذه الحقيقة..

ومن هنا، فهدفنا في هذا "التبيان" هو "الفهم المنهاجيّ" لسوَر القرآن الكريم، من خلال الاقتراب من الأجواء والأحوال والظروف التي نزلت فيها السورة من القرآن، حتى نكون أقدر على استشراف المعاني التي وصلت رسول الله وصحبه الكرام، وفهموها عند تلقيهم تلك السورة في الطور المعيَّن أثناء سيرهم في حمل الرسالة من أجل تحقيق الغاية منها.. ثم لنكون نحن الآن أقدر على الإقتداء بهم، في توظيف السورة من أجل تحقيق الغاية من الرسالة في واقعنا الحالي.

هذا، وتأتي السورة في الطور الثالث من خط السير - بترتيبه السُنَنيّ الذي حصل مع رسول الله - في أجواء البحث عن بديل لقريش، أي في إطار التهيئة للفصل بين المؤمنين والكافرين (الهجرة)، والتي كانت من أشد الأوقات وأعسرها على رسول الله. حيث ((ذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد سفر رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف)) [2]. ومن القرائن في السورة التي تؤيّد ذلك:

---

1 - وسورة الشرح مثلها - انظر (تبيان سورة الشرح).

2 - انظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: ((انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك الذين توجّهوا نحو تِهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2). فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيه ﷺ: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) وإنما أُوحي إليه قول الجن)).

1- ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]، فهم لم يستقيموا فاستحقوا العذاب بالسنين والقحط.. إشارة إلى ما أصاب قريش من جفاف ودخان (العذاب الأدنى)، حسب سنة الله تبارك وتعالى في القرى والمجتمعات، بعد رفضهم دعوة الله تعالى وقد بلغتهم رسالة الله بيّنة واضحة.. كما في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ **أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى** آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف]

﴿ **وَيَاقَوْمِ** اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) **قَالُوا يَاهُودُ** .. (٥٣) ﴾ [هود]

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح]

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ [المائدة]

ومناسبة ذكر هذه السّنة - كما أشرنا - هي ما أصاب قريش من العذاب الأدنى، أي السنين والدّخَان [1].

2- أنهم لن يؤمنوا - رغم ذلك - حتى يروا العذاب الأكبر، وقد قرب نزوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)﴾ [الجن]

"{حَتّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ} من عذاب الآخرة، وما يُوعدون من العذاب في الدنيا، يعني: القتْل ببدر {فَسَيَعْلَمُونَ} يعني: كفار مكة عند نزول العذاب ببدر {مَن أضْعَفُ ناصِرًا} كفار مكة أو المؤمنون، {و} مَن {أقَلُّ عَدَدًا} يعني: جُندًا، أيُقَرِّب الله العذاب أم يُؤخّره"

والمعنى: "ولا يزال الكفار على كفرهم حتّى إذا عاينوا ما كانوا يوعدون به من العذاب، حينئذ سيعلمون عند حلوله بهم - يوم بدر أو يوم القيامة - من أضعف ناصرًا، ومن أقلّ أعوانًا [2]..

إشارة إلى حالة الضعف التي كان عليها رسول الله والذين آمنوا معه..

وفي المقابل فإن قريشاً ومن والاهم قد اجتمعوا وتناصروا وتعاهدوا على معاداة رسول الله والمؤمنين - في إشارة إلى الحصار في الشعب، وما بعد الحصار - وما ذلك إلا لأنهم يَدْعون إلى عبادة الله تعالى وحده:

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا **قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا **أَدْعُو رَبِّي** وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن]

أي؛ "إنّ ذلك من خبر الله الذي أوحى إلى نبيّه ﷺ أنه لَمّا قام نبيُّ الله ﷺ يدعو إلى عبادة الله وحده، تلبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليُطفئوه، وليُبْطِلوا الحق الذي جاءهم به رسول الله، فأبى الله إلا

1 - (أنظر فتح القدير) - الشوكاني، (أحكام القرآن) - القرطبي، (التحرير والتنوير) - ابن عاشور.
2 - أنظر تفسير الجلالين و تفسير الطبري وابن كثير.

أن يَنصره ويُظهره على مَن ناوأه" قاله قتادة، والطبري وكذا ابنُ كثير، فقال: «وهو الأظهر؛ لقوله بعده: {قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا}، أي: قال لهم الرسول لَمّا آذَوه وخالفوه وكذّبوه وتَظاهروا عليه، ليُبطلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عداوته: {إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي} أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، {ولا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}"
أسلوب فيه شيء من التعجب من معاداتهم أو حتى الإنكار عليهم، كأنما يُراد بهذا أن يُقال لهم: إن هذه المقابلة منكم عدوان وبغي، لأنني لا أدعو إلى منكر وإنما أدعو إلى الخير والحق.

3- ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن]،

تقرير حقيقة أن المساجد لله وحده، من باب الإنكار على قريش لصدهم رسول الله والمؤمنين الذين يعبدون الله - ربّ البيت - عن المسجد الحرام، بينما هم يمارسون الشرك بالله في مسجد الله وبيته الحرام !! [1].. وذلك في سياق بيان حقيقة الصراع بين الحق ممثلاً برسول الله ومن تبعه، والباطل ممثلاً بقريش وملئها، في أثناء اتصال رسول الله بالقبائل والبحث عن بديل لقريش.

مناط السورة:

إن الإشارات والتقريرات إلى الحقائق المتنوعة التي وردت في السورة، تأتي لمواجهة الشبهات والمفاهيم المغلوطة التي تثيرها قريش حول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ حول: لا إله إلا الله، فاعبدوه، والمصير (خطاب النذارة). أمّا أن يكون توقيتها في سياق اتصال رسول الله بالقبائل من خارج مكة، فذلك لإزالة التأثير السلبي لتلك الشبهات والمفاهيم االخاطئة من نفوس الناس من خارج مكة المكرمة وعلى مستوى جزيرة العرب. بمعنى كشف زيف دعاية قريش المغرضة في التلبيس على رسول ودعوته إلى عبادة الله، الموجّهة إلى قبائل العرب خارج مكة، وذلك أثناء اجتماعهم في المواسم [2] .

---

1 - كما في قوله تعالى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ{29}) الأعراف.. ({يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..{31})الأعراف (أنظر تبيان سورة الأعراف). ({إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{25}) الحج

2 - ثبتت روايات عدة من السيرة النبوية تؤكّد على أن قريشاً تعمّدوا وصف رسول الله ﷺ بالساحر والكاهن والمجنون.. وأن هذه الأوصاف انتشرت بين قبائل العرب خارج مكة.. وأن المسلمين من أهل مكة=> خرجوا عن دين آبائهم والأعراف السائدة.. وأنهم بسبب ذلك يؤذونهم ويمنعونهم عن الصلاة في المسجد الحرام.. وعلى نفس الأساس قاطعوهم وحاصروهم في شعب بني هاشم..
فلما استعصت قريشٌ على رسول الله دعى عليهم بالسنين، فاصابتهم، فوعدوا رسول الله بالإيمان إن رفعها الله عنهم، فلمّا رفع الله عنهم القحط نكثوا وعدهم.. فلما جعلت قريشٌ الكفرَ موقفاً نهائياً لهم.. أمر الله رسوله في البحث عن بديل لقريش في قبائل العرب خارج مكة، تؤيه وليهاجر إليها.. وفي هذا السياق نزلت الآيات والسور العديدة في بيان محاسن الأخلاق التي يدعو إليها رسول الله وتكشف شبهات قريش حول دعوته، كما في سور الإسراء والأنعام والنحل ولقمان والجن.. كما في الرواية التالية عندما تكلم رسول الله مع مجموعة من ربيعة وكان معه علي ابن أبي طالب وأبو بكر الصديق، حيث قال أحد زعمائهم واسمه مفروق بن عمرو: ((.. لعلّك أخا قريش. فقال أبو بكر **رضي الله عنه**: قد بلغكم أنه رسول

المعالجة:

المقصود بالخطاب في هذه السورة - ابتداءا - هم الملأ الذين كفروا من قريش ومن تبعهم على كفرهم، لكشف شبهاتهم وتلبيسهم على الحق، حيث يأمر الله تعالى رسوله بأن يبلّغهم بما أوحاه الله تعالى إليه.. فجاءت السورة على قسمين، وفي خطاب غير مباشر لهم:

القسم الأول: الآيات (1-15)، خطاب على لسان نفر من الجن؛ حيث أمر الله تعالى رسوله أن يبلّغهم ما قالته جماعة الجن عندما استمعوا وأنصتوا إلى قراءة رسول الله للقرآن، فآمنوا به، فلما رجعوا إلى قومهم قالوا لهم: إنا سمعنا كلامًا مقروءًا مُعْجِبًا في بيانه وفصاحته.. ثم توالت الآيات في ذكر ما ورد على لسان أولئك النفر من الجن.. فجاءت الآيات فيها تبكيت لقريش، وكشف لكثير من معتقداتهم الباطلة في حق الله تعالى، وفي ما يتعلق بعلاقة المشركين العرب بالجن.. وذكرت مجموعة من الحقائق من خلال شهادة الجن أنفسهم والتي تقرر أن القرآن حق من الله تعالى وقد آمنوا به، وأن كل ما جاء فيه حق مبين.. ثم بيان الحق في الكثير من القضايا التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل، منها:

1. إثبات الإلهية لله وحده، وتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى، من الشريك والصاحبة والولد..
2. قدرة الجن ودورهم في هذا الكون، وتكذيب دعوى المشركين في استمداد محمّد ﷺ من الجن شيئا..

الله ألا هو ذا. فقال مفروق: بلغنا أنه يَذْكر ذاك، فإلى ما تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبو بكر رضي الله عنه يظله بثوبه، فقال رسول الله ﷺ:{أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وإلى أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذّبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد }. فقال مفروق بن عمرو: وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{151} وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{152} وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{153}) [الأنعام]. (زاد فيه غيره)، فقال مفروق: وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ؟ قال: فتلا رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{90}) [النحل]. فقال مفروق بن عمرو: دعوت - والله - يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أَفِك قومٌ كذّبوك وظاهروا عليك..)). قال الحافظ في الفتح: 220/7 وعزاه للبيهقي في الدلائل وأبو نعيم في الدلائل وللحاكم بإسناد حسن. وكذلك العسقلاني في المواهب وحسّن إسناده. أنظر تفصيل ذلك في (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي: الباب 2 - الفصل 8 - مبحث 4.

3. إثبات الجزاء في الآخرة، وأن لا أحداً من الخلق يُعجِز الله أو يفلت من يديه ويفوته، فالكل سيلاقي جزاءه العادل..
4. شهادة الجن عن هذا القرآن، وعن الجِدْ الذي يتضمّنه، وانشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا القرآن.. وعلى ما أحدثه من آثار في نسق الكون كله، والسُنن الكونية التي تصاحبه..

القسم الثاني: الآيات (16-28)، على لسان رسول الله، خطاب غير مباشر للملأ الذين كفروا من قريش ومن تبعهم على كفرهم؛ حيث أمر الله تعالى رسوله أن يبلّغهم أنه: كما أوحى الله إليه أنَّه استمع نفر من الجن، أوحى - سبحانه - إليه، كذلك: أنَّه لو استقاموا على طريق الإسلام لله وعبادته، لسقاهم الله ماء كثيرًا، وأمدَّهم بنعم متنوعة.. فلم يُصبهم ما أصابهم من جفاف وسنين ودخان.. وضمير الغائب يعود عليهم – ابتداء – وعلى من هو على شاكلتهم من الإنس والجن أعداء الله ورسوله.. ثم أوردت الآيات مجموعة أخرى من الحقائق التي أوحاها الله تعالى لرسوله:

1. تقرير أن المساجد لله وما بُنــيت إلا لعبادة الله تعالى. تعريضاً بقريش وشِرْكها في المسجد الحرام وصدّهم المسلّمين من أن يعبدوا الله عزّ وجلّ فيه.
2. التهديد الظاهر والملفوف بعذاب الله تعالى لمن بلغه هذا الأمر - رسالة الله إليهم - ثم يعصي. وأن ما هُم فيه من شدة وضيق لا يرفعه عنهم إلا الاستقامة على دين الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]، (إشارة للعذاب الأدنى؛ السنين و القحط و الدّخَان).. والإنكار على الكافرين موقفهم من الإصرار على الكفر ومن عداوة المؤمنين واستضعافهم.
3. بيان حقيقة الرسول ﷺ بأنه عبد الله ورسوله وأن الأمر ليس أمره، وليس له فيه شيء إلا التبليغ، ولا مفر له من هذا التبليغ [1]. وبيان تجرّده ﷺ كذلك من كل دعوى في العلم بالغيب أو في التأثير بحظوظ الناس ومقاديرهم، وإثبات ذلك لله وحده، فهو الإله الحق. ومن هنا، فـ محمد هو رسول من الله تعالى حقاً فيجب أن يتّـبعوا ما جاء به من الهدى والرشد، كما فعل النفر من الجن.
4. تقرير أن الله سبحانه هو وحده يعلم الغيب، فإذا أوحى منه لبعض رسله ليبلغوه للناس، فإنه سبحانه يتكفل بحفظه. فالقرآن حق ووحي من الله عزّ وجلّ، رسالةً من الله إليهم، محفوظ بحفظ الله فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيجب أن يتبعوا ما جاء فيه.

ومما يميز أسلوب هذه السورة، أن ما ورد فيها من حقائق جاء شهادة من الجن أنفسهم وعلى لسانهم بتكذيب قريش ومشركي العرب وغيرهم في معتقداتهم الباطلة في حق الله تعالى، وفي

1 - كما في قوله تعالى: (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{46} فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{47} وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{48}) الحاقة.

الجن وعلاقتهم معهم كعبادتهم والاستعاذة بهم.. فهذا أجدر وأقوى في إقامة الحجة عليهم وفي بطلان تصوراتهم تلك.. وتبكيت لهم..
حتى أن الأداء القرآني لم يفصل بشكل واضح بين الكلام المروي عن الجن وبين كلام الله جلّ وعلا.. وقد اجتهد بعض أهل التفسير في الفصل بينهما.. إلا أن عدم وضوح الفصل فيه إشارة إلى أن ما جاء في هذه السورة كله من الحق وإن كان منسوباً للجن، وكأن الله تبارك وتعالى يقرّ الجن على قولهم.. كما في قوله تعالى:
﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]، وما بعدها..

بالنسبة لرسول الله والذين آمنوا معه:

1- ((إن الإشارات والتقريرات التي جاءت في السورة، تحتوي هدفاً إيجابياً بالنسبة للنبي ﷺ والمسلمين، من جهة، والكفار من الجهة الأخرى. فمن الجهة الأولى فيها تسلية للمؤمنين بأن الملائكة وبعض طوائف الجنّ يقفون وإياهم في موقف واحد من الإيمان بالله ورسالته والإخلاص له وإدراك حقيقة ربوبيته وشمولها ووحدتها والسير في طريق الحق والسداد. ومن الجهة الثانية فيها ترغيب وترهيب للكفار حيث تقصّ عليهم هذه القصص ليكون لهم عبرة ومزدجر، وليقتدوا بهذين الخَلْقين العظيمين اللذين يُشغلان في نفوسهم ومعتقداتهم ذلك الحيز الكبير)) [1].

2- ((ولقد أوحى الله إلى النبي بهذا ليطمئن خاطره، وتستمر نفسه كما هي قوية شديدة في دعوتها، فإن أعرض عنها المشركون، فها هم أولاء الجن يؤمنون ويدعون غيرهم للإيمان بها. نزلت هذه الآية بالإجمال في سورة الأحقاف، في قوله تعالى:
﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) ﴾ [الأحقاف: 29-32]

ومرة بالتفصيل في سورة الجن، نزلت فيما نزلت تبكيتاً لقريش والعرب، حيث تباطأوا عن الإيمان وكانت الجن أسرع منهم في قبول الدعوة، مع أنهم من غير جنس البشر، أما القرشيون والعرب فقد كذّبوا حسداً من عند أنفسهم، وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)) [2].

---

1 - أنظر (التفسير الحديث) - محمد دوزة

2 - (التفسير الواضح) - محمد محمود حجازي

هذا والله تعالى أعلم، وأجلّ وأحكم..

" والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه..

شافياً من كل داء..

هادياً إلى كل خير "..

وهذا ما يسّره الله تعالى..

وأما باقي السوَر فتبيانها يحتاج إلى مراجعة وإعادة تدقيق..

ونسأل الله تبارك و تعالى أن ييسّر أمر إخراجها..

ونسأله، سبحانه، الهدى والسداد والرشاد.

قائمة بأهم المراجع

- القرآن الكريم
- كتب السنة الشريفة

ملاحظة مهمة :

غير كتاب الله وسنة رسوله، ليس هنالك مرجعاً محدداً لما قدمناه في هذا الجزء، بل كانت عملية مسح ومراجعة واسعة لكتب التفسير، وأسباب النزول، والمفردات، وقواميس اللغة.. وغيرها، لإنتقاء أطايب الكلمات والجُمَل والتعابير.. ووضْعها بين يدي القارئ الكريم. وكان

ذلك في الأعم الأغلب، ليس بنصها وإنما بتصرّف فيها، وقد يكون يسيراً أو غير يسير.. فالمقصود أن تصبح الجملة معبرة عمّا ترجّح عندنا من معاني وأفكار نريد إيصالها. لذلك، في كثير من الأحيان لم نُشر إلى مرجع محدد لتعسّر ذلك الأمر علينا..

ومن هنا، فالمعاني والأفكار التي اعتمدناها وأوردناها فهي إما استقيناها من ذلك المورد العذب، وقطفناها من تلك الحدائق الغنّاء.. أو مما فتح الله به علينا من فَهْم..

والحمد لله أولاً وآخراً..

والمصدران الرئيسان لتلك المراجع هما:

- " المكتبة الشاملة " الإلكترونية.

- موقع موسوعات: "الدّرر السنيّة" على الشبكة.

الفهرس